

الألف
كتاب
الكتاب
١٤٠

فرانك تيرنر
سيتشن أوزمنت

التاريخ من بشتي جوانبرا

ترجمة: د. أحمد حمدي محمود



الجزء الثاني





mohamed khatab



mohamed khatab

النارنج من شتى جوانبه

مجموعة مقالات

إعداد
سيتشن أوزمنت
فرانك ستيرنر
ترجمة
د. أحمد حمدي محمود

الجزء الثاني



منه منبه منبه

١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

THE MANY SIDES OF HISTORY

By : STEVEN OZMENT / FRANK M. TURNER

الفهرس

| الموضوع | صفحة |
|---|------|
| تقديم | ٧ |
| رابعاً | |
| القرن للمصايح عشر | ١٩ |
| لتدلاخ الحرب الاملية الانجليزية | ٢٣ |
| الحكم الفردي للويس الحادى عشر | ٤١ |
| العلمى الاجتماعى للميثوتينية | ٦١ |
| خامساً | |
| القرن الثامن عشر | ٧٩ |
| تمرد للقرزاق وحرب الفلاحين فى روسيا | ٨٣ |
| للوث كومبيلة للمردع : الاعدام العلنى فى فرنسا | ١١١ |
| ومائل للتسويق فى للموق للمولية | ١٢٥ |
| حروب الموسوعة فى فرنسا ما قبل الثورة | ١٦١ |
| للمستور الذى لرجال الدين فى الثورة الفرنسية | ١٨٧ |
| لصل الاتجاه الحافظ فى ألمانيا | ٢١١ |
| سادساً | |
| القرن للتاسع عشر | ٢٢٣ |
| للعالم الرومانتيكى | ٢٢٥ |
| للزاة عدلها واسرتها فى أوربا القرن التاسع عشر | ٢٥٧ |
| الحسى - الحسى | ٢٨٥ |

تعويض

يعني التعويض لبحث العالم المعاصر - تاريخيا - مواجهة عالم فكري جم التعقيد ، لم يكشف أكثره الا منذ ثلاثين سنة او يزيد ، ولا يتجاوز ما تم الكشف عنه التزدد اليسر ، فلم يسبق قبل ذلك ان اعتبرت الحدود التي يتوقف عندها البحث التاريخي والكتابة التاريخية هي الحدود يفرضها حب الاستطلاع عند المؤرخ ، ومجالات أنشطة البشر ، ولقد كانت نواحي التجربة الانسانية التي يستقصيها المؤرخون الآن للمرة الأولى موجودة على الدوام ، مثلما كانت الطبيعة الفيزيائية التي يدرسها العلماء الآن لأول مرة ، موجودة أيضا . غير انه في كلا المجالين ، ساعدت الاهتمامات المعاصرة الجديدة والتقنيات الجديدة والخيالات للمنطقة على الاهتمام على كشف وتفسيرات تتطلب الكثير من الطاقة في إعادة النظر في فهم للماضي ، ولقد تولدت من المعرفة الجديدة والنتائج الجديدة مواضع مستطعة أوسع وأبعد في التاريخ ، مثلما حدث في العلم .

وبوسعنا ان نقارن التغيرات الحديثة العهد في الدراسات التاريخية ، بما يجري عند التخطيط لإنشاء شبكة من الطرق العلوية . فلفظ أدت الاحتياجات الاقتصادية التي أدركت حديثا ، والرغبة في توفير فرص عمل ، وارتفاع الأجهزة والمعدات التكنولوجية - أحيانا - الى تيسير إنشاء الطرق العلوية . وبمجرد الانتهاء من إنشاء الطريق العلوى ، تظهر امكانيات القيمة مشروعات عملية جديدة ، او اقامة مجتمعات جديدة، وسيؤكد حب الاستطلاع عند المسافرين على ما تحققه هذه الطرق العلوية من نفع ، ويحدث تفاعل بين المسافرين على اختلاف أهدافهم ، وبين القائمين بالإدارة الذين ينظمون ويديرون خدمات أسفارهم . كما يحدث تفاعل بين هؤلاء الناس وبين أهل القيمة التي أنشئ فيها الطريق العلوى . وما كان هذا التفاعل يحدث قبل إنشاء هذا المشروع . وغنما يوقب العمال والسياح الطريق العلوى الجديد فانهم يواجهون مشاهد ومناظر - وأحيانا عادات وتقاليد - لم يسبق

تفرغهم عليها من قبل - وربما بات بإمكانهم أيضا إنشاء مجتمعات جديدة ،
 وينتهي بهم التكلف الى ادراك وجوب أحداث تكامل بين كل ما استطعت
 من تجارب ومجتمعات والفكر ، وبين العالم الذي عرفوه قبل وجود الطريق
 العلوى - ولابد ان يقوم الأشخاص الذين لم يسافروا على الطريق بدورهم
 بتحقيق تكامل بين تجاربهم وبين المعارف المستخلصة من المسافرين
 العائدين - وسيكتشف من استمروا يعيشون في مجتمعاتهم الأصلية ان حياتهم
 الاجتماعية والاقتصادية قد ازدادت ارتباطا وقيما - بالضرورة - بالمجتمعات
 المنشأة حديثا على جانبي الطريق العلوى ، وأيضا بمن يعيشون عند طرفه
 الأسفل - وبعد انتاج طرق علوية جديدة في البحث ، أصبح المؤرخون
 للتحرقون يمثلون جمعا هائلا من الباحثين الساعين لأحداث تكامل بين
 المعرفة القديمة والمعرفة بمعناها الجديد .

وحتى قرابة خمسينات القرن العشرين ، تركزت الاهتمامات الأولية
 للمؤرخين الأوروبيين على الاهتمامات المتصلة بإنشاء الدولة ، والعلاقات
 الدبلوماسية ، والمؤسسات الدينية ، ودور العقلاء في الماضي ، وليس من
 شك في وجود بعض الاستثناء لهذا الاطار العام للكتابة التاريخية - فلقد
 ظهرت بعض كتب ومقالات مرموقة عن الحياة الاقتصادية والعمال والأطفال
 والنساء ، ولكن عندها كان ضئيلا نسبيا ، إذ غلب على انتباه المؤرخين
 الاهتمام بالدبلوماسية والسياسة العامة ، والنزاعات الطائفية داخل الكنيسة
 والخلافات السياسية ، ومن الناحية الجغرافية ، تركزت اغلب الأحداث
 التي رواها المؤرخون وحللوها في عواصم البلدان موضع الدراسة - وتحدث
 المؤرخون عن ما دار في ذهن أهل الصلوة من مفكرى هذه العواصم ،
 وفضلا عن ذلك ، فلقد كتب المؤرخون متأثرين بسياق يتمحور حول أوروبا ،
 أو من منظور على - ولم تهبط الشعوب غير الأوروبية في أفضل الأحوال
 بما هو أكثر من الانتباه الهامشي ، فلقد اعتقد المؤرخون - بوجه عام - أن
 الحضارات الأخرى اقل اثارة للاهتمام ، وأقل أهمية وليمة من الحضارة
 الأوروبية .

إن مثل هذه النظرة التاريخية ، ومثل هذه الاهتمامات المركزة على
 جوانب بالذات ، هي ذاتها نتاج لطبيعة معينة من التاريخ الأوروبي - فإبان
 الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ، و ١٩٤٥ ، تمتعت الأمم الأوروبية بالسيادة على
 العالم بدرجة تفوق ما تمتعت به من سيادة طيلة العهود الماضية ، وأحدثت
 القوى الأوروبية المظمى تأثيرا عارضا في النواحي العسكرية والسياسية
 والاقتصادية في شتى أنحاء المعمورة - ولقد ساعد على منح الغلبة لأوروبا

ما حدث من تقدم في الاقتصاديات الصناعية وظهور دول قوية تركز التلويح السياسي في يديها بفضل جيشها الضخم واساطيلها الهائلة • والعنق أن من واجبتنا أن نعترف بأن الدولة - الأمة (*) المستندة إلى الاقتصاد صناعي وقوة عسكرية عاتية هي القوى نظام استطاع البشر خلقه ، بنفس النظر عن آثاره الحميدة أو المردولة • ولقد استهوى سلطان هذه « الدول - الأمم » والعالماء المؤرخين مؤيلا ، وسيطر على انتباههم بالضرورة • وبتقود ارجاع تدهور غلبة التاريخ السياسي إلى شعور المؤرخين بالإحباط - وبخاصة في فرنسا - إبان عشرينات القرن العشرين ، من مسلك حكوماتهم للمثلة لأمتهم •

غير أن للعلاقة بين البحوث التاريخية وبزوغ « الدول - الأمم » بعدا أساسيا آخر • ففي القرن التاسع عشر ، كان هناك تلازم بين كتابة التاريخ وإيقاظ الوعي التاريخي ، إذ ساعد التاريخ على وضع حجر أساس الإيمان بالحياة القومية للمدنية • وكان من بين العوامل الأساسية في انشد الدولة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وضع برامج للتعليم تشدد على التطور التاريخي للأمم ، وتشيد بالشخصيات القومية المرموقة - وبخاصة من المذكور - باعتبار شخصيات مثل جان دارك والملكة اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا في القرن السادس عشر من الاستثنائات الكبرى - والتي بمقدور من يحيون في شتى الأنحاء الشعور بإمكان تقمص شخصياتهم • وإبان القرن التاسع عشر ، ألف مؤرخون عديرون من أمثال ماكولي في إنجلترا ، وجيزو في فرنسا وترايتشك في ألمانيا كتباً تاريخية من جملة أجزاء تهدف إلى توطيد الاعتزاز باللفي العريق والإيمان بأنواع ذات طابع خاص من التقاليد والأنظمة القومية السياسية • واعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الكتابة التاريخية سيغيد شعوبهم ، واستمر هذا التقليد سائما في القرن العشرين ، عندما ازدهرت النزعة القومية في أوروبا ، واشتعلت نار المنافسة بين الدول - الأمم قبل الحرب العالمية الأولى ، وبسببها •

واجتذبت أحداث القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين انتباه المؤرخين ودفعتهم إلى الاهتمام بالوضعيات السياسية وموضوعات « الدولة - الأمة » • فبدأ (بالثورة الفرنسية) عبر الحرب العالمية الثانية ، نشب اضطراب سياسي في جميع الأمم الأوروبية ، وجاء في أعقاب الثورة الفرنسية ذاتها نابليون وثورات ١٨٣٠ وثورات ١٨٤٨ ، كما

ظهرت الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية ، كما حدثت قتال بين أصحاب النزعات القومية في الإمبراطورية النمساوية المجرية وظهرت الأحزاب الاشتراكية الكبرى ، وانكسرت الثورة في روسيا ، ونشأت « دول - أمم » في شرق أوروبا ، وولدت الحركة النازية في ألمانيا ، والحركة النازية في ألمانيا . وبعد هذه القتال والثورات السياسية من بين أكثر الأحداث المارة للاهتمام في تلك الأيام ، بعد أن تركت آثارها على أرواح عشرات الملايين من الأوروبيين . فلا عجب إذا اهتم المؤرخون بالكتابة عنها وعن مسبباتها ، بل وولفت في بلاد مستقرة نسبيا كبريطانيا العظمى على اهتمام المؤرخين السياسيين ، ممن سعوا لتتبع أسباب الاستقرار السياسي في هذه البلدان .

وساعدت حروب أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين على منح الصدارة في البحث التاريخي للمشكلات السياسية والديبلوماسية . فلقد اشتبكت دول أوروبا في عدة حروب كحرب القرم التي بدأت ١٨٥٤ ، والحرب العالمية الثانية ، في صراعات دموية عنيفة ، تواصلت هي وعلاقتها السلطوية النسبية في الفترة الأوروبية . واشتبكت هذه الدول أيضا في صراعات استعمارية شتى في مختلف أنحاء العالم ، وبذلك نقلت خلافاتها وصراعاتها إلى ما وراء البحار ، وانشأت إمبراطوريات استعمارية ، وولفت الحرب واحتمالات شن الحروب على جانب كبير من الحياة العامة ، وللتناقضات العامة ، وتسببت الحروب التي نشبت - خصوصا الحربان العالميتان في القرن العشرين - في فقدان عدد مهول من الأرواح . وتلعب قدر كبير من الممتلكات . فلا عجب أيضا ، إذا ولقت العلاقات بين القوى الكبرى على الكتابة التاريخية .

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية ، تدخلت جملة عوامل ، دفعت المؤرخين إلى التمرد على ما أصبح يسمى حينئذ بالكتابة التاريخية التقليدية ، بعد أن نعمت أوروبا بالسلام زهاء أربعين سنة أو يزيد . فلقد صمم الساسة الأوروبيون إبان هذه العقبة على العيولة دون تكرار حالات عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي أدت إلى نشوء الحركات السياسية السلطوية بين الحربين العالميتين ، وإلى نشوب الحرب في آخر الأمر ، وترتب على ذلك احتلال الوسائل الاجتماعية في الدراسات والتناقضات العامة، حيزا أكبر من الحيز المخصص للعوامل السياسية . وأدى هذا الاستقرار الذي جده في أعقاب الحرب وتحول الاهتمام إلى الجوانب الداخلية ، والمصالح العامة مهمة تدفع الاهتمام الاجتماعية ، إلى زيادة الاهتمام

• التطوير بالوسائل التي ساعدت على تطبيق الاستقراء الاجتماعي والسياسي .
وجاء بوضوح موضوع المجتمع ينحس في الصدارة في التحليل التاريخي .
• موضوع الدولة .

وساعد ما يقارب خمسين سنة من السلام الأوروبي على جعل مشكلات العلاقات الدبلوماسية بين الدول الأوروبية تحتفظ مظهرها الأقل الطاحنا نوعا .
فقد انحصرت الفترة الأوروبية الآن (١٩٨٧ -) ولا يخفى أن الموقف تغير (لكن تغيرا شكليا) بين قوتين تتمتعان بالحد الأقصى من القوة (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) ، وأدت نهاية الامبراطوريات فيما وراء البحار ، وعلمية تصفية الاستعمار إلى كآفة مساحة الخطة التي تنور فيها المنافسة بين الأمم الأوروبية . ولم يترك هذا التحول في موضوع قوى الدول الأوروبية عن انتهاء التاريخ الدبلوماسي ، ولكن الأصح هو القول بتزوع هذه الكتابات إلى اتباغ روح أكثر تركيزا على الناحية العملية ، وتساؤل ليل للنظر للأحداث على أنها انعكاس لسياسة خارجية ترمي إلى هدف قومي ما .

وبوجه عام ، لم تختلف للثقافات التاريخية التي تبحث بالطريقة التقليدية ، كما أن جميع للثقافات والطبقات الفكرية الرئيسية التي تناولتها هذه الكتابات لم تهت إلى خلوص حقبة ، وإن كان بعض المؤرخين هذه الأيام قد يؤثرون استبعاد هذه المسائل الخلافية ، وكان هذا هو محل الأمل . وبدا من ذلك زائنا ظهور اهتمامات جديدة في عشرات السنوات الأخيرة تحت الصندرة في نظر المؤرخين ، وزودتهم بوسائل جديدة تمكنهم من متابعة هذه الاهتمامات ، ونجم عن ذلك ازدهار موضوعات تاريخية شتى ، انضمت إلى موضوعات البحث الآن ، وساعدت العلوم الاجتماعية بنصيب كبير في المناهج الجديدة - كالتحليل الكمي والأنماط الاقتصادية وسوسيولوجية المعرفة وعلم النفس والتحليل النفسي ، وتفسيرات أنثروبولوجية شتى * وتيسر هذه المناهج الاستقصائية والتحليلية للمؤرخ الاستفادة بالوثائق بعد أن انطقت طويلا دون رجوع إليها . وتضم هذه الوثائق شهادات التمسك والوفاء ، والكتوفات الحسابة للأدافى المزروعة وتقارير ومعاشر الشرطة وشهادات الأطباء والمسؤولين عن الصحة العامة وسجلات الضرائب . وبالإضافة إلى ذلك ، فلقد ساعدت نظريات العلوم الاجتماعية على تقديم العون للمؤرخين لمطوقة قديم تفسيرات عامة لأنماط من السلوك الاجتماعي بحث يوما ما مجرد غرائب في نظر من عاشوا بعد ذلك بالبعد من الزرور : وساعد هذا الاتجاه - بوجه خاص - على فتح ثلاثة ملة على عالم الغيب والغموض التسمية ، ولخصها وتحليلها تاريخيا ،

تبعا لذلك • وبعد أن زاد عدد وسائل التحليل التاريخي ، اتبعت الفرص -
للمؤرخين للانتقال إلى مجالات جديدة من البحث • بيد أنه ينبغي التنبيه
إلى وجوب الحرص على عدم تفوق هذه الوسائل والطرائق وطغيانها على
مقيلة الأشخاص الذين يستغلونها ، فالأهم من مدمج «جديدة» هو حيا
الاستطلاع الذي يدفع المؤرخين إلى توجيه أسئلة جديدة ، ومبرر غور
التجربة الإنسانية التي سبق انظافها •

وأهم تغير ملحوظ حدث في عالم البحث التاريخي الكندي القريب
المهد هو ظهور « التاريخ الاجتماعي » • ورغم هذا التصطح - الذي يبدو
مبهوشا نوعا - مجموعة متنوعة واسعة من الاهتمامات والموضوعات التاريخية •
ويركز هذا العلم الجديد الانتباه التاريخي على نوعيات البشر التي لم يلتفت
إليها المؤرخون كثيرا ، أو انظفوها انظفا كاملا ، انهم طوائف البشر الذين
نادرا ما اشتركوا - أو لم يشتركوا قط - في بنين السلطة الاجتماعية
والسياسية ، خصوصا الملاحون وعمال الصناعة والنسك والأطفال • فقد
اصبحوا الآن يلقون ما هم جديرون به من عناية التاريخ • ولم يعد ينظر
إليهم كمجرد مادة سلبية تضجع لرادتها لقوى سياسية واجتماعية اعنى •
وبدا من ذلك ، يعترف بأنها قد شاركت بدور فعال في صنع التاريخ ،
فانيا - فقد اتخذت عناية المؤرخين الاجتماعيين - الذين كثيرا ما يستعينون
بالأنثروبولوجيا - بالأنماط الاجتماعية والتجارب الاقتصادية للحياة اليومية
لهذه النوعية من البشر • وتبرز في صفحات التاريخ الاجتماعي البينات
الخاصة بالإسكان والعلاقات الجنسية والأدوار الاجتماعية التي تستند إلى
نوع الجنس والحياة الأسرية ورعاية الأطفال ، وطقوس الموت وتدبير الغناء
والموت واستخراج الكوارد الطبيعية ، واستغلالها ، والتنظيمات الاقتصادية
المحلية • ويحتل هذا النوع من الوقائع حيزا أكبر في التاريخ الاجتماعي •
وأخيرا فبينما كان يفتشرون في الصراعات الاجتماعية والسياسية في الماضي
يحتلون الصدارة في اهتمام المؤرخين ، فانا نرى المؤرخين الاجتماعيين لصيل
إلى الاهتمام بالتجارب والظواهر التاريخية التي وصلها إدوارد هومسون (١)
- وهو من أبلغ من عبروا عن رسالة التاريخ الاجتماعي ، « بأنها تماثل
الطرائق المملوكة والقضايا الغامضة ، بل والخاسرين أنفسهم » • وفي
هذا المقام ، لقد كره المؤرخون الاجتماعيون محاولة الإصلاح - تاريخيا -

عن أولئك الذين لم يكن هناك صوت ينطق باسمهم ، من لا تعرف لهم
اسم ، من أبناء الماضي . وحولوا أيضا الحكم التاريخي لذلك الشر من
الأشخاص الذين ألفوا أنفسهم في عبود مظلمة مغلوين على فخرهم من
أثر التحولات الاجتماعية والسياسية . إن هذه الطائفة الأخوية لتاريخ
الاجتماعي لها أثر كبير في جاذبية هذا النوع من التاريخ .

وشاما اتجه التاريخ الأبعد إلى التركيز على السياسة والدبلوماسية
والصفوة من الذكور ، فإن التاريخ الاجتماعي هو في ذاته - في أغلب
الغالب - من النتيجة التي لا مفر منها للأحوال التاريخية الراهنة . فبعد
١٩٤٥ ، وفي شتى أنحاء العالم الغربي ، حظت الطبقات بضمود من ملايين
الطلبة الذين انصهروا ديمقراطيا من تلك الجماعات الاجتماعية بالذات ،
التي كانت تستبعد فيما مضى من عالم سياسة وحضارة الصفوة ، وبمرور
الزمن ، وأينا هؤلاء الطلبة يتسألون عن التجربة التاريخية لأشخاص من
الغالبية يتماثلون معهم ، ومن أمثال من يرتقون فوق ظهورهم . فقبل أن
يسمح لأبناء العمال بالانخراط في الجامعة زواجات ووحدا ، لم يكن هناك
غير قلائل يرغبون في معرفة تاريخ الطبقة العاملة . ثم رأينا أناسا في
ستينات القرن العشرين ممن كانوا لا يرون أية حاجة إلى التوافق وسياسة
وحضارة صفوة الأسس في أي عصر ديمقراطي حتى يشرعوا في متابعة
دراسة تاريخ اللاصفوة ، ورأيانهم يتعهدون بينهم وبين أنفسهم في حالات
كثيرة بأنفسهم جبل جديد من الباحثين المهتمين بمسائل بعيدة الاختلاف عن
المسائل التي كانت تهم أسلافهم .

وبعكس الكشف الهام عن التاريخ القريب العهد للنساء - بالمثل -
التغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية والسياسية في العقود الثلاثة
الماضية . إذ لا يقتصر الأمر على طوفان زيادة في النساء اللاتي تلقين
تعليمًا أعلى . ولكن لعل الأهم من ذلك هو ما حدث من تقدم في الحركة
النسوية من استحداث على العناية المستحدثة بمستحضرات التجارب الأوسع
للنساء ، وفيها . ويتطلب البحث في هذه التجربة بالضرورة ابتعادا ممتدة
في مشكلات الزواج والحياة الأسرية ورعاية الأطفال والاقتصاديات الأسرية ،
وتجربة العمل عند النساء ، وأيضا النماذج الأبعد لمشركة النساء في الحياة
السياسية .

غير أنه ربما كان من الخطأ الثلاثة في التشديد على التنويه بعدم
وجود لا تواصل بين البحث التاريخي في الماضي والبحث التاريخي في

الخطير . إذ يحول اليوم مؤرخون كثيرون - وإن كان هذا الرأي لا ينطبق عليهم جميعا - تحقيق دعي تاريخي لأناس يلقن أنهم يعيشون في مجتمع طيفي ، بينما كان المؤرخون في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين يحاولون التزويد بأحساس بالوعي السياسي القومي لأناس يدركون أنهم يعيشون في دول ذات نزعات قومية . أجل لابد من الاعتراف بأن انتفاخ المؤرخين - في ثقافي والخطير على السواء - يعكس الوسط الاجتماعي والسياسي للمعاصر . فليس المؤرخون في جميع مجالات التخصص أقل من نظرائهم في الماضي ، في ناحية الاهتمام بمشكلات السلطة ، سواء قهروا في سياق « الدولة - الأمة » ، واتحاد الشمال والقرية أو الأسرة . وإلى جانب ذلك ، فكما لبطل التاريخ السياسي والأدبيولوجي للصناعة في عصر سادته مثل هذه المسائل ، حدث شيء مماثل في التاريخ الاجتماعي الذي انتفخ الصناعة عندما سادت العصر للصراعات الاجتماعية والدولة للوئمة بتحقيق الرفاهية لأبنائها .

فهل تعني جميع هذه التغيرات ، وارتفاع شأن التاريخ الاجتماعي ، احتياج أحد سبيل النظر إلى الماضي ، ويزوغ وسيلة أخرى تنها لا تخطئ الصناعة ؟ لن الإجابة عن هذا السؤال بالسلب ، وإن انصفت هذه الإجابة بالحدز والحسم بما . ولينا نرجع ثانية إلى تشبيه الطرق العليا ، فلقد فتحت عملية انراء حب الاستطلاع ، والاعتراف بأحقية الاستماعة بمناهج جديدة ، وإدراك وجود مشكلات جديدة في عشرات السنين الأخيرة من البحث التاريخي أبوابا جديدة ، ولكنها لم توصل أبوابا أخرى . ومن لم رأينا المديين من المسافرين والعاملين على الطرق العلوية الجديدة يمدون حاملين تقارير عن مشاهدات لم يكشف القلق عنها من قبل ، وعن الفرص الفكرية المهيمة التي صادفوها في التنقبات ، بل لقد قام بعضهم بتوطيد ما قلعت به للخصومات المبكرة من عمليات ريادة . ويمكس المطراجم ما في هذه التجربة من حلاقة ، وهدى التزليم الشخصي بما يقومون به ، ولكن الزمان كليل بأحداث التكفلي بين القديم والحديث . وغالبا عندما ينتج طريق علوى ، فإن حركة المرور تبتعد عن الطريق السابق توطئه ، ولكن حركة المرور سرعان ما تعود الرجوع إلى الطريق القديم ، بعد أن يزداد ازدحام الطريق الحديث ، أو تصبح للمشاهد القديمة غير مالوفة ، وتجتلب متفرجين جبدا .

وثمة أربعة عوامل دينامية تتخلل المجتمع التاريخي ، وتؤثر استمرار التعددية : أولاً - بعض مشكلات أساسية ، كانت موضع عنونة التاريخ التقليدي كمسألة بزوغ الدولة للطلقة ، واندلاع الحرب الأهلية في الجزائر ، أو بدء الحرب العالمية الثانية . وتستحدث أفعال هذه الأحداث ، بحكم شدة أهميتها ، وتطرحها ، على استمرار البحث فيها . ويجري في كل مشكلة من هذه المشكلات ، وفي العديد غيرها من ميادين البحث التقليدية عمل هام وحيوي . ثانياً - لقد غدا الفهم الجديد للقوى الاجتماعية والتاريخ المحلي والحيمة للمادية ، قوى دافعة لاعادة بحث المشكلات التاريخية المعترف بها منذ أمد بعيد كالامبريالية واندلاع الثورة الروسية وظهور النازية . كلتا - في نطاق حرفة كتابة التاريخ ، كما هو الحال في أي مجال آخر من الحياة الإنسانية ، يحدث تراجع في النظر إلى عوالم الأحداث - فقد يؤدي الاهتمام بقضايا جديدة في تاريخ اليوم إلى تقليص البحث في مجالات كان لها الصداقة في زوايا سابق . ويمرود الأيام مستعرضا المجالات الجديدة كالأدق من وفاة الأكياد التي تصعب البحث فيها ، ويكتشف ما في بعض قضاياها من تفاصيل . كما حدث مسألة في حالة التاريخ الجغرافي . ويستلزم للمجالات الأقدم للبحث على أنها من المجالات المهمة التي تستاهل مشكلاتها الجديدة التي عازلت بلا حل فكرة فضول مؤرخي المستقبل . وبغلا من ذلك ، فإن الخلافات والمجادلات التي تنبعها الأنواع الجديدة من البحث التاريخي ، ستؤدي إلى ظهور أنواع جديدة من سبل سيرغور للمضى ، وأخيرا فالظاهر أن المؤرخين عندما يبحثون للمضى يتجاوزون هم والاهتمامات المعاصرة ، فعندما تحدث تحولات في الاهتمامات المعاصرة - وهذا امر لا مناص من وقوعه - مناسر اتباعنا مجالات جديدة من البحث التاريخي . وثمة شيء واحد يبدو مؤكدا : فكما أن الدراسات التاريخية الماضية والحاضرة ليست مودعة في خزانة حرجية مغلقة ، كذلك الحال فيها سينظر من دراسات معاملة مستقبلا .

إن العديد من الأبحاث التالية ستعود القارى بطريقة مباشرة إلى المجال الجديد للتاريخ الاجتماعي ، وستصور له المجال الواسع للتنوع الذي غنى يبعثه للأورغون الاجتماعيون . وفي بعض الحالات ، تولد للأورغون فحصى فئات أو جماعات طالما تجوهلت ، أو نظر إليها على أنها تقوم بدور سالب ، أو بدور التلقي ، بدلا من قيامها بدور المرسل الفعال في التاريخ . ومن هنا سنرى مثلا إيزابيل مارتينجا وهي تصعد لنا رواية أحداث أكبر اتلغاسة قروية في تاريخ روميا ، وتحدث عن الضيق بالتغيرات التي طرأت على الحقوق التقليدية للفلاحين ، ومينوري جوان سيكوت ولوزا

تبادل وهما تضمنان كيف حاولت الفتنات الثلاث انتزاع من الريف إلى المدن في القرن التاسع عشر استبداد العائلات الفردية ، في البيئة الفدنية الحديثة . أما تسويوشي جازييلوا ، فإنه سيلخص التغيرات التي طرأت على البيئة الاقتصادية والاجتماعية للقوة العاملة في بروجراد إبان الحرب ، مما ساعد على تحفيز العمال لاحتلات تغير قوى أثناء الحرب العالمية الأولى .

وفي المقالات الأخرى ، يلاحظ اكتشاف المؤرخين الاجتماعيين لأبعاد اجتماعية لم يلاحظها أحد من قبل ، أو لم أحدا لم يعرفها ما تستحق من تقدير . وتشير مارجريت جاكوب إلى الدروس الاجتماعية التي استخلصها علماء لاهوت أنجليز معينون في مشاير القرن الثامن عشر من العلم عند نيوتن . ويصور ميكائيل كندي التفاعل بين الحكومة الفرنسية الثورية في باريس والأندية البطوكية المحلية ، فيما يتعلق بالتحولات في السياسة الدينية للثورة . ويربط ريتشارد هيلتون بين تجديد الأعضاء الأول للحزب الثاني وبين التجارب الاجتماعية للجنود الألمان للنهزمين في الحرب العالمية الأولى . وفي كل مقال من هذه المقالات ، يساعد تقدير دور العوامل الاجتماعية على فهمنا كيفية تغير الأفكار العلمية ، وكيفية تكون السياسة الحكومية أو حركة الحركة السياسية .

وأخيرا يسمح لنا الجهاد المؤرخين الاجتماعيين بفهم أي مسلك بدأ سائلا غربيا وشائعا ، أو ربما فلسفيا ووحشيا . وفي هذا المقام ، يحلل جون ماكمانرز المسود الاجتماعي لثوحنسية في عمليات الاعظام العلمي في فرنسا القرن الثامن عشر ، ويساعدنا مؤرخون اجتماعيون آخرون على الإحساس بما كانت عليه الأوضاع العلمية آنذا . ويعرض أنطوني وول المتطارد والمطاول التي واجهتها جميع الطبقات والفئات في القرن التاسع عشر من أمراض الأمراض التي لم تكن طريقة علاجها معروفة حينذاك .

ولم يقلل التشديد الجديد على دور المجتمع من الحاجة إلى فهم ماهية الأفكار التي أثرت في الأشخاص في لحظات معينة من التاريخ الأدبي . والحق في التاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار غالبا ما يرتبطان كل بالآخر . ويكشف مقال فرانكلين بلومر وكلاوس إيستين عن يزوغ الأفكار التي عارضت الثورة الفرنسية وارتأيت في حركة التنوير . ويساعدنا هيلان ليفلان على فهم ما قام به المحققون والرومانتيكيون في بدايات القرن التاسع عشر ، ويكشف بحث دوبرت دوتوتون للجانب العلمي وراء نشر « الإنسكلوبيديا » من الطريقة التي تبناها الأفكار في انتشارها داخل المجتمع ، عندما تشعر

الحكومة بالمدن نحو الكثير منها ، وثبتت تصورات فوجين فيير لأثر المذهب للدراسة الجديدة في القرن التاسع عشر في فرنسا كيف وكلت الأفكار التي انتشرت بفضل التعليم الإحساس الجديد بالترعة القومية في فرنسا . وصودر أيضا النزاع على النفوذ بين القسس والمدرسين العلمانيين في مقاطعات الريف في فرنسا . ويعمل ميكائيل هوارد المتفاني الخاصة بالحرب الهجومية ، التي أدت بطريقة مباشرة إلى مصرع مئات الآلاف من الجنود في الحرب العالمية الأولى . وضع دوبروت وول خطين تحت الطريقة ، التي استطاعت عن طريقها حادثة كبيرة كالحرب العالمية الأولى خلق مجموعة من الأساطير في غضون عشر سنوات ، وأحدثت اضطرابا في فهم الناس والتوقعات من أجل التفسير .

واكتشف المؤرخون أيضا عجزهم عن تجاهل دور الاقتصاد والتكنولوجيا . وضع دوبروت طورتون مرة أخرى في المداولة الصعوبات التقنية البحتة التي اكتنفت مشروعا رحيا كشر « الانسكلوبيديا » . ويكشف جنيفر تان الصعوبات التي واجهها صناع للحركات البخارية الأوائل عند تسويق مخترعاتهم التي كانت تعد من ملأخز هذا العصر . ويربط فانييل هاروك بين كيف استطاع الأوروبيون بطريقة مذهلة توطيد إقدامهم على جزر كبير من الدنيا وبين التقدم التكنولوجي في أوروبا ، وتفتح ميكائيل مانديلبوم أثر التغيرات على التقدم في صناعة الأسلحة والنظمية التوزيع (توزيع السلاح) على طابع تحالف الناتو .

وما زالت السياسة ومسائل دبلوماسية القوى العظمى مختلفة بحدورها المعنوية في الأبحاث التاريخية . ويتبع أنطوني فلتشر سلسلة الأحداث التي غالبا ما كانت غير متوقعة التي أشعلت فتيل الحرب الأهلية الإنجليزية . ويصف ريتشارد بوني كيف لمسك لويس الرابع عشر بزعم الطيوط للتحكم في السلطة السياسية حتى استطاع توطيد النموذج الاستبدادي الكلاسيكي للنظام الملكي (اللوتاركي) . ويبحث دوبروت تاجر الوسيلة التي لعب إليها ستالين لانشاء شكل من الأشكال التي تكررت بعد ذلك للحكم السياسي الفردي المناسب للقرن العشرين . ويوحى تعطيل سأل ماركس القضية المتوضعات بأن ما يعتقد الناس عن الموقف السياسي والاقتصادي قد يكون أهم من طامه الحقيقي . ويمط كل من رونالد سماسر ووليامسون موراى اللثام عن شتى جوانب سياسة التهلة وميثاق ميونخ .

غير أن القليل من هذه المختارات يعقوده أن يصور ما هو أكثر من جانب واحد من شتى جوانب التاريخ ، أو كان من واجبه أن يفعل ذلك .

فلا بد أن يراعى من تناول السياسة بالضرورة البنيان الاجتماعى والتوقعات الشخصية والاجتماعية • ولابد أن يراعى من يكتب تاريخاً اجتماعياً « الأفكار » • وليس باستطاعة المؤرخ الفكرى كتابة تاريخه بشرى معرفة بالجمع والتكوين السياسى للعصر موضع البحث ، والحق أن من أهم أركان البحث التاريخى والكتابة التاريخية - وإن لم يكن هذا الشرط موضع تقدير كامل - ادراك التأثير للتبادل لمتاح للتبع للبيئة فى تناول العالمى • وعلى الرغم من أنه من المناسب التحدث عن انقسام الفعل الإنسانى الى قسمين مستقلين ، إلا أن الحياة ذاتها لا تعاش على نحو مجزأ ، ولئن يكتب التاريخ كتابة صحيحة باتباع هذه الطريقة •

وتصور المختبرات للتقنة لهذه الظواهر الطابع للتعهد الجوانب والثرى والعلى لكتابة التاريخ الكودى فى العهد الحديث ، وترى الى تقديم المون لطلبة التاريخ ، وغيرهم من القراء لتقدير التنوع الثرى لنظراته الفكرية • وبعد أن يطلع الطالب من قراءة هذه المقالات ، فإنه قد يدرك أن أى وصف لعصر النهضة والحركة الهيومانية ، اتبع منذ أكثر من قرن من قبل أحد كتاب عصر الملكة فيكتوريا ، لم يعد مناسباً لمحة المؤرخ :

« كما كانت ماهية الهيومانية هى الاعتقاد الذى يعتقد أنه لا يحتمل أى شك بأنه لا وجود لشيء ما من الأشياء التى اهتم بها الأحياء من البشر ، رجالاً ونساء ، يمكن أن يفقد حيويته ، لذا يستطيع ادراك ماهية الهيومانية من اللغة التى تكلموها أو من طريقة استماعهم الى النبوءات فى صمت ووقار أو من نظرتهم الى الإحلام التى مرت بخاطرهم ، أو الى أى شيء شعروا نحوه يتعلق والمختار ، أو تحسوا له ، أو افسحوا وقتهم فى سبيله (٢) » •

إن هذا العالم الفسح من تجربة ماضى البشرية فى صورة المتعددة • هو العالم الذى يسمى المؤرخون للكشف عنه ووصفه وتفسيره •

القرن السابع عشر

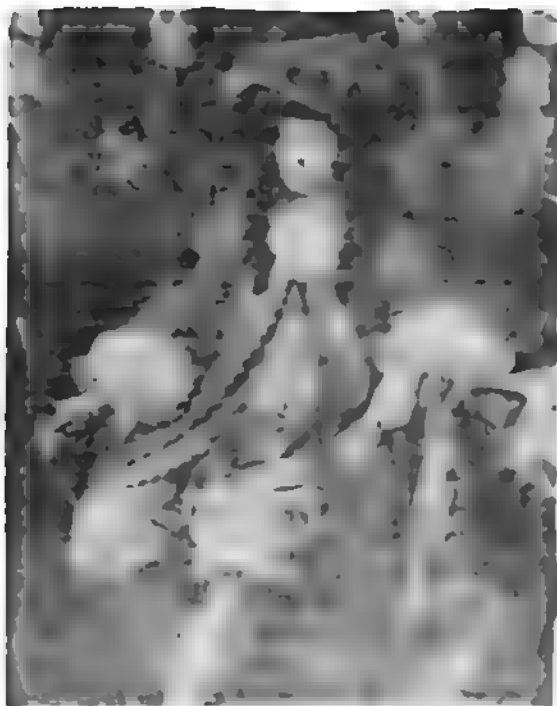
آتساء القرن السابع عشر ، بدأ ظهور تطبيقات جديدة للسلطة السياسية في أوروبا . ويمكن في صميم هذا الاجراء طابع العلاقة بين الأنظمة الملكية المركزية ، وعراكر السلطة السياسية المحلية ، المتمثلة بوجه خاص في طبقة النبلاء والأعيان . وفي نهاية المطاف ، اتخذ الصدارة نموذجان سياسيان مختلفان : ظهر النموذج الأول في انجلترا ، والآخر في فرنسا . وكما هو متوقع ، فقد سبب الى هذا الاجراء الاضطراب الديني بظلاله القائمة ، وكان حاصيا في طريقه في حطى حثيثة .

ففي انجلترا ١٦٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية بين القوى التي تدعى بالولاء للملكية والقوى التي تدعى بالولاء للبرلمان الذي يتزعمه كبار الأعيان الى حد كبير . وازدادت الخلافات الأصلية الدستورية حدة من تأثير الخلافات الدينية الأساسية التي أثارها أحصار كالفان حين طلق عنهم اسم « السيوربان » . ويفسر أطولى فلتشر كيف استعمل الزعماء البرلمانيون السيوربان للتحايف الشعبية الدينية من حدوث مؤامرة كاثوليكية ضد الحريات الانجليزية ، عندما هاجموا سياسيات شارل الأول . واندلعت الحرب الأهلية المتربة انقلابا في انجلترا دلم عشرين سنة . غير أن هذه الحقبة من التقاتل قد تيمنها في هذا القرن ثورة ١٦٨٨ ، التي وطلت النموذج السياسي الانجليزي الذي قيد فيه البرلمان حكم النظام الملكي ، وملكه أيضا السماح الديني .

وفي فرنسا ، حكم لويس الرابع عشر حكما فرديا ١٦٦١ . ولقد شهد لويس في طفولته آخر سرد للنبلاء الفرنسيين المزعومين باسم «الفروند» . وعندما بلغ سن الرشده ، صمم على أن لا يدع سلطاناه يتعرض لأي تحد . ويتتبع ريتشارد بومي الأسلوب الذي سار عليه الملك لاحضاع

مراكز القوة المثقلة للنبلاء ، والمدن ، فسيطر على الواحدة منها قلو الأخرى ، إلى أن انخسها في نهاية المطاف لهيمنة النظام الملكي . وفضلا عن ذلك ، قلند ألفي لويس الرابع عشر ١٦٨٥ ميثاق فانت ، وبذلك انتهى التسلمح الديني والبروتستانت الفرنسيين . وتوطعت وحدة الدولة الكاثوليكية . والسودج الساسي الذي تمحض عن ذلك هو ما يعرف بمصطلح « الحكم المطلق » . وقلند ملوك مختلفون في أوروبا في القرن التالي .

يبد أن السيامية وحدها لم تكن هي المتحركة في القرن السابع عشر ، الذي شهد أيضا تصاعد حركة الفكر العلمي الذي يله كوبرنيك . ويعبر مصطلح الثورة العلمية عما حدث من فهم انساني جديد للتكوين الفزيائي للكون - وللفلك بوجه خاص - فهي معة تقل عن القرن ونصف القرن من الزمان ، انتقل المفكرون العلميون الأوروبيون من تصور الكون المتمركز حول الأرض ، إلى تصور كون تدور فيه الأرض حول الشمس . وأعظم أسماء انتمت هذا الاتجاه الجديد هي : كوبرنيك وكبلر وجاليليو ونيوتن . وفسر مخرجيت جاكوب كيف استعان الكتاب للمسيحيون بهذا الفهم الجديد لحالة انتظام الكون الفزيائي في الدفاع عن الاستقرار الساسي والاجتماعي ، وكيف سحر هذا الفكر الثوري العلمي لغايات اجتماعية محافظة .



جنگل کوهسار در ارتفاع ۱۰۰۰ متر

اندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية

أنطونى فلتشر

كانت الحرب الأهلية الإنجليزية من بين أكثر الأحداث اضطراباً في القرن السابع عشر في أوروبا . وبدأت هذه الحرب ١٦٤١ . وما من جانب ١٦٤٩ حتى توالت الأحداث ، فخفضت كنيسة إنجلترا حركة الإصلاح الديني الراديكالي ، وألغى مجلس اللوردات وأعدم الملك ، وبعد أن سد الاضطراب زحاً ، أحصى عشرة سنة عادت للكنيسة ١٦٦٠ . ولم يكن هناك من هو لاند قبل ١٦٤٢ على التنوُّب يمثل هذه الأحداث التي تبعها اندلاع الحرب الأهلية بين القوى اللوالية للملك والقوى اللوالية للبرلمان ، أجل ! لم تخطر مثل هذه الأحداث ببال أحد . واتسم الاضطراب بالتسارع ، مما دعا إلى إرجاع اندلاع هذا الصراع فيما بعد إلى النزاع حول المبادئ الدستورية الكبرى والمعتقدات الدينية . ولا شك أن قلائد قد تساءلوا عن الأحداث المباشرة والتحويلات المباشرة في الجو السياسي التي أدت إلى تصدع النظام السياسي واختيار الانحياز لأحد طرفي النزاع .

وليس هناك شك في وجود مجالات للصراع بين تلك شاول الأول والبرلمان ، ابتداءً من منتصف عشرينات القرن السابع عشر . فقد زاد الملك دخل الحكومة ، وحكم البلاد دون رجوع إلى البرلمان من ١٦٢٩ إلى ١٦٣٩ ، أبان تلك الحقبة ذاتها التي ظهرت فيها الحركة البيورطانية ، وما صاحبها من تركيز على اللاهوت الكالفاني ، وانتشار في طول البلاد وعرضها قراءة التوراة ، ونزوع القسس إلى حد الجصيح على إصلاح أنفسهم بأنفسهم . وقوبلت هذه الدعوة بمطرسة شديدة من أساقفة كنيسة إنجلترا ممن يتبعون لاهوت أرمينيوس (*) وقيمون القوس القنسة .

(*) نلا عن كتاب The Outbreak of the English Civil War ألف

Anthony Fletcher (١٩٨٠) .

(**) الحركة الـ Arminian كتب إلى عالم اللاهوت الهولندي Arminius

الذي كان يدعو إلى مذهب الإرادة الحرة ، ويعارض المس

ولم يتوقف الملك شارل عن مؤازرتهم بل وتزوج أيضا امرأة فرنسية كانت تتبع الحنيسة الكاثوليكية . وليس هناك من ينكر الطابع الخطر لكل هذه العوامل ، التي ارتدت عليها الصراع ، وإن كانت لا تعد بالقوى مبررة كافيًا لتشوب حرب أهلية .

وفي ١٦٢٩ ، دعا شارل البركان - بعد تردد تام طويل - للمطالبة بالتصديق على بعض الاتفاقيات لصرف منها على الحرب ضد إسكتلندا ، وكان يسمى لاوعامها على اتباع « الكتاب الإنجليزى للتسائر العامة » واتباع احدوية لكتيسة الأسحلة بدلا من اتباع الكنيسة الاسكتلندية الكالفانية القوية ، ورفض البركان التصديق على الفرائض ، فامر شارل بعزل البرلمان . وهكذا أصبح هذا البرلمان يعرف باسم « البرلمان قصير الأجل (١) » . وفى ١٦٤٠ ، دعا شارل إلى انتخاب برلمان آخر أطلق عليه اسم البرلمان طويل الأجل أو القصير (٢) ، وكان من بين زعمائه جون بيم ، الذى كان من المسلمين المصريين للملك ، ومن البيورثان الأشد ، ولا حدثت مواجهة بين البرلمان وشارل بعد أن ثار الخلاف بينهما ، وبعد أن حاول الملك القبض على أعضاء البرلمان ، ادعى بيم وأتباعه وجود مؤامرة بابوية لخرس الكاثوليكية على إنجلترا ، وتقوض دعائم الحرية والديانة الحقبة تبعها لذلك . وخطر بيم ومؤيدوه شارل بهذا الرأى فى مظاهرة كبرى ١٦٤١ . وساعدت سنوات عدم الثقة وللتزعزعات الحديثة العهد بين الملك والبرلمان ، والجبل حول من يحق له السيطرة على الجيش (الذى كان منهكما آنذا فى اضمحلال ثورة نشبت فى أيرلاندا) على مستضات كتيعين على تصديق هذه الاتفاقيات . وما هى إلا شهور قليلة حتى ارتبط اسم شارل فى عقول الناس بالنوايا الشريرة للمؤامرة البابوية المزعومة ، وارتبط أيضا اسم البرلمان بالطاع عن الحرية والديانة الحقبة . فى هذه الحالة للضربة ، التى أتت البليدة ، انطلقت الحرب الأهلية ، ودمر فيها لذلك إلى البادى الدستورية ، كما رمز البرلمان إلى البادى الدينية ، واحتكم الصدام بين اتباع الليبراليين .

لا يلزم رد الأحداث الكبرى إلى أسباب كبرى ، وإن كان من الطبيعى أن يسمى المؤرخون للبحث عن هذه الأسباب . فحتى عهد قريب ، كان التاريخ العلمانى ليوأكبر القرن السابع عشر يعانى من أصفاد تقليد الأحرار (٣) وتصورات الكاسحة عن دورى الحكومة والمعارضة ، بالرغم من عدم مساهمة هذه التصورات لحررها . فليس من المحتوم حدوث صراع بين الملك

Short Parliament.

(١.)

Long Parliament.

(٢.٢.)

Whigs.

(***.)

والبرلمان يسفر عن ظهور دستور متوازن في القرن الثامن عشر . كما أنه لم يثبت إمكان تفسير الحرب على أنها ثورة اجتماعية . إذ كان الانقسام في الرأي يمثل بكل جلاء انقساماً لحمل الطبقة الحاكمة . وبالمثل فلا يفي بالفرس أيضاً التفسير المستبعد الذي يصر الصراع على أنه قد وقع بين البلاط والأهالي . فلم يخطر ببال أحد من أغلب من اشتركوا في القصة التي منروها في الصفحات التالية ، أنهم ينتمون إلى أي طرف من الطرفين ، كما أنه كان من المستبعد لأي أحد من عرفوا العالم البيوروتاني من محاضراته وشعائره صومه أو ممن حققوا بأبصارهم متابعين لوحة الرسام الهولندي روبرت الذي معده فيها عائلة ستيوارت (*) . أن يربط في وجود صراع بين النزعتين في ثلاثينات القرن السابع عشر ، فلا بد إذن من وجود سبب أقوى من الصراع بين النزعتين لنفع الملك ورعاياه لغرض الحرب .

فما الذي تضمنه مثل هذه الأحداث ؟ . إن أي بيان مفصل يروى حداً ما كان لئلا يحصى المحروب الأهلية ، ويتتبع الأحداث خطوة خطوة . سيكتشف بالتأكيد مدى التحق الكامن في أية عملية سياسية من هذا القبيل ، وسيكتشف كيف تسلسلت الظروف الضرورية التي أدت إلى ظهور شيء ما يتناقض تناقضاً شديداً هو وافتراضات عملة الناس من العلاقة الاجتماعية والسياسية . غير أنه ليس هناك ما يدعو إلى تجريد السرد السياسي للقصة من كل معنى يمتد إلى أغوار بعيدة . فلا يصبح القول على الإطلاق بأن الحرب الأهلية الإنجليزية كانت مجرد مصادفة . فلقده لعب الحظ والافتقار دورهما بلا مرأ . ولكن لعل الأحداث كانت مستحبة مختلفة ، لو أن التمرد الإيرلندي لم يقع في نفس الوقت الذي وقع فيه . وعلياً أن لا ننسى إن القصة حافلة أيضاً ببتالية بعض الأشخاص ، والمشاعر الجماعية والأهواء الأيديولوجية .

ولقد بينت دراسات البرلمانات والادارة في الحقبة الواقعة بين ١٦٠٢ و ١٦٤٠ وجود انقطاع في أداء هذه الهيئات لواجبها في بواكير حكم ستيوارت . وازداد ذلك وضوحاً عندما اشتعلت وطأة الحرب في عشرينيات القرن السابع عشر ، و مرة أخرى ١٦٤٠ . غير أنه من المهم أن نلاحظ - نظرياً على الأقل - أن المشكلات الإدارية التي تركز عليها الاهتمام بعد شوب الحرب الاسكتلندية . قد أمكن حلها خلال ١٦٤١ بفضل إصلاحات بيم الاقتصادية ، وقرضه ضريبة عملة للفنل وعقده معاهدة سلام مع اسكتلندا وتسريح الجيوش . وبعبارة أخرى ، فإن صبح وصف ما حدث

١٦٤٠ و ١٦٤١ بالآزمة الدستورية ، فانها لا تزيد عن أزمة أمكن التغلب عليها ، ولم تكن هناك حاجة ملحة لاشعال حرب أهلية .

ورأى بعضهم الاحتمال المحورى فى الحقبة بين ١٦٤٠ ، و ١٦٤٢ كامسا فى ارجاع الخطل الى اسباب برلمانية ، ومعادلة الأغلبية « للأرمنية » وضريبة السفن(*) ، والرغبة فى ازالة استرغورد من الحياة العامة ، وتنظيم الصل بالبرلمان . غير أن مثل هذه النظرة قد اوجست فى تحطها المشكلات التى لازمت البرلمان عمدا طويلا الى بداية عهده ، ولا اظن أنه قد حطر ببال معظم من زحفوا نحو وستمنستر فى نوفمبر ١٦٤٠ أن هناك سببا برلمانيا يدعوهم الى ذلك . فلقد ساد الاعتقاد بأن الهدف من البرلمان هو حل الخلافات بالمصالحة وتصفية النزاعات ، مما يحس بتجاوب أغلبية أعضاء البرلمان مع هذا الهدف ، ولم ير أحد مانعا ييم وقلة من اصداقائه الحميين المسألة فى ضوء بعيد الاختلاف . فقد ظنوا أن ارجاع السبب الى البرلمان سيساعد على امتتنصال المؤامرة التى أصابت الأمة فى الصميم . ولابد بالتاكيد - من اتخاذ سوء تصورهم الأساسى للموقف السياسى الذى ذاع بطريقة مبرمجة ، وانتشر فى الشهور التالية كنقطة بداية لتفسير اسباب اندلاع الحرب . فالمشكلة المحورية اذن لم تكن ارجاع هذه الاسباب الى خلل ما ، بقدر كونها التساؤل حول لماذا التفت الكثرة فى وستمنستر وما وراسا حول ييم واعوانه وتشبثوا بهم ، رغم نظرتهم المبططة ومعالايمهم فى تصور متاعب الأمة ؟

لقد أشيد بالحياة زعامة ييم واقتداره فى السيطرة على المؤيدين ، والباب المتعاطفين عنه فى المجلسين . ولكن ليس بمقدور أحد أن يتناسى التباين بين تكتيكات ييم وحجة تبصرها ، ونزعتها السلبية ، والأساس العاطفى لسياسته . قلل هذه السياسة ضحيا توحى بتعارضها مع العقل . اذ كان زعماء البرلمان أنما غير قادرين يحكم ادوارهم على التفرقة بين الحقيقة والشائمة ، ولم تتوافر لهم الرغبة فى القيام بذلك . فمن البداية اقتصرت مضاعفهم على الكلام البليغ . فلا تنسى ما يحره عدم الثقة من وبلاات . ولقد تصدع الايمان . وشنتا فشتا ، اختفت فرصة استعادة الثقة بالملك وجواريه . وشاركت فى هذه العملية الأحداث الخارجية والطارئة ، وكشفت لأعضاء البرلمان عن مفزى قصة ييم وما تنبى به من نتائج واضحة للعبان ، ومن ثم علينا أن ندرك وجود عدة أحداث شاركت فى صنع قرار ييم كؤممرات الجيش والمؤامرة التى حشرت فى إسكتلندة ضد منتقضى الملك والنمرد الايرلندى ، ومحاولة الملك القبض على خمسة أعضاء من البرلمان . وفى

(*) Ship money - ضريبة فرضت على الولاء والمدن والأحياء السكوية

والريف البريوطانى ، ليجع مبلغ من المال تقصص لتشاء سفى حرية .

كل مرة كانت تتبع أحداث تؤيد وجود هذه المؤامرة ، وثبتت وجود هجمات الملك عليها . وبلغت المناوشات في مستمتصر ووايهول في ديسمبر ١٦٤١ ، وبدأ حضور الملك لجلسة مجلس الصوم بعد ذلك بضعة أيام كأنه تصعيد منطقي لكل ما قاله يوم وأعوامه منذ ٧ ديسمبر ١٦٤٠ . ولابد أن يكون ريتشارد باكستر - وهو من بين من علقوا بعد ذلك على تفسير يوم للحرب - قد خطرت بباله تلك الأيام عندما كتب يقول : « لقد بدلت الحرب في شوارعنا ، قبل أن يتسنى للملك أو البرلمان حشد أية جيوش » .

وعلى الرغم من موجة العنف التي تعرض لها يوم بعد ذلك ، إلا أنه كسب أتباعاً أقوياء في لندن في خريف ١٦٤١ . وعلق الوزير نيقولاس على المقبة الرئيسية التي اعرضت إعادة إعلان سلطة الملك فقال « إن الصحب الذي صحب الية للعودة إلى العقيدة الكاثوليكية هو أول من تسبب في نفخ الشعب لحكومة كل من الكنيسة والكومنولث » . ومن دلائل الروح التي سادت العاصمة (لندن) الرسالة التي أرسلها أوبريان المقيم في كوفست جاردن إلى سبر فيليب برميغال : « بالرغم من أنني أقسمت بالولاء لفيلة ألبانا وجلالة الملك ، إلا أنني لا أجرو على التردد عليهما - فالاضطهاد أمر مريع جديد وشديد الوطأة » .

كان من الطبيعي أن لا تفي الأقاليم رسالة يوم إلا بعد مضي وقت طويل . غير أن المطامرة الكبرى (*) قد كشفت في نهاية المطاف عن النية للية . إذ أعرب آنك ، توماس ستكوديل من يوركشاير عن الاستعداد للتشهير بانهم الأعضاء الخمسة ، ووصفه بأنه مؤامرة يسوعية . وربطت الدعاية البرلمانية كل ما فعله الملك بين يناير ونوفمبر ١٦٤٢ والمؤامرة البابوية وزعم أن تطهير الملك لبعثة السلام في ١١ يوليو كان بمثابة مقدمة لتيسير التغير الكبير المستهدف للدين والحكومة ، مع الاكتفاء بذكر مثل واحد . واستمر وقع هذه الدعاية واضحا في الالتباسات التي وقعت في ربيع هذه السنة ، واستمرت أمداؤها تتردد عالية طوال الصيف . وجدت الالتباسات الجديدة الصبغات البيضاوية لشهرى فبراير وماوس . وتشمل التضرعات التي تارت في وادي ستاور ضد الكاثوليكية منى ترحيب الجماهير بهذه الصيحات . وكشفت أعمال البحث في بيوت الرافضين في عدة مقاطعات عن وجود مبالغ طائلة من المال وأسلحة مكتمة ، ساعدت اعتمادا على براعة الدعاية لمصاحبة لها على زيادة التوتر فحسب ، بدلا من أن تعيد الاطمئنان إلى القلوب .

ويرجع انفصال ييم الى أنه عندما فرض مخلوفه من زحف الديانة الكاثوليكية بطريقة كاسحة على عامة الناس ، وما عرف عنهم من قابلية لتأثر بشئ هذه الأساليب ، قامه تيجع في اقتناع عديدين بتأصب البايويين لاشمال البران . وانتشرت الشائعات - التي لم تكن بغير أساس بطبيعة الحال - بأن البايويين قد اعدوا الملك شارل بما يحتاجه من مال . ووفقا لما جاء في أحد التقارير التي انتشرت في سائر الأنحاء ، فإن الملك قد تلقى بالفعل مبلغ ٨٠٠٠٠ جنيه استرليني من البايوية والاكليروس وصوب عامه الناس المرة تلو الأخرى عدوانا للملكيين الى الرعايا الكاثوليك للملك . فرأيا جون أوربون خطر هنري أوكسلي في ٢٧ يوليو ، و باقتصاص البايويين على لانكشاير ، وتهديهم بانزال الولايات بالبروتستانت القميين في هذه البقاع ، وابلغ إيرل ستافورد أعضاء البرلمان في ٨ يوليو في معرض روايته للأحداث (*) : « لقد تأمر جميع البايويين واليسوعيين في إنجلترا سونيا لالحاق المعاربه وبأسرته » . وابلغ سيدلاير من جرائمهم جاره الذي اعترف بمناصرته للملك قتل ذلك بأيام : « ان لديك قلبا عثما داخل جسدك ، لأنك بتأييدك للملك ستصطر الى ماصرة البايويين » . وانتشرت الأقاويل عن البايويين حين التوا حول العرض في يورك وأعرب أحد الوجهاء (**) عن مخلوفه من احتمال استغلال « أمر البرلمان بسرع سلاح دعاء الانفصال محليا كتجريد تحصل البروتستانت ، وتركهم بلا حول ولا قوة لكي يكل بهم البايويون - الذين كانوا ما زالوا غير مسلحين - ولكي يقطعوا رقابهم » واحتل جورج بورتسموث في بداية شهر أغسطس ، وزعم أن ما ساعده على تحقيق هدفه هو اللون الذي تلقاه من أربعائة أو خمسمائة من «الفرسان والبايويين» وذكر أن سير ييفل جرينفيل - هكذا تقول الحكاية - زار أغلب الاعيان البايويين في كورنول وديفون - متنكرا - خلال شهر أغسطس لمجس الرجال والمال للملك . وتولى سير جون بيرون الزمام في اكسفورد بمساعدة لفي من البايويين وغيرهم من الأشخاص اليائسين . وابلغ قاضي المصالحة (***) في كست في ٢٢ نوفمبر « عن انزعاج الفرق المدرية مما يحمله البايويون الذين ياتون كل ترحاب بعد أن أطلق اللوردات سراح أحدهم من سجن ويستون » بعد أن سمعوا في جميع التصريحات أسماهم مقترنة بحزب الاسقفين ، مصدر كل يلاه وشقه » .

لم يعرف عن الرمة المحيطة بييم أنهم اتصلوا بقدر من السخاجة يدفعهم الى افتراض قيام البايويين وحدهم بتخير القلية الانجليزية وقلب

Leicestershire.

Monmouthshire

Laniball

من (★)

من (★★)

(★★★) ليغ رئيس مجلس العموم للتداول

حكومة إنجلترا - إذ اعتصمت براءة المخطط الكاثوليكي والمطامير الكبرى على مناصرة جماعة من رفاق السلاح مؤلفة من الأساقفة - أو الجزء الفاسد من الاكليروس ، بمعنى أصح ، والمستشارين أو رجال البلاط ممن يحصلون لصالح أنفسهم طمعا في المناصب التي يحصلون عليها مقابل اشتغالهم عملاء لدولة أجنبية ، ويعكس رد الفعل السريع لاحتجاج الأساقفة على أحداث ٣٠ ديسمبر ١٦٤١ المراعى التي تسببوا بها بمناد واستجارهم الى صف الثورة . وأريج ستراتفورد من الطريق - بعد أن اعتقد كثيرون أن هؤلاء الأساقفة يمثلون أكبر حزب مشبوه في المملكة - وعمل الاكليروس للنحل بعد اقتلاع جنوده بصرامة - فكما لاحظ أحد المقربين (*) في ٢١ يوليو ١٦٤٢ : لقد أثبتت أبحاث المجلس أن الاكليروس الذين تسببوا في استيراد « مذاهب شريرة كالأرمينية » كانوا غالبا من أصحاب النعوس المقضوخة - وكتب رئيس البرلمان الى لجنة الأمن في ٢٢ أكتوبر يرحي بمصادرة جميع الأموال التي جمعت في عيد القديس مايكل ، بواسطة الأساقفة والعلماء والنسامين « باعتبارهم عصبة من الأشرار الذين أقيتوا مسئوليتهم عن حالة الشقاء التي نمانى منها الآن » .

وزيادة تأويل فكرة وجود حزب شرير يمتنع الى الحاق الأذى والدمار بالامة ، عندما اكتشفت أحداث أواخر ١٦٤١ ، وبدايات ١٦٤٢ ، فلقد استعرج لشخص مثل ديجبي وحورنيج بسهولة الى التنبؤ - واعتقد ديويز أن حورنيج شخصية محالة من الرنادة ، نعمل لحساب البايويين لمحويل يورنسمات الى حمية ملكية - وتعدو تجاهل الحقيقة البسيطة التي كشفت عن مرافقة ضباط الجيش الذين حاربوا مواطني لندن في وستمنستر ووايت هول في نهاية ديسمبر ١٦٤١ للملك شارل في ٤ مايو ١٦٤٢ وتجرعهم لشراب بحية في كنجسبون ، وأطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم الفرسان . وما لبثوا أن تمتعوا بالحظوة عند الملك مثل مستشاريه راسخي القلم . ولأحظ مير جون هوتمان أن كثيرين ممن التقوا حول الملك عند بوابة هل في ٢٤ أبريل كانوا من للتنسبين الى البرلمان ! .

وهكذا انكشف الستار عن حقيقة المؤامرة . أكثر من ذي قبل . بعد أن كشف أنصارها الأبرية عن أنفسهم - قلم يده هناك من بين من تأثروا بدعاية ييم من يرتكب في تستر البايويين وراء الأساقفة والاكليروس والفرسان - ففي رسالة الى سبرجون بانكس في ٢١ مايو أحمل ايرل اسكس أعداء الامة عندهما وصفهم « بالجرمن البايويين الراغبين في الترويج على حساب متاعب البلاد » . وبعد ذلك بخمسة شهور ، وفي رسالته التي أعلن فيها إحراز « نصر موفق » في ادجهيل نيز بانكس الجيش الموالي

للسلك ووصفهم اجمالا • بالأشخاص الياستين للرعى بالولاء للدولة • ولم يبق غير قلائل من أمثال هنرى مارتن الذى اردى حرافة الظن بأن الملك اسير مسلوب الإرادة من قبل مستشاريه • لما اغلب زعماء البرلمان فمن غير المستبعد أن يكونوا قد آمنوا نصف إيمان بدعائهم • فראيا بوماس بول يكتب للناخبين فى نورويش فى ١٠ سبتمبر ما يأتى : « امي مفتع بأنه لو شعر هؤلاء المجرمون ، والفرسان الذين فى ميبتهم بالاطمئنان الى امكان الحياة بأرواحهم ، فإن جلالة الملك سيسمعه حينذاك الحضور الى البرلمان ، ولعله شديد التأيد لهذه الفكرة » ، ولا يستبعد أن يكون معظم أعضاء البرلمان قد ردوا نفس التهمة • وليس هناك ما يدعو الى الارتياح فى إخلاص رسالة دنزيل هولز الى بانكس ، التى كتبت على عجل فى مجلس الصوم فى ٢٩ مايو • اذ كان واتقا من نزوع البرلمان الى التصوع للسلك وتعبير أعضائه عن كامل الولاء والإخلاص بمجرد ظهور أول علامات دالة على تغير موقف جلالته ، وتطليه عن المستشارين الذين دفعوه الى اتباع موقف البغض والمناوضة لكل ما يقومون به • وبذلك خانوا لمانة ولائهم له •

وترجع قوة قضية البرلمانيين فى وستمنستر وما واصلها الى ما اتسبت به من مسلك نقائى ، لم يحدث أى اختلاف بشأنه • فلم يكن هناك أى شك فى وصف أعضاء الأمة بالأتراو المنسجين • وبذلك غدا التوازن والتسامح مع البرلمان والوثوق فيه ود فعل دفاعى وضرورى • وظهر هذا الاحساس واضحا جليا فى السامات بواكير ١٦٤١ • وعبرت عنه بعض الاستعراضات الصعبة التى اشرفت عليها الميانشيا • وكم تأثر بها شديد التأثير من جاهلوا فى مجلس الصوم حتى النهاية • وعبر دنزيل هولز فى حديث له فى ٢٧ يناير ١٦٤٢ عن اعتقاده بحفاظ البرلمان على معايير الاستقامة والالتزام بالواجب العام ، مما حملة يحظى بالتفرد كأداة يسمعان بها لخلاص الدولة • « فكل من يسعى فى سبيل الحصول على الخطوة ، أو يعمل مدفوعا بقبليات الود أو البغض ، أو أية غايات أخرى ، ولا يحرص على مراعاة الاخلاص فى فكره ، لا يستأهل الحلوس بين هذه الجدران • وكم أنا موقن أنه لن يعمل حنة الخلد أبدا » هكذا عبر سير سيمونفيس ديوز فى ١٦ مايو عن شعوره بأن كرامته وعزة نفسه مرتبطتان بما ينحزه «البرلمان طويل الأجل» • واردف قائلا : « من ناحيتى أظن أن من يحملون بتحقيق السعادة لأنفسهم بعد القضاء على البرلمان سيكون قهرا غير عادى من الحكمة يؤهلهم للصمود الى القمر ! ولست ارجب قط فى مشاهدته ذلك اليوم الذى يحطم فيه البرلمان » •

على أن كل هذا لا يزيد عن أحد وجوه الحقيقة • فلقد عاش شارل الأول ومستشاروه الحيسيون فى عالم عقل مغلف بالمثل • فلقد زودته

تجربته في عشرات القرن السابع عشر بنظرة هوائية مسممة من البرلمانات،
 وبإحساس شديد بعدم الثقة في أشخاص بالذات، اعتقد أنهم على استعداد
 لتحدي ملكه لأسباب شخصية وأتانية، وازداد استثمار متاعبه هو
 والإسكتلنديين من جراء اعتقاده بأن البيورتلان مشاغبون بغيرتهم، ولقد
 لازمت هذه الفكرة واستحوذت عليه، وترجع إلى تأثيره (٢٠)، والمساجلات
 التي دارت بينهما إبان ١٦٢٨، ١٦٣٩ عن إمكانات مسابقة البابا بالهوى
 لمساعدته، وصور كون التبرد الإسكتلندي بأنه حيلة الشراعية والطموح
 المخلف بخلاف الدين، ورأى الملك - بكل بساطة - الشخصية الإنجليزية
 بنفس المنظور، فلقد أنظر إيلان يوركشاير في ٤ أغسطس : « عدم
 استبداده أن يسلبه البرلمان هو وأبنائه » لحقنة من الأشرار الذين كانوا
 عصبية ترمي إلى التخلص مني، « وصرح لجيشه في ١٩ سبتمبر : انكم
 لن تواجهوا أي أعداء، ولكنكم ستواجهون خونة معظمهم من أتباع براون (٢١)
 واللامعندانيين والمضطحين، لي من الساعين لتدمير الكنيسة والدولة معا،
 ولخص في مناسبة أخرى (٢٢) قضيتته على الوجه الآتي : « لقد عولمت من
 قبل حرب شرير قوى في هذه الملكة بهدف إلى ما هو أدنى من تحطيم
 شخصي وتاجي وقوانين البلاد والسلطة الحاكمة للكنيسة والدولة ».

واستلقت قوة شخصية شارل على إحساسه الدائم بعدم استجابته
 لأحد غير الله، وتحدث على رأس جيشه قبل أن يخوض معركة ادجيل
 ييومي عن « الكفر اللاسامي، المجرد من التقوى عند ذلك البقر الذي
 لا يستجيب لكلمته »، « علما بأنه لا يهدف إلى أي شيء غير إسعاد مملكته
 والدفاع عن الكنيسة والقانون وحرية وعياده »، وأمر على القول : ان
 علينا أن نتحرر من الطموح الذي يلا عروق من يصفون بالطبقة ويسعون
 لزيادة عظمتهم لأننا نحن الأعظم بالفعل، وسيمضي الحسد والمقد بيمين
 عما ما دعنا لا نسعى للتنافس والتسابق، « ولعل أسامة فهم الملك لأهداف
 خصومة ودوافعهم كانت خطورتها مستغل لو اختلقت شخصته عن ذلك،
 إذ كان شارل من الأشخاص الذين أسرفوا في عدم الوثوق حتى في أشد
 الناس ولا، أما نظرة الآخرين له فقد تركزت على قصوره كشخصية محبة
 للعزلة تنسم بالجرأة، غارقة في ثقافة بلاطه الكوزموبوليتانية، التي لم
 يفهموا أصلها وقصلاها، ورأوه شخصية شديدة التعلق بزوجته الفرنسية،
 التي لم يمتنعهم أمرها من بسد أو قريب، أما ما دفعهم للأرتاب فيه - على
 حق - فكان ضلاله وميله للتأمر، وإبان ما دار من جدل حول تنفيذ قوانين

Con.

(٢٠)

Robert Browne (١٥٠٠ - ١٦٢٢) ولد

Brownists : الفصل

الف جماعة دينية متطرفة

Denbighshire في ٢٧ سبتمبر

(٢١) في حديث إلى أهل

المكافئة(*) في برلمان ١٦٢٥ ، كان يستند أي عضو في البرلمان الاعتراض عليه دون وجل فكانوا يقولون «أن تعلق الملك بالدين يتبع أهواءه وأهاليه» ، وما كان أحد يجرؤ على التفوه بمثل هذه العبارات قبل ١٦٤١ .

واصترت ثقة الناس بشاؤول من جراء تزعزع سياسته وتردها إبان النصف الأول من ١٦٤١ . وجاء تشده فيما كانه برهان يؤيده ما يقال عن استيلاء البابويين على ليه . وأدت أغلاط الملك - لا سيما اشتقاق خمسة أعضاء من زمرة - إلى وقوع أحداث جسيمة ترتب عليها عدم حل الأزمة السياسية . وأسفرت بالمثل عن إصابة النظام الملكي (لمانلة مستواوت) في هذه اللحظة بالذات بالوهن . وكان بالإستطاعة الرد على مظالم ثلاثيات القرن السابع عشر بأصدار قوانين جديدة . أما الحسارة المبرحة في الثقة التي نجمت عن إلغاء سياسات جيمس الأول الخارجية والدولية . وإقحام ثقافة ملكية غريبة ، فقد تمردت أعضائها لسابق عهدا . ولما كان نفوذ الملك قد تدنى لدرجة كبيرة ، لذا لم يكن مستغربا تمرضه لما شاع من قصص المؤامرات التي تحدثت بيم عنها .

فلقد لاحظ إيرل برستول في حديث إلى اللوردات في ٢٠ مايو ١٦٤٢ « بأن أمراضنا ترجع إلى إوهامنا وشعورنا بالزهو بأنفسنا (وأعى بذلك مخاوفنا ومظاهر غيرتنا) أكثر من ارتدادها إلى أي سقم حقيقي أو خلل » . وجاء تحليله حصيلة لما أدركه إدراكا قلميا : « من اليسر تهئية الأخلاقيات التي ترد إلى أسباب معقولة ، بل وعن الممكن التهوي من الشعور بأية إساءة ، وتقوى قدرتنا على ذلك القدرة على تخفيف حالات الغيرة الناجبة من عدم الثقة بالنفس والتي تتعرض للتفاقم والتشكل في أشكال شتى توائم كل مناسبة » . وعرض مقب آخر (**) تحليلا مريضا مائلا في ومثاله إلى صبر جون يانكس قبل ذلك بيوم واحد : « من الواضح الجلي ، أنه لا الملك ولا البرلمان مجردان من المخاوف وبواعث الغيرة . فالملك يخاف ويغار خشية فقدان سلطانه والمعوان على حقوقه . أما البرلمان فيخاف ويفار من فقدان الحرية التي يتمتع بها الرعايا الذين ولدوا أحرارا ، والتي تسمح بها قوانين البلاد » . وصرح نورثمبرلاند وهو يتذكر عبارة قسنت ١٦٢٨ : « لعل تغيير الحكومة من الأمور التي يتشأها البرلمان » . وكان بعض البرلمانيين صرحا عنهما أبغوا الاهتمام بالحفاظ على حرياتهم . فكتب صر والقب فيرن في يونيو ١٦٤٢ : « فحتى نطمع بالسلام ، لابد أن نستمتع بالحرية » . وإذا لم أستمع بالحرية ، فأننى لن أنشد السلام : -

(*) Recusancy laws لقوانين التي صرحه لأزلم الولكتين بإتباع الكاثوليك التي ترفضها الكنيسة .

Northumberland.

(***)

صميم فزادى ، - واقتنع جون هاتشمنسون بوجود مؤامرة لاعادة الطقبة الكاثوليكية ، الا انه لم يؤيد اتخاذ هذه الفرية كمبرر للحرب ، مثل الدفاع عن الحريات الانجليزية العادلة ، - ولقد روت هذه الرواية على لسان زوجته - والطاهر ان ما اُصغ عنه فرني وهاتشمنسون هو علم قنوتها على الوثوق في امكان حكم الملك باتباع القانون .

ومن المهم حيويًا التفرة بين المشكلات التي ثارت من وراء الازمة السياسية ١٦٤١ و ١٦٤٢ (كتلك الخاصة بالميليشيا وتعيين مستشارين وما ترتب عليهما) - وليس من شك ان ايرل بريستول وايرل نورثمبرلاند قد أدركا هذه المسألة لدراكا صحيحا - إذ استلمت الحرب الاهلية على وجود علم ثقة متبادلة .

فمنذ وقت بالكر يرجع الى ١٦٢٦ ، ازدادت المخاوف من فكرة المساواة ، من ناحية ، ومن العقيدة الكاثوليكية من ناحية أخرى - واعتقد من منظور الحياة الانجليزية المعاصرة بوجود هوية بين هاتين الناحيتين - انها مخاوف يمس كل طرف منها المخاوف الأخرى ، وتتبادلان التأثير على نحو غريب . إذ ساعدت كل منها بالضرورة على ترسيخ الأخرى - وما حدث ١٦٤١ ، ١٦٤٢ هو تعرض طاقتين من الناس للتقييد كسجناء للأساطير المتنافسة التي تنفد كل منها على الأخرى ، بحيث يفت الأحكام وكأنها تؤيد تفسيرين متعارضين للآلة السياسية - وكان التفسيران أصلا نتيجة لاساءة تصور ووقع في الخطأ - ولربما بدأ هذا الأساس أساسا هشًا لا يبرر قيام الحرب الاهلية - غير ان الحرب يجب أن ينظر اليها على ضوء اجذاب محيلة القرن السابع عشر - إذ كان المجتمع حينذاك مجتمعا يفتنى فيه الناس من أجل عمليات تقتصر في القدرة على تصور الأنظمة السياسية والموازنة بينها - وكان هذا المجتمع شديد الاتباع لنظرة تقليدية للعالم تراه مكانا لا يتواءم له - الا قدر محدود من الخير - ، ولا يتسنى لأي شخص أن يعم بالخير الا على حساب شخص آخر .

لهذه الأساليب ، فلابد أن يخلق أي بيان عن أصول الحرب الاهلية يتجاهل انصاف مضمونها الأيديولوجي استنادا على ما شابه من خلل . فإذا كان الخوف وانعدام ثقة الأمة قد سلا الحرب لمرأ لا مفر منه ، الا ان هناك - يقينا - عاملا آخر أكثر اتصالا بالإيجابية دفع الناس إلى امتناع الحسام ضد بني وطنهم - إذ كان هناك عديرون على الجانبين ١٦٤٢ يعتقدون أنهم يشاربون في سبيل قضية ما ، وإن رسالتهم لا تقتصر على الدفاع عن الدولة ضد حنة متشقة او ضد إحدى الزمرات - نعم لقد انفلكت الحرب الاهلية لوجود توافق بين اسامة الفهم الليتوس منها ، وعدم الثقة التي لا تقبل المصالحة ، مما أدت إلى نشوب صراع أيديولوجي حرس .

ولعل تعريف ايدولوجية الملكيين ، كان الأصعب عند اندلاع الحرب ، لأنها لم تتبلور الا حينئذ . وصحت للمشاعر التعميمية الهلامية الملك قدورا كبيرا من التأييد اللدني . وإن كانت هناك تعليقات باستناد مناصرة النظام الملكي على دعمه من الاجتهاد الانتقادي لأهداف النخبة المسيطرة على وصمبستر ، وتكتيكاتها ، وتكشفت للتالية للوجبة التي ساءلت أولئك الملكيين ، وتوطدت ، خلال ١٦٤٢ - واصعب جوهر هذه المسألة على التمسك بالتصور التقليدي المعتدل لدور الكنيسة في المجتمع ، مع التشديد على أهمية اتباع نظم خاص في العبادة وحكومة الكنيسة على السواء .

أما جوهر الايدولوجية عند البرلمانيين فكان قولهم الربط في عول الناس بين الكفاح ضد العقيدة الكاثوليكية والحفاظ على الدين الحق . وأرجع أحد المؤرخين جوهر الصراع مع الملك « الى الصدام بين الدين الحق والعقيدة الكاثوليكية » . ولن يتسنى لنا فهم حلقة البرلمانيين في بداية الحرب الا إذا قدرنا مدى ما أصاب كثيرين منهم من احباط من المظهر المتقلب للكنيسة التي اتخفت موقفا متراجعا بين الإصلاح الديني وما استلهمته من رؤيا لأورشليم الجديدة ، والصعقة التي أحدثتها اعتداء الملك في العقد السابق على التيار الأساسي للأبليكانية البيورثانية المعتدلة . وكما بين هولز في حديث له في ٢٢ يونيو ١٦٤٢ : « لقد رأى البروتستانت مدى ما تعرضت له حقيقة الدين وجوهده من تآكل من تأثير المظاهرات الفارغة والاحتفالات غير الضرورية ، والأخطاء الفادحة للعقيدة الكاثوليكية والأرمينية ، التي فرضت علينا تحت اسم مذهب كنيستنا ، فافتتح الباب على مصراعيه أمام جميع مظاهر الفجور » . ووصف مقدسو الاتباس باسم « اسكس » الدين بأنه أنفُس من لرواحهم وحرياتهم : « إن هلعنا الرئيسي هو الحفاظ على الدين » كما صرح أحد أعضاء البرلمان في معرض تعليقه على رد الملك على الاقتراحات التي أرسلت الى قصر بيرلي في ٢٥ يوليو : « لقد بدا الآن ان الغرض الأساسي للبرلمان هو تحطيم الدين » .

أما نت القصيه وراء هذه الأزمة فقد كان مستقبل الكنيسة ، وليس مشكلة الميليشيا أو تعيين المستشارين ، والعبوات الناشئة عن انعدام الثقة السياسية . وكان على رأس الموضوعات التشريعية المطروحة على مجلس العموم في صيف ١٦٤٢ مشروع الدعوة لاجتماع رجال الدين ، والقاء التعددية ، واستتعمال البع الأرمينية واستبعاد القسس المنحلقين ، وكانت هذه المشروعات هي التي حاول أعضاء البرلمان التعجيل بمروضا على مجلس اللوردات ، مما دفعهم الى الإسراع في الاقتراح التاسع عشر على إعطاء الصلابة لمعادنة محادثات أكسفورد في الأشهر الأولى من ١٦٤٣ -

وذكر ديويز(*) في حديث له في يوليو ، « أنه بينما أعلن بصراحة عن حقوق الرعية في التمتع بالحرية والامتلاك ، إلا أن المسألة الأساسية التي هازلت تحتاج إلى طمأينة هي إصلاح الدين » . إذ كان ديويز من بين من اعتقدوا أنه من واجب البرلمان دفع خط تكرار هجوم الأرميين على الدين الحق . بعد ادراك مقدار الاساتة الساجية عن هذه الاحتفالات ، والتي لا تمتد ضرورية بأي حال ، ومن ثم يتحتم النازها ملما ، وبذلك تنتهي مناعينا التي نصني منها في سبيل ارضاء أصحاب الضمانات الضعيفة ، الذين يقبلون عليها ، والتي ما كانت لتستمر بإقية بدوهم » . وقبل ذلك بأيام قليلة ، شهد ديويز على القول بأن البرلمان لا يرغب تعديل « أي جزء أساسي أو جوهري من ديسا الراسخ » وكل ما يسعى إليه هو تعديل بعض أئشبه في الاطار الخارسي ، لو في حكومة الكنيسة » . وما يدعو إلى السخرية ، أنه بينما قدح الملكيون في البرلانيين لصلفهم عن التخصيص ، إلا أنهم قد لجأوا في الواقع إلى وسائل قسعية . فمثلا في سبتمبر ١٦٤٢ ، سجن أحد عمال الطرق بالمر مجلس الصوم ، لأنه قام بالوعظ علنا في هولبورن .

ولم يكن باستطاعة زمرة البيوتان في معسكر البرلانيين التنازل عن اعتقادهم في علو حكمة الحقيقة . ثم غدا هذا الاعتقاد متجاوزا هو ودعوة فوكس التقليدي لولاء للحاكم الذي يحكم باسم الله . وهكذا تحول التيار الماهص للكاثوليك إلى دفع الناس إلى العصيان . وهكذا يكون الملك هو الذي فتح الطريق للدعوة إلى الحرب الممعة التي تعجرت من منابر لندن ١٦٤٢ ، وهو الذي أرغم فئة عليا القوم على التحالف على نحو غير طبيعي مع البيورنات الراديكاليين ممن ينتسبون إلى مرتبة متدنية من المجتمع . وباختصار يصبح القول بأن الصلة بين البيوتان والحرب الأهلية كانت إلى حد كبير من صنع شارول الأول .

وفي بداية الحرب ، كفن التأييد الشعبي مسألة حلقة لتدعيم البرلانيين-ففي مقلعة مثل سوسكس ، ما كانت الإليجاكية البيورنية المحصنة لتقدم على خوض معارك البرلمان بشرع اعتماد على الحماية الثقافية لعائلات الأعيان في الإحراج والإقاليم الشرقية . وهي حملة تفتت لسنوات طويلة على مشاعر التقوى التي لشتهر بها البيت الإنجليزي ، ولظلم خلق كوميولت يرعاه الله ، وإذا كان بعض الأشخاص(**) قد قاموا بدور الزعامة الضرورية ، فإن أشخاصا (***) آخرين قد ساندوا قضية

D'Ewes.

(*)

(**) John Herbert Morley, Sir William Bereton Pyne.

(***) من الشنتلين بالتجارة وفي مخيمهم Nehemiah Willington من لندن

وتاجر الذهب Samuel Priestley ومن أهل لندن التمسكين مثل John Conlton

البرلمانين في هذا المصالح . ويشمل وصف وارتون لزحف البرلمانيين الى
 وورستر صورة للفضال البيورثاني . وكتب وارتون بعد التقهر الى كوبري
 بويك : « على الرغم من أنني وآلاف عديدة كنا معرضين للتهلكة ، إلا أنني
 كنت واثقا من مصاهرة الله لنا في نهاية الامر » . وترك لنا شقيق بريستلي
 بيعة عرفتنا كيف ذهب الى الغرب يرغم توصلات أسرته ، فضلا الاصرار على
 الموت في سبيل قضية خيرة على رؤية مأساة كذلك التي وقعت في ايرلانده
 ونخط لها في انجلترا . وتعتبر رسالة صمويل تيرنر لانيه في لندن عن
 حملة العرس على هنلي في يناير ١٦٤٢ عن نفس الروح : « لا جدال في
 وجوب وصف من لم ير الله حاصرا في كل لحظة من لحظات هذا القتال ،
 عاملا على انقلابنا (وفركشة) أعدائنا بأنه قد فقد نصبة البصيرة » . وعندما
 سمع رالف جوسلين الذي ذكر أن « دوافعه للاسهام في تقديم المقترحات
 كانت نابعة من مشاعره نحو الله وكتابه المقدس » بأنباء ادجهيل بعد المعركة
 بثلاثة أيام ، أنه توجه لالقاء موعظة أحد أيام الصيام ، لاحظ توافق موعد
 هذه المعركة ومواعيد صلواته في يوم الأحد السابق لها : « عندما كنت
 أدعو الله أن يؤازرنا ضد أعدائنا » ، وهذا ما يزيد القول بأن الحرب
 الأهلية الإنجليزية كانت حربا دينية ..

وهكذا اندلعت الحرب في انجلترا ، وصالت فيها الدماء على نحو ما
 كان أحد ليتكهن به ، أو يتوقمه قبل ذلك يستقي . لقد كانت حربا غير
 طبيعية ، مثلما أدرك الناس آنشد . واستند احساس الانجليزى بالأمان في
 هذه الحقبة على إيمانهم بما اتصف به المجتمع المدني من توازن وتناغم
 وكرامة . وبما كانوا أن تدرك حتى بالرجوع الى الفن المصاير وتماثيل
 الكنيسة في هذه الأثناء الى أي حد تمسكوا بهذه المعتقدات . فلم يكن
 الأشخاص مهتين للتوفيق بين التغير السياسي أو الانقلاب السياسي وبين
 دعائم عالمهم الفخمي . فلقد أحدثت الحرب الأهلية انحصاما عما سبقها من
 أحفاد ، وأوغست على التحرر الموجه من الماضي - فالذا لم توصف هذه الحرب
 بالحرب التي لا مفر من وقوعها ، فإن هذا سيبرر شعورا بأمسويتها .
 فهناك خليط عجيب من الحق والمتالة يكمن وراء الأحداث التي تحدثنا
 عنها . وعندما اندلعت المعارك ، كانت مصحوبة بمظهر هنلي ، أضفى على
 الحرب صورة وقصة الموت (ماكابر) . فلقد ذبح المليون ثمانية من رجالهم
 عندما انفجر أحد المذابح أمام قلعة وارويك في أغسطس ١٦٤٢ ، وطاحت
 رؤوس أربعة جنود في لواء بدفورد « نتيجة لاهمالهم العناية بفخيرتهم »
 أثناء تقصمهم نحو شربورن بعد ذلك بأسابيع قليلة .

وأخر انطباع ترك أثره في عقولنا هو الانفعالات التي أحس بها الأفراد
 من جراء تورطهم في هذا المأزق . بعد وقوع الرجال والنساء في صراع لا تعلق
 لهم فيه ولا جمل ، وإن صح القول بأنه كان من صميمهم . إذ بدأ للمديد من

أبناء الفئة الحاكمة لانجلترا أن الحياة المتضطرة على حالة الانهيار . وقد عرفنا من رسائل مختلف الأفراد الأحرار التي شعروا بها من جراء توقيعهم اندلاع الحرب . ففي تلك الأيام البكرة التي سادها الوثام من عهد البرلمان طويل الأجل ، كان أحد البسطاء (*) يعلم بكوخ في الريف فقال لزوجته : « أتخيل وجود بيت صغير نعيش فيه سويا على خير حال حيث نمضي ما بقي لنا من أيام في سلام ديني ، لأن هذا البرلمان سيحقق السلام والسكينة لنا جميعا » . وفي صيف ١٦٤٢ ، تأمل حالة بنى وطنه في أمي : « إن كلا الطرفين يسمى لاتباع القوانين - غير أن المشكلة لا تنصب على كيف مستحكم حكما شرعيا ، بقدر تركها على من سيكون السيد والفيصل الذي يحكم اليه عند تنفيذ هذه القوانين - إنها حالة مؤسفة أن تستنزف ثروات هذه البلاد ونفاتها - وربما دماء أبنائها - في قليل من الغايات الماروغاة » .

وشعر المعتلون بالخلمون بأوجاع أشد . انهم الأشخاص الذين لم يكن بمقدورهم ادراك النزاع كمسألة نظرية ، وإن لم يكن باستطاعتهم تجنب الانحياز لطريق أو آخر . وكان أثر هذه الحرب على الصداقات الوطنية التي تمتد جذورها في أعوار يميعة ، أشد إيلافا . وعبر اللورد سافيل في رسائله إلى الليدي تيمبل في خريف ١٦٤٢ عن شعوره بالمرارة لما حدث من قذح في سمعته في وستمنستر ، ولكن ما أتلج صدره هو تعرض صديقه الفيكونت ساي لتزييف صورته في جميع المحافل . وكتب سير جون بوتس إلى ديويوز ٢٢ سبتمبر : « عليك أن تقتصف صديقك وتحميه عن الألسنة القصاحا ، التي أسمع قرقعتها بأذني . يا سيدي انني أؤكد لك أن ضميري يدفعني إلى التمسك بالكومنولث الذي لن أعيد عن الولاء له » .

لم يتخيل أحد من العديدين من أبناء الأعيان وعلية القوم الدير فاضلوا أثناء الحرب الأهلية حدوث نصر فوري لأحد الطرفين . وأعلن سافيل : « لئ أرى أن يستهن الملك البرلمان ، كما لا أرى أي خط من قدره ، قد يفسح المجال لملة الناس لكي يتحكموا قينا جميعا . فبرغم شدة حبي للملك ، إلا أنه لا يسعدني أن أتخطى عن البرلمانيين ، رغم أنهم كانوا مختطفين » . واعترف سير وليم وولر قينا بعد ببقته للحرب رغم اشتراكه فيها . ولكنه كان يرغب دائما « أن لا يصاب أحد الطرفين بسوء على حساب فوز الطرف الآخر » . وكتب جون هوتام لايول نيوكاسل في ٩ يناير ١٦٤٣ ما يلي : « انني كالأخرين لمجد الملك إلى حد كبير ، وأحب البرلمان ، غير اني لا أميل إلى رؤية أحد الطرفين يقهر الطرف الآخر قهرا مطلقا ، لأن هذه النتيجة مستعد اغراء كبيرا للفرض الإرادة وممارسة العنف » .

وساقت الحرب الأهلية طبقة الأعيان إلى الظلمات ، وحاولوا لاستيقاظ
 حطام الحياة ، كما عرفوها ، بينما كانت البلاد معرضة للفناء من أثر
 الصراع . وكتب جون هوثام إلى نيوكاسل في رسالة (١٨ ديسمبر ١٦٤٢)
 يطلب مبادلة الأسرى : « يا الهي ! كم أعجبها منة كبرى إن لا تحول هذه
 الاختلافات - التي أوجب الله أن يصلح أمرها - دون دفعك إلى تناسي صداقتنا
 القديمة » . ولمسه لا وجود لرسالة عاقلت الرسالة التي كتبها إحدى
 السيدات (٦) في ٢٧ ديسمبر ١٦٤٢ في تبخيرها عن مرارة الحرب الأهلية ،
 وفيها تحدثت عن المعاملة التي لقيتها من قبل أنصار الملك في مرغود
 شاير :

« إن أفكارى شاردة في تيه . ولست قادرة على الاهتمام إلى اجابة
 تفرس لماذا يماثلوننى على هذا النحو ؟ وعندما أراجع نفسي لا أرى شيئا
 غير المحبة والاحترام يفران فؤادى . وعندما أتأمل الصلات المديونة التي
 ربطت أغلب وجهاء هذا البلد بسير روبرت هارلى ، وبعضها صلات قرابة،
 وبعضها الآخر صلات زمالة ، إلى جانب صداقته المخلصة الطويلة والأكيدة لى
 بفضل أدبه الجرم وحسن معاملته لامرأة غريبة وفدت إلى بلاده ، فأننى أعجب
 من هؤلاء الناس ، فيرغم تحليهم بالأخلاق الكريمة ، فإنهم استطاعوا الابتعاد
 عن جميع هذه الالتزامات » .

نعم لم يكن بمقدور عليّة القوم آنفذ أن يدركوا عمم احتمال شوب
 ثورة إنجليزية .

المراجع

- R. Ashton, *The English Civil War, 1603-1649* (1978).
- W. Haller, *Liberty and Reformation in the English Revolution* (1938).
- C. Hibbard, *Charles I and the Popish Plot* (1983).
- C. Hill, *The Century of Revolution 1603-1714* (1980).
- D. Hirst, *The Representative of the People ?* (1975).
- J. P. Kenyon, *Stuart England* (1978).
- J. Morrill (ed.) *Reactions to the English Civil War (1642-1648)* 1982.
- J. Morrill, *The Revolt of the Provinces : Conservatives and Radicals in the English Civil War 1630-1656* (1980).
- J. G. Pocock, ed, *Three British Revolutions 1614, 1688, 1776* (1980).
- C. Russell, *Parliaments and English Politics 1621-1629*, (1979).
- L. Stone, *The Causes of the English Revolution 1529-1642* (1972).
- L. Stone, *The Crisis of the Aristocracy 1558-1641*, (1965).
- D. E. Underdown, *Revel, Riot, and Rebellion : Popular Politics and Culture in England (1603-1660)* 1985.

الحكم الفردي للويس الحادي عشر

ريتشارد بونى

أدت سنوات الحكم الفردي للويس الرابع عشر فرنسا (١٦٦١ - ١٧١٥) في انقلاب موت الكاردينال مازارين إلى توطيد الحكم السلطوي الملكي المطلقة في فرنسا ، ووجت نموذج سياسي تطلق للولاة الأوربيون الآخرون لتقليده ، فلقد كسك لويس زمام جميع السلطات السياسية في يديه . إذ كان الملك نفسه ، وليس رئيس وزراءه ، هو المسئول عن الحكومة . فلم يكن بمقدور أى شخص آخر أو مجموعة من الأشخاص ، أو هيئة من الهيئات المتمتع بقوة مماثلة لقوة الملك الحاكم ، كما لم يكن باستطاعة أحد تحدى إرادة الملك السياسية .

وفي البداية ، وضع لويس جميع وزراءه تحت سيطرته المباشرة ، وكثف عن نوع الولاء الذى يتوقفه من ألبائه ، ونوع الطمعات التى ينتظرها منهم ، عندما قبض على فوكيه المسئول السابق عن الفالية التى ترجع من وظيفته . وفيما بعد ، تجاهل لويس ما قام به وزيره الذى حالى بأعظم تقدير منه (يعنى كولبير) ثم أقدم لويس بعد ذلك على كبح جماح استقلال الكهن ، بحيث يتسنى للحكم الملكى المركزى فرض الضرائب على إيرادات هذه الكهن ، ثم شرع فى تحديد الحقوق الملكية للبروتستانت الفرنسيين . وهى سياسة ازداد تصاعدها بعد تقضى ميثاق نانت ١٦٨٥ . ولا كان لويس قد شهد فى طفولته التمرد الأكرستراشى المعروف باسم « الفروند » ، فإنه بذل جهدا كبيرا لتقييد سلطات النبلاء ، ممن اكتسبوا القرب بالحكم الولد أو للنصيب الذى شغلوه ، وحد طريقة صارمة من سلطة البرلمانات المحلية التى كانت بمثابة مجالس يسيطر عليها النبلاء . ولقد الملك بهذه الإجراءات السياسية الحد من سلطان أية جماعة قد تحاول تأكيد استقلالها بالسلطة ، أو تقدم على أى فعل غير خاضع لإرادته .

وفي نهاية المطاف ، فقد انحلت سياسات الحكم الفردي للويس الرابع عشر أحداث عديدة مثيرة للسخرية . فلقد سعى لرفع شأن النظام الملكي ودعم سلطانه داخل البلاد حتى يتسنى له اتباع سياسة خارجية عدوانية . واحتاجت مغفراته خروج فرنسا الى استمرار لتسليح السلاح والتأهب للحرب ابتداء من ١٦٦٧ حتى ١٧١٢ . نجر انه عندما حل هذا التاريخ الأخير ، كانت المروپ التي شنها قد جردت مملكته من خيرة اهلها ، وجردت ارضها من الأخضر واليابس ، وانصرفت من سلطات النظام الملكي ذاته ومن مكانته .

كان لويس الرابع عشر قد اكتسب خبرة فعلية بالحكم ، عندما أعلن عن نيته حكم البلاد بغير حاجة الى رئيس للوزراء ، في اليوم الذي تلا وفاة مازاران (٩ مارس ١٦٦١) . وكان الملك الفتى قد ترأس لأول مرة المجلس الأعلى للدولة في ٧ سبتمبر ١٦٤٩ عندما كان في الحادية عشرة من عمره . وكان أول قرار سيئسبى أصدره عندما مارس سلطاته هو القبض على الكاردينال دي ريتز (١٩ ديسمبر ١٦٥٢) . وبين ١٦٥٣ و ١٦٥٥ ، كان مازاران ولويس يلتقيان لمدة ساعة يوميا على الأقل لتصرف أمور الدولة . ولا حظ موروزيس سفير فينسيا أنه عندما كان لويس يعتقد أن القرارات الخفيفة لا تلائم مصلحته - بالرغم من اقراء الآخرين لها - فانه كان يوقف العمل بها ، ويصمم على رفضها (١) . وهكذا عرف مازاران لويس في تودة ، ولكن بطريقة تدريجية ، أسلوب الحكم - وخشى اتصال الفرونة من استغلال مازاران لمركزه كمشرف على تعليم الملك الفتى فيلقه السياسة في صورة زائفة وضارة (٢) .

وانبثت الأيام صيحة مختلوفهم . غير أن وظيفة مازاران كرئيس للوزراء ، وليس كمشرف على تعليم الملك ، هي التي أتاحت له فرصة تعليم لويس مبادئ السياسة . وهكذا كانت المبادئ التي استرشد بها لويس في السنوات الأولى لحكمه الفردي في أغلب النواحي تقريبا تعزيزا للسياسة التي اتبعها مازاران قبل موته . والحق أن لويس قد طبق المبادئ التي صاغها مازاران وهو على فراش الموت ، والتي اعلماها لويس على أحد سكرتيريه في ٩ مارس ١٦٦١ . ومن ثم عهد لويس الرابع عشر تلميذًا لمازاران في السياسة .

(١) Ne convenaient pas vraiment à son service, qu'elles soient approuvées par les autres et les casés, en les désapprouvant résolument.

Fautes et pernicieuses politiques.

(٢)

ونصح ملزوران لويس باحترام سيادة المجالس السيادية ، ولكن عليه قبل ذلك ان يرفع أعضاء هذه المجالس على التزام حدود واجباتهم ، وكانت النتيجة المباشرة لهذه الوصية هي القرار الذي أصدره في ٨ يوليو ١٦٦١ ، والذي يؤكد سيادة مجلس الملك على المجالس السيادية . واعتبر برلمان باريس هذا القرار (١) صيغة قاضية ضد كرامة المجلس السيادية... ولكن لويس كرر التأكيد لهم بأنه لم يقصد بهذا القرار « المساس بسيادة هذه المجالس ، وإنما للتصود فقط هو تنظيم مهامه على نفس النحو الذي اتبع في تنظيم المجلس الأعلى » (٢) - وأصبح لويس هذا الإجراء في ٢٥ أكتوبر ١٦٦٥ بأن أعاد سببه المجالس السيادية بالمجالس العليا . وعلق على هذا القرار في مذكراته بالقول : « لقد جعلت المجالس تتمتع بالسيادة ، ومنحتها استقلالها . ولقد دفعتهم الى ادراك عدم استطاعتهم تحمل تجاوزاتهم » (٣) . وفي ١٦٧٣ ، قيد حق الاحتجاج والتظاهر ، فلم يعد من اليسور تقديم أي احتجاج الا بعد اتخاذ اجراءات قانونية مناسبة . ولربما لم يقصد لويس بهذا الإجراء ما هو أكثر من الإجراء الوقفي المناسب لحالة الحرب ، ولم يهدف الى تطبيقه بصفة دائمة . وعلى أية حال فقد ظلت فرنسا في حالة حرب أو حالة استعداد للحرب منذ ١٦٧٣ حتى وفاته لويس ١٧١٥ ! وهذا يعني أن القرار ظل سارياً طيلة حياته . وكما انكشف الدور السياسي للمجالس، كذلك تصالحت امتيازاتها الاقتصادية . فحتى ١٦٦٥ ظلت الجهات المعنية تمارس مهامها الاستثمارية بدرجة مقبولة . ومع هذا فقد حدث تخفيض للامتيازات المالية بعد ١٦٣٩ ، ثم أوقفت تماماً ١٦٤٨ ، ثم تعرض أعضاء البرلمان في أكس وروان لعملية حط لمرتبة وظائفهم بعد إنشاء نظام لمنح الأجور كل ستة شهور ، وإن كان هذا النظام قد أدى في الواقع الى مضاعفة مصروفات هذه المجالس . ومع هذا فقد تصدى الأعضاء لهذه الإجراءات واستماتوا بالقوة المسلحة ١٦٤٩ ، ونجحوا في إلغائها . غير أنه بعد ١٦٥٢ لم يتكرر التجاء أي برلمان للقوة المسلحة ضد سلطة الملك ، ولم يصدر بعد

Un coup fatal à la dignité des compagnies souveraines. (٤)

Les compagnies ... se regardaient comme unies de souverainetés séparées et indépendantes (٥)

(٦) نصح ملزوران لويس باحترام للمجالس السيادية مع « لوائحها على التزام حدود واجباتها » . وكانت النتيجة المباشرة لهذه النصيحة صدور القرار (٨ يوليو ١٦٦١) الذي يؤكد سيادة المجلس الملكي على المجالس السيادية . واعتبر برلمان باريس هذا القرار « لحظة قاضية تمنح كرامة المجالس السيادية ... » ولكن لويس علو التأكيد لهم « بأنني لم قصد من القرار تقليص السلطات السابق منحها في أكتوبر ١٦٦٥ . بإعادة تسمية المجالس السيادية بالمجالس العليا . وعلق على ذلك في مذكرته بالقول : « لقد أعزبت المجلس نفسه ذلك حقوقه مخصصة ومسكلة .. ولقد أهتمهم لكي لن أدين شعورهم » .

١٦٦٦ إلا القليل من الترواوت التي تنطوي الترواوت الملكية - بيد أن هذا التدهور السياسي لم يدم طويلا - إذ استطاعت البرلمانات الإقدام على اتخاذ خطوات سياسية مماثلة مرة أخرى بعد ١٧٦٥ - أثبتت أصيبتها على المدى القصير على أقل تقدير - وتوافقت هذه الخطوة هي وانتصار الحكومة في الميدان السياسي النظري بنقض النظر عن النظريات البروتستانتية كذلك التي وضعها جويرير (*) بعد ١٦٨٥ - لما الأثر الداعية للمقاومة - خصوصا المقاومة عن طريق المؤسسات القانونية - فقد اختفت بالفعل من فرنسا - ولم يعد هناك أصحاب نظريات من بين شاعلي الوظائف يتبعون الطريق الذي اتبعه شسول لويسو (**). ويجادلون دفاعا عن حقوق المجالس السيادية ضد حكومة لويس الرابع عشر - وهكذا توقف شاعلي الوظائف على إصدار نظريات أو تعليقات سياسية - وكان هذا التدهور من أهم مظاهر موقف المجالس السيادية - التي لم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها في ديسمبر ١٦٦٥ عندما خفض كولبير - بتصرف - مرتبات السامالين - بعد أن اكتشف ضخامة الاعتماد للتخصص لذلك - مما يحرم أبواب الاقتصاد الأخرى القيام بأية عمليات استثمارية منتجة - وحاول هذا الإجراء تخصيص اعتماد بعض الوظائف القائمة بمقدار الثلث - وفضلا عن ذلك - فقد شهدت المجالس السيادية تضائل عدد القضايا المعروضة عليها نتيجة تشكيل عدة مجالس تابعة للملك بصفة مباشرة (بأن مستنبتات وسبعينات القرن السابع عشر كـ مجلس العدالة ومجلس تعديل امتيازات النبلاء - ومجلس مراجعة الديون والأشرف على موارد المياه والغابات ... وهكذا - وبذلك فقد أعضاء المجالس قلدا كبيرا من دخلهم ومن الهدايا العينية (***)) مما أثبت أن الوظيفة كانت مصدر رزق مهم - وأنشأ لويس الرابع عشر ما لا حصر له من الوظائف الجديدة - كان من بينها بعض وظائف تابعة للبرلمانات - وبخاصة في تسعينات القرن السابع عشر - وخفض مرتبات شاعلي الوظائف القائمة دون تعرض لأية مقاومة من المجالس تماثل المقاومة التي واجهها في أربعينيات القرن السابع عشر - وربما قام ملازمان بتقدير الملك من طموح غوكيه - ومن المؤكد أنه أخيره - أن الملك الذي لا يقدر على الحكم لا يستحق أن يحكم - (٢) - وهكذا يكون القرار الذي اتخذته الملك بالحكم دون دسوس لرئيس الوزراء - والذي أعلنه في ١٠ مارس ١٦٦٦ تطبيقا لأحدى رغبات ملازمان وهو على

(*) Pierre Jurieu (١٦٢٧ - ١٧١٤) حكم اللاهوت الفرنسي
 للبروتستانت - وعرف بتجاهلاته مع يوسوف وكسوفه القوي الرابع عشر -
 (**) Charles Loyseau (**)
 (***). Epices. (****)
 (٢) Un roi qui ne pouvait gouverner n'était pas digne de régner.

«فرائض الموت» وأرسل ملازمان إلى لويس أيضا بتعيين كولبير كمساعد لفوكيه. وعلى الرغم من قيام كولبير بخطة ملازمان بإخلاص منذ ١٦٥١ - وبذلك بدأ وكأنه يمثل استمرارا لسياسة الحكومة - إلا أن انتقاده لفوكيه بدأ بسنة ١٦٥٩ فبدأ تفضي تصديبا على الاعتماد عن بعض مظاهر الماضي ، لا سيما نظام تمويل الحرب والسلطة المبالغ فيها التي كان يتمتع بها ناظر المالية - فضلا عن ذلك فإن كولبير كان بطيئة للخلاص من فوكيه - إذ قدرت الثروة التي تركها ملازمان عند وفاته بحوالي سبعة وثلاثين مليوناً من الجنيهات ، مما دعا كولبير إلى السعي للخلاص من كل مستغلات هذا الماضي السياسي غير المشرف - فقد أعبر فوكيه محسوباً للملازمان ومشتولاً عن كل تصرفاته المالية - وألقى اللوم عليه - وتم القبض على فوكيه في ٥ سبتمبر ١٦٦١ ، أي بعد عشرة أيام من إلغاء وظيفة ناظر المالية(*) وانقضاء المجلس السعي والمجلس الملكي للشئون المالية(**) وكان هذا المجلس الجديد في مرتبة أدنى من مرتبة مجلس الدولة ، ولكنه كان يواو على المجالس الصغرى الأخرى كالمجلس الخاص مثلاً - واختص المجلس الملكي للشئون المالية بتحقيق قدر من الرقابة الفعالة يفوق ما كان يقوم به ناظر المالية دون أن يمس النتائج بأي سوء - وترأس لويس الرابع عشر هذا المجلس ، وبذلك أحصد عى أبيه - وعى نفسه أيضاً في حمسينات القرن السابع عشر - فكان يحظر بجميع تفصيلات المسائل المالية والأعمال الروتينية للحكومة - وحرص لويس بكل دقة على الهيبة بسلطانه على هذا المجلس - فكان يشطب بتود المصروفات التي لا يقتنع بوجود ما يبررها - وعندما انتقل لويس إلى جبهة القتال ١٦٧٢ ، عهد للملكة بترأس المجلس أثناء غيابه - وبعد ذلك بسنتين لعله إرداد حضراً - إذ طلب من كولبير إخطاره بصفة منظمة أسبوعياً بالأعمال الهامة للمجلس - غير أن لويس احتفظ لنفسه لدى عودته بسلطة مراجعة حساب الشئون المالية الملكية .

وأخضع المجلس الملكي للشئون المالية عسلياً وأسه المستشار صوجيه (***) بين ١٦٣٥ و ١٦٦١ في الحد من سلطات ناظر المالية ، ومن ثم أسند عن الإطلاع على تفصيلات الإدارة المالية ، ومن تطلق المصادرة السياسية ، وكتييجة للحكم الصادر في سبتمبر ١٦٦١ ، لم يعد من حق المستشار بحكم كونه وزيراً التدخل الرسمي في شئون مجلس الدولة أو المجلس الملكي الجديد للشئون المالية - ومن ثم رأياً لنسبه (***) الذي عين ١٦٧٧ وبونتشارتران (****) الذي عين ١٦٩٩ مستشارين يتمتعان

Surintendance

{*}

Conseil d'état et des finances.

{**}

Séguier.

{***}

Le Tellier.

{****}

Pontchartraine.

{*****}

بهذا الحق . ولم يتمتع بهذا الحق آخرون (*) . وحدث تدهور مماثل لمنصب المستشارية في عهد ريسبيو وماديران عندما حصح لعيدو النظام الحكومي الذي يسند الى وجود رئيس للوزراء . بعد منح بحريه التصرف لافراد قلائل (**). من شغلوا قبل ذلك منصب موميسير للملك في اديليم ، كما عدل ثلاثة منهم كمستولين في الاقاليم تحت رئاسة ريسبيو ومادوران ، دون تعرض لاي ومن من جراء التصوع لرتاسه او اشراف رئيس مسن او مجلس يتألف من العديد من الاعضاء . ولو اردنا معرفه مدى ما حدث من تغير فيما علينا الا ان نقارن بين كولبير عندما شغل في البداية وظيفة ناظر المالية ، او مراقب عام الشئون المالية . فلم يزد عمله في المجالس عن مراجعة القرارات . لما بعد انشاء المجلس الجديد ، عهد اليه بالمحافظة على سجلات الإيرادات والمصروفات ، واقتراح المشروعات التي حققت نتائج سياسية هامة ونفسا ماليا كبيرا . ولقد عارض كولبير هذه المسئولية بالفعل ، دون ان يتسرع بأية سلطة سياسية مستقلة . وفي بعض حالات مادية ، تجاوز فيها حدوده ، فوجه الملك اليه لوما شديدًا .

ونظر كولبير الى المجلس الملكي للشئون المالية كوسيلة يمكن الاستعانة بها لاصلاح الأوضاع المالية اصلاً جفرياً - وسمى كولبير لتخصيص النفقات الاجمالية ، بحيث لا تتجاوز اثنين وأربعين مليوناً من الجنيهات ١٦٦٣ . وكان من العسير اتباع القيود التي فرضها كولبير ، ولكنه عندما شكى الى لويس الرابع عشر (١٦٧٠) وأبلغه بأن زيادة المصروفات تحول دون تنفيذ اصلاحاته ، وكان مقدار الزيادة موضع شكائته (٧٥ مليوناً) لى أقل من التجاوزات التي حدثت في أية سنة من السنوات الواقعة بين ١٦٣٦ و ١٦٦٢ ، لى السنوات التي توجد وثائق دالة على قيمة الإيرادات والمصروفات فيها . ومع هذا فقد حققت اصلاحات كولبير مزايا سياسية ومالية للحكومة في المدى القصير . ففي الناحية السياسية ، عادت بالنفع على لويس الرابع عشر وكولبير بفضل تمكنها من تحقيق بعض الأهداف البينة للويس الرابع عشر شخصياً . وفي الناحية المالية ، سرت تخفيض المصروفات الحكومية والفرصات الموقمة على المولدين من قبل مجلس الدولة (***). (١٦٦١) ، وبذلك تحقق التوازن في مصروفات الحكومة . وفي الوقت نفسه ، ثالى جانب قضاء كولبير على الاسراف ، قامه أعاد تنظيم دخل النظام الملكي الفرنسي . وأدرك وجوب استبعاد الارتكاز على ضريبة الحرب

| | | |
|--|-----------|--------------------|
| ١٧١٢ حتى ١٦٦١ من ايام | Seigneur | (*) من ايام |
| ١٦٨٨ (من ١٦٨٨) | Boucherat | Elisabeth d'Aligre |
| Le Tonnelier, Marin, Sève, Aligre, Colbert | | (***) مثل |
| Lervart, de Breteuil, | | |
| Chambre de Justice, | | (****) |

كيسلر رئيس لايرادات التاج الفرنسي . وتبعاً لذلك حرص على تخفيض أو تخفيف الشاحرات المستحقة عن آخر سنوات المئة التي اصبحت خلالها في رئاسة الوراثة ، وخفض ضريبة الحرب بالتدريج ، حتى وصلت الى ما مقداره أربعين مليوناً من الجنيهات حتى في سنوات الحرب مع هولاندة (١٦٧٢ - ١٦٧٨) وبذلك انخفضت الى مستوى أقل من مقدارها في ١٦٥٨ ، وخفض هذه الضريبة مرة أخرى ١٦٨٠ ، فبلغت اثنين وثلاثين مليوناً . ومن لطف أن آثار هذه الاستقطاعات قد بقيت عندما حدث كساد في المحصول الزراعي بعد ١٦٧٠ . وفضلاً عن ذلك فمن الآثار الحيدة لتخفيض ضريبة الحرب ، ما حدث من ازدياد في النسل غير المباشر . وعندما مات كولبير ١٦٨٣ ، بلغ النسل ٦٥٨ مليوناً ، وبلغ مقدار الضرائب غير المباشرة ما يساوي نصف الدخل الاجمالي للتاج ، بينما انخفضت ضريبة الحرب الى ٢٠٪ من مجموع الدخل . وبعد قانون الايجارات الذي دارت المفاوضات بشأنه مع فوكويه (٣) ١٦٨٠ بداية لتطبيق احد الأنظمة المالية التي حققت نجاحاً باهراً في فرنسا في القرن الثامن عشر ، مثلما حدث في ضريبة الفلاحة (٤) التي جمعت عدة ضرائب غير مباشرة في ضريبة واحدة للمزوعة . وارتبطت بهذه الاجراءات التغيرات في وسائل جباية الضرائب - ففي ١٦٦١ ، ابتكر كولبير نظاماً حاصلاً بالمحصلين العموميين (٥) وأعاد اتباع الوسائل المألوفة بدلاً من الاعتماد على نظام المحاسبين والاستعانة برجال الهندسة للإدغام على سداد الضرائب . ويحتفل أن تكون الحكومة قد جست البيض قبل اصلاح هذا القرار في أواخر عهد فوكويه ، وإن كان كولبير هو الذي عجل بتنفيذه . ويصح القول بأنه قد أمكن الاستفاء التام عن وسائل الإردغام على دفع الضرائب عن طريق الجهات الحكومية المسئولة في ستينات القرن السابع عشر ، باستثناء حالات قليلة نسبياً . وبعد ١٦٦١ ، ازداد فرتياب كولبير عمن سبقوه في جعل الاستعانة بالقوة المسلحة لجباية الضرائب . ويعزى الى هذا الانجاء الأخير بوجه خاص ، وإلى الاصلاحات المالية والاتجاه المعتدل الذي اتبعته الحكومة ، ما حدث من تغير في النظرة الى دور المسئولين الاداريين بعد ١٦٦١ ، على أن هذه الاصلاحات المالية التي قام بها كولبير لم يزد عن جانب واحد من الاجراءات الاقتصادية التي هدف كولبير من وراءها الى شد ازر الصناعة والتجارة والزراعة الفرنسية ، في فترة الكساد الاقتصادي . وبرز في هذه السياسة ما سمي بحرب الترفقة البحرية ، التي فرضها كولبير على الهولانديين وقد احتلت مكانة

Fuocemol.

(٢٤)

Ferme-générale.

(٢٥)

voies (★★★) المحصلون للموجبات receveurs-généraux والوسائل المألوفة ordinaires.

المصروفة في هذه السياسة أيضا مجسداً لانشاء نظام التصرفين (*) أيضا في المشروعات الاستثمارية للمالية التي ساعدت على تقديم المود للنقد وتوزيع الغلال عليهم ، لا سيما أثناء الأزمات الطاحنة في السنوات ١٦٦٣ و ١٦٦٤ و ١٧٠٦ و ١٧١٠ .

واختلف المؤرخون في الحكم على انجلاء كولبير نحو التصرفين . فطالما أسي . فهم تطبيقاته الى مكاتب الشكايات في سبتمبر ١٦٦٣ . وقيل ان كولبير كان يتبرع هؤلاء التصرفين (**) مجرد موظفين مؤقتين ، بالاستطاعة الاستغناء التام عن خدماتهم عند الضرورة . ويرجع هذا الحكم الى فترة غامضة في تعليمات كولبير ، وربما رجع أيضا الى أنه كان يصدر التعليمات الى مكاتب الشكايات وليس الى التصرفين . وفي الحق قد يجوز القول بأن مكاتب الشكايات والتصرف « قد عينا نفس الشيء في هذه الحقبة . وعلى الرغم مما حدث من تحول سريع في مسئوليات هؤلاء التصرفين في ستينات القرن السابع عشر ، إلا أن هذا لا يعني أن نظام التصرفين كان مجرد اجراء وقتي ، وأنهم كانوا على هامش الحياة في فرنسا ، كما يبين من اختيار بعض هؤلاء التصرفين السابقين في مهام مثل الاشتراك في محاكمة فوكيه (***). ومن ثم فلا يجوز الظن بأن كولبير قد تخيل إمكان الغاء وظائف التصرفين الحقيقيين في الأقاليم ، كما نستطيع أن نستخلص من مذكرته المؤرخة في أول أكتوبر ١٦٥٩ الى مازوران والتي اعتبر فيها « وجود التصرفين من القنومات الأساسية للإصلاح المال » . ومن ثم وأياه يكتب قائلا : « من المستحيل أن ينهض بجميع هذه المهام في الأقاليم إلا من يشغلون وظائف التصرفين » (٤) . وبغض عن ذلك ، فإنه لا يفل أن تكون الحكومة قد قررت إلغاء نظام التصرفين اعتمادا على تكليف موظفي الحسابات (١٦٦٠ - ١٦٦١) بعمليات جباية ضريبة الحرب ، وأنهم عقدوا اجتماعات غير قانونية بحجة تسريع اجازة هذه المهمة . ويذكر أن الحكومة قد رفضت مطالب هؤلاء الموظفين الحسابيين ، ولم تفسد السلطات المالية للتصرفين . بل وأمرتهم بوضع نهاية لاجتماعات موظفي الحسابات . وهكذا يكون

(*) Intendants ولعل وظيفة المصرف في توزيع الائتراك والمال هي أقرب الوظائف الى هذه الوظيفة التي يلمحها هذا الكاتب .

(**) *Maîtres des requêtes*

(***) ومن الأمثلة الجديدة بالذكر أيضا للمواخ على الولاية بين كولبير والى والقطاعات لفرانسا للمصرفين ١٦٦٦ .

(٤) *Seule ces choses ne peuvent être exécutées dans les provinces que par le ministère des Intendants.*

كولبير قد اعترف بالمسئولية المالية للتصرفين في ١٦ نوفمبر ١٦٦١ و ١٢ فبراير ٢٥ أغسطس و ٦ سبتمبر ١٦٦٢ . ورجع أية سلطة تسع بها المصرفون (أمناء الخزينة) الى المهام التي كانوا يكلفون بها من قبل المجلس . فلا عجب اذا رأينا هؤلاء الأمناء يسيرون حطيم ويقولون ان « وظائفنا قد حل بها الخراب (٥) » ، وأن التصرفين قد انتزعوا منا ما كان يشرفنا وحيث دورنا الفعّال ، ولم يتركوا للعاملين معهم غير المهام الثقيلة لمواجهة الحملات الشرسة التي كان يشنها الملك ، واحتفظ المختارون (٦) بمعظم الوظائف القضائية الحساسة والمدنية ، وإن وجب أن لا ننسى قضايا الفساد التي نسبت الى هؤلاء المختارين وعرضت على مجلس الملك في ستينات القرن السابع عشر ، مما أكد على شدة الحاجة الى الاشراف الدقيق من قبل المسئولين الاداريين . ولم يكن يفتقر هؤلاء المسئولين فعل أي شيء أكثر من ملاحقة أمناء هؤلاء الموظفين اذا ارتكبوا جرائم خطيرة ، تنافر الأدلة بشأنها .»

وبعد ١٦٦٦ لوحظ استبقاء المسئولين الاداريين مدة أطول في المقاطعات أكثر مما كان يحدث في الماضي . ففي السنوات الخمسين بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ كان « المصرف » يقضى خمس سنوات في المتوسط في مقاطعته ، أي سنتين أكثر من المدة التي كان يصيبها في عهد القرويه . ومن هذا يتضح أن الشرط الذي وضعه ريشيليو ومرازان لتحديد مدة خدمة المصرف بثلاث سنوات ، صاد بعدها تعيين المصرف أو ينقل أو يستعفى ، قد استعمله مع ادان سنوات الحكم الفردي للرئيس الرابع عشر ، ولعل كل مقاطعة كانت تتوقع أن يتولى ادارتها تسعة أو أكثر من هؤلاء التصرفين في الخمسين سنة الواقعة بين ١٦٦٦ و ١٧١٦ . وفاق الاستقرا في المقاطعات التي يختار محافظوها بالتعيين الاستقرا في المقاطعات التي يستعمل تصدروها (٥٥) . فهل كان هناك عامل مساعد يفسر أسباب احتفاظ التصرفين « المبتئين » بوظائفهم ؟ ربما رجع أحد الأسباب الى ما كان يقوم به كولبير من استيعاب عن ديون المدن . ولاحظ بوشر ١٦٦٦ أن تصفية الديون القائمة لن تقى بالقرص ، فلزم أيضا منح المقاطعات من تعشم أعمال ديون جديدة . وقدر

(٥) "nos charges sont tombés dans la dernière décadence et le intendants retiennent ce qui est de plus honorable et plus effectif et ne laissent dans les bureaux que le fardeau du grand nombre d'expéditions pour le Roy."

(٥٦) Euz.

(★★) لقد شهدت مقاطعة Rouen, Putiers, Basville وقد شهدت ربما ما هو أكثر من ذلك . وخدم
Mouins Rouen, Putiers, Basville
Bouchu كمتصرف في بورغونيا زهاء ٢٧ سنة (١٦٥٦ - ١٦٨٢) بينما خدم
Langudroc في ٢٢ سنة (١٦٨٥ - ١٧١٤) .

كولبير هذه الملاحظة - ففي مذكرة أرسلها الى المتصرفين في ٢٩ فبراير ١٦٨٠ ، طالب باقتراحات عن الطريقة التي يمكن ان تتبع لتحقيق ذلك . وتقرر تنعيد ما جاء في تقارير المتصرفين في المنشورات التي صدرت في ١٨ نوفمبر ١٦٨٠ ومرسوم ابريل ١٦٨٢ - فلقد قل هذا المرسوم مراقبة الشئون المالية للبلديات من المدن الى المتصرفين ، وباستثناء السنوات الواقعة بين ١٧٤٦ و ١٧٧١ ، فقد حدد هذا المرسوم اطار العلاقات بين الحكومة والمدن ، واستمر العمل بهذا النظام الى ان حدثت الثورة الفرنسية . ولم ينص المرسوم على قيام المتصرف بمراجعة حسابات البلديات لان كولبير لم يجر هذا الاجراء ، واعتبره مسئولية ضخمة لن تحقق أية فائدة تذكر للشعب ، (*) ومع هذا فان ما حدث كان نتيجة لتشريعات كولبير . ويرجع الى هذا العامل أكثر من أي عامل آخر ما حدث من قرص للرقابة الادارية (**) على المدن . ولزادت اعباء العمل الذي ينهض به المتصرفون نتيجة لهذا الاجراء ، وما ترتب عليه . وكان المتصرفون مضطرين الى الاعتماد على عون ائرووسين اثناء عمليات المراجعة وصفيه الديون ، لا يجاز مثل هذا العمل الضروري ، (***) وما ان جاءت ١٧١٨ حتى أصبحت المسائل التي تخص المدن هي الشغل الشاغل للمتصرفين الذين كانوا ينهضون بمسئوليتهم من خلال شبكة من المساعدين المتدربين (****) ، للتأكد من صرف مصدقات المدن في وجهها الصحيح . وجرت المدن من استقلالها السياسي والمالي . وترتب على ذلك اتاحة الفرصة لاستغلال التاج لها اعتمادا على قواعد أشد قسوة وصرامة أكثر مما كان ميسورا قبل ذلك . وبعد ١٦٨٢ ، حل محل استغلال المسؤولين المحليين وإساءة تصرفهم واستغلال الدولة للمدن بطريقة جائرة . وارتفعت الاحتياجات المالية من أثر سنوات الحرب التسع وحرب الخلافة الاسبانية ، ثم بلغت أوجها اعلان الحرب مع البولنديين وحرب الخلافة الاسبانية (في القرن الثامن عشر) .

اما العامل الثامن الذي اخل بالبقاء المتصرفين فكان الرقابة الصارمة التي فرضها لويس الرابع عشر على البروتستانت . ففي ١٦٥٧ ، كان البروتستانت (*****) يخشون حدوث اضطهاد وشيك لهم . وانبتت الأحداث في السنوات التالية - خصوصا بعد ١٦٦١ - صدمة مخاوفهم . وأسفرت المصادفات بين ممثلي الاكثريوس والمستشار صيغيه في ١٣ فبراير

"un travail immense qui ne produiroit aucun avantage aux (x)
peuples.

tutelle administrative. (x,x)

Pour avancer un travail si nécessaire. (***x)

Subdélégués. (****x)

Midi. (*****x) في

١٦٦١ عن الاتفاق على تنفيذ بنود مرسوم نانت (*). (الذي صدر في ١٥٦٦) وبشره . ولم يتخذ أي إجراء في هذا الشأن حتى موت ملاراد في ٩ مارس . على أنه في بحر شهر أوزيد من وفاة الوردير الأول (ملاراد) أوفدت البعثات الأولى . وفي ١٥ يونيو ١٦٦١ . وعد لويس الرابع عشر الاكليروس بتنفيذ اعلان ١٦٥٦ تنفيذا كاملا . ومن سحريرات القدر ، ان تنصر « حركة الورع الكاثوليكي » بعد ان كان الوهن قد اعترى نفوذها السياسي . غير ان لويس تمكن من القضاء على هذه الحركة بأن عهد الي اتباع سياسة تقبلي فكرة شن حرب صليبية ضد البروتستانت (**). ويدكر الملك في مذكراته انه سمي ١٦٦١ لتنفيذ التنازلات التي صم عليها ميثاق نانت . ونفذ ذلك عن طريق المبعوثين الذين اودعهم فيما لا يقل عن ثلاث عشرة مقاطعة في فرنسا . وفي بعض الأحيان ، احتفظ البروتستانت بحقوقهم . غير ان حجر الأساس كان قد وضع . اد نصت الطريقة الجديدة ، كما عبر عنها ١٦٦٦ على « وحدة الجميع وعدم حواجز تقسيمه او التمازكة فيه » ، لأنه كاثوليكي قلبا وقالبا (١) . وقبعت تقييدا صارما لقائمة قديسات بروتستانتية ، كالتي نصت عليها المادتان ١٠ و ١١ من مرسوم نانت . ويوجه علم كان المبعوثون البروتستانت حريصين على الحفاظ على رضا الملك . واتبعوا وجهة نظر المتصرف الكاثوليكي . وأحيانا كان المتصرفون يستندون بعض أفراد اصافيين من الهيجوت للمساعدة في انجاز عملهم . ولعلمهم كانوا عملاء لهم . وربما كانوا يأملون من وراء ذلك الى اضعاف القرارات التي يصدرها المبعوثون البروتستانت (**). وحتى في الحالات التي لم ينص فيها المبعوث البروتستانت المتصرف الكاثوليكي ، فقد لوحظ ايجاد مسوئين من قبل مجلس الدولة لبحث الالتماسات والشكايات . وكانت البعثات التي يرسلها المجلس مؤلفة - بطبيعة الحال - من الكاثوليك وحدهم ، وقد تضم اثنين من الأعضاء البارزين في حزب الورع وابن أحد العاملين . وهذا يثبت أن الإجراء من أوله لآخره كان موجها ضد البروتستانت ، وتنبؤ في نهاية المطاف عن إصدار تصريح ٢ أبريل ١٦٦٦ الذي حد بحماية من مرسوم نانت .

Commis aire pour l'exécution de l'édit de Nantes.

(*)

De Peyronnes و Bazin de Bezons في Languedoc (**) التي سمعت لهم بالمشاركة في الحكومات البلدية من خلال Consuls ni partis . وأعاد الكاثوليك فرض هيمنتهم على Montpellier, Bedarieux, Sommières و Mazamet.

La communauté ne peut être divisée ni partagée.

(١)

(***) مثلا اسمع Bazin de Bezons الذي انكسر في Angoul . وفي المساعدة في استجواب المتصرف .

وبعد اضطهاد الهجنوت باتباع الأساليب القاتلية • ففي ٢١ يناير ١٦٦٩ ، تقرر تعطيل المجلس التشريعي (*) في باريس وروان • وفي مجلس كاستر الى احدى الكاثوليكية • وبعد ذلك عشر سنوات أُنشئت المجالس التشريعية الباقية ، وضمت الى البرلمانات المحلية • وبعد ذلك عشر سنوات حصل سيل من التشريعات القمعية بعد ١٦٧٩ ، التي أدت الى نقض مرسوم نانت بعد مرسوم فونتابلو في ١٨ أكتوبر ١٦٨٠ • وادى النزوع الى ابرغام البروتستانت في يوانتييه وامان أخرى بعد ١٦٨١ على اعتناق العقيدة الكاثوليكية الى خلق موقف جديد • وحدثت نتيجة مماثلة لذلك من أثر النزاع البعيد النور بين لويس الرابع عشر والبابوية • وهكذا يتضح ان نقض مرسوم نانت كان وليما لمجموعة من الظروف الخارجية والداخلية • على أنه كان بالقصور تنفيذه بطريقة فعالة يشير استبعاد للحقوق المدنية البروتستانتية في السنوات التي سبقت ١٦٨٥ • وبعد هذا التاريخ ، ازدادت مسئوليات المتصرفين حيال المرتدين الجدد (**) (وهو الاسم الذي أطلق على البروتستانت حينذاك) • وامر المتصرفين باضطهاد البروتستانت الذين قبض عليهم أثناء محاولتهم الهروب الى الخارج ، وأمروا بحكم قرار مجلس الدولة الصادر في ١٣ مايو ١٦٨٦ بالإشراف على حرد الممتلكات التي تركها المتصرفون البروتستانت كأجراء نهائى يسبق محاولة هذه الممتلكات • واضطهد المتصرفون « المرتدين الجدد » الذين بقوا في فرنسا وكانوا يملكون العودة الى مساكنهم عقيدتهم الأصلية - واضطهدوا أيضا الجبايات التي أسرتها القوات المسلحة أثناء احتلالها المخطوطة التي كانت تقام فيها الشعائر البروتستانتية - بل لقد حاول المتصرفون تنفيذ أوامر الاضطهاد حتى على من فارقوا الحياة من المرتدين الجدد ، الذين رفضوا الضمان القديمة التي أقسمت لهم وهم على فراش الموت ! نعم لقد تركت الأساليب التي اتبعتها بعض المتصرفين عند معاملتهم للبروتستانت آثارا بصدت على سلسلة الحكومة • فلقد دأبت مطارحات طويلة بين باسفل وبوسويه (أعظم عقلة كاثوليكية في العصر) حول هل يحق للمتصرفين والقوات المسلحة ابرغام « المرتدين الجدد » على حضور القداس • ومما له أهمية بالغة تأييد المتصرفين لفكرة ابرغام المرتدين الجدد على الحضور • ولقد شعر باسفل بالارتباك في سياسة تهديد البروتستانت • غير أن هذا قد حدث فيما بعد ابان الصراع الطويل ضد التمرد الكالفاني بعد ١٧٠٢ الذي اشترك فيه القديسوارى (***) في احدى المدن الفرنسية •

Chambres de l'édit.

(*)

Nouveaux convertis.

(**)

١٦٦٩) جماعة من الكاثوليكين الفرنسيين اشتركوا بهذا الاسم لانها كانوا قد شبه

Cantac

القصة التي تم القضاء

Cévennes

محافظة (***)

ولقد اُشير أنه رغم اتباع لويس الرابع عشر المذازين في سياسته ، إلا أنه في ستينيات القرن قد سما محمي جديدا في سياسته • وأثناء مجلسا جديدا • وأقيم على اصلاح المسائل المالية في النظام الملكي الفرنسي • وأجرى تعديلات خاصة للتعرف على ماعية ديون البلديات ، وطريقة تسديدها • وفقه البروتستانت جميع حقوقهم المدنية ، وتمرضوا - فيما بعد للتهديد - في سبيل دفعهم للارتداد عن البروتستانتية • وترتب على هذه المؤثرات استمرار بقاء المصرفيين في لقطاط مدة أطول مما حدث قبل ١٦٦١ • ولو صح أن لويس الرابع عشر ، يسمى حقا للمخاط على السلام ، لما كان من المستبعد أن يتم بحرية أعظم للعمل ، ولكن باستطاعته التخلص من مخلفات وشميليو ومازاران • ولقد اربطت اصلاحات كولبير المالية بالضرورة بالأحوال الاستثنائية لسنوات السلام الاثنى عشرة بين ١٦٦٠ و ١٦٧١ ، وايضا بمخططاته للنهوض بالصناعة والتجارة والزراعة في فرنسا في سنوات الكساد الاقتصادي • ومن المحتمل أن لا يكون كولبير من أضرار الحرب باعتبارها تنطرح على طول الخط هي وسياسة الإصلاح والاقتصاد في المخلفات • غير أن لويس لم يكن في بيته الحط على السلام من أجل السلام • فقد كانت لديه مخططاته الخاصة بالخلافة الأسبانية ، وعمل على إعادة تفسير تسوية وستفاليا ١٦٤٨ لصالح فرنسا • ووفق كل ذلك ، فانه في ١٦٧٢ ، أفراد مقاطعة الهولنديين لانهم أنشأوا تحالفا ثلاثيا ضده قبل ذلك بأربع سنوات • وصاعدت الحرب الهولندية بسرعة ، وتحولت الى حرب ثمانية أيضا • وفي ١٦٧٤ ، بلغ المجموع الكلي للمخلفات ١١٢ مليونا من الجنيهات (وكانت قيمة الجنيه مماثلة لقيمة ١٦٥٢ على وجه التقريب) • وترجع الى الدين الذي خلفته الحرب الريادة الكبرى في للمخلفات التي تجاوزت ١٢٠ مليونا في سنتي ١٦٧٩ و ١٦٨١ • وبعد وفاة كولبير ١٦٨٢ ، انهالت جميع اصلاحاته ، وبدأ لويس ١٦٨٩ يواجه أول اعين كبيرين مع الموارث المالية المهولة لانجلترا • ونادرا ما كان يجتمع مجلس الملكي للمشؤون المالية انسابا اشوا ١٦٦١ ولو فرض أن اجتمع ، فان عمله كان يقتصر على التصديق على القرارات التي اتخذها المراقبون العامون للبالية (*) الذين كانوا يعملون ظاهرا للبالية - وكان كولبير يأمل أن يساعد التدخل غير المباشر على الترويض بأساس يحقق مساواة أفضل في توزيع اعباء الضرائب • غير أن أهم شرط للجباية الموقفة للضرائب غير المباشرة هو الحفاظ على السلام • وبعد اندلاع الحرب ١٦٨٩ سرعان ما انخفض دخل الحكومة من المبيعات غير المباشرة ، فاضطرت الحكومة للعودة الى فرض ضريبة الحرب ، وانشاء وظائف مختصة بتسويل الحرب • والتسمت الفجوة مرة أخرى بين الإيرادات والمصروفات ، ومن ثم فلم يبق

أمام التاج أي خيار آخر سوى الاستعانة بضعف رجال المال من أمثال
 صوبل برمار وأنطوان كروزال ، ودفع الفائدة الباهظة التي يطالبون بها
 مقابل خدماتهم ، وبذلك يكون لويس الرابع عشر قد شق طريقه إلى الحرب
 بدلا من أن يواصل ضغط الاتفاق والإصلاح - ولعله ظن أن مطالب السياسة
 الخارجية الفرنسية يجب أن تتحد الصفوة على جميع الاعتبارات الداخلية -
 ومن هذه الناحية ، يصح وصف سنوات حكمه الأخيرة بأنها كانت استمرارا
 مباشرا لعهدي رئيسي الوزارة وشبليو ومازلوان .

إن هذا يعني أن الاهتمامات الأساسية للحكومة في السنوات التي
 أعقبت ١٦٧٢ قد تشابهت بالضرورة هي واهتمامات الحكومة في السنوات
 بين ١٦٥٢ و١٦٦١ ، وتركزت على كيفية تمويل الحرب دون أدنى تردد
 كبير بين دافعي الضرائب الفرنسيين . وكان الاهتمام بصالح دافعي الضرائب
 من الفلاحين في فرنسا من بين جوانب الحكومة ، التي شهد مازاران على
 وجوب الاهتمام بها ، حتى وهو على فراش الموت - ويوحى التخصي عن
 متأخرات ضريبة الحرب في بواكير سينات القرن السابع عشر بأن هذه
 العكرة كان لها بعض التأثير على لويس الرابع عشر - غير أن الحرب الطويلة
 سبغت على فرنسا المزيد من الضرائب وازديادا في سوء حال الفلاحين من
 تأثير الكساد الاقتصادي - وحتى في سنوات السلام ، فلقد حدثت بعض
 حالات عصيان (*) - وجرت الحروب الأخيرة في أعقابها أحداث تزداد خطرا من
 ذلك خصوصا بين الكامييسار البروسانت عندما انتصروا ١٧٠٢ (وبعد
 هذه الانتصاه موجه أيضا ضد فرض الضرائب) (**) - وبالرغم من أن
 السرد ضد الضرائب قد حدث على نطاق له أصيته ابني الحكم الفردي
 للويس الرابع عشر، ووجه أحيانا إلى المتصرفين، إلا أن مصاعبه لم يتعامد إلى
 درجة ماثلة لما سبق أن حدث أبان عهد وشبليو ومازلوان - ولا وجود لـعسر
 بسيط يفسر السبب ، لأنه يرجع - من ناحية - إلى ما حدث من تيفل في
 توجعات الفلاحين - فعندما يرجع الفلاحون على تركيز كل جهدهم على
 النيش بأظافرهم بحثا عن لقمة العيش ، فإن ما حدث من كساد زراعي

(*) كذلك لشي وقعت في Bénévoise (١٦٦١ - ١٦٦٢) وفي Lussac وفي
 Boulonnais ١٦٦٢ وفي Andinois في Chalons (١٦٦٦ - ١٦٦٧)
 وفي Bourne وفي Vivarais (١٦٧٠) - ثم حدث أحداث غرو ومسيان
 نظري بعد اندلاع الحرب في Agen و Le Mans, Bordeaux
 وحول ثورة العداة قد جرت عند التصدي لأصحاب القسوسات الحمراء في
 بين جميع أحداث المناوشات مع القرويين في فرنسا في القرن السابع عشر .

(**) ولا تنس أيضا انتفاضة Tard-Avisés ١٦٧٥ وفي Quercy ١٧٠٧ .

ربما غدا من المواقف القمعية للاحتجاج أكثر من نزوعه الى تشجيع الاحتجاج القمعي . نعم لقد كان الفلاحون في عهد ريشيليو وملازوان أحسن حالا ومن ثم فانهم كانوا مبعضرون من عصيانهم ما هو أكثر من زيادة الضرائب التي يفرضونها للدولة . وهناك عوامل أخرى يجب أن تؤخذ في الحسبان كزيادة قوة الحكومة ، وبخاصة عندما توافر لها المزيد من القوات في معظم السنوات ، وازدياد رسوخ مكانة المتصرفين بعد ١٦٦١ ، والمقربات الأكثر وحشية التي كانت توقع على العصاة .

ومن الميقون منه أن اتجاه النبلاء الى المسألة قد ساعد الحكومة في مهمتها لحصر العصاة الفلاحين وقمع حركتهم ، ولقد أشار ملازوان - وهو على فراش الموت - على لويس الرابع عشر بالمعاط على امتيازات النبلاء ، وعمل لويس بتبنيه يقيما ، فيما يخص بالامتيازات الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنه لم يسمح للنبلاء المتدين الى عائلات أعرق وأوسخ فلما يتناول الحكومة الا في مناسبات خاصة ولافراد معينين . وأبرز مثل لذلك هو البوق بوفيليه(*) بعد ١٦٦١ ومن المفاثق الممنعة عى الحكم الفردي للويس الرابع عشر ، والتباين الكبير بين موقفه بعد نضجه وموقفه عندما كان مازال حدثا ، عدم تردد الوجهاء والأعيان عند اقتصاصهم . فلقد أجهضت محاولات تأمر الشفاليه دي روهان(**) ١٦٧٤ ومحاولة شومبرج ١٦٩٢ بالرغم من اصطدامها بالبيانات الموهودة الداعية الى الحاجة الى استعادة الامتيازات الخاصة بالنبلاء والبرلمان والمقاطعات وتخفيف الضرائب ، واشتركت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية وسياسته الدينية الداخلية في التحيلولة دون حدوث عمليات تحرير باستثناء ما حدث من فئة صغيرة للغاية . أما الحجج التي ذكرها « حزب الورع » في عشرينات القرن السابع عشر بعدم عدالة الحرب ، لأنها أحدثت انقساما في أوروبا الكاثوليكية في الوقت الذي وجدت فيه أقلية بروتستانتية (لها ورونها) في فرنسا ، فانها لم تنطق على الحالة بعد ١٦٦٦ الا لاما . وأثبت عدم صحتها ١٦٨٥ . اد حارب لويس الرابع عشر الانجليز والهولنديين البروستانت ، وأرغم طائفة الهيجوت على الركوع تحت قلعيه . وأدى استبعاد الامبراطور لتتاقم الاثر الأسباني مع فرنسا بعد ١٦٨٠ . الى استبعاد احتمال عقد تحالف كاثوليكي يضم اسبانيا الخاضعة للهابسبورج والنمسا ضد فرنسا .

(*) البارون François Houval de Beauvillier (١٦١٠ - ١٦٨٧) .

(**) الشفاليه Louis de Rohan (١٦٧٠ - ١٦٧٤) .

Armand-Frédéric Schomberg (١٦١٥ - ١٦٩٠)

وحلف تحول تدريجي للنبله بين مستينات القرن السابع عشر ومبشرينه داخل الاقاليم بفصل السياسة الملكية الواضحة . فبعد أن كانوا جماعة مشاغية إلى أبعد حد ، من المتصور تحديد نوازمهم في عهد ريشيليو وملاربان ، فانهم تحولوا خلال الحكم القوي للويس الرابع عشر إلى جماعة تتمتع بسميات شخصية وباستقلال كبير ، وإن كانت ملتزمة بالقانون بلوحة متزايدة ، ومن اليسير تحديد ملامحها قانونيا . وما حدث من مطولة لاصلاح حال النبلاء من قبل المتصرفين ، تنقيها لتعليمات كولبير له أهمية بالغة ترجع على أقل تقدير لنفور النبلاء من هؤلاء المتصرفين .

وهناك سوابق واضحة للتحريات التي جرت للتأكد من صحة من يحملون لقب النبالة . ففي السنوات ١٥٩٨ و ١٦٢٤ و ١٦٤٠ و ١٦٥٠ ، ألغيت شهادة حديثة العهد بالانتماء إلى طبقة النبلاء (٧) . وجرت تحريات للتأكد من ادعاءات الانتماء إلى هذه الطبقة . وظهر في إحدى المقاطعات كتابان عن أنساب النبلاء . ولكن هناك مقاطعات أخرى لم تكتفل فيها التحريات ، أو لحل سجلات البحث لم يشر عليها . وعهد كولبير إلى إجراء عملية مسح واستقصاء أكثر احكاما امتدت إلى مختلف المصور في أغلب أنحاء فرنسا . وكان من بين أهداف هذه الحملة هدف مالي للتأكد من النشاء جميع الألقاب الراقية ، حتى يتحمل أعيان ضريبة الحرب المبيح بالتساوي ممن يعني لهم ذلك بحكم المولد (٨) . غير أن هذا الاستقصاء كان له جانب سياسي أيضا . وبخض النظر عن النتائج غير الصحيحة التي أسفر عنها البحث في صحة ألقاب النبلاء ، إلا أنه حقق ثلاث نتائج عامة : النتيجة الأولى - أنه في شتى أنحاء فرنسا - باستثناء برجناتي وبروفانس ، اتضح أن المتصرف يحكم اتصاله الوثيق بجلوس الملك (ولكن ودون إشارة إلى المحافظ) - قد أصبح الفصيل الذي يؤنس برأيه لتحديد من يحمل لقب النبالة بصفة شرعية ، ومن لا يحق له ذلك . ففي كل مقاطعة ، كان هناك نبلاء وانفون وضعت مراعيهم (٩) ، وطلب منهم دفع غرامة لا تقل عن مائة جنيه . ولم تكثر بعض عائلات مرموقة بهذه التحريات ، ولم تحرم على الاحتفاظ بسجلات تثبت أحقيتها في اللقب ، فلما كان مسألة نسبها وأصلها وأصلها مفروغ منها ، ومن ثم ألغوا أنفسهم في مواجهة مصاعب جمة هنما واجهتهم رغبة المتصرف بالإطلاح على ما يثبت الانتماء إلى طبقة النبلاء . كما أن البحث من الأسانيد التي تثبت ذلك في المحاكم المحلية وسجلات الكنيسة والإدارة

Le fedreau de la taille est noté avec égalité par tous ceux (٧)
que la nais avec y soujett.

establissement. (٨)

Memor de Roimy اسم الملك الأول Caen في مقاطعة (★) في مقاطعة
(١٦٦٥ - ١٦٦٤) Etienne III d'Aligre والثاني (١٦٦٥ - ١٦٦٤)

كان اجراء مكلفا ، ولا يسفر عن نتائج مؤكدة . وفي مقابل ذلك ، لم يصادف نبلاء الهنالك (*) صعوبات كبيرة لاثبات زعمهم ، والانتماء الى طبقة النبلاء ، وغالبا ما كان البحث يمتد الى ما قبل ١٥٥٠ . فتواريخ التمييز للوظائف التي تدل على الانتماء لطبقة النبلاء ، كانت معروفة . ولعل من حصلوا على لقب النبالة عن هذا الطريق ، كانوا احرص على اثبات هذا الحق ، واحتفظوا بالوثائق الدالة على أصلهم . وثاني نتائج التحريات هي التعريف الجديد للنبالة . فلم يعد النبيل الشخص الذي يدعى أنه نبيل ، أو من يعتقد أنه من النبلاء ، أو يتمتع بحق الاعفاء من الضرائب المباشرة . ولكن النبيل أصبح الشخص الحاصل على شهادة معتمدة من المتصرف يحقه في هذا اللقب . وهي شهادة قانونية ملزمة ، يتم الحصول عليها بعد استقصاء الوثائق والأسانيد ، وثالث نتيجة مستخلصة من التحريات ومن الإجراءات الحكومية المصاحبة هي اقبال باب الانتماء الى طبقة النبلاء بعد ستينيات القرن السابع عشر . فلقد تزايد الإقبال الى احتفاء القروى بين نبلاء الهنالك والنبلاء الأصل (**) . ويرجع ذلك - من ناحية - الى تساؤل الكسب من مظهريات اللقب إبان حكم الملك لويس الرابع عشر . فكانت أغلبية « نبلاء الهنالك » تضطر الى الإعتماد على إيراد ممتلكاتها لتعويض خسارة الدخل المكتسب عن طريق الوظائف التي كانت تتطلب انخفا على الواحي النظرية . وزادت التحريات الخاصة بالقبال النبالة من صعوبات الحصول على إعفاءات جديدة من الضرائب . وفي ظل (الظلم القديم) كانت عملية اغتصاب النبالة ، أو الحصول على اللقب « بالأمر » دون رجوع لشجرة النسب صعبة دوما . أما بعد تشديد المتصرفين الرقابة على ضريبة الحرب ، فقد ساعدت في حد كبير على الاقلال من المطالبات الزائدة بالإعفاء المالي . ولم يستطع النظام الملكي في عهد البوربون القضاء قضاء مبرما على استقلال النبلاء ، ثم زال خطر التهديد الذي كان يمثل النبلاء على البنيان السياسي بين ١٦٢٤ و ١٦٦١ بفضل التحريات التي أجراها المتصرفون والجهات المصاحبة الأخرى للمراقبة التشريعية والسياسية . وفي ذات الوقت فقد الفلاحون ممن تزعموا حركة التمرد على الضرائب والتي كانت موجبة ضد انتاج ، والطامعون في التزعم قودد انطلاقهم .

Preuves nobilitaires.

(*)

Nobles de robe, Nobles d'épée.

(**)

بيد أنه يضمن عدم المبالغة في تقدير مستحقات لويس الرابع عشر بعد ١٦٦١ - ففي أغلب الحالات ، لم تزد التفضيلات التي جاء بها عن تعزيزه للمعجزات السياسية التي حققها ريشيليو ومازاران - وزادت من متانة حيوط التواصل حقيقة نهوض نفس العائلات التي كانت تسيطر على الحكومة ووظائف المتصرفين قبل ١٦٦٦ ، بنفس هذا الدور بعد هذه السنة أيضا - إذ كان وزراء لويس الرابع عشر يختارون في الأغلب من عائلات احتلت الصدارة في عهد ريشيليو ومازاران (*) - لكل هذه الأسباب وحدها ، لم يكن من اليسير قيام لويس الرابع عشر بوضع سياسة تختلف عن السياسة التي اتبعها ريشيليو ومازاران ، وإن ينجح في سقيدها .

(*) لوحظ تشكيل ابن كوايير . Colbert : *Croissy* et *Torcy* . *Seignelay* . وشكل جيشه *La Tollier* ونجله *Laureols* وابن لوغوا و *Barbendieu* ثانياً ثانياً - وكان هناك وزراء الكمال من أمثال *Pontchartrain* و *Chamillart* لم يمشروا إلى أي فريق من الفرقاء - أما *Lionne* وزير خارجية لويس الرابع عشر من سنة ١٦١٢ إلى ١٦٧١ فكان ابن شقيق *Service* ، وانضم للحكومة اعتزلوا من ١٦٥١ إلى قبل تنحيد - وكان *Pompeune* الذي خلف *Lionne* من معاصيه فوكيه وصل كمستول اداري عن الجيش في خمسينات القرن السابع عشر - وخدم بالمثل مستولون اداريون كليون من هينم مازاران خلال الحكم الفردي لـ لويس - وكان هناك إبقاء واحفاد للمسؤولين الإداريين من هينم ريشيليو ومازاران - وبذلك وصل عدد من يخرجون تحت هذه الفئة إلى مئتين شخصاً .

المراجع

- P. Goubert, *Louis XIV and Twenty Million Frenchmen*, 1966.
- R. Hatton ed, *Louis XIV and Europe* (1974).
- W. H. Lewis, *The Splendid Century* (1953).
- A.L. Moore, *Revolt of the Judges : The Parliament of Paris and the Fronde*, (1971).
- D. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century* (1925).
- L. Rothug, *Opposition to Louis XIV : The Political and Social Origins of the Enlightenment* 1965).
- J. C. Rule, *Louis XIV and the Craft of kingship* (1970).
- W. J. Stankiewicz, *Politics and Religion in 17th Century France* 1960.
- G.R.R. Treasure, *Seventeenth-Century* (1966).
- J. B. Wolf, *Louis XIV* (1968).

المعنى الاجتماعي للنيوطينية

مرجريت جاكوب

يمثل نشر كتاب « مبادئ الرياضيات » لإيزاك نيوتن (١٦٨٧) نقطة تصاعد الثورة العلمية . وبعد ذلك ، انتشرت على نطاق واسع نظرية نيوتن عن الجاذبية الكونية وفهم العلم لآليات الطبيعة الفيزيائية وتفسيره العلاني لها ، بفضل دوائر المعارف في أوروبا . وأثرت نظرياته في العديد من مجالات الحياة الفكرية غير المرتبطة ارتباطا مباشرا بالفيزياء الفيزيائية . وكانت الحياة الدينية من بين التوجهات الهامة من هذه التوجهات الفكرية في عصر ارتبطت فيه الاعتبارات الدينية برباط وثيق بالفكر الخاص بالجنوع .

وفي إنجلترا ، قام عالم آخر بكتابة سلسلة من المحاضرات بين فيها كيفية الاستعانة بتعليم العلم في دعم « الدين الطبيعي » ، يعني الاعتماد بأن حقائق الدين ومن ضمنها حقائق الأخلاق ، بالتطور تطويعا اعتمادا على مشاهدة الطبيعة والتدقيق في أحوالها ، واشترك علماء نيوتونيون إنجليز مرموقون ، من بينهم ريتشارد بنتلي وصمويل كلارك ووليم درهام وجون هاريس ووليم ويستون بكتابة بعض الأبحاث التي موسم محاضرات بويل الذي عقد خلال أواخر القرن السابع عشر ومشارف القرن الثامن عشر ، وتصور كتاباتهم لآليات الدينية والاجتماعية التي لكن استخلاصها من الفيزياء النيوتونية في السنوات التي أعقبت الثورة للجماعة ١٦٨٨ .

وكان هؤلاء المحاضرون من أنصار بويل من أتباع « ثلاثة مخلصين » (١) ، أو اللاهوتيين للعقلانيين في كنيسة إنجلترا ، ومن الرافضين في « حماية الدين

نالا من كتاب Margaret. C. Jacob The Newtonians and the English Revolution (1720-1790) (١٩٧٦) .

(٢) Latitudinarians جناح من كنيسة إنجلترا في منتصف القرن السابع عشر يهدف إلى اتباع نظرة جامعة تلتزم على النقاط موضع الاتفاق العام بين شتى الطوائف المسيحية ، وتستبعد جميع النقاط الخلافية ، التي ربما تناهت مع العقيدة العلمية .

من أوصاف المذهب الذي للمذهب الذي وبقوا بينه وبين الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز . وسعوا - من ناحية أخرى - لقولهم أي تطرف ديني صاحب حاله عدم الاستغناء التي نجمت عن الحرب الأهلية الإنجليزية . وقد ذكروا أن المذهب الصحيح لعالم الفيزياء عند نيوتن ، يتطابق العقلاني ، والمنظم انتظاما شبيها بانتظام الآلة ، لابد أن يؤدي إلى الاعتقاد بأن الله أيضا يتصرف بالعقلانية ، ويتعين أن يصعد عن طريق العقل . واعتقدوا أيضا أن الفيزياء النيوتونية تعمل في ثنائيات الاعتقاد بوجوب خضوع المجتمع لنظام مماثل للنظام الذي تتبعه الطبيعة الفيزيائية . وحشوا الآلية على كبح جماح صيرهم نحو تحقيق الصالح الشخصي ، حتى لا تؤدي الأناية المتوهمة إلى إحداث بلبلة اجتماعية وسياسية . وولوا أيضا أن تامل انتظام الطبيعة الفيزيائية وتصور الأشخاص للمجتمع كشيء منظم بطبيعته ، قد يؤدي إلى الاعتقاد في وجود نظام هرمي اجتماعي واضح ، ربما كان من الخطأ اعتراض الكائنات البشرية عليه . وعلى هذا النحو ، شعر محاضرو بويل أنهم جمعوا بين مبدأ دعم فضيلة السعي للمنفعة من أجل الصالح الذاتي وبين الدعم القوي للوضع الاجتماعي والسياسي الراهن^(١) . واستند الدرسان (الدرس الأول الموجه إلى الأغنياء والدرس الثاني الموجه إلى الفقراء) على تفسيرهم في دعم النظرة النيوتونية للعالم .

حدثت سلسلة المحاضرات التي وضعها ووبرت بويل وأشرف عليها في سنواتها الباكورة إنسان من أصلاته الحبيبة : الفلين وتيسون مضمون فكرة الدين الطبيعي الإنجليزي واتجاهه إبان القرن الثامن عشر . وما أن حانت ١٧١١ ، حتى أضحي الإطلاع على محاضرات بويل من مقومات معرفة المثقفين . واثرت هذه المحاضرات ، بالإضافة إلى محاضرات ريتشارد ستيل (١٦٩٢) وإلى حد كبير محاضرات صمويل كلارك (١٧٠٤ - ١٧٠٥) ووليم درهام (١٧١١ - ١٧١٢) أعظم تأثير في سائر أنحاء أوروبا . فبعدما هاجم الفيلسوف الفرنسي هولباخ المذهب التالكلي (١٧٧٠) فإنه ركز على الفلسفة الطبيعية لمحاضرات بويل . وغنما عبر روسو عن إحساسه بوجود الله في الطبيعة ، استشهد بكلارك كالول مؤيد لرايه . وتسلم صمويل جونسون الكثير مما يعرفه عن العالم من مطالعته لمحاضرات بويل .

وتدل الشهرة الكبيرة التي حظيت بها هذه المحاضرات في القرن الثامن عشر على مدى ما قدمه هذا الفريق للمنتحل من خدمات للكنيسة . وكان الأوصياء على هذه المحاضرات يختارون المحاضرين بعناية فائقة ، ووجهوا صحتهم للدفاع عن الدين الطبيعي والدين السماوي اعتقادا منهم بأن جهودهم وانتقاداتهم ستساعد على الحفاظ على الزعامة المعنوية للكنيسة

ونفوذها السياسي في مجتمع مهدد من كل ناحية بالإلحاد . وعندما نتذكر ما احتوته المحاضرات ، ونراجع ما حدث حينذاك ، سنرى أن أهم ما حققته محاضرات بويل بين ١٦٩٢ - ١٧١٤ فكرها هو التكامل بين الفلسفة الطبيعية لنيوتن باعتبارها دعامة جديدة للأيدولوجيا الاجتماعية البروتستانتية الحرة . ويرجع الفضل في أحداث هذا التكامل - أساسا - إلى جهود بمتلي وكلاكرك ، وبسقدار أقل لجون هاريس ووليم ددهام ووليم تينيسون .

والغالب الظن أن النيوتينية قد فهمت في بداية عهدها كظاهرة فكرية مجردة فحسب خالية من أية أيدولوجية مجاوزة للواقع ، أو مضمون اجتماعي وسياسي . ولم يشعر أحد بفور نيوتن الخلاق الأفضل نوعا في الناحية الاجتماعية والناحية السياسية ، إلا بعد أن ظهرت الأبحاث التاريخية الحديثة جدا التي تصورت نيوتن خاضعا لاهتمامات عصره ، مما دفعه إلى الحرص على أحداث وفاق في فلسفته الطبيعية حتى تساير روح العصر . أما المنصب الذي نسبته أجياله إليه (والذي رضى عنه بصفة جوهرية) والمصادر التي ارتكن إليها الأحرار عند معارضتهم له فقد ظهرت في الكتابات الحديثة على أنها متصلة بالناحيتين الدينية أو الفلسفية فحسب . وقيل إن رجال الكنيسة قد اتبعوا الفلسفة الطبيعية لنيوتن لأنهم كانوا يخشون الفلسفة الميكانيكية لديكارت ، والمون الذي قد تقمعه للملحدين والماديين . ولكن لماذا كانوا يخشون الإلحاد ، ويخشون أكثر من ذلك المنصب المأدب - بوجه خاص - عندما يستند إلى الديكارتية ؟ فهل اقتصر التمرس للخطر على التقوى المسيحية ؟ وهل كانت النيوتينية مجرد أحد أسلحة الحرب بين التمسك بالدين والهرطقة ؟ لعل مثل هذه النظرة قد جعلت الدين مجرد مسألة اقتناع عاطفي وتجربة روحانية مجردة بصفة عن الواقع الاجتماعي ، أو ربما قيل لنا إن النيوتينية قد أعادت توكيد النعمة التي ردها الأسميون (في القرون الوسطى) من القائلين بالإرادة والاختيار في اللاهوت المسيحي الذي سما في أواخر القرن الثالث عشر ، وأنه من ثم ، فمن غير الضروري - ومن المضلل جدا - التسليم بوجود حالات تشابه اجتماعي وسياسي ، لأن التأثير - لو وجد - سيكون تأثيرا معاكسا . ومن المفيد والهام إلى أقصى حد أن ندرك أن الفلسفة الطبيعية النيوتينية تتبع أحد تقاليد الفكر المسيحي ، وإن كان تصور التحول الفكري على أنه شيء يتم بصورة آلية ، وأن الفكر يضع فكرة ما ليجرد أنها موجودة في انتظار من يتبناها ، يدل على اتباع فرضية منهجية تعتقد أن الأفكار النيوتينية بمفهومها أن توجه مستقلة عن بيئتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة أو بمعزل عنها . وأنها موجودة كذلك .

أن رجال الكنيسة الذين اتبعوا النيوتونية ، لم يتحدثوا باسم
 حفظ ، وباسم الأوصية على محاضرات بويل ، ولكنهم تحدثوا أيضا باسم
 طائفة « الخلاصيين » من أتباع الكنيسة ، فمنذ بدايات حركة الإصلاح
 الديني ، شغل رجال الكنيسة بالبحث من منصب بروتستانتى ليبرالى
 وشامل بمقدوره التحدث عن المشكلات الأخلاقية في عصرهم . ولقد أمكن
 حشد التهديد لوجه السلطة السياسية والدينية للكنيسة من قبل
 الراديكالين . بعد رجوع النظام الملكى (عهد الاستعادة) • وشيئا فشيئا
 كاد يختفى تأثيرهم السياسى . وإن كان رجال الكنيسة لم يقتنعوا بذلك ،
 ففي الحقبة السابقة لسنتي ١٦٨٨ و ١٦٨٩ ، تأسفوا لانعدام الأخلاق في
 عصرهم . وسعوا لكسب رضاه جملهم الكنيسة بتأييد فكرة السعى المستقيم
 وراء تحقيق الصالح الذاتى ، تشبها مع إرادة العناية الإلهية ، وكما أكدت
 قوانين الطبيعة •

وكان « الدين الطبيعى » المتأثر بعقيدة « الخلاصيين » قد ارتقى من
 الناحية العقائدية على عهد الملك جيمس الثانى - وضحة ، تعرضت مصالح
 الكنيسة مرة أخرى للتهديد من النظام الملكى ذاته . هذه المرة • واتجه
 من صفار رجال الكنيسة الى النبوءات صعبا وراء الهداية والسلوان •
 والنزاع اقلبتهم باتباع موقف هامشى • بينما اضطلع بعبور الثورة - من
 أجل انتخذ الكنيسة - الأمراء والحكام والأعيان •

ومن تأثير الثورة ، التى بعثت في نظر رجال الكنيسة حادئا يدعو
 الى الإرتياب - أخلاقيا - استولى « الخلاصيون » على الكنيسة ، غير أن
 النظرة السياسية اليهم كانت متضاربة • فلقد لطأت الكنيسة الى وضعها
 بالرغم من استناد تفويضها السياسى وسلطتها التهديدية على تحالف
 عشوائى مع السلطات العلمانية أو المدنية • وبما أن انتصرت حكومة الثورة
 الغالبة على فكرة التعاقد وضرورات الصالح الذاتى ، تازم موقف الخلاصيين •
 وتمكس محاضرات بويل محتهم ، بكل دقة • إذ بدا الدين الطبيعى الذى
 جاء به من سيقوم من مفكرى « عهد الاستعادة » هو الحل الأوضح • ورئى
 أن باستطاعة المسيحية الليبرالية المستنفة الى منجزات العلم ، المحلية السنة ،
 والنسب لا استطاع الطعن فيها ، أن تحقق الولاء للدين ضد المرامى التى
 يرددها أنصار هوبز والمفكرون الأحرار • وعنى الولاء للدين في نظر
 صفار رجال الدين الولاء للكنيسة • واستنادا الى هذا الولاء ، قد يرتقى
 السلوك الاجتماعى والاقتصادى الحاضر لائمانية الإلهية ، ويسود الاستقرار ،
 ويتوافر الرخاء ، وتتحقق أحلام الكنيسة بحلول القضاة الألفية (*) •

(*) cf. H. J. M. van der Meer, *De Nieuw-Christelijke Beweging in Nederland*, 1911, p. 10.
 النشيطان ، ويورد بعضا السبع للمحك على الأرض • والله اعلم •

وعى ذلك عند بعض النيوتنيين من أمثال ويستون الاحتلال إلى
 « السلة الجديدة » و « الأرض الجديدة » بمتاعها الخرفي ، كما ورد في
 الأسفار المقدسة . وعى هذا الحلم في نظر آخرين ككلارك ، تحقق نظام
 مستقر متنام ، تسوده العناية الإلهية ، حيث لا تعرض ضرورات السوق
 أية تناقضات تتعارض وما يليه الدين الطبيعي . واستعان البيونيون
 بعلم أستاذهم (نيوتن) لدعم أهدافهم . واتخذت الفلسفة الطبيعية لنيوتن
 كدعامة للايديولوجية الاجتماعية التي وصفتها الكنيسة بعد الثورة .

وبعد ١٦٨٨ - ١٦٨٩ ، استنعت صياغة الايديولوجية الاجتماعية
 المحتللة للكنيسة على نظرية جديدة لدور الدين في نطاق النظام المدني
 للدولة . فلقد نظر الآن إلى دور الدين على أنه مسمى لتحقيق الطمأنينة إلى
 سلامة مجرى الأحداث في مجتمع منظم على خير وجه . وزعم جون
 هاريس : أن الفضائل التي يثبها الدين « ستؤدي طبيعيا وبالضرورة إلى
 تحقيق صالح البشرية وسعادتها ، وإلى الدعم للتبادل للمجتمع ، والتجارة ،
 وإلى استتباب السلام والسكينة لجميع الحكومات والطوائف » . فالدين
 يزود بالسبل المناسبة لتحقيق غاية الصالح الداني . ولن يحث أي ارتياب
 في الغايات ، إلا إذا استهلك الوسائل للتبعية لتحقيقها قيم الأخلاق
 المسيحية » .

ويسير بنتلي عن هذه النظرة الجديدة لكافة الدين في النولة عندما
 يسأل محاوره في معرض هجومه على هوبز : « لماذا إذن تحاول تقويض هذا
 الأساس ؟ ولماذا تصل إلى انقسام اللحية (يضم اللام الثنية) التي تساعد
 على التئام المجتمع ، ولن نرد كل شيء مرة أخرى إلى الحالة المضطربة
 والموهشة التي تنوهمها عن أصل الطبيعة ؟ فليس باستطاعة أي مجتمع ،
 أو بتقديره البقاء على أي أساس آخر غير الدين » . فالدين يتناسبه
 والأسس في أحداث التلاحم داخل المجتمع . وفي أحداث يجب متبادل
 بين مختلف القوى التي تهدد استقرار المجتمع .

وترتب على الدور الذي نصب الآن صراحة إلى الدين ضرورة إعادة
 توجه تعاليم الكنيسة تجاه المجالات العامة للنشاط الانساني ، والابتعاد
 عن الخصوصيات التي تكفي بالدعوة إلى الصلاح الشخصي والمبادئ .
 لمبارسة الفضيلة الاجتماعية تثيب الفرد ثوابا عظيميا . وتحقق أعظم فلاح
 للمجتمع بوجه عام . ويعترف صمويل كلارك لمستمعه بأن هذا الجزء
 الاجتماعي جلي بين « حتى لو أعدى أعداء جميع الأديان ، الذين يزعمون
 أنه لا يريد عن آخره دنيوى أو سبلى من صنع الدولة ، يعترفون - حتى
 ضمن هذا الزعم بالفتن ، بالكثير مما يتعلق به » .

وحتى يتسنى للمفكرين الدينيين إعادة توجيه أهداف الدين، واقتصاصها عن « الأخرويات »، والتعبد الشخصي أو الاتصال بالخالق ، أو لمسايرة « سياسة الدولة » ، أو لمسايرة الفضائل العامة والاجتماعية ، كان عليهم أن ينسبوا للنتائج المستبعدة من إعادة توجيه البشر على هذا النحو أعظم قيمة ممكنة . وعرض يتلى في مستهل محاضراته القيم التي قصد بها الوظيفة الاجتماعية للدين : « فالدين ذاته يمنحنا أعظم غبطة ، ويحقق لنا أقصى عيش » ، حتى في هذه الحياة أيضا ، دون هيلة بالبحث في الحياة الآخرة . فكل صيله تحقق السلام ، وكل وسائله تؤدي إلى التسعور بالامسراح » .

وعرض رجال الكنيسة السلام كهدف يحصل عليه المجتمع عندما يتسبك بأهداب الدين . وحتى يتسبب عرضهم المصادقية ، ذكروا اسم المسيح كقبة للثقات الذين يرفعون اتجاهاتهم ، وقالوا انه أوصانا باتباع الحكمة في مسلكنا حتى يتوأم هو والجبابر العقلاني من طبيعتنا . فإذا نظرنا إلى جميع قوانينه في ذاتها سترأها مجردة من أي توقع يحقق الصالح العرضي أو الوقتي لمن يسمون هذه القوانين . فهل هناك ما هو أكثر فعا لصالح الإنسان أو صالحه أو مكانته أو سلامه في هذا العالم من الإحسان والوداعة والأمانة والاجتهاد في التضرع إليه . وما يمني به قول بشتلي فائق الأهمية : لقد جاء المسيح بالمسيحية للبشر اعتمادا على تجرده من الإنانية ، حتى يتأكدوا من أن صالحهم الوقتي سيكون حصيلة معهم لتحقيق ذاتهم .

فالدین ينفر ويشجع على اتباع نظام اجتماعي واقتصادي قوامه الاعتراف بحقوق الملكية الشخصية واحترام الذات . ويطالب الدين في المقابل أن يسمى الأشخاص لتحقيق صالحهم اعتمادا على الطفل ، وأن يحرصوا على الفضائل الاجتماعية للصداقة والأمانة . وكما لاحظ أفليي ١٦٨٨ : ان المتدينين لا ينعرون من الثراء ، ولكنهم يشجبون فقط « تفامات الثراء » ، ويفر كلارك القول بأن المخربين والمفسدين « يعرضون أنفسهم للاكتساح من قبل التروات المشوائية والتقصية ، التي كان بإمكانهم التبرؤ بعواقبها ويقعون ضحية الأهواء الطائشة والشهوات والتفامات والكبرياء والصالح الشخصي والتمتع الحسية الآنية » . وهذه التواصي هي التي تدفعهم إلى تعبئة إرادتهم وذواتهم بأفعالها المثالية للعقل لمواجهة طبيعة الأشياء ومقرليتها . ثم يطول الفارقون في المتع الدنيوية « تدمير هذا النظام الذي أقيم الكون على أساسه » .

والا كان رجال الدين لم يتصلوا قط شيئا بالتحديد عندما تحدثوا عن أصحاب الطليعات الدنيوية ، لذا كان بمقدور المؤرخ أن يتأمل معهم في

التعميم ، عندما يحرف « طابع » المسامية الدينية - فقد تحول الاحتجاج الذي بدأ في يواكير تسميات القرن السابع عشر ضد الطبقات المتخمة بالمال الى فيض من النقد والسخرية في عهد انجلترا الاجسطية (١٦) - واحسب أغلب هذا النقد الاجتماعي - وبخاصة عند المسافرين المحافظين من أمثال سويفت وبولجبروك وجاي - على الكشف عن المروض الساذجة للثراء والعدايات المبتذلة التي شاعت عند طبقة الاثرياء الجدد التي لم يستند وجودها على عراقة الأصل ، وغالبا لم يستند أيضا على المكتسبات « الحميدة » التي رضى عنها الفلين كمييار للمكامة الارستقراطية . والواقع أن هذه الطبقة الجديدة قد نسبت لنفسها نفس مكانة صغار علية العوم الاجتماعية ، بل ومكانة الارستقراطية - الى حد كبير - بعد أن استحوذت التوسع البحاري والمالي في انجلترا ١٦٨٨ فئة اجتماعية جديدة ، كل مؤهلاتها القدرة على الاستثمار والحرص اللاتب على الكسب . وأحدثت سرعة تحولهم الاجتماعي ، بالإضافة الى ما صاحب ذلك من ضعف التعاليم الدينية وسيطرة الكنيسة بهمة حركة الإصلاح الديني ، نظاما اجتماعيا جديدا . ولم تعد السلطة الاجتماعية والسياسية تتبع بالضرورة اساء الشخص الى أعلى المراتب العليا في الكنيسة ، ولم تعد للمشاعر الدينية التي تبرر أسقية النجاح الديوي حقيقة ملبوسة .

وعدد المخادعون مضمومو المبادئ نظام المجتمع ، ومكانة الدين في هذا النظام . وكثيرا ما انتقموا على حساب أهل الفضل ، كما ذكر كلارك بأسف . فلقد خلقوا موقفا لم يقتصر امره « على حرمان (الفضلاء) من الاستمتاع بالخبرات العامة التي مستود عليهم بطبيعة الأحوال وبانتظام كثرة لستهم بالفضيلة ، ولكن في كثر من الأحيان ، كانت مسا في تعرضهم لأفدح المكبات الدنيوية ربما لحرد اتصافهم بهذه الفضائل » . وهكذا كان النظام الاحماعي الرقيق الذي تصوره السوتونيون يتعرض بلا اقطاع لتشويه نظر من اللاعقلايين الذين دأبوا على السعي نحو تحقيق صالحهم الذاتي بلا شفقة ولا هوادة .

وسعى المتدينون لحلق نموذج لكيفية عمل نظام للمجتمع يمكن الاطمئنان الى تطبيقه . فلقد اعتقدوا في وجوب شرح هذا النموذج على الأمل أن :

« فساد الحالة الراعنة التي تكتنف الطبقة الشريفة الآن ، تحتم عدم ترك الشر بوجه عام للخصوع لما تلييه عليهم عقولهم ، ولاستعمال ملكاتهم الطبيعية ، ولواجهة المعتقلاات المجردة لقلوبهم » . ولكن يشتم تهذيبهم

(*) Augustan - يقصد به انجلترا بعد احتلالها للذمب البروتستانتى -

وتعليمهم بوجه خاص كيفية قيامهم بواجبهم • ويجب أن تفرس في عقولهم ودوافعهم هذه الأفعال ، في الأغلب وبصورة قوية ، وأن تثبت فيهم اعتمادا على سلطة لها وزنها • ويجب أن تقدم لهم العديد من المساعدات ، حتى يحافظوا بطريقة فعالة على ممارسة أعظم واجبات الدين وأبينها •

واتجه رجال الكنيسة لدراسة الطبيعة الفزيائية في محاولة لاصلاح فساد البشر ، ولتحهم - غالبا وبطريقة قوية - اعتمادا على سلطة لها وزنها • وقبل أن نناقش الدروس الهامة التي استخلصوها من الطبيعة ، وكيفية تطبيق هذه الدروس على المجتمع ، يجب أن نتوقف لبحث مسألة لماذا اتجه العديد من رجال الكنيسة في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر إلى الدراسة العلمية • وهي محاولة ساهمت بطريقة حاسمة في تقدم العلم الحديث والتكنولوجيا الحديثة على نحو يدعو إلى التقدير •

ولقد زودنا سمويل كلارك بإجابة جزئية • ولعل كلارك كان واحدا من قلائل من رجال الكنيسة في إنجلترا فهموا الفزياء السيوتينية فهما صحيحا ، وأقام فكره الفلسفي والأخلاقي برمته على تصورات فزيائية مدعومة بإنجازات نيوتن العلمية • وكما قيل ، فإن للفكرين الدينيين الإنجليز في أواخر القرن السابع عشر قد اتجهوا إلى الإشادة بالدين في الحالات التي اكتشفوا فيها نهوض الدين بطور اجتماعي • فالدين يؤدي مهمة تزويد المجتمع بالنظام ، وكبح جماح الشرقة والتفكير ، وتوطيد الاستقرار داخل المجتمع عندما يساعد على لم شمله والتئمه • ويرافق التأكيد الجديد للدور الاجتماعي للدين الأهمية التي نسبت للنمابة الالهية في الكون وشئون البشر - فإله يوجه ما يجري في العالمين : « بفضله حكمته وعدالته وخبرته التي تجلت في تنظيم العالم وحكمه لعالم الأخلاق الذي يعتمد بالضرورة على ترابط هيكل وحدته الكلية وصفوره » • وأكد كلارك - بكل ثقة - الدور اتصال للنمابة الالهية في الجانب الطبيعي للعالم ، وجانبه السيميائي •

هل أن كلارك قد كشف عن اهتمامه (ولابد أن يكون هذا الاهتمام قد اتخذ شكلا استفزازيا ومتعيا) عندما قال إن ما تضمه النمابة الالهية يتكشف لأعيننا • لأننا لا نرى غير آثارها في أسرارنا • بيد أن دور الله واضح ومتبايز في النظام الطبيعي • انه واضح مثل للناطق الذي استعان به كلارك في شرح لوصافه وآثاره • وكتب كلارك يقول :

« لربما بدا للوحة الأولى من الغريب أن جواهر لكل شيء في ذاته الكثير مما هو واضح جلي من دلائل لا تفكر للبراعة الدقيقة والحكمة

اللامتناهية لمخالفها العظيم ، التي تتمثل في نظام الطبيعة في عالم الماديات
 واجسادات ، وفي الجانب اللاعقلاني للطبيعة ، ابتداء من الملح النجوم في
 قبة السماء إلى أصغر حصة على وجه الأرض . فلا وجود لثتفة من المادة
 لا تعرض أمثلة للبراعة المفضلة ودقة التناسب والصنعة بقدر يتجاوز كل
 فطنة الإنسان (ولا أقول قدرته على محاكاته) ما يصعب بحثه كل شيء
 باستيفاء أو فهم . ومع هذا ففي اختراعه للعالم العقلاني والأخلاقي ، الذي
 خلقت باقي الأشياء من أجله ، والذي يرجع سر بقائها إلى كونها في خدمة
 هذا العالم ، لا وجود لدلائل واضحة بما فيه الكفاية في عصور كثيرة
 لا لحكمته ، ولا لمعالة الله وخبرته ، ولا لما يثبت تدخل العناية الإلهية على
 الإطلاق ، لاقتناع الكافة بوضوح وبصفة عامة . بأن العالم خاضع للعناية
 الإلهية المباشرة وللإطلاع الإلهي على كل ما يجري ، ولحكم الله .

ولن تظهر دلائل فاعلية الله في النظام الأخلاقي والسياسي إلا بعد
 مجيء حقبة حافلة ببعض الثورات الكبرى ، ومنجزاتها ، التي تثبت اعتماد
 الإنسان على الله جلّيا واضحا حتى لا يهد الناس إيماناً بالدين ، عندما
 يتكثف المخطط الإلهي في التاريخ ، وتعرف السماء والأرض في صورتيهما
 الجديدتين . وحتى يحين ذلك اليوم ، يجب أن يقتنع الناس بالإيمان بنور
 الماية الإلهية في عالم السياسة . ولكن عندما يسمى البشر لتفسير المعنى
 المتضمن وراء مخطط العناية الإلهية لمعرفة طبيعة المجتمع ، فإن الإيمان
 وحده لن يمد كافيا . فلذا أمكن فهم مخطط الله في العالم الطبيعي ،
 واستطاعت الطبيعة أن ترشدنا ، لو تقدم لنا نموذجاً يرمز ما يجري في
 العالم الأخلاقي . في هذه الحالة ، سيتسنى التعرف عند دراسة الطبيعة
 الفزيائية إلى بديل لما في هذا « العصر المزدول » من قساد وشر . وفي
 لواخر القرن السابع عشر ، استطاع العلم التزويد بدليل أوضح مما قدمه
 للمجتمع ، للدلالة على فاعلية العناية الإلهية . وأقبل رجال الكنيسة على
 « دراسة الفلسفة الطبيعية بأعداد كبيرة متزايدة » .

وقد كلاك كبدل لهذا « العصر المزدول » في محاضرات بويل النتائج
 المستخلصة من دراسته للطبيعة . فقد استعان كلاك ببياني الحركة
 وقوانينها ، التي تبرز عن دور الله ، والتي تضم بينان الفلسفة الطبيعية
 لنيوتن ، لتفسير طبيعة النظام الاجتماعي .

وربما يظهر للوحة الأولى تصور مثل تصور « الخواء » وتصور
 « المكان المطلق » و « الزمان المطلق » و « المسادة والحركة » بمبدأ
 الاتصال بنموذج المجتمع الذي يتطلع إليه رجال الكنيسة ، غير أن
 لفلسفة الطبيعة ذاتها الكائنة وراء محاولات نيوتن الرياضية والتجريبية ،
 والتي تبناها بدورهم المحبون عليه قد انبثقت من وسط فكري واجتماعي

قد أضفى حتى على الطبيعة الفيزائية أهمية أيديولوجية • فلقد تولى تفسير معنى القول بأن « المادة ميتة » أو « خالية من الحياة » بطريقة صارمة ، أفلاطونيو كيمبردج من أمثال هنري مور ووالث كادورث • ولقد قاموا بالمحاولة للتعبير عن رأيهم في مواجهة الماديين والملمحين في منتصف القرن السابع عشر ، الذين أكدوا وجود مبدأ للحياة في المادة ، ومن ثم استخلصوا قابلية الروح للنقاء • ولقد أضفى التكامل بين هذه المعاني الفلسفية الظاهرة الأهداف الاجتماعية والسياسية والراديكالية لطوائف بالذات مثل طائفة الماديين بإزالة الفروق (*) • وليس من شك أن نيوتن قد استخلص الكثير من فلسفته الطبيعية من أفلاطونيو كيمبردج • ولا أرتغب حالياً في التعرض لتعقيدات هذه المباحثات السياسية والأيديولوجية في منتصف القرن • وتعين الإشارة فقط إلى أن الفلسفة الطبيعية لنيوتن حتى في صورتها الأصلية التي ظهرت في منتصف القرن عتده وعند من عقبوا عليه لم تنصل البتة عن ميثاقها الاجتماعي •

والتصور القاتل بأن المادة ميتة وخالية من الحياة وممتدة ، ولا يخترقها شيء • تصور أساسي في الفلسفة الطبيعية اليونانية • فللمادة لا تتحرك ، سواء انخفضت شكل الكوكب ، أو في حالتها العرية ، إلا اذا دفعتها قوة لا مادية من الخارج • ومصدر الحركة هو الله • فهو الأصل والمصدر الثابت للحركة • القائمة في الكون • وعبر نيوتن عن تصوره للمادة في أوضح صورة في المبحث الواحد والثلاثين من كتاب البصريات (**) (١٧١٧ - ١٧١٨) : « ان قوة التصور الذاتي (***) هي مبدأ حلي يساعد على استمرار الحركة أو السكون • ويخلق الحركة على نحو يتناسب والقوة المضاعطة عليه ، ويقاوم بقدر يتساوى وقدر عقولمتها • وليس بالمتصور حدوث أية حركة في العالم اعتمادا على هذا المبدأ وحده • »

وتحدث قوانين الحركة (الجاذبية الكونية مثلا) تأثيرها القمالي على المادة من بعد • ويلزم وجود الخلاء لاحتياز هذه العملية • وللنقص الذي يحدث من خلاله اجتذاب المادة وحركتها كيتونة في ذاتها ، تعمل من خلالها قوة الله في الكون • والواقع أن قانون الجاذبية الكونية هو إرادة الله ، كما يمر عنها في الكون • ويكشف « نظامها الرائع » عن إرادة العناية الالهية لكائن عاقل قادر على كل شيء •

وبعد الثورة ، قال أنصارها : لقد كانت الإرادة الالهية ذاتها وراء الأحداث التي وقعت في ١٦٨٨ و ١٦٨٩ • وتمشيا مع هذا اللاهوت المؤمن

Levelled.
optics
Vis Inertiae.

(J)
(**)
(***)

بالمعناية الالهية ، شدد العقيدون النيوتنيون على الإشادة بدور الله في الكون . فنعنما بدأت الخلقية رضى الله ذوات الكون في نظام ، وشكل الله السماء البدائي في صورة الاطار الراهن للأشياء ، ويرجع استمرار بقائه هذا الاطار الى التمدد المستمر لله . ويقول لنا كلارك : « وبما لذلك ، فلا وجود لما يسميه الناس عادة بمسار الطبيعة أو قوة الطبيعة . وإذا توخينا الدقة في الكلام علينا القول ان مسار الطبيعة هو هو إرادة الله التي تحلت آثارا معينة على نحو مستمر ومنظم وثابت ومطرد . فإى مسار أو حالة من حالات الفصل تتصف في كل لحظة بالشوائب الكاملة ، سيكون من اليسر تغييرها في أى وقت ، مثلما يسهل الحفاظ عليها » . فالله بوصفه كينونة بحتة وروحانية وقوة هائلة حاضرة في كل مكان ، وكاملة وقادرة على كل شيء ، يمارس سلطته كاملة على المادة . انه المصير النهائي لكل حركة في الكون . وبإستطاعته تفويض الإنسان لممارسة هذه القدرة .

وفي المذهب النيوتني ، أثبتت القدرة الممنوحة للإنسان لتنظيم المادة ، وتحريكها ، أو تعديل اتجاه الطبيعة ، في نهاية الأمر ، المعاليم الاجتماعية « للحلاصين » . فالمادة عقل وغيبية (أى لا عقل لها) وللإنسان السيطرة النهائية – بفضل عقله – على الأشياء في العالم . واعتقد بتسلي أنه من السخف تخيل : « ان يقدور الدورات ابتكار الفنون والآداب والعلوم ، وتكوين المجتمعات والحكومات ، أو عقد المعاهدات والاتفاقيات ، وابتكار وسائل لتحقيق السلام ، وتخطيط استراتيجيات الحرب » . أو « التعامل في المسائل العلمية والحاصية ، وفي البحر والبر ، في دور البرلمان ومحاكم الحكام » . ويساعد التعريف اليونسي للعلاقة بين الإنسان والمادة على احارة السعي وراء الفايات المادية ، وتسجير الأشياء في هذا العالم لصالحها ، وبالتساورم والبيع والشراء والاستغلال بالأمور الدنيوية ، بعد معرفة أن هذه الأنشطة من الحقوق التي منحها الله . وتعد قدرة الإنسان على كسب المسلكات المادية امعداداً لحقه في تغيير مسار الطبيعة ذاته ، والتحكم في المادة ،تغفل والقبية» . ولكن الإنسان عنعما يتعامل هو والأشياء المادية. عليه أن يبت فيها نظاما شبيها بالنظام الذي فرضه الله على الطبيعة . وكما لا يتوقف الله عن الارتقاء صخير الكون ، فان على البشر أيضا أن يتشفوا بالخير الكوني . فالإنسان ملزم بالطاعة من يتسليون عليه والخضوع لهم في جميع الأشياء المادلة والحقة للحفاظ على المجتمع .

وفي عملية التحكم في المادة ، خصصت للبشر مواقف معينة . فمن الضروري للحفاظ على النظام الإجتماعي ، أن يلتزم الفرد بالرواحات التي يفرضها عليه هذا المركز بالذات . أو مقومات الحياة ، أيا كانت ، أي حيث وضعت العناية الالهية في الحاضر . وأن يواظب على عمله ،

ويرضى عنه ، دون شعور بالضيق والتبرم من كون الآخرين قد وُضعتهم
 العناية الإلهية في مواقع أفضل ومختلفة في العالم ، أو جعلته في حالة
 توجس شديد وغير معقول يدفعه إلى العمل على تغيير موقعه في المستقبل ،
 مما يشجعه على أعمال واجبة الرحمن * « فالبنیان الاجتماعی قد صدق الله
 على قیلمه ، ومحاولة تبديله تدل على الانحراف » *

وحدثت مثل هذه المطولة التبدلية إبان فترة الحواء (*) عندما سمح
 لأناس ذوي نفوس طموحة ومضطربة من شعروا بعدم الرضا وهم الإرتياح
 عن خصوصياتهم وأفرادهم بالحياة، وفقاً لمبادئ آييتور بالاستئصال في مهام
 المولة - ويلمح ينتلي بذلك إلى الطوائف المنشقة الذين حصلوا بطرق
 خفية على سلطات الأريستقراط « بالخصوصية » والانفراد ، والبلاط
 وما حل به من وهن في النظام الاجتماعي والسيلسي - وصنف ينتلي أفعالهم
 بالترعات الأبيقورية والشهوانية (**) التي لحها في مجتمع ما بعد ١٦٨٨ *

وبالمثل لم يكتب صمويل كلارك عن ذكر الفساد والفوضى التي همت
 العالم المحيط به : « لقد بلغت حالة البشر في هذه الدولة الراحة حدا جعل
 النظام الطبيعي للأشياء في العالم في حالة انحراف واضح ، مما حال إلى
 حد كبير دون احتلال الفضيلة والحير موضعهما الصحيح ، والنهوض بدورها
 في توطيد المساعدة التي تتناسب هي ومصلحتهم وممارستهم - ودفع
 التثاؤم السامع عن هذا التبصر بسلك البشر في العالم عند أولئك الذين
 يتجاهلون المصاة الإلهية والتحكم في شئونهم كلارك ، كما دفع معاصرين له
 من رجال الكنيسة إلى الربط بين انحراف القيم الاجتماعية وفساد الطبيعة .
 ولقد خلعت عطائه دوماً بتشبيه المجتمع بالطبيعة :

« عندما تتغلب الشمس عن مبدأ المساواة الذي تنبئه الآن في مسارها ،
 كما يمين من حرصها على نشر دفئها الرقيق وتورعها الوضاد ، ورعاية كل
 شيء بما ياسبه ومنحه القوة في كل بقعة في النظام الشمسي ، وتنبه عكس
 ذلك إلى الاحتراق واتساع مسار موج بعيد عن الانتظام ، فتنبه يضئ الأجرام
 بحرارة لا تخضع لأي كبح ، وتترك أجراماً أخرى للفناء من حول البرودة
 والظلمة ، فإن ما يحدث في هذه الحالة بالنسبة للعالم الطبيعي يشائل مع
 حالة الظلم والظلمين والاضطراب والنسبة للجانب الأخلاقي والمعنوي
 للخلق » *

لذلك اعتقد كلارك أن تدهور القيم الأخلاقية وفقاً للاستقرار
 الاجتماعي ، بالتبعية ، قد تسبب قبل ذلك في التدهور الفيزيائي للطبيعة *

Interrogation.
 Ethical.

(*)
 (**)

فإذا أمكن المبالغة ، دون حدوث انهيار للطبيعة ، لا بد أنفذ من توقف انهيار القيم الأخلاقية - لمبادئ النظام والعقل تتطلب التعبير عن نفسها - وعندما يحدث ذلك يتأكد وجود نظام كامن في الطبيعة ، ينطبق على النظام الأخلاقي والاجتماعي . ومن هنا يتضح كيف استعان رجال الكنيسة بالمذهب البيوتيني كنموذج كامن في الطبيعة ، وطلبوا مبادئه على المجتمع الذي يعيشون في ظله .

للمبدأ للنظم للطبيعة هو الجاذبية ، أي التجاذب الكوني والمتبادل لجميع الأجسام . ويمثل هذا المبدأ « أمر الله » كما يتجسم في قوانين الجاذبية التي تولد النظم والتناغم في الكون . وتقوم الجاذبية بدورها في المادة المحيطة بالحياة . ويضلل هذا الفراغ ، تيسر للفكرات التحرك في المكان والتشكل عن طريق الجاذبية في مادة الكون وصورته . وتعد قوة الجاذبية المتبادلة برهانا حاسما لاثبات وجود الله ، ولعل دليل التجاذب المتبادل في الكون هو أنصح دليل لاثبات دور المصاية الإلهية في الطبيعة . وقد استند كلارك في حكمه على دور المصاية الإلهية على هذه الصفة : « ان مبدأ الجاذبية بالذات هو أعظم المبادئ قاطبة ، لأنه مصدر جميع الحركات الكبرى المنظمة للجمادات في العالم ، لو يكاد يكون كذلك . ولا يرد هذا المبدأ الى أسطح الأجسام (فاعتادا عليه وحده يتعامل كل جسم مع الأجسام الأخرى) لأنها يحكم صلة محتواها لا يمكن أن تكون حصيلة أية حركة ضاغطة على الله ، ويحتم بالضرورة أن يكون معينها (بصفة مباشرة أو لا مباشرة) شيئا يخترق الجواهر الصلبة ذاتها لجميع الأجسام ، ويمت فيها بلا انقطاع قوة أو طاقة جديدة الاختلاف عن تلك القوى التي تحدث تأثيرا فعالا في المادة - وهنا برهان واضح لا يثبت فقط وجود علة عاقلة صليمة وراء خلق العالم ، وإنما يثبت فرق ذلك اعتقاد العالم في كل آن على كائن أسى ما للحفاظ على أطواره .. » ان هذه القدرة المحافظة والحاكمة ، سواء آكانت مباشرة في صورة قوة الفصل عنه نفس الصلة السلبية التي خلقت العالم معنى الله ، الذي بدوره لن يتمكن كائن كالمصنوع من التخليق في الجو دون أن يسقط على الأرض ، والذي بفضل وجد عدد لجميع شعرات رؤوسنا ، أو تمثلت هذه القدرة في شكل عمليات قانونية خصها الله بتوجيه أجزاء معينة أو التحكم فيها ، ففي كلا الحالتين ، يوسعنا الحصول على فكرة سلبية للغاية من معنى العناية الإلهية . »

ولمعت للمبادئ الفيزيائية التي فسرها نيوتن ولفظها في كتاب المبادئ الرياضية (٥) لرجال الكنيسة ما بدا لهم برهانا لا ينكر لاثبات

وجود العناية الالهية • ومثل هذا الجاذبية الكونية وسيلة يستطيع بفضلها الحيلولة دون حدوث انهيار للطبيعة ، والعمل كأساس « للحفاظ على الأخلاق المدنية في الكون وحمايتها من التشتت والتناثر » • وهذا حل بديل يمكن تقديمه لمواجهة مخلوق « افلين » من امكان اضجار العالم ، وتفتته الى شذرات ، ما لم يجر الإصلاح الديني • ولم يهدف المقبولون النيوتسيون اطلاقا لتفسير مبدأ استطاع الاوثكان عليه لتأكيد استقرار النظام الطبيعي • لأن مذهبه لم يظهر الى عالم الوجود الا بعد أن استند الى المبادئ الفزيائية التي شرحت في كتاب « المبادئ » • وكانوا يدركون ان الأحداث في العالم الطبيعي معلقة في نهاية الأمر تعليقاً مباشراً على الأحداث في عالم السياسة • وكانوا يهدفون الى انشاء نموذج فزيائي وأخلاقي وأيديولوجية اجتماعية تسند الى علم نيوتن ، وربما اتخد هذا النموذج كركيزة لتحقيق حركة الإصلاح •

ولقد بين كلارك بطلا غاية المنحى الذى انشاء على أساس التعاذب الكوني والمتبادل لجميع الأجسام : « ان جميع الجاذبات وجميع الكائنات اللاعقلانية ، يحكم ضرورة وجودها ، تخضع دائماً لقوانين خلقها ، وتزج بالنظام لسورغ الغايات التي خصصت لها • وكما سيبدو مريضا ادن أن نسيء الكائنات العاقلة الى هذه الميزة السامية للحرية التي رفعت مكانها فوق باقى خلائق الله • ان هي وصفت وحدها بالجزء البعيد عن العقل والنظام في الكون •

لقد أدى عصيان الكائنات العقلانية التي وهبها الله القدرة على تحريك المادة ، ومن ثم - امكن تعريض الحرية بأها القدرة على الفعل - أدى الى اسهامها للعمل ضد ارادة الله والى حجب رؤياها لأفعال الله الباعية من عابته في النظام العقلاى • غير أن كلارك اعتمد على معط العناية الالهية «المحدود» في العالم الطبيعي الذى تكشف بهه دراسة الفزياء النيوتينية ، وعاد الى « عالم السياسة » ، وطالب بيت نظم مقارن يستند الى خضوع الكائنات العاقلة لارادة العناية الالهية • فيجب أن تتأثر أنظمة الحكم المدنية ، بالطامع العقلى للعالم الطبيعى : « اذ يبين جلجا من مبالوسة ما يتسم به الكون من عدالة واصناف وجود وسيلة تتأثل في مباشرتها وكفايتها في الهوض بالصالح العام هي وعدالة البشر في المجتمع ، وهي وأية حركة فزيائية أو عملية هندسية عندما تحدث نتيجة طبيعية أو تترك أثرا طبيعيا •

وقام مفسرو نيوتن اعتمادا على بيورثينياتهم التي كانت أمرا شائنا بين المتدلين من رجال الكنيسة بوضع قائمة بظواهر الضلال والزندقة في عصرهم : « اذ باستطاعتنا ادراك ما يحبط بنا من قاذورات من شتى الأنواع وتصنيفها الى جانب الإلحاد وتاليه الطبيعة والشك والكفر بالله والإباحية

والزمنلة وغلبة الجنوح الى لؤدوه الله والأديان كلها ، والتومس بكل صورة
 في سبيل النعم الشخصى والميزات الشخصيه « - وتسير هذه الصورة
 للقائمة «لهاريس» تعبيرا بارعا عن المشاعر التي انتشرت في دوائر الكنيسة
 بعد ثورة ١٦٨٨ - فلقد أصبحت « البرزة الفردية الملكية » التي اكتشفها
 المؤرخون المحدثون في كتابات لوك وهوبز حائبا غالبا على السلوك الاجتماعى
 في إنجلترا في عصرها المجيد - غير أن للمنتحلين من رجال الكنيسة عنصرا
 انتقدوا هذا المسلك لم يقتصروا فقط شجب السعى وراء الصالح الدائى .
 فلقد قسم السيوتسيون - - مختلفين عن منافسيهم من رجال الكنيسة - تبرا
 لأسلوب معين يستطيع اتباعه في سعى الفرد لتحقيق صالحه الذاتى ،
 واكتفوا بإدابة من يفرقون بين الصالح الفردى والصالح العام ، ومن يرون
 عيوب الآخرين ، ويدفعهم الإحطاع بأنفسهم الى ابتكار البدع والتقاليع
 والتفنن في البحث عن المرفهات - فلقد أقلقت أتباع نيوتن المسامى المخطرية
 عن الصالح الدائى - ففى المجتمع يتوجب على البشر السعى بالقوة والتقدم
 على توجيه المادة ، على غرار القوة التى تمارسها المشيئة الإلهية عند
 تسييرها للفطسة - ووجهتهم المنفردين الآخرين الموهوبين بالقوة على
 تحريك المادة ، لابد أن يحرصوا النظام ، وأن يضمنوا الامارا ينظم ممارساتهم
 لحقوقهم ولتمييزاتهم .

فلا بد أن يكتمسب الإنسان في مسلكه في الأمور الدنيوية نفس والعقل
 الذى يكتمسب كل شئ - ، الذى يتجلى في تحريك الله للكون الفرائى .
 فكما لا تنصب قوة الله المطقة بالنسب على الإطلاق ، بفصل عقده التنسز ،
 فبتمين أن تخضع أيضا سيطرة البشر على المادة وقدرهم على تشكيل
 الجمادات لما يناسب احتياجات عقولهم ، بعد تهديدها وصقلها - فالآثار
 المتساعمة لفضل الله في الكون أمور طبيعية ومألوفة ، ونقصى فاعلة العلاء
 من البشر ، كما تتمثل في « الحقيقة والعدالة والجد » بالطبع وبالضرورة
 الى خير البشرية وسعادتها ، والى حدوث عون متبادل بين المجتمع والتجارة ،
 ونقصى الى « السكينة والسلام وراحة البال لجميع الحكومات والشوائم » .

وبرغ من بين حجج المعقبين السيوتيين تعريف جديد لفصائل
 الاجتماعية - فلقد تأكد حق الفرد على السعى لتحقيق صالحه الذاتى .
 فتمة مسائل بين حفاظ الفرد على مصالحه والحفاظ الدائى الكائن فى
 النظام الطبيعى . وتحقق هذه الحاجة دوما صالح الكل ، لأن صالحا تكاملا
 وناعسا فى الطبيعة . وبالحل فلا بد أن يفسح الصالح الشخصى الطريق
 أمام الضرورة العامة . وعلينا أن ندرك أن الإصباح الذى صادف فى نظام
 الجمادات نموذج يجب أن يقتدى به ما يملئه الصالح الذاتى ، الذى يجب
 أن يسائر احتياجات المجتمع . إن اشتهاه القوة لمر طبيعى ، ولكن أساسا
 استعمالها ليست كذلك . وهكذا تقعو الفضيلة الاجتماعية أمرا طبيعيا

للإنسان . ويحول المصلح المضاد للمجتمع الإنسان إلى شخص مشرف
« وغير طبيعي » . ومن ثم هذا وقوع الإنسان في الخطيئة - أساسا - في
نظر الأيديولوجية الاجتماعية النيوتينية ، شيئا يتنافى مع الطبيعة .

لقد وضمت سيطرة الإنسان على المادة ، من ناحية علاقته بالمجتمع ،
في موقف مماثل لملائة الله بالكون . فكما ينظم الخير الإلهي مسار الطبيعة
ويرتقى بالمصالح الكلي للكون ، لذا لابد أن يتشارك الإنسان أيضا في الجود
الاجتماعي الكلي . إذ تيسر له قدرته على تنظيم مسار الأشياء بهذه المجتمعات
على نحو يسر قيامه بتحقيق التناغم الكلي .

ودفعت الرغبة في تحقيق التناغم الاجتماعي ، التي اشترك فيها جميع
المحققين على بيوتن ، وأيضا وبحق ، الفريق للمعتدل بإسره من رجال
الكنيسة ، دفعتهم إلى إخضاع حتى المشاعر الدينية لاحتياجات المجتمع .
وذكر كلارك - مدفوعا بحماسة للتناغم الاجتماعي - وجوب انطلاق الفضيلة
الاجتماعية « اعتمادا على التأمل الدائم والمعتدل للخالق » ، وما يستتبع به من
كمال لا مناه وقوة لا متناهية ، وحكمته الكاملة في حكم العالم » . إذ تؤدي
دراسة النظام الفيزيائي إلى الفضيلة الاجتماعية ، وإلى الإخضاع للناسبه
لمبيع شهواتنا وفهمنا لحكم العقل الرصين والمتواضع . وعنده هي أكثر
الوسائل مباشرة لتحقيق السلام الوطيد والرضا الراسخ للعقل ، باعتباره
الركيزة الأولى ، وللمبدأ الأول ، وأعظم حقوق ضروري للسعادة الشاملة
الحقة . وتهدى المشاعر الدينية إلى أهم تعبيراتها الاجتماعية اعتمادا على
الدراسة المنهجية للطبيعية أو تأملها . وبالمثل لابد أن تخضع جميع المشاعر
الأساسية الأخرى للمعقل . وفي العالم الرصين للمعقنين النيوتنيين ، نرى
العلم والفلسفة الطبيعية يزدهران إلى جانب التقوى والاعتدال ، ويقمع
الجانب الأخلاقي في الإنسان لكي يتواءم هو واحتياجات المجتمع للتناغم .

إن هذا المنهج الذي تحقق فيه خضوع سعي الإنسان للمجتمع ،
التبسط من دوافع دينية أساسا ، والذي لا تستجلب فيه الاحتياجات
الإنسانية إلا إذا تواءم اشباعها مع احتياجات المجتمع ، قد تلقى التصديق
النهائي عليه من الله وعنايته . فإلله يتراءى العالم الحديث ، ويؤدي دعاية
هذا العالم دورهم لأنه يوائم مصالحهم الذاتي . أنهم يخضعون قدراتهم
لاحتياجات الكل ، ويخاطبون على ذلك ، بالتناغم الاجتماعي . وبادرك أن
مسلكهم كان طبيعيا . ويرجع مغزى ذلك إلى مبدأ كلن في نظام الكون ،
لأن الإنسان تنمعا يجمع العقل في مسلكه ، فانه يكمل النظام الطبيعي .
ويزداد ما ينجم عن ذلك من رضا عن النفس ، بدراسة الطبيعة أو العلم ،
لأنها تؤكد للبشر أن النموذج الذي جاءت به الطبيعة مازال يتمتع بسلاسة
وصحة ..

غير أن رجال الكنيسة أدركوا غلبة القوضى الاجتماعية والارتباك السياسي في مجتمعهم . ولما كانوا يعتقدون في وجود تماثل بين « عالم السياسة » وعالم الطبيعة ، فاهم كثيرا ما خشوا من أن يؤدي انتصار القوضى في عالمهم إلى حدوث دمار وشيك في النظام الطبيعي . وسمى البيوتيسيون أساسا لتقديم رؤية للمجتمع قد تدعم الاستقرار والتناغم ، وتحقق السعي المصطنع بالصبغة المسيحية للعدول الإنسان وواجبانه في النظام الاجتماعي . غير أنه وثي لضمان تحقيق هذه الرؤية وجوب نهر أصحاب المظلمات الدنيوية الذين يسعون وراء القوة والارتقاء بطريقة جائرة . والذين ربما قوضوا دعائم كل حكومة وسطان . فلربما تسنى لهؤلاء المنحليين والمخدعين - بعد انكارهم لدور العناية الإلهية ودفاعهم عن الأفكار الهوبزية والايقورية - أن ينشئوا مجتمعا يستبد منه الدين كقوة سياسية أو اجتماعية . وقد يضطرون من مكانة الكنيسة . وإذا فعلوا ذلك ، فإنهم سيدفعون المجتمع إلى حافة . ولم يتوقف البيوتيسيون عن الاعراب عن مفاهيم من مخططات الدنيويين ، الذين سينشئون - وفقا لتخيلهم - مجتمعا دنيويا وحكومة تتبع اتجاهها دنيويا صرفا .

إن ما لم يدركه المعتلون من رجال الكنيسة البتة هو أن تمايلهم الاجتماعية المستندة إلى النظام الصلوم للكون البيوتيني ، قد قصمت تبريرا قويا للنظام ذاته الذي اقلتهم . ففي مجتمع السوق الذي ازدهر في إنجلترا في القرن الثامن عشر ، بانن من مخطط العناية الإلهية ، استطاع حتى أولئك المخادعون المجردون من المبادئ تثبيت أقدامهم في نهاية الأمر ، بالرغم من عدم إدراكهم لما جد من مخطط عظيم . .

المراجع

- M. Bress, *The Scientific Renaissance 1490-1630*, (1967).
- I. B. Cohen, *Revolution in Science* (1985).
- E. J. Dijksterman, *The Mechanization of the World Picture* (1961).
- C. C. Gillispie, *The Edge of Objectivity : An Essay in the History of Scientific Ideas* (1960).
- A. R. Hall, *The Revolution in Science 1500-1750*, (1981).
- M. Hunter, *Science and Society in Restoration England*, 1981.
- A. Koyré, *From the Closed World to the Infinite Universe* (1957).
- B. J. Shapiro, *Probability and Certainty in Seventeenth Century England : A Study of the Relationship between Natural Science, Religion, History, Law, and Literature* (1983).
- R. E. Schofield, *Mechanism and Materialism : British Natural Philosophy in an Age of Reason* (1970).
- R. E. Sullivan, *John Toland and the Deist Controversy : A Study in Adaptations* (1982).
- R. S. Westfall, *Never at Rest : A Biography of Isaac Newton* (1980).
- R. S. Westfall, *Science and Religion in Seventeenth Century England* (1958).

القرن الثامن عشر

يطلق عادة على الحياة التي سبقت اندلاع الثورة الفرنسية ١٧٨٩ اسم النظام القديم . وبدأت هذه الحقبة في نظر بعض من عاشوا فيها بمدى حقبة هدوء قبل السنوات العاصفة للثورة . ومع هذا فقد تمتع المجتمع الأوروبي في أواخر القرن الثامن عشر بالحياة إلى حد كبير . وليس من شك أن هذه الحقبة لم تتصف بالركود ، ولم تخل من الأحداث إطلاقاً . ففيها بذرت بذور نوع جديد من المجتمع والحياة الفكرية والاقتصادية .

وانضطرت جميع حكومات أوروبا لمواجهة مشكلات الواقع المتصلة بالقانون والنظام . إذ كانت الأغلبية العظمى من الأقاليم من القرويين الذين يقتاتون على ما يزرع في الأرض ، التي كانت تشعب أحداث عديدة من التمرد والعصيان من جراء تنازع القرويين على حقوق امتلاكها واستئجارها وإقامة الأسوار عليها . وتحدثت إيزابيل دي مادارياس عن أضخم هذه الانفصالات وأخطرها . أنها تمرد القرويين والقوزاق في روسيا في عهد الملكة كاترين الكبرى . وثارت في المدن بعد انساعها مشكلات مخلفة تتعلق بالقانون والنظام . وكتبوا ما لجأت في شتى الأحياء الطبقات الحاكمة إلى توقيع عقوبات شديدة الصرامة على السلوك الإجرامي . وتحدثت جون ماكمانز عن الانعدام الملموس في فرنسا ، كاجراء متطرف لردع الجريمة ، وتكشف عن موافقة المجتمع على الخضوع لحكم النخبة القائمة .

وشهد اقتصاد القرن الثامن عشر في أوروبا أمس الثورة الصناعية ، والتوسع في التجارة . ويكشف جنيفر ثاين عن الصعوبات التي واجهت الصناع الأول للمحركات البخارية لاستحداث أسواق لمنتجاتهم . وينظر روبرت دابرتون في الجانب الاقتصادي من عصر التنوير ، ويتحدث عن كيف تم نشر الإنسكلوبيديا الكبرى ، وكيف أمكن بيع مجلداتها التي حلت بالإصلاحات الدينية والاقتصادية والسياسية في سائر أنحاء أوروبا .

ومن بين ملامح مداخلات فكر التنوير ، كما تبثل في الانسكلوبيديا وكتابات « الفلاسفة » الآخرين ، النقد القاط للمسيحية والكنائس الوطنية في أوروبا . ويجرد منه الثورة الفرنسية ، أثبتت بعض سياساتها القليلة انها اكثر اثارا للجدل والانقسام من عجزها على الكتيبة . وحدث ميكائيل كنيدي عن اثر المستور للمغني للاكليموس ١٧٩٠ ، وما اثاره من جدل وانقسام في الرأي ساعدا على وضع اساس محاولة تجريد فرنسا من المسيحية ابلان حكم الذعر . ويكشف كلوس ابستين بدوره عن كيف أدى التنوير والهجوم الثوري على الدين الى بزوغ الطرقات السياسية والاجتماعية المحافظة في ألمانيا . ولحق انه يصح النظر الى ظهور الاتعاملات المحافظة في أوروبا على أنها نتيجة لقرن كامل من التحولات الجديدة في الضغوط الاجتماعية والسياسية التي دفعت الطبقات الحاكمة في نهاية الامر الى ادراك ان موقفهم من المواقف التي تتطلب جميعا جديدة ومبررات ذاتية جديدة .



THE (1911-1912) AND (1913-1914) YEARS

تمرد القوزاق وحرب انفلاحين في روسيا

ايزابييل دى مادارياجا

قبل ثورة ١٩١٧ ، كان الخطر تهدد تعرضت له الدولة الروسية هو التمرد الذى حدث في القرن الثامن عشر ، وفلم به القوزاق والملاحون ، وقاده اثنين بوجاتشوف بين ١٧٧٣ و ١٧٧٥ . وتمثل هذا التمرد هو والكنز من أحداث التمرد والعصيان والتشاجبات المحلية في شتى أنحاء أوروبا في القرن الثامن عشر ، فيما تضمنته من محاولات لاسترداد الامتيازات التقليدية والعادات الاجتماعية التي كانت قد فقدت من جراء سياسات التزوع نحو العصرية والعقلانية في ظل نظام ملكي مركزي قوى ، والتف حول بوجاتشوف ألوان شتى من السخطين . ومن الناحية العسكرية ، كانت أهم فئة بين هؤلاء السخطين هم فئة القوزاق الذين كانوا - بوجه عام - من الجنود الفرسان من غير المنتمين إلى الجيش النظامي ممن اضطلموا بهمة الدفاع عن بعض حدود الامبراطورية الروسية في مقابل حصولهم على بعض الامتيازات . ولقد كانوا يرغبون العودة إلى أسلوب في الحياة إلى انضباط ، ويرغبون أيضا استعادة الحصول على الأرض . والتف الملاحون أيضا في أعداد كبيرة حول بوجاتشوف سعيا وراء المزيد من الحرية الشخصية ، والاستيلاء على مساحات كبيرة من الأرض وللأعطى من الخضوع للأعباء التي يفرضها عليهم ذلك ، وبالإضافة إلى ذلك ، كان هناك د فئسي للمؤمنين « من الناقمين على التفريعات التي جرت منذ أكثر من قرن أماموسات الكنيسة الروسية ، وكذلك الرقيق الأبيض من الكادحين في مسابك المغان التي انشئت إبان حكم بطرس الأكبر » .

وتطلعت جميع هذه الفئات لتكوين قيصر « بلفمى الحقيقي » كانوا أنه قد يرفع بكرمه وشهائته الضيم عنهم ، وانتموا بسهولة بهم توافر هذه الشروط في الامبراطورة كاترين البولودة في ألمانيا ، والتي اعتلت عرش روسيا ١٧٦٢ بعد اغتيال زوجها بطرس الثالث ، ومن ثم فانها

لا تصلح لحكمهم . وأعلن بوجاتشوف نفسه القيصر ، بالمعنى الحقيقي ، يتجلبوب مع طغمان السود الأصنام من الآيين القوزاق والفلاحين . ولكن السؤال هو : لماذا اتبع كثيرون هذا الشخص الذي ، وأبعد الناس عن الصلاحية للحكم ، ليس بالاستقلالية إعطاء جواب شاف عن هذا السؤال . وليس من شك أن بعض الناس قد اعترفوا به كقيصر بالمعنى الحقيقي ، لأنه قد تجلبوب بوسائله الفجة مع طغمانهم . فلقد اعتقد ما يعتقد أنه للظهور الحقيقي للقيصر ، وألف بلاغا ، وأصدر التعليمات لتحقيق اهتماماتهم ، وعلى هذا النحو ، اتخذ زعيم التمرد وأعوانه الرئيسيون المظهر الخارجي للسلطان السياسي الشرعي ، ومثلوا الدور الذي كان من المنتظر نؤوضهم به . وأحرز بوجاتشوف نجاحا عسكريا مبشريا ، أكد مزاعمه .

والثمة المراحل الأولى من التمرد لم تكن كافية لخدمة على الاستمالة بجيشها الظاهري لاستغلالها في الحرب ضد الامبراطورية التركية ، أو طالبا العالم . وبعد أن انتهت هذا الصراع بالانتصار ، أطلقت جيشها ضد القوزاق والفلاحين . وهزم بوجاتشوف في نهاية المطاف ، وإن كان هذا لم يتحقق إلا بعد حرب شرسة شروسى طمت عدة أسابيع . وكان من أهم في نظر كاترين وحكومتها عدم الاكتفاء بهزيمة بوجاتشوف ، وإنما كان عليها أن تثبت أيضا أن القوات المسلحة التي تتبع السلطات الروسية القوي من القوات الانتزعية الناتجة للسلطة ، التي جعلها القيصر القوزاق الزائف .

يجب أن ينظر إلى التمرد الكبير الذي وقع بين ١٧٧٠ و ١٧٧٣ على ضوء خلفية التوتر المزاج في مثل القوزاق ، أثر اعتماد السلطة المنهكة للدولة الروسية ، وما عرف عنها من ترمت ، وإمكانية عليهم . وأشمل فتيل التمرد ظهور زعيم قدير هو المشق دون قوراك لملين بوجاتشوف بعد خمس سنوات من الحرب والمطامير وارتفاع الأسعار وما تكبدته طبقات الجماعات الشاقة وحشد الجيش من تكاليف باهظة . وكان فعوى الكثير من سخط القوزاق قد عرف أمره مما جاء في تعليمات مبعوثهم وأحاديثهم في اللجنة التشريعية ، وإبان فترات الاضطراب المستمر في أواخر ستينات القرن الثامن عشر ومبشريناته . وعانت جميع مناطق القوزاق من تصادم القيادات العسكرية العليا والسود الأعظم من الجنود ، ومن الصدام بين الانتماء والفقر ، وبين من ارتضوا بيع أنفسهم للخروج من الخدمة ومن أروها على الخدمة ، وبين أكرام الحكومة الروسية والطبقات الفردية لرعياء القوزاق . وفي ١٧٨٨ ، وبعد أن أعلن القوزاق (*) الحسيان .

استدعى بيتر كالينشفسكى القوات الروسية لحماية كبار الضباط القوزاق (٢) - وما لبث أن قام هو نفسه بالتهديد بطلب الحماية من الحكومة التركية (الباب العالي) إذا لم تفلح الحكومة الروسية في معالجة ما يسود «المقل» من ظلم واجحاف .

وفي شهر العون ، أدى طموح «الأتقان» يغيريوف أحد رؤساء القوزاق الى اثارة مشاعر الغضب «بالمقل» الى حد الملبان . ولكنه منذ اندلاع الحرب ، كان يتآمر هو والقول (٣) في الامبراطورية العثمانية . ويسعى لزيادة سلطاته في المقل على حساب الحكومة . وعندما حاولت السلطات القبض عليه في نوفمبر ١٧٧٢ ، قام القوزاق بحركة عصيان . وقتلوا العديد من الضباط النظاميين ، وقبض على يغيريوف في نهاية المطاف ، وحركم بتهمة الخيانة والمسالحة لصالح للتول ، ثم حكم عليه بالنفي الى لينونيا ، وعاد السلام الى «المقل» .

ويبلغ الاخلال بالنظام مرحلة اخطر في مقل آخر حيث احدث التوتر بين كبار الضباط (٤) وباقي الجيود انشقاقا شطرا الجماعة الى شقين : شق المناصبين وشق «الرافضين» . وفي ١٧٦٩ ، اعلنت عدة مئات من الشق الأخير العصيان ، ورفضوا الخدمة في مواقع خارجية قصية ، ومنحت قوات الحكومة تحت قيادة الجنرال تروانبرج العصيان ، ووقعت الأحكام القاسية المهددة . وعندما لم يمتد للبعوثون الى العاصمة بطرسبورج الى أية نتيجة في التماسهم رفع الأحكام ، اندلعت أحداث اضطراب أخرى في يناير ١٧٧٣ ، وقتل فيها الجنرال تروانبرج . تم أرسلت قوات اضافية تحت قيادة الجنرال فريمان لاستعادة النظام . وبعد أن وصلت القوات في يونيو ١٧٧٣ ، أعاد فريمان النظام الى المقل ، ودعم رقابة الحكومة على مواقع الحامية ، ولوفد بثة خاصة لحاكمة زعماء زمرة المتوردين ١٧٧٣ . وصدرت مرة أخرى أحكام عديدة بالملك والأشغال الشاقة . - الخ . وأمر ٢٤٦١ من القوزاق المذبذبين المشتركين في التمرد بقطع غرامة جماعية مقدارها عشرون ألف روبيل . ونفذت الأحكام في مقل بايتسك نفسه في يوليو ١٧٧٣ ، وترتب على ذلك تحول المقل الى برميل قلابود لا يحوزه أكثر من شرارة بسيطة لكي يشتعل .

Starchina.

(٢)

Kuban

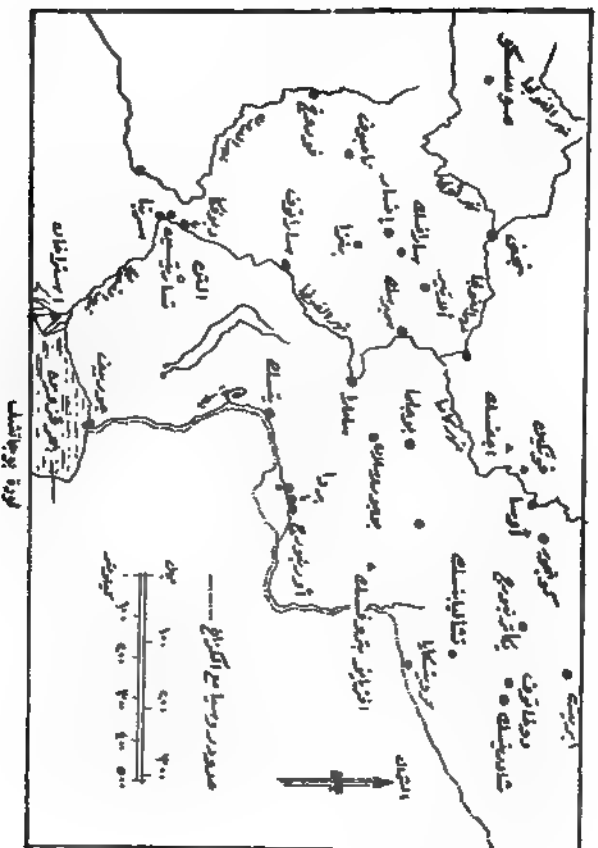
في (★★)

Yalik.

في (★★★)

في مثل هذا الموقف ، كان من المحتوم أن تلقى الشائعات بوجود قيصر آخر ما زال على قيد الحياة التربة الخصبة لاضفاء الشرعية على مرادم الساخطين . فاقصد على الروس آمالهم طيلة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر في الهروب من الاضطهاد على وجود أو اكتشاف قيصر حقيقي انتزع منه العرش من أثر مؤامرات البولوار (النبلاء) - وادى علم استقرار الخلافة على العرش في القرن الثامن عشر إلى ظهور حنة من الأديباء ممن انتحلوا شخصية بطرس الثاني (١٧٢٧ - ١٧٣٠) أو شخصية الفتى ايفان السادس أو حتى الكسي بتروفنتش ابن بطرس الأكبر . ولكن إلى أي حد اعتقد أتباعهم في صحة ما يدعون ، وإلى أي حد وثق أتباعهم في زعمهم ؟ ولطاهر أهم جسيما عاشوا في عالم يجمع أنيا بين الايمان واللايائن ، يعني أنهم كانوا يستندون على الايمان لتبرير أعمالهم عندما يخشون ارتكاب خطيئة ضد القيصر المين من قبل الله ، لأنهم لا يتوقعون حدوث تحسن في أوضاعهم إلا عن طريق هذا القيصر . ويجنحون في ذات الوقت إلى اللايائن عندما يواجهون الحقيقة القاسية عند القبض عليهم ومعاقبتهم عقابا وحشيا . ونادرا ما طالب عامة الناس بأى برهان يثبت هوية « المدعى » اكتفاء بتفتيش جسمه بحثا عن علامة تثبت انتسابه إلى أسرة القيصر . وساعد تركيز الشائعات دائما على شخصيات لم تحكم قط . أو حكمت لفترة قصيرة فحسب ، أو ماتت صغيرة في السن مما جعلها غير معروفة ومحاولة بأسرار خفية . ومبشرة بأمال كبيرة يقدم عهد أفضل . ساعدت على وضع ظاهرة (٢) الادعائين في عالم الفولكلور والأساطير والبلاد والشعر البطولي ، الذي يلجأ إليه دوما خيال الأذلاء والمضطهدين . ويجدر بالملاحظة أن أحدا لم يزعم أبدا أنه بطرس الأكبر ، أو أن بطرس الأكبر تم يموت .

وأتت فترة الحكم القصيرة لبطرس الثالث إلى تفضيله للقيام بهذا الدور عند « الادعائين » ، وانتشرت قور وفاته الشائعات باستمرار وجوده على قيد الحياة في بطرسبورج . وفي ١٧١٣ ، اتهم أحد الجنود بأنه صرح بأن بطرس مازال على قيد الحياة . وعندما مثل كيف عرف ذلك ؟ أجاب : ألا تعرفون أن أسقف روستوف أوسيني ماستيفنتش قد خلق من مصبه لأنه دفن بطرس الثالث بنوع الخطأ ؟ وهنا مثل كلاسكي بين كفة تحول الأحداث السياسية إلى أساطير . وفي ذات السنة ، انتشرت شائعة في أورنبرج بالتجاء بطرس الثالث إلى معتقل القوزاق في يايك . وتكاثر المدعون أو الأديباء (فقد ظهر عشرة من هذا الصنف ما بين ١٧٦٤ و ١٧٧٢) وكان من بينهم بوجوموئوف ، وهو من المبيد الفلاريين ، ولعله أهم من جسده آمال القوزاق ، وأعلن يساعدتهم في مارس ١٧٧٢ أن اسمه هو



« بطرس الثالث » ، وقبض عليه في ديسمبر ، ومات في طريقه الى سيبيريا . غير أن المباحثات التي اطلقت به انتشرت على نطاق واسع ، بأن الحكومة قد امرت باصدار نشرة توزع في محفل دون قوزاق وفي القوقاز بالقاء القبض على القيصر المزعم ، ومما قبلته ، وترتب على ذلك ازدياد الاعتقاد بأن بطرس الثالث مازال حيا حزين ، ويحيى وسط القوزاق .

ولم تضي سوى أسابيع قليلة بعد تنفيذ الأحكام في بايك القوزاق في يوليو ١٧٧٢ ، حتى ظهر على المسرح « بطرس ثالث » جديد أكثر جسارة وانصافا بالمهاجرة . فلقد ولد لملين بوجاتشوف حوالي ١٧٤٢ ، وينحدر من أسرة أحد جنود القوزاق ، واشترك في حرب السنوات السبع ، ومرة أخرى في الحرب ضد الأتراك (الباب العالي) ١٧٦٨ ، حيث ولى الى أصغر رتب الضباط القوزاق . وفي ١٧٧١ ، فر من الخدمة العسكرية ، وظل يقيم على وجهه الى أن بلغ ناجاتروج في الجنوب ، موطن بعض أقباطه ، ثم انتقل الى محفل القوزاق على نهر تيريك . وبعد تطواف من مستعمرة المؤمنين القساري الى مستعمرة المؤمنين الجديد ، استغل أمرا من أولمر المفو المدينة التي أصدرتها الحكومة الروسية للقارئين المائدين ، وعلاوة الطهور في محفل هر اللون ، بعد أن احتل شخصية مواطن بولاندي . وبعد أن حصل على جواز سفر في أغسطس ١٧٧٢ ، استأنف تجواله مرة أخرى ، فأقام بين « المؤمنين القساري » ، وغالبا ما كان يتخفى في شخصية أحد التجار الأتريه . وفي نوفمبر عاد الى يايتسك ، وأقام مرة أخرى وسط « المؤمنين القساري » . ولم يكن قد مضى على حركة الصيادين في المحفل أكثر من خمسة شهور ، وكانت الأحكام مازالت سارية المفعول .

وفي هذه المرحلة ، تقدم بوجاتشوف كأحد التجار الأتريه (ممن يملكون ما ينوف عن المائتي ألف روبل في الخارج بالإضافة الى سلع تتجاوز السبعين ألف روبل) ، وعرض نقل الساخطين القوزاق الى خارج روسيا الى « كوبيان » في القرم - وهي من المناطق التي يحتلها المولى ، وعرض مبلغ اثني عشرة ألف روبل منحة لكل قوزاق ينضم اليه . وأكد لمتبعيه قريحيب « ليلانشا » القرمي بهم - ولأول مرة في يايتسك ، ادعى بوجاتشوف أنه بطرس الثالث . لها الظروف التي أحاطت بهذه الواقعة فبازالت في على الكتبان ، نظرا لضارب الأداة التي قدمها بوجاتشوف ذاته وانصاره التواقون لتبيرة ساحتهم . وطبقا للرواية التي ردها بوجاتشوف ، فإنه أبلغ حفيقه أنه الامبراطور بطرس الثالث ، الذي نجا بصعوبة من الموت ، ثم تجول بعد ذلك في مصر والقسطنطينية وبولاندة .

وما لا شك فيه أن بوجاتشوف اكتشف أن الروح السائلة هي قوزاق يايك مشجعة . لما ما بقي غير مؤكد فهو ما كان يخطط لتنفيذه في هذه المرحلة . ولا ريب أنه عاش طويلا في عالم الفانتازيا ، وعندما كان مازال بالخدمة العسكرية ، كان يخبر بأن أباه الروسي بطرس الأكبر هو الذي منحه سيفه الأثير . ولربما يكون التقرير المتضمن القول بأن بوجومولوف هو بطرس الثالث ، وبأنه قد تم القبض عليه هو الذي بيده إلى ذريحه الرمح بأنه « القيصر » بشخصه ولحمه . ومن جهة أخرى ، ففعل الفكرة قد راودته عندما كان مقبلا بين قوزاق يايك . ويشجع افتراض قيام بوجاتشوف باختراع الفكرة في المؤلفات التأويلية السوفيتية ، اعتمادا على مدعيها لبعض قرصياتها الأسامية ، ومزادها أن بوجاتشوف كان يمي بقيامه بتخطيط سرد يسم الأمة كلها ضد المبودية ، وصمم على انتحال شخصية بطرس الثالث كحيلة استراتيجية لتحقيق غايته . غير أن الدليل على صحة مثل هذه الخطة بعيد المنال وواه نوعا . إذ تذكر روايات اتباعه أن بوجاتشوف كان يخطط لقيادتهم إلى ما وراء الحدود وإلى تركيا . ولعالمهم نزعوا إلى تزييف أدلتهم للتخفيف من جرمهم في نظر الحكومة الروسية . بيد أن الرجل في بلاد أخرى كان أكثر توافقا هو والتقاليد القوزاقية من الهجوم بالموهبة على الدولة الروسية . وتثبت كلمات بوجاتشوف أنه كان متعبا لاساسا بالأزمة التي تعرض لها أسلوب القوزاق في الحياة بتأثير ضغوط الدولة الروسية ، وليس من أثر أوجاع وتآوهات الفلاحين في جملتهم .

ولم يبق بوجاتشوف أكثر من أسبوع بعد زيارته الأولى لمقل يايك . وعندما عاد إلى نهر الدون ، سرعان ما قبض عليه بتهمة الفرار من الجندية ، ومقل إلى كازان في مشارف يناير ١٧٧٣ ، واعترف عند استجوابه بأنه حرض القوزاق في يايك على الفرار ، ولكنه لم يذكر أي شيء عن ادعائه بأنه بطرس الثالث ، ونجح في الهروب في مايو ١٧٧٣ ، وعاد إليهم على وجهه مرة أخرى حتى أغسطس ١٧٧٣ ، وعندما عاود الظهور مره أخرى في يايك . وهناك أطلق مفسقيه في الحمام على « علامات الاتماء إلى الأسيرة المالكة » وكانت تدوبا على القفا وعلى صدوره - وهي علامات مكرسة غريبة عن الأوصاف التي تسبب للملك الإلهي الشرعي . ومن ذلك المين ، بدأ الاعتقاد يسود في المقل بأن التاجر بوجاتشوف هو في الواقع بطرس الثالث . وكان المقل ما زال يتوجع ويتحسر من وطأة الأحكام المؤقتة على العصاة في يوليو ١٧٧٣ . وشرح زوار بوجاتشوف من القوزاق مطالبهم إلى « بطرس الثالث المزعوم » وتتلخص في كون الجهات الروسية المسئولة طالبت بإقامة منشآت جديدة وتشكيلات جديدة ، بينما طالبه القوزاق ، أن تستمر الجمعة التي اقرواها في سابق عهدهم ، يعني كما كان

الحال في عهد بطرس الأول أو الأكبر ، وتبعاً للوائح التي كانت متبعة .
 واشترك بوجاتشوف وضر من الأجرية من القوزاق وحدة من المغول بأعداد
 البرنامج الذي سيرتكن إليه للحصول على الاعتراف به كبطرس الثالث في
 معقل يايك ، ووعده بتأمين العيش تبعاً للأسلوب البحر القديم ، الذي
 يستطاع إجماله : « في إتاحة حرية العمل في مخابك يايك وحرية استئصال
 الأرض والمرافق وإعطاء الملح والمراعي من القصرية ، ومنح كل من يمتنى إلى
 القوزاق اثني عشر روبل سنوياً ، وكيلة من الغلال » .

لقد كان هؤلاء القوزاق يصلون علم اليقين أن المدعو بطرس الثالث
 ما هو في الحقيقة إلا الفوغلازي القار بوجاتشوف . ولابد من الاعتراف
 بأنهم قد أنبتوا بهذا الاعتراف أنهم كانوا من رواد تنظيم التمرد ، وأنهم
 كانوا على دواية بضرورة مصلحتها بثوب الشرعية لو أريد إفسادها . وأغلب
 الظن أنهم وهم في مثل هذا الحال من التبرم والاحتجاج قد رحبوا بوصول
 وجل مقدم على استعمال لتمثيل النور . وانصبت دائرة المعارف بحقيقة
 بوجاتشوف ، وسره ، فضمت قوقاريين لديهم أهداف قوقاريه بسيطة
 وشخصيات مثل القائد السابق ليبيك ومتزعم جناح العصاة أوليانوف ،
 الذي كان يأمل في استيلاء بوجاتشوف على الدولة ، وبذلك يتقلد إحدى
 الوظائف المرموقة . وربما كان من الصحيح أيضاً أن ادعاء بوجاتشوف
 « القصرية » لم يلق اعتراضاً يذكر ، لأنه كان من بسطاء القوزاق ،
 وبالإستقامة التعرف عليه بسهولة ككاتب لشعبه ، وليس بالشخص الذي
 يفصله عن أقرانه فجوة ثقافية واسعة . ولعل جمع القوزاق للألفة والاحترام
 في معاملتهم له لم تكن - كما يحتمل - جانباً من المؤامرة ، ولكنها تمثل
 الجمع بين العيش في العالم الحقيقي والعالم الرائف في ذلك الوقت .

وحدد لاندلاخ الانتفاضة افتتاح موسم صيده أسماك الشتاء . وفي
 الوقت نفسه ، عثر اصغار بوجاتشوف على رى مناسب بجارة عن قطبان
 يقوتى اللون وقلنسوة من المخمل ، واحتاروا له سكرتيراً هو إيسان
 بوشينالين ، لأنه كان أمياً . غير أن الأحوال في الخارج هي التي أدت إلى
 سريع الأحداث . إذ سمع قومندان حامية يايكسك شائعات عن وجود أحد
 الأدعياء ، وإرسال دوريات لتقبض عليه ، فحسم للتأمرؤن على العمل فوراً .
 وكتب أول بيان لبوجاتشوف على عجل . وفي صباح ٧ سبتمبر قرئ في
 هرعة إحدى عائلات القوزاق على بعد مائة فرسخت (الفرسخت ٦٦ ميلاً)
 من يايكسك في حضور جمع مؤلف من ستين إلى مائة شخص من القوزاق .
 واضممت إليهم فئات أخرى من المغول وغيرهم . وجاء في البيان ما يأتي :
 باسم الإمبراطور بيتر فيدورفيتش ، قد صعد غفو عام عن جميع رعايا
 بوجاتشوف ممن ارتكبوا جرائم ضده ، ثم طرح برنامج القوزاق أمامهم :
 « يعني حرية الملاحة في الأنهار من منابها إلى مصابها ، وحرية زراعة

الأرض . وإن يكون دفع الضرائب بالمال والرماس والبارود ، ومعدات من الخلال » .

ثم اختل بوجاتشوف توا إلى يايستك . وفي اليوم التالي ، عندما توقف عند القلعة ، كانت قواته تضم ثلاثمائة مقاتل يحملون ببارود تمرد ١٧٧٢ عالية على حراهم ، ومنقوش عليها صليب المؤمنين القلعي . وكان لقومندان يايستك ما ينوف عن الألف جماعة (الجماعة تتألف من عشرة رجال) ، ولكنه كان يعرف عدم إمكان الوثوق في القوزاق ، وبخاصة بعد أن انضم كثيرون منهم إلى بوجاتشوف . وقبض على آخرين ، وشنتوا من قبل المتوردين حتى أصبحوا عبدة للآخرين . غير أن هجوم العصاة على الحصن ود على أعقابهم في ١٩ سبتمبر . وأدرك بوجاتشوف أنه في مقدوره التصدي لنيران مدافع القلعة النظامية ، وتراجع في مجلات نهر يايك . وأزال من الوجود أثناء التراجع التحصينات الصغيرة . وكان القوزاق والجنود في كل مكان يتوجهون إلى المتوردين ، أو يطلق عليهم الرصاص . وشنت بعض القوزاق ضباط الجيش . وبعض القسس . وكان من بين الضباط القوزاق الذين استسلموا لبوجاتشوف المساعد السابق لرئيس اللجنة التشريعية بالدوروف .

وبعكس اختيار الهدف التالي الأولويات الضرورية للقوزاق في حركة التمرد في هذه المرحلة . وكان بمقدور بوجاتشوف التحرك نحو خط « سبارا » والممثل . وآخر بدلا من ذلك انضم إلى أودينبورج ، لمركز الإداري العسكري الذي كان يسيطر على يايك منذ إنشائها ١٧٢٥ ، ووصل إلى المدينة في ٥ أكتوبر ١٧٧٢ ، يرافقه ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل وحمل من ٢٠ إلى ٣٠ مفعلا . ولكن لم تتوافر له القوة الكافية للاستيلاء على المدينة بالهجوم المباشر . ومن ثم قرر فرض الحصار على أودينبورج ، واتخذ برذا مركزا لقيادته (على بعد ٥ فرسخت) .

وفي ذات الوقت ، وصلت آخر الأنباء لظهور بطرس الثالث الجديد في يايك إلى بطرسبورج في ١٥ أكتوبر ١٧٧٢ ، وبدأ الموقف يميل إلى موقع الأحداث كأنه فتنة محلية صغيرة . واستمررا لثمد ١٧٧٢ . أد كانت الحكومة على إدراية حسنة بأن الإدارة الحكومية في أودينبورج ، والتي تضم معظم الباشكيريا تساني من حوالا القيصين في هذه المدينة ، وخاصة حمايتها . أما الإدارة الحكومية الكبيرة التي كانت تقيم بجوار كازان ، فلم تكن تضم أكثر من ثمانين موهبا يشرفون على منطقة عدد سكانها مليونان ونصف للمليون . غير أن كاترين بذلت قصارى جهدها لشن هجوم ضد

الأثرak ، ولم يكن بالاستطاعة الاستغناء عن القوات المدوية ، ومن ثم اضطرت الى تجهيز حملة تاديبية صغيرة تحت قيادة الجنرال كلر من كالزفن بالإضافة الى فصائل أخرى من سيميرسك وسيبيريا ، ولكن قوة كلر هزمت في وقت مبكر من نوفمبر ، وتوجه القائد بنفسه الى العاصمة للابلاغ عما حدث ، وبعد أسبوع هزمت قوات بوجاتشوف فصيلة الحكومة القادمة من سيميرسك (وشقى الكولونيل) ، وبعد أن تحصن بوجاتشوف لما حققه من انتصار ، وشعر بالانتشاء ، سمح للطاير الثالث المؤلف من ألفين واربسمائة مقاتل واثني عشرين مدفعا بالانزلاق الى نوونبرج ، وبذلك تمكن ساركها الحازم رايمدوب من التركيز على فرض حصار استمر ستة شهور ، وفي ياتيسك أيضا ، تحصن القائد في القلعة ، واستمد للدفاع عنها تاركا باقي المدينة للمتبردين .

وفتحت هزيمة التجربة الامبريالية التاديبية الباب أمام امتداد التمرد ، فوصل الى بشكيريا حيث فرض زاووين تشيكا - وهو من أقدر معاوني بوجاتشوف - الحصار على لوقا في نهاية نوفمبر ، بينما احتل أحد أتباعه الآخرين (ايليا لرابوف) ساماروا لفترة قصيرة (وهناك دقت أجراس الكنيسة تحية له ، وأقيمت شعائر الصلاة على شرف بطرس الثالث) في نهاية ديسمبر ١٧٧٣ .

وفي ذات الوقت ، ساعد النجاح الذي حققه التمرد المبدئي على تصعيد حشككات التنظيم والمفصلات المؤن . وهي مشكلات لم يحده يفقدور الحفنة الصغيرة من الأصفياء ممن التفوا حول الرعامة في أول أطوارها ، اليهودي بها ، ومن هنا تشكل في مركز قيادة بوجاتشوف في برذا الجهاز الحكومي للمتبردين الذي أطلق عليه اسم «كلية الحرب» ، واسميت هذه التسمية من المؤسسة الحكومية المركزية ، باعتبار كلية الحرب من الأسماء المألوفة عند القوزاق . وقضيا عن ذلك ، فقد دعم انشاء مثل هذه الكلية الايها لم يعمود تمرد تحت قيادة «القبصر» ، الذي كان قادرا في ذات الوقت على اقامة فاصل بينه وبين أتباعه ، استنزاه التنظيم المعكم للتمرد ، وان كان قد جع الى الانتفاص من عنصر المساواة ، الذي كان من مقومات هذا التمرد في أطواره الباكرة .

والمتسول الرئيسي في الكلية تمشا مع التقليد الروسي من الأعضاء الإكراه واصمه أندريا قيتوشوف . وعين إيفان بوشيتالين الذي كان يكتب بيانات بوجاتشوف سكرتيرا للجلس . وبذلك أعيد القلب المسكوفي الذي كان قد اختفى من الوجود منذ اصلاحات بطرس الأكبر ، ووجدت «كلية الحرب» المتبردة أيضا عددا من الكتاب الملمين بالقراءة والكتابة ، وتولى أحد القلائل ممن ينحدرون من أصول النبلاء مسئولية الاتصال بالمتبردين .

وكلف شغافيتش بالاضطلاع بمهام للرسلات والاتصالات باللغة الألمانية والفرنسية . وتولى اثنان من زعماء المفل : ايديا بيكوف وابنه كتابة هذه للرسلات ، وحرروا بيانات بالقربية والفارسية والتركية والمغولية . وجمعت وظائف « الكلية » بين الناحية المدنية والناحية العسكرية . فكانت تشرف على شئون المتطوعين الذين كانوا يتوافدون للانضمام الى بوجاتشوف ، وهم مسلحون عادة بأدوات الفلاح ، أو الرماح . وتتولى أيضا أمر تنظيمهم في تشكيلات عسكرية على غرار ما يجري في صفوف القوزاق . وبمجرد قبول المتطوع في القوة ، يعترف به كواحد من « القوزاق » للفرقة بينه وبين « اليهود » النظاميين الذين كانوا يحاربون في صف الامبراطورة كاترين . وعند اللحظة التي استقر فيها بوجاتشوف في مقر قيادته في يردا خارج أودينبورج واجهت حركة التمرد مشكلة التجنيد ، إذ قدست أعداد غيرهم من المتطوعين للصل على مقربة من يردا حول أودا (٢٠) . وما لبثت الحاجة الى مد نطاق العمليات ، أو الإعداد للدفاع ضد قوات الحكومة ، أن قدست زعماء التمرد الى استعادة أحد لسلطة الترسانة القيصريّة ، يعني « التجنيد الاجباري » ، فسمعت الأوامر الى الأقاليم المحيطين بالتزويد بمجندين « بمعدل واحد من كل ثلاثة بيوت » ، بل وأحياناً بمعدل واحد من كل بيت . وفي يناير ١٧٧٤ أمر أحد المتطوعين بجمع أنوار لخمعة اللورد بيتري فيودورفيتش ضد وغيابهم ، « والفضاء على من يرغصون الأذان ومصادرة أملاكهم » ، وطر الى القسم بالولاء لبطرس الثالث ، على أنه اعتراف رسمي بالولاء . وبذلك أرغم جميع من خلوا أمام المدعى العام ، أو أسروا بحلفان ذلك اليمين . ولم يكن أمام أحد فرصة الاختيار ، لأن العقوبة كانت توقع على الفور ، وجررت العادة أن يتم الموت بطريقة موجهة عضاباً للرأضيين .

وكان على « كلية الحرب » المتمردة مواجهة مشكلات الإمداد والتموين والنخرة ، وتزويد الخيول بالمليقة . وجررت هذه الناحية بعض المشكلات مع الأقاليم في المناطق التي تسيطر عليها قوات بوجاتشوف ، أو في الواقع التي لم يكن لديه أنصار كثيرين فيها من الموظفين ، وانتخب آخرون مدلاصهم . وفي أول موجة من محاولات التمرد ، قتل بعض الأعيان المحليين وزوجاتهم وأطفالهم وعبيدهم ، بالإضافة الى المسئولين المحليين ، وختم الكنيسة . الخ ، بطريقة وحشية ، مريضة في بعض الأحيان . وحاولت « الكلية الحربية » المتمردة ممارسة بعض الانضباط في هذا المفسمار بالبحر الى إصدار المنشورات (٢١) ، وترك الحكم في هذه المسألة لقرار مركز

(*) يتكلموا الى ما بعد Yaku (crinburg) و Chelyabinsk
Ufa.

القيادة • ولعل هذا التلّيل أيضا كان مثلا آخر من أمثلة المنازعات التي
ثارت ، وكان لا مفر من حدوثها ، بين القوزاق والبلشكير - من ناحية -
وبينهم وبين الأهالي المدنيين - من ناحية أخرى •

واستمرت الدعوة • للإيهام بأن بوجاتشوف هو القصر ، في معسكر
المتهمين بالإنتحار إلى وسيلة صورت التوتر السيكلوجي داخل القيادة •
فلقد أمشا بوجاتشوف بلاطا ، اقتفى فيه أيضا ببلاط كاترين وتسمى
بعض أعرانه الحميص بأسماء وألقاب كبار المعلمين ببلاط كاترين • فاسمى
شيبانيف - وهو من أقرب أعوان بوجاتشوف ، ومن الزعماء المخلصين لاسم
نفسه بالكونت باين • وتسمى زعيم آخر باسم الكونت أولون وتسمى
زاروبين شيكا - أبراهم - بالفيلد مارشال الكونت شيرنيشيف (وهو
الاسم الحامس لرئيس كلية الحرب في بطرسبرج) • وفي فبراير ١٧٧٤ ،
تزوج بوجاتشوف بابتة أحد القوزاق في يايك ، بعد أن هجر زوجته
وأولاده وتركهم في نهر الدون • وعملت هذه الرواية كأنها • جلالة
الإمبراطورة • ، وعينت بعض النسوة من القوزاق كوصيفات شرف لها •
ولكن زواج بوجاتشوف أضعف من مركزه ، لأن الجميع كانوا يعرفون أن
بطرس الثالث كان متزوجا من كاترين التي اغتصبت عرشه • وانضم
العوام إلى موته لاعادته إلى العرش ، الذي اغتصبت منه زوجته • ولا يسي
أله من المستبعد أن يقدم قصر حقيقي على الزواج من ابنة أحد العوام
القوزاق • وهكذا أدت النزاعات الشخصية الأناية إلى تمزيق قساع
الوحش •

ومرة أخرى ولائيات الأمالة ، وعلى شبهة الزيف - وإن كان هذا
المسل قد عكس التصور الأول للمصدر الشرعي للسلطة ، الذي بمقدور
عالم القوزاق إدراكه - أصدر بطرس الثالث منشورات ، دعى في كتابتها
بقدر الامكان الأسلوب الرسمي للكتابة في روسيا في القرن الثامن عشر ،
بل وطبعتهذه المنشورات - باعتبار المنشورات المطلوبة وحدها هي المعتمدة
قانونيا في روسيا ، وضمت مجموعة متنوعة من الاحتمال • ومن بين الأختام
الطريقة اللاتنية ، ختم استعمله بوجاتشوف في أغسطس ١٧٧٤ ، ويحمل
الكلمات الآتية : « بطرس الثالث برعاية الله - إمبراطور التاج » • وتعلو
هذه الكلمات صورة شخص يرتدى بازوكة وله شارب • ولعل هذه الصورة
تشبه صورة بطرس الأكبر كما تصورتها مخيلاتهم • واستعمل زعماء
آخرون أختاما تحمل شعارات المائلات النبيلة ، والمصانع • بل ومصانع
تطير الغنور •

ومن المسير للغاية تقدير مدى السلطان الذي كان يتمتع به بوجاتشوف
في الدائرة المحيطة به من أولئك الذين يعرفون شخصيته الحقيقية - وكان

يعمل بالاحترام في المدن . وفي الجلسات الخاصة ، كان الزناد يجلسون لتناول القهوة سوياً ، وسأول من صعدوا الى القمة في البداية منح الآخرين من الاقتراب من بوجاتشوف ، والتأثير عليه ، وصرح يوما ما لاحد اقاربه : « ان طريقى ليس مفروشا بالورد ، ولكنه طريق مصبوع للفاقة » - فلم يكن دائما قادرا على حماية من يرغب في حمايتهم ، وغالبا ما كان يرى نفسه في مواجهة الامر الواقع (*) - وعلى الرغم من احتمال قيام الزعماء بادخال بعض الضبط والربط في معسكر للمتمردين ، الا أنهم ظفروا وقتا لما ذكره المعاصرون حفة من الموعاة المنعطف . وكانت الصلوات تقام يوميا من أجل الامبراطور « بطرس الثالث » وزوجته كاترين الى أن تزوج بوجاتشوف « يوستينا » - غير أن المعسكر كان حافلا بزوجات الصباوات وبنااتهم ، ممن أسروا ووزعوا كضائم على المتمردين - وكانت احكام الاعطام تنفذ في كل لحظة ، وكانت الأخاديد المحيطة مشحونة بالمتجند بلا دفن ، وموائد الشراب حشيرة في كل مكان .

ومن اليوم الأول للانتفاضة في سبتمبر ١٧٧١ ، وجه بوجاتشوف نشاطات الى الشعوب غير الروسية في المنطقة الشمالية التي تقع بين نهر الفولجا ونهر يايك وغرب سيبيريا - وكان من بين اوائل أعوانه في سبتمبر ١٧٧٣ ، عشرون من المنول وعشرون من الكالكوك - من مجموع المائتين وعندهم ثمانون - وقد وجه بيانه الأول لهم أيضا وخصهم بالذكر - وتضمن هذا البيان المغز عن جميع من حاربوا وبفعلوا جهدا ضد الدولة الروسية في حروب الباشكير في أربعينيات القرن الثامن عشر ، وصدرت بيانات عديدة في أكتوبر ١٧٧٣ تمهيد الباشكير باتباع أسلوبهم التقليدي في الحياة المتميزة وإباحة تملكهم للأرض والمياه والأخشاب ، والايامن بما يروقهم ، واتباع ما يناسبهم من قوانين وغذاء وزي ومزيتات ولورد وصيد - كما لمنهم على « ابتنائهم » ، بمعنى عدم استرقاقهم ، والتمتع بحق « التشبه بوحوش الاستبس والانطلاق في الحياة الرعوية البدوية » - ولكن بخلاف المبادئ الموجهة الى الاتباع الروس ، لماتنا نلاحظ أن بيانات بوجاتشوف لم تكن موجهة ضد فرائس الظلم الاجتماعي في بشكيريا لكنهم على الانتفاض على رؤسائهم ، ولكنها تخطب زعماء القبائل البشكير ، وتحرضهم على رفض أسفاد اضطهاد الدولة الروسية -

وما إن حاد أكتوبر ١٧٧٣ ، حتى انضم الى بوجاتشوف ما لا يقل عن الآلاف من الباشكير تحت زعامة كينزيا بوسلانوف ، الذي استمر موافقا له حتى النهاية - وبفترة انقض الباشكير على أحد الرموز المقوتة للوحد الروسي في بلادهم : المسابك - قفى نهاية الستة سقط بين أيدي المتمردين أربعة وأوسر من المسابك والمناجم ، التي كانت تمون بوجاتشوف بكميات كبيرة

من قطع غيار الدفاع والدخائر ، وبالتعمدة على صنع أشياء كثيرة • فير أن المشروعات الصناعية لم تنتقل دائما وعلى الفور الى التمردين • فلم تشر بيانات بوجاتشوف الى الفلاحين المكلفين لو ابقاء المصانع أية اشتراكات خاصة • ولجا المترددون أحيانا الى الفلاحين المكلفين لتشغيل المصانع ، ودافع العبيد العاملون في المصانع في بعض الأحيان عن مصانعهم ضد محاولات البلبشكير تدميرها ، بعد أن شعروا بتوتر صلتهم بحياة المصانع •

وما أن جلت بداية يناير ١٧٧٤ حتى رأينا قوة مختلطة مؤلفة من نحو ألفي رجل من القبول وعبيد المصانع والجنود الفلاحين والفلاحين المكلفين يهودها قائده شاب من البشكير يدعى سبالافت يوليافيف ويرافقه كوزيتسوف تشن هجوما على مساكن السماس في جبل الأورال • وجمعت بعض البلاد في الدفاع عن نفسها ، لما بدت شليابنسك فقد احتلت لفترة وجيزة ، وتحرك المترددون صوب دير دلاتوف ، وكان مشهورا بسوء سمعته عندما كانت الكنيسة تملك عبيدا • وكان الدير مطبعا بأسوار عالية حثينا عليها ستة عشر مقعرا من مختلف الأعيرة • واشترك الرهبان وموظفو الكنيسة في الدفاع عنه بمساندة بعض القرويين الذين لا يستمد عليهم • غير أن الدير قد تحرر عندما هبت قوات الحكومة لنجدته في ١٤ مارس ، وهزمت الجيش المتردد في أحد أحياء المدينة •

ثم ظهرت بواردة حجة تمل على يده تحرك الحكومة ، بعد أن استشارت أنباء دسر فضيلة كلز في أكتوبر ١٧٧٣ ، والأخبار المثقلة من محافظة فونبوج للكلزة كاترين في نوفمبر ، وببعتها الى خطوة الموقف • وفي ٢٩ نوفمبر ١٧٧٣ ، عين الجيرال بيبكوف للفرشال السابق في اللجنة التشريعية لاحياء الانتفاضة ، مع منحه سلطات كاملة للتعامل مع المسئولين العسكريين والعلماين المدنيين في الكنيسة • تمشيا مع القوانين العسكرية والمادية القائمة • • وطلب من بيبكوف أيضا تشكيل مجلس تطبيق لمعرفة سبب التمرد ، وما جرى فيه ، وأصبح هذا المجلس يعرف فيما بعد باسم « المجلس السرى للكلزان » •

وبعد أن اتخذ بيبكوف كلزان مركزا لقيادته ، اتر وصوله في ٢٦ ديسمبر اتخذ خطوات فورية لاعادة توطيد سلطة الحكومة واستعادة الروح المعنوية ، وشجع النبلاء على تشكيل عدد من وحدات المتطوعين ، وتسليح ما تمت لمرتهم من فلاحين • واقتضت الامبراطورة بهذه الخطوة ، وبوصفها من « ملك كلزان » اشرت بغرض ضريبة على فلاحى القصر ، وأولدت فاسطا لقيادتهم • وشاركت جميع الرتب في الكنيسة بدور فعال في توزيع بيانات الحكومة ، واتخض امر بوجاتشوف ، وزفه • وما أن وافقت نهاية يناير ،

حتى رأينا الجانب الأكبر من القوات التي وضعت تحت تصرف بيبكوف تصل وتحتل مواقعها ، وأوسلت فصائل مختلفة لتفرقة للمتمردين الذين يصلون بين كلزاي ولوقا .

وفي الوقت نفسه ، انكف الحصار لقروض على مدينة أوقا منذ منتصف نوفمبر ١٧٧٣ ، وشارك ما يقرب من جميع أهل المنطقة من غير الروس في الانتفاضة . غير أن القويود أو اللدنيين وقائد القوات النظامية نجحوا في السيطرة على أعصابهم ، ولجأوا إلى تنظيم دفاع فعال . وفي ٢٣ يناير ١٧٧٤ ، شن زاروبين شيكا على رأس اثني عشر ألف من المقاتلين هجومًا قويًا ، ولكنه ود على أعقابهم . ولجأ المتمرّدون بعد ذلك إلى الحصار ، ثم تراحت العمليات العسكرية خلال شهري فبراير ومارس ١٧٧٤ ، بينما قام زاروبين شيكا بالتبصّاح مرارًا هو والمدافعون عن أوقا ، وطالهم بالاستسلام . وفي ذلك الوقت ، تقدمت قوات الحكومة تحت قيادة ابن العقيد ميخائيل - وهو من المخابرين القمعة في حرب السنوات السبع - وشب القتال بين قادة المتمردين . وفي ٢٣ - ٢٤ مارس هزم زاروبين شيكا على رأس جيش مؤلف من (بين سبعة آلاف وعشرة آلاف رجل) في معركة شرسة حرت بسهم وبين الجنود المحترفين لابن ميخائيل ، ودفع الحصار عن أوقا وقبض القويود على زاروبين ولياتوف وسلموا إلى ابن ميخائيل .

بقيت بعد ذلك أورنيبورج تحت الحصار زمه ستة شهور ، وكانت قيادة ياتيسك مازالت متحصنة في قلعتها . واحتد النقص في الموقعين في المؤن والعليقة والقويود خلال أشهر الشتاء . وتركزت قوات كبيرة في المنطقة الواقعة بين يورجوسلان وبوجولان تحت قيادة جوليتسن لتحرير هذين الموقعين تمهيدًا للزحف إلى بوجاتشوف نفسه . وعصم قائد التمرد على التوقب في تاتيشيفو التي تحكم الطريق المؤدية إلى لورنيبورج والطريق إلى ياتيسك ، وحشد لهذه المهمة حوالي تسعة آلاف رجل وستة وثلاثين مدفعًا . ولم يتوادر لجوليتسن أكثر من ستة آلاف وخمسمائة جندي وبين اثنين وعشرين وخمسة وعشرين مدفعًا . وجرت الموقعة الحاسمة في ٢٢ مارس . وبعد مبارزة ثنائية بالأسلح الأبيض ، انفدع الجنود الطامبون التابعون لجوليتسن، وأجهزوا على مقاومة المتمردين، وأثبتت قوات المتمردين عجزها مرة أخرى عن الصمود أمام وحدات صغيرة من الجنود المدربين . وتكد الطرفان خسائر فادحة - فقد فقد جوليتسن مائة وأربعين ، وجرح ما هو أكثر من خمسمائة من قواته . وقتل من بين المتمردين ١٣١ وجرح قرابة ١١٨٠ ممن سقطوا صرعى أثناء مطاردتهم ، وأسر حوالي ثلثة آلاف أسير . وهرب بوجاتشوف وقليل من الزعماء الآخرين إلى بردا .

وتسببت هزيمة تاتيشيفو في خلق أزمة بين المتطرفين. فقد اتفقت
 القيادة في قواته بعض القوات الشديدة اليمين من القوزاق في إياك -
 من القربى من بوجاتشوف - وحلوا محل الفلاحين والجنود في واجبات
 الحراسة في بردا - وفي نفس الوقت ، أسرع آخرون إلى نقل أمتعتهم
 استعدادا للرحيل مما أثار شكوك الكافة من غير القوزاق . وبعد اقتراب
 قوى الحكومة ، اتضح أن الهروب من المصعة لن يتيسر لهم من يملكون
 خبرا . بيد أن القوزاق عندما تغلوا عن الفلاحين المسلحين تسليحا هزلا ،
 فافهم كشفوا بوعي ، أو بلا وعي عن استقارهم لن يحرثوا الأرض : « فقد
 أنكروا اتصافهم بصفة المحارب ، ووسقوهم بالوثاق » . وفي ذات الوقت نزع
 كثيرون من القوزاق إلى التفكير في طريقة النجاة ، وديرث مؤامرة للقبض
 على بوجاتشوف ، وتسليمه في الوقت المناسب ، وإزداد التوتر داخل
 بردا . وفي ٢٢ مارس ، غادر بوجاتشوف مقر ميلادته برفقة اثنين من الرجال
 وعشرة مدافع . وفي اليوم نفسه ، دخل الحرس الألماني لقوات جوليستن
 بردا ، التي تجرت فيها عمليات السلب والنهب والدمر والاغرام في
 الشراب ووقعت فنون قوات بوجاتشوف الهاربة في الأسر . وكان من بين
 الأسرى معظم زعماء « كلية الحرب » والأمن العام بوشيتالين ، وانكض الحصار
 عن أودينبورج . ففي ١٦ إبريل ، حررت حامية ياتيسك بعد أن كان
 المحاصرون على وشك الموت جوعا . وبعد أسبوعين ، ظهرت قلعة حوريف
 عند مصب نهر اليابيك وبحر قزوين من المتطرفين . ولم يفلح المنعص
 الذي وسع خطة النصر حيا لكي يرى ثمرة عمله . إذ مرض ييبكوف الذي
 قاد المعركة بالحمى ومات في ١٧ إبريل ، وشعرت كاترين بالولوعة لموته ،
 وانتقلت قيادته العسكرية إلى العقيد الأمير شيرباتوف .

وقامت البعثة السرية التي أعياها ييبكوف في الوقت نفسه بالتحرك
 لمعرفة دوافع التمرد : كيف استطاع بوجاتشوف تسمية نفسه « بطرس
 الثالث » ؟ وهل هناك أصابع اجبية وراء ذلك ؟ : فرنسية أم تركية ؟
 وما هو مدى مشاركة النبلاء المتحصنين و « المؤمنين القدامى » ؟ وكانت
 البعثة السرية - أو بسكوف بمفرده - مقوضا - باصناد أحكام بالموت ،
 وتنفيذها ، وإن كان المتبع في حالة النبلاء وكيف على القوم ، إحالة
 أوراق اتهامهم إلى الإمبراطورة للتصديق عليها . وفي الأسابيع الأولى
 لمحاكمة البعثة السرية لها مها ، كانت تراعى الحرس عند تطبيق حق
 إصدار الحكم بالموت . فشنق أحد المبيد لاتهمه بقتل عشيقته ، وشنق
 عدد قليل من الجنود المفلول لاشتراكهم في التمرد ، وحكم على آخرين
 بطوبقات شتى كالسجن لمدة متفاوتة ، وأطلق سراح العديد من الأشخاص
 ممن كانوا متورطين جزئيا ، بعد أن أقسموا بمنح الولاء للإمبراطورة ،
 واتهمت البعثة السرية الأساليب اليهودية في انتزاع الاعترافات كالحل

مثلا . وفي تمثيل كاترين للاقلال من الاتجاه للتخريب . وكنت كاترين الى بيبكيوف في ١٥ يناير ١٧٧٤ : « لست أشك أنك ستلتزم بقواعدي » وإن كانت القسوة ضرورية لحيانا . وأرجو أن تلم البعثة السرية بالحرص عند إصدار قراراتها بتوقيع العقوبة . وفي رأي أن الجندي « س » والجندي « ص » قد جلدوا رغم برائتهما . وأيضا هل هناك حاجة للجلد أثناء إجراء التحقيق ؟ لقد شاهدت بنفسى علم أقدم البعثة السرية - زهاء اثنتي عشرة سنة - على جلد شخصي واحد أثناء استجوابه . وكانت كل قضية تصنف وفقا لحالتها تصنيفا صحيحا . وفي ذلك ، فقد امتدنا الى معرفة ما هو أكثر مما أردنا معرفته . « هكذا كتبت مرة أخرى في ١٥ مارس » غير أن كاترين صفتت على أحكام الإعدام ، وبخاصة على الضباط الذين أُمِلُّوا في أدلة واجبه . ولأن كانت قد تركت أمر التنفيذ لحصافة بيبكيوف . وتعرض بعضهم للعناية والتعذيب (ربما لست مرات أثناء حكم كاترين) . ولا تزال وتبته الى رتبة « نقر » في الحامية .

وبعد أن نجحت حزبية قوات الحكومة لبيعاعات المتبردين المختلفة . لإعداد عدد الأسرى الى حد كبير . حتى عجزت كلز أن تستيعابهم . وفي حالات كثيرة ، خفف قادة وحدات الاغاثة العقوبة في الواقع الذي حدث فيه الحاكم . ولم يحولوا غير زعماء المصاليات الى كلز . ومنعوا الباقين . شهداء بالفر . وبعد موت بيبكيوف ، ألقت البعثة السرية نفسها بلا سيد . ولديها ١٦٩ أسيرا في كلز . وما ينوف عن الأربعة آلاف في أودنبرج . وغيرهم كثيرون في مختلف المراكز . وبعد أن اقتنست كاترين بشخص ظهر التمرد . عينت في ١٦ أبريل الجنرال ششرباتوف للمطول مكان بيبكيوف . بغیر أن يتحتم بسلطانه الواسعة . ووافقت على القرار الذي اتخذه بيبكيوف بأشياء فرع للبعثة السرية في لورينبورج . ووضعت البعثتان السريتان حينذاك تحت سلطة محافظي القسيتين .

ولكن الحكومة تسرعت في الاطمئنان الى اتصالاتها . إذ هلل بوجاتشوف مطلق السراح . وبعد أن فقد الأمل في العمل كسميل لكوبان ، أو حتى لفارس . تقدم متبوعا بحوالي خمسة آلاف من الباشكير المسلحين تسليحا وأمنيا بالإضافة الى شحنة من فلور عبيد المصانع والقوزاق . من مسبك لآخر . في تشكيل دائري واسع . مخترقا بشكيريا . وكان يضرب الباشكير قد نزحوا بالفعل الى عقد مصالحة مع الحكومة . وتقديم المساعدات لتعويضات الجنود النظاميين . غير أن آخرين من أمثال سافلات يولاييف وأصولوا الكفاح لصالح بوجاتشوف أو ربما لصالح فلورهم . « الله أعلم » . أما التقدم ميخائيلسون الذي كان يتود فصيلة الحكومة في المنطقة فقد أقسم على مطاردة بوجاتشوف من مسبك لآخر . غير أن ذوبان الجليد قد صعب مواصلة عمليات الطرفين الى حد كبير . وبعد مطاردة طغت ما يقرب من أربعمائة يوما . شمرت قوات ابن ميخائيل بالانهاك . فاضطر للاستعانة بال

لوقا ابتغى للراحة ، وتعرض الحسائر . وانتشر الذعر في سائر أنحاء بشكيريا ، وحتى مدينة أوقا قامها فقتت الاطمئنان الى سلامتها . فلا أحد يعرف أين يوجد بوجاتشوف ؟ وأين سيضرب خريفه التالية ؟ فبعد أن مر مروراً عابراً بأوقا ، اتجه الى الشمال ، وظهر أمام قلعة أوسا في ١٨ يونيو ١٧٧٤ . وبعد أن حاصرها ثلاثة أيام ، استسلمت القلعة لبطرس الثالث الذي كان يخلق التحية العسكرية الامبراطورية . وجاءت الخطوة التالية ، وهي عبور كاما للوصول الى كازان . والتقت عبيد المصانع والفلاسون من معسكر التجنيد في برم للاضمام الى الثمردين الى جانب الكثير من الباشكير ، وتوقف لاشغال الحرائق في ايجيفسك وفوتكين ، حيث قوبل بالترحاب رغم محاولات المدافعين من الفلاحين ومسال المساكين من العبيد مصحوباً بنق الأجراس ووسط التلويح بالرايات التي تحمل صور الأقنات . وتقدم جيش الثمردين بلا حول ولا قوة صوب مدينة كازان التي كانت خالية من أية قوة دفاعية .

وكانت مدينة كازان تضم أحد عشر ألف نسمة ، أغلبهم من المتول . وكانت مبنية أساساً من الخشب . إذ كانت حتى قلعتها مبنية من الخشب . وكان الجنرال فون براندت المحافظ المريح على يبة بالأخطار المحدقة به من كل جانب وكتب في ٢٤ يونيو رسالة عاجلة الى القائد الأعلى في المنطقة الأمير ششربانوف يطالب بتعزيزات ، ولوند رسلا الى جميع الاتجاهات ، ولا سيما الى ابن ميخائيل . واستقر ششربانوف في مكانه - يعني في أورسبورج - حتى ٥ يوليو . غير أن ابن ميخائيل قام بالضغط محاولاً عبور كاما ، واعتراضه سبيل بوجاتشوف . وكان يأمل في الوصول الى كازان في ٨ يوليو أو ٩ يوليو ، ولكن الحاجة الى خوض غمار عدد من الانهال حال دون تقدمه ، فلم يعبر كاما الا في ٣ يوليو ، بعد أن سبقه بوجاتشوف في العبور ، وظهر مصحوباً بششرين ألف من رجاله أمام المدينة . وفي ١٢ يوليو ، فاجأ هجوم الثمردين للتشعب في ثلاثة اتجاهات المخاضات المرتجلة للمدينة ، واكتسحها ، وهربت قوات الحكومة ، وتقهقرت ثانية الى القلعة ، وتمصنت فيها ، ومع ذلك أحداث سلب ونهب استمرت من الساعة السادسة مساء الى منتصف الليل ، وتبعاً لما ذكره أحد المصممين : « فقد قتل من يرتدون زياً ألمانيا ، وحلقوا الذقون » . وقبض على النساء المرتديات « زياً ألمانيا » واقتنن الى معسكر بوجاتشوف ، وأطلق سراح جميع سجناء الحكومة . وكان من بينهم الزوجة الأولى لبوجاتشوف (أي زوجته الحقيقية) ، وأبنائه الذين اقتيدوا الى معسكره . وشعر « القيصر الزائف » ببعض الاضطراب . وقامت زوجته اليه على أنها أمينة بوجاتشوف برفقة أبنائها - وأورا برفقة النسوة اللاتي يتألف منهن حريم بوجاتشوف الى الجناح المخصص لهن . ولشملت الثيران في تسع قطط

مختلفة ، وتناثرت الألقاض في جميع أنحاء المدينة • واستمر النهب والسلب
والشراب والاعتصاف الى أن قرى شملهم الدخان المتصاعد من الحيران •
ودمرت الحرائق ٢٠٦٢ بيتا من مجموع البيوت (٢٨٧٢ بيتا) •

وفي مساء ١١ يوليو ، كان ابن ميخائيل على بعد ٦ فيرست من
كاران • وبعد أن أراح خيوله زهاء ثلاث ساعات ، استأنف السير في الساعة
الواحدة صباحا في ١٢ يوليو في مسيرة إرغامية الى المدينة ، حيث كانت
السنة الذهب تنصاعد ، ويمكن رؤيتها من بعيد ، وسمع ابن ميخائيل في
قرية تساتسين بأن بوجاتشوف في انتظاره برفقة اثني عشر ألف رجل •
وشن ابن ميخائيل بقواته المنهكة التي لا تزيد عن ثمانمائة رجل هجومًا
عسيفا ضد مركز التمرد ، التي قضت وسلاحه الاضطراب ، بعد قتال دام
خمس ساعات • غير أن قوات ابن ميخائيل قد تخصصت ما صعب
مطاردتها للمتمردين •

وفي ٣ يوليو ١٧٧٤ ، دخل ابن ميخائيل كالزاي ، وبدأ على الفور
في حصر المشركين في عملية السلب • غير أنه لم يكن قد انتهى من تصفية
حساباته هو وبوجاتشوف،التي عاود الهجوم بعدد أصغر في اليوم التالي ،
وهزمت قوات الحكومة مرة أخرى ، ولم يتعيب بوجاتشوف الموقف ، وأعاد
الكرة ، اعتمادا على قطع يخاف خمسة عشر ألف رجل ، لا يصح أن
يوصف بالجيش • واتجه ابن ميخائيل لمقابلته في نفس البقعة التي
التقى فيها للمرة الأولى خارج المدينة • وأصبحت قوات بوجاتشوف تعارب
بشجاعة اليائسين ، ولكن لم تمض أكثر من أربع ساعات حتى خارت قوى
رجالها وخسروا ألفي شخص بين قتيل وجريح ، وأسر حوالي عشرة آلاف
من كلا الجانبين ، كانوا محتجزين في معسكر بوجاتشوف ، وأطلق
سراحهم الآن •

فأين يتوجه بوجاتشوف بعد ذلك ؟ ان التقسم الى نيجيسي نوصجورود
قد ينقل التمرد الى قلب روسيا والى قلعة العبيد • وشرع قائد موسكو
(الأمير فولكوسكي) في الدفاع عن المدينة والأراضي الزراعية المحيطة بها •
والثني الأعمام وأهل المدينة في عدد من المدن الصغيرة ، وحسموا على
حشد قوات محلية لمواجهة التحدي • غير أن هذا اللقاء لم يتم قط ، بعد
أن تحرك بوجاتشوف نحو الجنوب • فهل كان يتوى حقا الزحف الى
موسكو ؟ كثيرا ما دار الحديث حول هذه الساحة بين أصدقائه الحميمين ،
ويقال انه قد جاء على لسان بوجاتشوف ما يأتي : لو تمكنت من الاستيلاء
على أودنبورج وياتسك • فأتني سأوجه بعد ذلك بنفس الخيول الى
كلزان • وبعد استيلائي عليها ، سأوجه الى موسكو ويطرسبورج ، وأودع
الامبراطورة في أحد الأديرة ، وسأعامل مع النبلاء بنفس عيشتهم • وهي

خطة لا تبعد عنها أية مظاهر الخطأ الحسنة التدبير . بيد أن التقدم نحو موسكو كان عنصرا سيكولوجيا ضروريا في عملية اخضاع الشرعية على دور بوجاتشوف كبطرس الثالث ، الذى أرغمه الأشرار (*) على الجوال في بلاد غربية سنوات عديدة ، وهو يعود الآن لاستعادة عرشه . على العموم ، عندما واجهت بوجاتشوف الهزيمة المحتملة ، فعل ما كنا نتوقعه : أوى الى الأرض التى يعرفها خير معرفة : أرض دون قوراق .

وأدى التصميم على الاتجاه صوب الجنوب الى حدوث تغيير في التواحي التى ركز بوجاتشوف الكلام عليها في بياناته ، بحيث جعلها تناسب طبيعتها المنطقة التى سيجرى عليها حركاته . فلقد قطعت اتصالاته ببشكاريا (بالرغم من استمرار التمرد هناك) وانقطعت الى حد ما معاونة عبال المصانع له ، ودخل الآن منطقة يقطعها عدد أكبر من سفار الملك ، الذى لا يملك أى فرد سهم أكثر من عشرين عبدا ، وإن وجدت أيضا بعض القطاعات كبيرة . وبالتقارنة بالمقاييس المعاصرة ، فإن الفلاحين كانوا أسير حالا سبييا . غير أن اقتصاد هذه المنطقة كان اقتصاد اعاشة أساسا ، أى لا يعتمد الا فى أضيق نطاق على الصادرات الزراعية والمصنوعات داخل البلاد. ويقلب على هذه المنطقة طابع الزراعة بالأكراء (**) ، وبالرغم من أن بعض القطاعات كانت تدفع ضريبة سنوية (***) . وكانت المدن أيضا - أساسا - من المستوطنات الزراعية المهكرة ، التى تتعامل مع الريف تحاريا ، لأن سكان المدن يزدعون المحاصيل التى يقتاتون منها . ولما كانت المنطقة قليلة الكثافة السكانية ، لذا أصبحت ملجأ وملانا للكثير من المماريين والفلاحين الهاربين والمؤمنين القدماء . وتضم أيضا من ١٪ الى ٢٪ من صغار الروس والقناصل الوطنية التى لا تصق الديانة المسيحية .

واتجهت المنشورات التى أصدرها بوجاتشوف حينذاك ، وانتقلت من قضية لأخرى بوساطة مبعوثيه الى تعرض الرقيق بالانتماءة ضد أمسيادهم ، والقضاء على نظام الرق كليا - والاستيلاء على الأرض ، ووعده « بطرس الثالث » الجديد المؤمنين الجدد بالحرية ومنحهم الصليب القديم وحق إقامة الصلوات ، وإطلاق شعورهم ودقونهم . وبالنسبة باستيازات القوراق دوما ، يمتنى الاعفاء من ضريبة المثل « والبديلة » ومختلف الضرائب والأتاوات التى يفرضها عليهم الملك الأشرار والقضاة الفاسدون . وشجع الفلاحين على القمص على البلاد السابقين ممن سبق لهم اضطهاد الفلاحين ، ودعا الى قتلهم وشتمهم ومعاملتهم نفس المعاملة غير المسيحية التى

Dvoryane.

Barshina

Obrok.

(*)

(**)

(***)

عاملوا بها الفلاحين . وهب العبيد استجابة لندائهم ، وانتشرت أخبار انتفاضتهم من قرية لأخرى ، بعد تأثرهم بنشورات يوجاتشوف أو بمقابلتهم له . وأحيانا كانت تظهر مجموعات صغيرة من القوزاق في إحدى القرى ، وتشجع الفلاحين على الانتفاضة ضد الملاك . وفي مواضع أخرى ، كان الفلاحون يهربون من نقله أنفسهم ، أو بعد تأثرهم بالشائعات ، ويتلقائية تفوق سرعة البرق . وأحيانا كانت جماعات الفلاحين تحوم بعيدا وتزداد قوة وجنوحا نحو التعمير أثناء طولها ، وتزداد بأسا يشجعها على اختراع قصص بطولية عن المارك التي خاطتها ضد قوات الحكومة . وفي الحالات التي حدثت فيها الانتفاضة في موقع قريب من القوات الأساسية لـ يوجاتشوف كان الفلاحون يصحبون معهم إلى مركز قيادته أشخاصا من عليا القوم أو كبار الموظفين كي يحاكمهم « الامبراطور » بنفسه . وفي مواضع أخرى ، كانت تجرى أعمال وحشية للتنكيل بالملاك والأعيان رجلا ونسأ وأطفالا . ولم يمس المشايخون الانتقام من القسيس والحويلة والمقاولين . وما يجر الاهتمام أن ملك الاقطاع الصغيرة كانوا الأكثر تعرضا للاغتيال ، باعتبارهم أقرب الناس إلى التماثل مع الفلاحين .

وفي ذات الوقت ، كانت قوات يوجاتشوف تتقدم من مدينة لأخرى تلوكة آثار الدمار . وفي ٢٢ يوليو ، وصل إلى ألتير ، وقوبل بالترحاب والتهديد له بالولاء ، وأقيمت على شرفه القداسات والواكبات الكنسية . وما انتهت الفرصة وزود صفوفه بالمتطوعين والجنود من بين اللاجئين للخدمة . وتكررت نفس العملية في ٢٦ يوليو في سارانسك ، حيث تناول يوجاتشوف طعام الغداء في دار أرملة فوفودا ، ثم شنتها ! وساعات بدعوة للمنطقة ، وانحياز الأمل إلى كلا الجانبين في هذه الحرب الاجتماعية على زيادة العنف والوحشية . وقبل التردد ، لم تكن المنازعات المسلحة بين الخصوم والمنافسين مبهولة . وكانت سلطة الإدارة المدنية على الأعيان واهية ، وشمر الرائد « ملين » الذي كان مسئولاً عن بعض فصائل الحكومة بالانزعاج عندما سمع بعض البلاغات ، التي رفض تصديقها ، عن نزوع بعض النبلاء إلى الانتفاع من حالة القرضي وتقييم كل واحد منهم بتسليم الطاعة الآخر ، أو شنتهم لأعدائهم . ومن ناحية أخرى ، فإن مشهد النبلاء وهم يشنون - بالجملة - بعد قطع رؤوسهم وأيديهم وأقدامهم . قد آثار القوى النظامية وشجعها على المعاملة بالمثل ، فلوكتبت عمليات وحشية فظة .

وفي أول أغسطس ، أعلنت جماعة من القوزاق في سوق المدينة نبأ قرب وصول بطرس الثالث ، وهددت بطيح الجميع كيلا وسفارا بالسيف ، إذا لم يلق الترحيب المناسب بتقديم الخبز والملح . ولقى يوجاتشوف الترحيب المناسب ونهب خزنة المدينة ، وجند مائتين من الرجال بالأكراه .

ولما أدرك جدية قوات الحكومة في تعقبه ، توقف هو وقواته المؤلفة من تشكيلة متعددة الألوان في ساراتوف على نهر الفولجا . وليس بالاستطاعة الاتفاق حول عدد القوات التي التفت حوله . إذ تقدموا البيانات المباشرة بعدد يتراوح بين الثمانمائة وعدة آلاف ، ولكن تسميتها بالقوة المختلطة كان من قبيل المبالغة . إذ كان قولم محاربها الأشداء من مجففي نهر الفولجا ، وبعض السبيد الهاربين ، ممن يجوزهم التدريب الصحيح ، واختفى من الوجود الفلاحون الذين تجمعوا للتطوع في أغلب الأحيان . وتناقص أفراد القوة الأساسية من قوزاق يايك إلى حد كبير عن عددهم الأصلي الذي كان يتراوح بين ثلثمائة واربعمائة ، ولم يعد البصيص يدينون بالولاء . لبطرس الثالث .

ومن ناحية أخرى ، فإن « المدن » التي كان بوجاتشوف قد احتلها مؤخرا ، كانت مدنا بلا اسم فقط . أما مدينة ساراتوف فمسألة أخرى ، لأنها كانت من أهم المراكز الحضرية على الفولجا الأدنى ، وعاصمة إدارية للمستعمرين الأجانب . وكانت تضم في ضواحيها بعض المصانع الصغيرة (للقميعة والجوارب والحبال) . ويبلغ عدد سكانها نحو مئتين ألف من الكوبتسكي . غير أن المدينة عانت الأحوال بعد أن شب فيها حريق خطير في مايو ١٧٧٤ ، وتسبب في تدمير معظم نفاستها ، وأعمال تحصيناتها ، بالرغم من أن حاميتها كانت تتألف من ٧٨٠ رجلا .

وتسبب اختلاف الرأي بين الملاحظين (وكان بينهم شاعر عظيم دلغته الظروف للثورة في القيام بدور مشين) بطريقة مباشرة في سقوط المدينة في ١٦ أغسطس . وعسكر بوجاتشوف خارج المدينة زهاء ثلاثة أيام ، وأقسم جميع الحضرين بين الولاء لبطرس الثالث ، وأقيمت القفصات بالكنيسة على شرف الامبراطور ، وورثته بول وزوجته يوستيا ، وثنى أربعة وعشرون من الملاك، وواحد وعشرون من موظفي المستشارية، وتواصلت مناقب الرجال والنساء من جميع المراتب ، وحطمت مخازن الدولة التي كانت مشحونة بالفلال والمثروبيل الروحية والنقد . وحتى بعد أن بلج الحضيف الرئيسي لبوجاتشوف ، فقد استمرت تسع محادثات مسلحة ، تجوب المدينة تنهب وقتل وتدمير .

وبعد أن حوّل بوجاتشوف إلى تصاويس (٢٢) ، فإنه لم يكف عن محاولة الحصول على تأييد دون قوزاق . غير أن الحكومة كانت منذ بدء التمرد متيقظة لهذا الخطر بالذات ، واتخذت خطوات لدمجه . وفي أكتوبر ١٧٧٣ ،

صلحت الأوامر بمراقبة جميع علامات التمرد داخل المقل ، ومصادرة المنشورات التي يصدرها بوجاتشوف ، وحرقةا ، وأصدرت مستشارية الحرب منشورات مضادة تحذر فيها عن الأفاق بوجاتشوف ، غير أن الخطر لم تشتد خطته إلا بعد أن وصل بوجاتشوف إلى المنطقة الواقعة بين نهر المولجا ونهر الدون . وأصدر بوجاتشوف بياناً في ١٣ أغسطس ١٧٧٤ موجهاً على الأخص للقوزاق نهر الدون ، ويتضمن إشادة بطرس الثالث الذي اعترفت روسيا عن بكرة أبيها به إمبراطوراً عليها . ووعده القوزاق بالمحبة والصليب وبرؤوس الأسلاف العظيم وذقونهم وإن كان قد استلذذ وذكر أن القوزاق قد أصبحوا بالطفلة الآن ، وضلوا السبيل ووقعوا في أحاييل الخبيث الملون للنبلاء ، الذين لم يسمعوا بالاستجابة لرغبة روسيا تسليم المقل الوطني للقوزاق إلى الفلاحين ، وبذلك يتم القضاء على شعب القوزاق . وهكذا نادى بوجاتشوف مرة أخرى بالمدينة الفاضلة (اليونوبيا) التي ستأوى المؤمنين القضاة من القوزاق . ولكن كلماته شاعت في أندراج الرياح ، بعد أن صدر منشور يصد كل من يقبض على بوجاتشوف بمكافأة مالية قدرها عشرون ألف روبل ، واستمر معظم أبناء دون قوزاق يدينون بالولاء للدولة . ولعل ما حال دون انضمامهم إلى المتبردين عاملان : العامل الأول هو توقيع معاهدة صلح (*) أنهت الحرب مع الأتراك في ١٤ يوليو ١٧٧٤ ، مما ساعد على توفير قوات قد تستعمل لردع التمرد ، والعامل الثاني - الإحجام - عن الانضمام إلى الجانب الذي بات حذاه أمرا مؤكداً ، وهكذا فرغم وجود قلة من المتذبذبين أحياناً ممن انضموا إلى بوجاتشوف، إلا أن أهل دون قوزاق قد استمروا بهم ضد قوات المتبردين . ولكن ينبغي ألا نسي أن أهل دون قوزاق لم تقب عن فطنتهم قط حقيقة بوجاتشوف ، وكانوا يعرفون تماماً أنه ليس بطرس الثالث .

وأصدر بوجاتشوف منشورات أخرى - وربما كان ما زال يأمل في إثارة أقرانه من القوزاق - وهذا جانب يكشف الكثير عن الغايات العامة للحركة : « لقد تم القضاء على القانون المسيحي النابع من التقليد العريق لأبائنا القديسين ، وصدر بدلاً عنه قانون جديد حافل بالزوايا الشريرة . وأنجحت المبادئ الألمانية في روسيا كخلق الذقون - وهي عادة مفرزة للغاية ، وغير ذلك من انتهاكات حرمة الأيمان المسيحي والصليب المسيحي . وكرر في هذا المنشور أيضاً حكاية سلب عرشه لأنه أدخل الحرية لروسيا (**) لا سيما بعد الاعتراف به حاكماً في كازان وأورنبورج وبين أوكا والبشكير . »

وأخيرا وفي ٢١ أغسطس ، ظهر يوجاتشوف في تساريسين . وكان القومندان قد اسعد بعض الخطوات للدفاع عن المدينة ، واستدعى الوجة دون قوزاق . وكان يتوقع وصول التعزيزات من الجيش الثاني في الجنوب . وعسكر يوجاتشوف في تساريسين ، ثم تقدم للتباحث مع جماعة من دون قوزاق هرعوا لمقابلته واعترفوا به علنا ، وابتداء من هذه اللحظة ، انتشر الشك بين دون قوزاق ، والمخربين من يوجاتشوف ، وظهر التصدع في ايمانهم بهذا الاتفاق . وبدأ في الايام حالم الايمان المعلق ، التي عاشه الكثيرون بعد أن استمعوا بأذانهم واتخذ البحث عن السلامة الصدارة في تفكيرهم .

وبعد تراشق بالنيران ، دام خمس ساعات بينه وبين حامية تساريسين انسحب يوجاتشوف بمحاذاة النهر نحو الجنوب ، وتوقف للهب من مستعمرة هيرينهوت (*) الألمانية في سلويتا . وفي اليوم التالي ، صادر قومندان تساريسين قافلة من القوارب المحملة بالبنائس والنبلاء وغيرهم من السجناء . وفي ذات اليوم ، وصل إلى المدينة العقيد ابن ميخائيل ، الذي كان يطارد يوجاتشوف بأقصى سرعته . ولم يتوقف إلا لإحلال المرضى وإزاحة الجيول ، وصحب معه بعض قوقازي الدول في الحامية ، ثم أقلع مرة أخرى في ٢٣ أغسطس . وبعد ذلك بيومين ، حدثت المواجهة الأخيرة . وكان لدى يوجاتشوف نحو عشرة آلاف رجل ، وإن كان أكثر من نصفهم من الفلاحين غير المسلحين . وقسم قوته إلى ثلاثة أقسام ، وتولى قيادة القسم الأوسط ، واخترق ابن ميخائيل صفوف حش يوجاتشوف ، بالرغم من شدة النيران ، وتحولت الهزيمة إلى هزيمة متكررة . وحاول يوجاتشوف يرافقه ثلاثون تقريبا من أتباعه عبور نهر الفولجا ، وصحب زوجته معه ، وكانت زوجته الحقيقية هذه المرة .

فأين يذهب يوجاتشوف بعد ذلك ؟ وبعد أن انضم إليه نحو مائتين من قوزاق يايك ، وصحبته كيزيا اوسلاتوف وقلة من القربى الجيدين ، تخلى عن الفكرة التي راودته قبل المعركة الأخيرة ، بالتوجه إلى فارس عبر تركستان حيث يوجد أصدقه من الحانات ، ورأى عوضا عن ذلك اما التوجه إلى أحد المواقع الحصينة (**) أو سيبيريا ، أو إلى ما وراء بحر قزوين لاتارة الغول . ورفض قوزاق يايك التوجه إلى جميع هذه الأراضي الأحسية (واعتبروا المنطقة التي اقترحها ذاتها من البلاد الأجنبية أيضا !) ، وأصرروا على العودة إلى يايك ، وبوجه خاص لأنها تضم بيوتهم وعائلاتهم . وتمشيا مع الدليل الذي قلعه ايلان فخورجوف الذي انضم إلى التمرد عند بداية

في أكتوبر ١٧٧٣ ، فإنه اكتشف قبل الهجوم على ساراتوف أن بوجاتشوف
 اتفاق ومصادع - وقدر الاشتراك مع أحد قوزاقبي يايك من المتأمرين
 الأصليين في تدبير مؤامرة لاقتل أنفسهم بالقبض على بوجاتشوف، وتسليمه
 للسلطات ، واضم إلى المؤامرة ثمر من القوزاق الآخرين ، الذين أقنعوا
 بوجاتشوف بالوافقة على الانتقال إلى الاستبس في كلارك وبسيرة التون .
 وأثناء مسيرتهم استولى القوزاق ، على خيول الآخرين ، الذين لا يمتنون
 إلى القوزاق في الجماعة ، وبذلك أوشوا على التراجع إلى المؤخرة ، وسبح
 لكنريا إرسلافوف بمثابة السير معهم حتى لا تستثار شكوك بوجاتشوف،
 وواصلت زوجته وابنته (تروفيموت) السير برفقة الهاربين .
 وبعد أن تجاوزوا أوزين ، قبض المتآمرون على بوجاتشوف ، وجردوه من
 سلاحه - وحاول يائسا الفكك ، ولكنه قيد بالسلاسل بعد أن فشلت
 مقاومته : « كيف تتجراون على رفع أيديكم على إمبراطوركم ؟ انكم لن
 تحقوا شيئا من وراء ذلك ؟ ولذا لم آتكن من معاقبتكم ، فإن لدى ولي عهد
 هو بول بتروفيتش ، وهو كليل بذلك » . هكذا صاح « بطرس الثالث » ،
 ولكن عملية الاحتياط كانت قد شارفت على الانتهاء . ففقد صمم القوزاق ،
 بعد أن سمعوا بوجود قاض عادل في ياتسيك على تسليم أسيرهم إليه -
 وهكذا انتهى في ١٥ سبتمبر ١٧٧٤ التمرد على نهر الباييك ، حيث بدأ .

حاشية - ألف الشاعر الروسي الكبير بوشكين رواية طويلة حول هذا
 الحادث التاريخي الشهير بعنوان « حصار القبة » . كما يدور موضوع
 الأوبرا الشهيرة « بويريس جودونوف » لوسودسكي حول نفس موضوع
 انتقال شخصية القوارث الشرعي لعرش روسيا (أ . ح . م) .

المراجع

- J. Alexander, *Autocratic Politics in a National Crisis : The Imperial Russian Government and Pugachev's Revolt 1775-1779*, (1969).
- J. Alexander, *Emperor of the Cossacks : Pugachev and the Frontier Jacobinism of 1773-1775* (1973).
- P. Anderson, *Lineages of the Absolutist State* (1974).
- P. Avrich, *Russian Rebels (1600-1800)* 1973.
- R. P. Bartlett, *Human Capital : The Settlement of Foreigners in Russia (1762-1864)* 1979.
- P. Duker, *The Making of Russian Absolutism (1613-1801)* 1982.
- P. Duker, *Russia and Catherine the Great : Volume I* 1978.
- J. G. Garrard (ed), *The Eighteenth Century in Russia* 1973.
- L. Gordon, *Cossack Rebellion : Social Turmoil in the Sixteenth Century Ukraine* 1983.
- J. M. Little, *The Service City : State and Townsmen in Russia, 1600-1800*, 1979.
- W. M. Pinter and D. K. Rowney (eds) *Russian Officialdom : The Bureaucratization of Russian Society from the Seventeenth to the Twentieth Century*, 1980.
- D. L. Ransel ; *The Politics of Catherine's Russia : The Panin Party* 1975.

الموت كوسيلة للردع : الاعدام العلني في فرنسا

جون ماكسانرز

لم تحدث الاقلة من الظاهر للجمهور في كل « النظام القديم » صلحة للقاء للمدّين مماثلة للصلحة التي أحدثتها الطوبى التي كان توقع في حالات السلوك الإجرامي . ولقد وقعت أحداث كثيرة في جميع البلدان ، وكان بينها مئات الجرائم التي انتهت بتوقيع عقوبة الاعدام ، ولم يكن التعذيب من الظواهر غير الشائعة . ولو أريد فهم لماذا سادت مثل هذه الممارسات ، يتمن على المؤرخين سبر غور التوجهات القانونية والاجتماعية والسياسية والدينية التي ألقت هذه السياسات الإجرامية ، وشجعت على اتباعها .

وساعد البحث والتعقيب على ايضاح جيلة قاط . إذ ظهر وجود مخططات وتدابير فعلية وراء عمليات التعذيب والاعدام . وفصلا عن ذلك ، وبخاصة في حالات الاعدام ، ابتداء من اعلان الحكم حتى لحظة تنفيذه ، بل وحتى عند عرض جثة اللان ، كانت تعبر مقوس عقلية ، ساعدت على التعرف بالمواقف النفسية للسلوك الإجرامي ، وترسيخ أهمية فلسفة النظام العام . وألقت الدور البارز للفلسفي في مراسم تنفيذ الاعدام الراد الكنيسة لهذا الاجراء ، والصفة الوثيقة بين النظام العام والنظام الكنسي . وعندما دعى جمهور كبير من نخب المملوكة لمساعدة أحداث تنفيذ الاعدام ، فإن السلطات التبت بالتأجيل وخسأ الجماهير الواسعة عن القبول القانوني .

وفي منتصف القرن الثامن عشرة اتجه الكتاب المتصلون ببرنامج الإصلاح في عصر التنوير الى التساؤل والاحتجاج على عمليات التعذيب وتنفيذ الاعدام . بيد ان المصلحين انفسهم قد اجمعوا - بوجه عام - من

Death and the Enlightenment : Changing Attitudes
to Death among Christian and Unbelievers in Eighteenth France.

تأليف John Manners (1911)

المطالبة بأنهاء أحكام الإعدام • والأرجح هو نزوعهم إلى اتباع القبح نفسه بعد من انطاط الجرائم التي يظن أن الإعدام هو أنسب حكم لها • ومن سخرت القدر ، أن نظرتهم الصلة بوجوب التمسك بقوة إعدام على جرائم مثل الخيانة ، قد زومت فيها بعد بلطه الليبرالات التي ارتكن إليها عند إصدار الآل أحكام الإعدام السياسية التي ظلت أثناء الثورة الفرنسية •

قال بير باستوريه - وهو أحد المصالحين المصلحين عند تأمله للمعد الكبير من الجرائم التي تحمل إصدار حكم بالإعدام : « الويل لأي مجتمع يضم أساسا يشهدون آخرين وهم يوتون دون أن تقشع أبداهم (١) » • وقبل هذا الكلام ١٧٩٠ قبل تحول التحصن للثورة إلى شعور بالإحباط ، وعندما كان الرعب مجرد سحابة ضباب ، لا تزيد مساحتها عن مساحة كف اليد في أفق المستقبل - ووفقا لما قاله باستوريه ، فإن تبريرات النظام القديم قد اختبئت على ما لا يخل عن ١١٥ جريمة أساسية • ، وإن كان هناك شعور سوداوي منلف ببسطة وطنية يمكن أن يستخلص من النظرة القائلة بأن مجموع عدد الفرنسيين كان نصف عدد الانجليز • وإن الضمب الهسجي شديد المرعب ، الذي يقطن الجزر (الانجليز) كان يمقت الموت ، حتى على أرضه • فهي فرنسا ، في القرن الثامن عشر ، كانت الخيانة والقتل ، والشروع في القتل ، وقتل الأطفال ، والإجهاض والسرقة والتهريب • مع استعمال السلاح ، جرائم تعرض مقترفها لعقوبة الإعدام • والأمر بالمثل فيما يتعلق بالقتال مثل المباشرة وتزييف النقود والشهادة الزور وتزوير الأوراق الرسمية ، وسرقة ممتلكات يتجاوز ثمنها ثلثمائة جنيه ، والتهام البيوت ، وبخاصة في الليل ، والافلاس والتصبب والاحتيال، واختطاف إحدى الورشات والاختصاب والزواج بأكثر من واحدة، إن كان قد تم عن طريق التزوير ، والمباشرة الجنسية لأحدى الراحيات ، أو اعتداء أحد الخصم على سيفته جنسيا ، وبعض الأنواع المذمومة من الزنا ، ومخالفة قوانين الرقابة على المصحف ، والمروق الديني والشلوذ الجنسي ، وسفاح القربى ، وامتهان وظائف القسس عند البروتستانت • وكانت أحكام الإعدام تنفذ بها علنا ، مع مراعاة الملاحة بين التراجع في الموت ، وبخاصة يلزم المرتكب • ومن برلمان باريس طبقا فظيمة في وحشيتها ، تتبع في حالة من يرتكب جريمة الاعتداء على شخص الملك • وقد أعيد أحياء هذه الطقوس في كل دقائقها البشعة عند الاقتصاص من دامينس بطريقة الموت البطيء ١٧٥٧ • لأنه رفع يده في وجه لويس الخامس عشر ، وقضلا عن ذلك ، فقد حرم أقربه الخائن من استعمال اسم العائلة • وتعرضوا للنفى ، ونسف بيوتهم وتحويلها إلى أقباط • وكانت عقوبة

Malheur à la société rendant les hommes qui en valent (٢)
mourir d'autres sans frémir. "Pierre Pa lous".

معظم الجرائم الكبرى الشنيعة . أما جرائم الخطف فيعاقب بمزيق الجاني
أوريا بواسطة البعلة ، ويصاقب بالمروق مرتكب جريمة دس السم ، والشفوذ
الجنسي والوحشية ، وبعض حالات المروق الديسي . وفي بعض الأحيان ،
كانت العقوبات تتخذ مظهرا تراكيبيا . ففي ١٧٨٧ ، عوقب قاتل أقرب
الأقربين إليه بقطع يده ، ومزيق جسمه بواسطة البعلة ، ثم للقي به في
البحر . وكانت هناك طقوس تخص عمليات التعذيب التي قد تجرى
للتخصيص لتنفيذ حكم الإعدام . وتتخذ شكل « الاستجواب للتضييق »
لانزعاج الاعتراف بالذنب . أما الاستجواب التهديدي (٣٣) - فيرمي الى
الحصول على أسماء شركاء الجريمة - وصنفت هذه الطرق الوحشية للاتعاج أو
التحريض في درجتين متساويتين في الشدة ، الدرجة العلوية والدرجة
لوق العنادية (٣٤) ، وطبقا لما تصوره ديديو (الفيلسوف والأديب الفرنسي)
فإن عدد الحالات التي صدر فيها حكم الإعدام قد بلغت ثلاثمائة حالة في
نهاية النظام القديم ، وبالقرابة لا يمه هذا العدد كبيرا ، كما اعترف ديديو
نفسه ، بطريقة صريحة ، لأن هناك كثيرين لاقوا حتفهم اثر اصطدامهم بعربة
أو تعرضهم لريح غاتية ، أو معاشرتهم لموسى جسيما ، وكانت مصابة
بمرض خبيث ، أو معالجتهم من قبل طبيب جعل - وربما أيضا من قبل
طبيب طاسي - وحتى لو كان ذلك كذلك ، فإن هذه الاحصائيات تمثل
عددا يشير التفرق وقدموا من الأوجاع يكفي لازعاج ضمائرنا ، وشعورنا
بتأنيبها ، عندما نحاول تكوين فكرة نمطية عنها ، تضاف الى تاريخ
الأفكار .

لقد كان النظام الشرعي الفرنسي قاسيا ، ولكنه لم يستخف بأرواح
البشر . فمن الناحية النظرية ، لم يكن بالاستطلاع التصديق على حكم
الاعدام الا اذا كان الدليل قاطعا . فلذا بلغ الدليل حد اليقين ، ولكنه لم
يصل الى حد الثبوت الكامل ، فإن من حق القاضي في هذه الحالة توقيع
عقوبة أخف ، ووفقا لما ذكره سريسيون (٣٥) ، في تقييده الذي شر
١٧٦٧ ، فإن اليقين للمستوى لا يكفي في حالة اقتضايها الجنائية ، لأن « اليقين
المادي » مطلوب ، يعني شهادة من رأوا الجريمة أثناء ارتكابها ، (٣٥٠٠٠)
والأمثلة التي ذكرها عن نوع الأدلة المطلوبة واضحة الدلالة . بيد أنه من
الناحية العملية ، فإن الألفاظ الطنانة التي تحتم وجود الدليل القاطع ،

La question préalable.

(٣٦)

La question préparatoire.

(٣٦٣)

extraordinaire, ordinaire

(٣٦٣٣)

Serpillon

(٣٣٣٣)

Celle qui dépend des témoins qui ont vu commettre

(٣٣٣٣٣٣)

le crime.

يجب أن ينظر إليها في سياق الوسائل المعيارية والإجرائية التي ابتكرت لتدخلة الوسائل البوليسية ، التي تقتصر إلى القضاة ، وليس على أيها قد وصفت لحماية المتهم • فالاستجواب يتم سرا ، ولا يعرف المتهم أي شيء عن التهمة إلى أن يواجه بالشهود • ولما كان هؤلاء الشهود قد حددوا اجتماعهم بالعمل ، لذا عين المتصدر على المتهم اقتاعهم بالمخاطرة وتمريض أنفسهم للأحكام التي تصدر ضد من يثيرون شهادتهم • ويدور دفاع المحامين في عالم بعيد عن الحقيقة من المزاوغات التي يتعذر حيالها مواجهه الحجج الموثقة للاتهام مواجهة صحيحة • ولقد قيل الكثير من الكلام الذي ارتكن إلى سحره قولتير الوحشية من شغرات الأدلة والقرائن التي تجمع لتكوين دليل صحيح • وربما كان هذا الكلام مجرد لغو غوغائي قايومي ، أكثر من كونه وصفا منصفيا للطريقة التي يصل بها القضاة ، وإن كان يوضح أسلوب اتخاذ القرارات في نهاية المطاف وكيفية خضوعه « لأمرجة » القضاة الخائفة باستيادتهم لطبقاتهم وأوساطهم الاجتماعية ، دون أن يرجع ذلك إلى أي ابتعاد واع عن المراجعة •

وتمتع البرلمانات والمجالس السيادية الأخرى ، التي لها حق البت النهائي والكلمة الأخيرة في القضايا التي يترتب عليها صدور أحكام بالاعدام بقدر عظيم من الحصانة عند تقرير مدى الألم والخزي الذي يتعين أن يشعر به المجرم عند اعلمه • ورثي أن الششق (وقطع الرأس بالمفصلة في حالة النيلاء) هو أرحم السبل • لما التمساء الذين حكم بأعدامهم باستعمال البيلطة ، أو بإطلاق الرصاص عليهم قبل الاستطاعة تجسيهم الضمور الكامل بالألم (خصوصا إذا أثبتوا وجود شركاء لهم) اعتمادا على حق القاضي في تحديد الشروط الواجب اتخاذها عند تنفيذ الأحكام وتثبيت هذه الشروط في ذيل الحكم (ولا يطلع عليها أحد غير منفذ الحكم) • فقد صدر القضاة أولم مسبقا بالششق ، وتنفيذه بعد دقائق معدودة ، أو ربما ساعات ، أو يصورون عمليات بالصرب عددا معددا من الضربات • واعتبرت هذه الامتيازات الجائرة حائبا خطيرا من واجبات القاضي • ويقدر ما كان مبرورا في علم الاجرام (الكريمنولوجي) في القرن الثامن عشر ، فإن المقصود من هذا الاجراء هو أن تكون العقوبة مناسبة للمجرم • ولم ينظر للمعديب • • • المشروع على أنه اجراء تصفي • ناهيك باتصاله بالسيادية • ولقد وضع المحامون قواعد لتنظيم طريقة تطبيق هذا الاجراء • فللاتهام صحت أن يكون متعلقا بجريمة عقوبتها هي الاعدام ، ويجب أن تكون الأسانيد كاملة ، حتى يكون الاعتراف المنتزع من المتهم الخاضعة إلى الأدلة النافذة ، وليس جزءا منها • ويجب أن يكون الاتجاه إلى الاستجواب مؤيدا بقرار من دار القضاء العالي ، حتى لو كان المشتبه فيه لم يتقدم بأي التماس إليه • ويعتبر أن يكون الاعتراف بالذنب ملزما (معنى ثابتا ثبوتا مطلقا مستندا

الى قرائن قوية) (٢) • قسلا لا يجد اتهام شخصي يحظر كافيا ، واذ كان
المتنبه فيه يستمع بسمة طيبة ، فإن شهادة شخص واحد ضده لا تعد
كافية • واذ كانت سمعته سيئة ، فإن شهادة شخص واحد ضده تكفى •
ولكن يلزم في هذه الحالة أن يكون هذا الشاهد الأوجه شاهد عيان فعل ،
ومن أصحاب السمة الأخلاقية الطيبة (قسلا لا تعد شهادة شخصي شاهدا
المتهم وهو يمارد مسرح الجريمة ملوحا بسيف حضر بالدماء دليلا كافيا ،
ما لم يوجد أدلة على حدوث تهديد مابق أو تشاخر) • ولا يمرض العتية
الأصغر من أربع عشرة سنة للتعذيب ، ويسمح لمن تجاوزوا سن السمعى
بعض التخفيف لصرامة التعذيب • ويجب حضور الأطباء عملية تنفيذ الحكم
حتى يشهدوا اللحظة التي بدأت فيها المراسم الشسمة تبتمد عن هدفها
الحقيقى ، وأيضا لكي يقدموا ما يخفف التريق • ولقد حدثت مقادير
الآلم التي ستوقع على الوجه الآتى : فى حالة الاستجواب العادى يوضع
أربعة خوازيق بين الواح الخشب الضاغطة على القمصين • وفى حالة
الاستجواب غير العادى ، تضاف أربعة خوازيق أخرى • لما فى حالة
التعذيب المائى ، فتسكب ستة مكابيل من الماء خلال قبع لقصان تقاطر
الماء بلا زيادة ولا نقصان • ودارت مشاورات حول الاجراءات الوقائية
للحيلولة دون اصابة الضحية بالكساح المستديم ، ولكنها لم تسفر عن
الاهتمام الى أنسب صناعة منظمة لها • وحدثت كل صغيرة وكبيرة فى
مواصفات الأصفاذ الحديدية ، ومدى إحكام حبل المشنقة ، وارتفاع الحمار
الخشبي الذى تثبت عليه الواح التعذيب • ولكن المدهش هو صدور
تعليمات من برلمان باريس ١٦٩٧ تنص على استعمال ماء دافى فى مياه
التعذيب ، وأن يودع المتهم زئزئة دافئة نوعا •

وتسا لقواعد الاحرامات القانونية ، فإن الظروف المخففة لا ينظر اليها ،
الا بعد أن يكون القرار بالحكم بالإعدام قد صدر بالتسل • ومن المسود
اصدار عفو عن الجاني عندما يكون صغير السن أو عسنا ، أو قدمت شهادة
بإصابته بالجل ، أو اذا ادعى أنه أقدم على حرمة دفاعا عن النفس ، أو
تحت ضغط شديد • ويصدر فى هذه الحالة قرار بالمفو (**) معتمد • دار
القضاء المال التي صدقت على الحكم الذى أصدرته المحكمة السيادية •
ومن المستطاع اصدار عفو عام عن ارتكبو الحرية تمت تأثير الهوى ،
وان وحسب صدور الأمر فى هذه الحالة من وزارة العدل (***). باعتبار هذا
الاجراء يحتاج الى تصديق أعلى سلطة لأنه لا تتم السبالة والاتصاف بغير
اعتماده على التسامح • وعند الحكم فى المرائم الخطيرة أو جرائم العنف كانت

Des preuves presque complètes et de violentes présomptions. (٥)

Lettre de grace.

(★★)

Grande Chancellerie.

(★★★)

المحاكم كنظر محكمة في الاعتداءات الخاصة بتكليف الأحكام تفردا بمنزلة
للمتهم ، سواء أكان قتي أو صغير السن ، أو لنقص عقله . ولقد سمحت
أحدى للمحاكم الاستطاعية في النسخون ١٧١٨ قتي في الثامنة عشرة بالافلات
من الشفق بعد ارتكابه جريمة قتل طرأ ، لصغر سنه إلى حد كبير ، ولأنه
كان مخبورا عنه لارتكاب الجريمة . واستبدل حكم الاعدام بالسجن مدى
الحياة . وأدانت محكمة الشاتليه (محكمة القانون) في باريس ١٧٧٨
اثنين ممن تجاوزوا سن الثمانين ، وحكمت بتزويق أيدانهم تحت السجلة
لارتكابهما جريمة القتل . وأدين البرلمان في آخر أيامه صييين ، أحدهما
في الخامسة عشرة ، والثاني في السادسة عشرة ، ووقع عليهما نفس العقوبة ،
وأمر بحرق قتلة في السادسة عشرة لأنها همت السم لأهلهما . وكانت حالات
الحيل واللامسؤولية بالنسبة للشباب تطبق على نطاق ضيق جدا بسن
السادسة ، ويترك الحكم على من تقع أفعالهم بين السادسة والرابعة عشرة
لمصافة للحكمة التي لم تستبعد الحكم مدى الحياة في حالة ارتكاب جرائم
الصف . أما فيما يتعلق بالجنون ، فلم يحدث قبل العقد الأخير من اندلاع
الثورة الفرنسية ، أن نظر إلى هذه الحالة بمنظار الجسد ، أو اعترف بأن
الجنون مسألة طبية . فقلما راعت وزارة العدل الحالة العقلية لمن أدانتهم
من الأشخاص ، اللهم إلا إذا واجهتها حالة مثل حالة بيير شاروتون الذي
قتل عشيقته ، لأنها ألتهته عن أداء واجباته الدينية : « ففضل التصحية
بحباتها على فقدان روحه أمام الله » . وفي ٢١٤ حالة من حالات استعمال
الحراق التي نظرت أمام برلمان باريس بين ١٧٥٠ و ١٧٨٩ ، طلبت
بيانات عن مدى تمتع المتهم بكامل قواه العقلية(*) في ١٧ حالة فقط . نعم
لقد أفلت خمسة من العتاة في هذه الحالات من الموت بفضل التقرير الطبي.
وسجنوا مدى الحياة(**) ولم يلتفت إلى دفع الجنون في حالات ارتكاب
جريمة الضمان أو قتل الأقربين . واعتبرت ضرورة الردع ذات قيمة أعظم
من باقي الاعتبارات .

ولعل أولوية مشكلة السلام العام هي أفضل مفتاح لتفسير سياسة
الحكم بالإدانة أو العفو في مختلف البرلمانات ، التي قد يتصرف قضاتها
باندفاع هستيري أو يتبعون سياسة ملاينة وربما انضمت سلطان الأحكام
الملكية . فقد تاجر جريمة ارتكابها خادم أو كميني يتصب في أحد الطرق
العليا ، أو عميلة مسحر لسوءه تاجر في ذيله أوخم المواقب للأخلاق ،
إلى حدوث جرائم تخريب وإحراق . نجر أنه رغم صرامة الأحكام الملكية ،
فكانا نرى من بين أربع وأربعين حالة مبارزة عرضت على برلمان باريس

(١٧٠٠ - ١٧٢٥) أطلق سراح اثنين عشر ، واخرج من ٢٦ لهم توافر الأدلة . وحكم بالإدانة على ستة فقط ، ألزم أحدهم بدفع المصاريف، وشق شبهة للتاني ، وفي الثالث لمدة تسع سنوات ، وصين آخر تسع سنوات . ولم يتخذ حكم الاعدام في أحد منهم . ولم تعتبر حالات الغش والتدليس - عمليا - جرائم كبرى ، بالرغم من اعتبارها كذلك بعد ١٦٧٣ . وكان الكتاب والناشران الذين يتعاملون الرقابة ، يخشون كثر فقدان حرياتهم . ولكن نادرا ما خشوا تعرض لرواجهم لأي خطر (بالرغم من ظهور تعليمات بعد الاجراءات المربعة التي اتخفت بعد محاولة دامينس بتوقيع عقوبة الاعدام لطبع أو بيع كتب ضد الدين وسلام الدولة) . وفي حالات القتل ، كانت شهادات القو تصدر عادة في حالات مثل اعدام أحد الملاك على التصدي للصومس الليل أو حالات دفاع المرأة عن عرضها ، أو اذا لزم شباب على الميازة ، أو وجهت إحادة لأحد الجنود ، أو اذا قتل زوج زوجته أثر ضبطها مضاجعة عشيقها في الفراش (وإن وجب أن تقع مثل هذه الأحداث في بيت الأسرة ، وليس في أي مكان آخر) غير أنه حتى اذا تبين أن شهادة المبر قد تم اعدادها ، فإن هذا لا يؤثر على صدور قرار الحكم بالاعدام . لأنه من غير المباح لأحد المساس بسلامة المجتمع ، لأن فرنسا مملكة (من المظور فيها اطلاقا لتركيب أي عمل من أعمال العنف) .

وتركزت حجج المحامين على وجوب الحفاظ على النظام - وكانت لديهم أيضا حجة ثانوية ، أو كانت لديهم - بالأحرى - صورة متدرجة من الحقبة الأولى أو اعتماد لها . وتحدث أحدهم (*) عن الحاجة لتطوير المجتمع، وانتقامه من أية فضائح ترتكب في حقه ، أو أحداث مفسدة تلحق به . وكتب قانوني آخر ١٧٧٣ عن الانتقام للمظور على البشر ، وإن كان من حق الملك ومسئوليته بحكم التفويض الإلهي له بالسيادة . وبعد ذلك بأربع سنوات ، تحدث قانوني آخر عن ضرورة توقيع العقوبة ، والانتقام لأية جريمة ، اذا وضيت الكافة عن فرضها على المجرم . وروى أنه ليس كافيا أن يستبهر القاضي بما يمليه عقله وفكره عند اجراء عملية احتساب الرادع . فلابد أن يشعر أيضا بأنه يصل في خفة التآر الإلهي ، ويتناضل من أجل ما لحق بالنظام الاجتماعي من انتهاك . فلا يكفي أن يظهر الآثم بظهور الشخص المزعج . وإن يتخذ عبدة للمعتدين . ولكن يجب أيضا أن يرى وهو يصلح خطاه في مشهد علني إثباتا لجلال القانون وللحاكم الذي أمناه . وهناك جملة مائة قالها أحد للشرعين في معرض دفاعه عن عملية لاجراءات المحاكمة وتنفيذ الأحكام : « لابد للمتهمين أن يظهروا

أقسامهم ، • و الاستجواب التحضيري ، لا يعنى نظريا التعذيب لاثبات الذنب وانتزاع الاعتراف به - فالقروض أن هذا الاتيات قد حدث بالفعل عند التيقن مسويا من الجرم - والأصح هو اعتبار الفرض من هذا الاستجواب انتزاع اعتراف شكلي تتطلبه عملية التعريض عن الحصار - ولقد شجع أحد الأشخاص المدانين قبل تنفيذ حكم الاعدام عليه بإعلان شهادة الموت (*) . وهذه الشهادة شيء ، والاعترافات المدونة عند الاستجواب شيء آخر • ولا تعد هذه الشهادة وصية أخيرة ، أو شهادة بالمسئ للملوك • فبعد توقيع الموت المدنى (**) عليه فانه ، لم يعد قادرا على التصرف فيما يملك • والأصح هو اعتبار هذه الشهادة مجرد اعتراف شكلي بالذنب نبرته للذمة (***). - وقد يتحد هذا الاعتراف الشكل الآتى : سيلتقى قاضى المحكمة برفقة أحد الكتبة والجلاد بالسجين قبل نقله الى ساحة الاعدام ، أو فى إحدى المراحل الأخرى ، ثم يستجوبونه بعد أن يقسم اليمين • وإذا تطوع بالاعتراف يسجل اعترافه رسميا ، ويختتم هذا الاعتراف بصيغة يعترف فيها المدان بمداه الحكم ، ويطلب الحفرة من الله • وإذا رفض اعطاء مثل هذه الشهادة ، فتتاح له فرصة أخرى للاعتراف ، عندما يصل الى المشقة ، ويصرح للكتاب أن يسجل الشهادة آنئذ فى غير حضور القاضي • وغالبا ما يعصى الحكم بالاعدام بصح المحرم بالاعتقال الكامل (****) ، عندما يكون فى طريقه الى تنفيذ الاعدام ، وقبل أن يصل الى بوابات الكاتدرائية ، أو إحدى الكنائس الرئيسية فى المدن ، وهو بين السجناء من ركاب عربة النقل التى تقلهم الى مكان تنفيذ الاعدام ، وظهور ناحية الطريق العام ، ولا يزيد ما يرتديه عن قميص قصير ، والحبل يحيط برقبته ، وهو يمسك بشمعة فى يده ، ويحمل لافتة مدونة عليها طبيعة الجريمة التى اقترعها ، باستطاعته أن يركع ويطلب الصفح من • الله والملك والملائكة • - وربما اتبع نفس هذا الإجراء فى حالة أية جريمة من جرائم الصف ، حتى اذا لم تستحق حكم الاعدام • وأحيانا ، قد تضاف الى هذه المراسم إجراءات مظهرية أبقى تدفع تكاليفها المتزايدة التى ينتسب اليها المحرم ، كإقامة قداس على روح القتيل ، أو وضع لافتة تذكر الضحية • ويدون عليها حكم المحكمة •

ويطلب المدان فى التماس الطور الثفان من الله بادی ذى منه ، وهكذا لا يكون قد اكتفى بالكفر عن ذنبه علنا ، ولكنه يكمل بهذا الإجراء عملية الصالحة بينه وبين خالقه ، التى يدعىها - اقتراضا - عندما اعترف

Tes'amoni de mort il faut encore que le accusés se fagen! (✱)

condamnant.

eux-mêmes en quelque sorté — la mort civile.

(✱✱)

Par acquit de conscience.

(✱✱✱)

Amanda honorable.

(✱✱✱✱)

للقس في زنازاته • وإذا أمر على انكار ذنبه ، ورفض كتابة التماس
 المغفر ، كان على المترف له الذي يصحبه في الحرية أن يشجعه على ذلك •
 ولقد أذاع المصلحون الرد الشجاع الذي أجاب به أحد الحبارين (١٧٧٠)
 بعد اتهامه خطأ بقتل أمه السكير : « هل أنت على استبعاد أمام الله
 لتحمل وور الاكفوية التي ترغب مني الاعتراف بها على باب هذه الكنيسة ؟ »
 وبطبيعة الحال ، لم يكن الدين مرتبطا فقط بالتعاملات المغفر ، ولكنه كان
 معنيا أيضا بعملية تنفيذ الاعدام بكل دقائقها ، والتي ينظر إليها على أنها
 صورة مسبقة مرمية للموت مصير كل حي ، والتي مستنقاه جميعا
 بلا استثناء ، وعلى قدم المساواة معهما تحين المية • أنها صورة تذكرنا
 بهاية كل آثم ، وبضرورة الاعتراف ، وود الحق لأصحابه ، والتكفير عن
 الذنب ، والأمل والإطمئنان لفران من يدوم ندما حقيقيا • ومن المنظور
 الديني ، ليست الشخصية المحورية في هذه التراما هي شخصية الجلال ،
 ولكنها شخصية كاهن الاعتراف • وفي فرنسا ، جرت العادة على علم
 اقدمه صلاة مقسمة على روح المائ ، ويكتفى بإقلامتها لمن يهرب عن الندم •
 ويقتصر دور الكاهن على الناحية التلمسية والحث على التقبل الروحي
 لمغري العشاء الرباني ويرقب المغفر اذا كانت أسماء الشركاء في الذنب
 لم يكن لها دور ملح ، وإن كان القسيس الكابوشين(*) قد أخطأوا في حق
 معنى الفران في هذه الناحية • وكان كاهن الاعتراف (وفي حالة داميس
 وكلاسي خصص اثنين لهذه الغاية ، وإن كانت العادة قد جرت على تخصيص
 كاهن واحد فقط) يصحب الضحية إلى المشقة ، ويلزمه حتى النهاية ،
 ويقدم له الصليب لتقبيله ، عندما تستد وطاة التعذيب • وقد شجعت كتب
 الاعتراف على الإشادة بامتداد رحمة الله إلى ما لا نهاية • فيقدور أي بسم
 مختصر حتى عد لفظ الأفاضل الأخيرة أن يحقق المصالحة لأشد الآثمين غواية
 وافسادا • على أن بعض رجال الدين قد دهشوا لهذا الرأي ، ورأوا أنه
 من غير المعقول عمليا ، عندما تستد مراودة الأوجاع التي تحبب بالتمهم عنه
 تنفيذ العقوبة ، أن يتجه إنسان بقله نحو حالته ، ومن ثم انضموا إلى
 المطالبين بإنهاء استعمال « المجلة » في تنفيذ أحكام الاعدام ، والخطب
 المشتعل • وكثيرا ما يطالب رجال الدين بالمواصلة بين الممارسة العملية ،
 والمنطق الصلوم لنظرة العقيدة المسيحية إلى الفران • فهما كانت حرية
 الآثم التي اقترعها الثاقب مقرزة ، فصب أن لا يقصر على صيغة التماسح ،
 واسا علينا أن نبلوكة يشماثر (***) كذلك التي تقيها للمحتضرين • ولقد

Salnte - Omer.

(*)

Opusculae (★★) . وتسمى لمصالح للتسول وكلفت إحدى طوائف الفرنسيسكان

١٥٢٤ تقريباً •

Vaticum.

(★★★)

بينت المنشورات الأسقفية الخاصة بالطومس في القرن الثامن عشر لماذا كانوا يرفضون أقلية قنصلت في مثل هذه الحالات ؟ ويرجع ذلك الى القاعدة القانونية التي تنص على تنفيذ حكم الاعدام في نفس اليوم الذي صدر فيه الحكم ، حتى يحدث آثره الرادع ، حتى يتسنى لجسد يسوع الطاهر (٢) الاتحاد بجسد مرغان ما سيتعرض لأقصى درجات التعذيب ، واتصفت حجة عدم إقامة الطومس المختصة ببرهنها ، ومن ثم اختفت بعد صدور منشور ١٧٨٨ ، فقد حدد حينذاك التأخير لمدة شهر للسماح بالوقت الكافي لاعادة نظري لذلك الى القضية ، واحتمال إصدار أمر بالمفو ، غير أن القاعدة ظلت بلا تغيير ، وراينا ثلاثة دفاتر تحتوي على قائمة مفصلة للجهة المختصة للاكليروس ١٧٦٩ تتضمن شكايات من تلك البشاعة التي تتعارض والمسيحية .

ولم يسع المجتمع الديوى ، سواء مثله نقاد الكنيسة ، أو نقاد قانون العقوبات لحرمان الاكليروس من حقهم السوداوى لاحتكار اللطحات الأخيرة من حياة المجرم وهو يتأهب للشق مع استثناء مفكر واحد (٣) ، طالب القس ، بناء على اسباب دينية فحسب بالتغيب عن مثل هذه المشاهد اللطحة ، وقال ان المتفرجين يصبون بلم لمتاتهم على المجرمين، وكانهم شركاء للقضاة ، بينما يصب المجرم للحضر لعناته على الله لأنه تغل عنه (!) وفي واقع الأمر ، فقد كان هناك ود فعل أكثر شجوعا يمثل في الاعجاب بكهنة الاعتراف الدينى الذين يظلمون بمثل هذه الواجبات القسرة . فمثلا يروى أحد الأدباء (٤) حكاية عن كاهن يرافق شخصية كالحة نصف مائة من آثار تذيب الاستجابات التعسفية الى المشقة : لقد رأيت يحضرن الشخصية التسعة بعد أن التهمته الحى اثر اصابعه بالمدوى التي نقلتها اليه الحشرات التي تغل بها زنازاته ، وقالت لنفسى : « بورك الله أبها الدين » فقلنا دليل على انتصارك ! ، وفي بعض المدن ، توطد هذا الدين بحضور أحد للتمنن الى جماعة اخوان التوحين (٥) وجماعت الدائن (٦) الذين التزموا بحضور المنازات ومراسم دفن المسوي . وأقام اساقف ليوج مرادا فيما بين الحاضرين ليلة تنفيذ حكم الاعدام للتسابق على الشرف الجهم لجمع مخلفات الجثة بعد الشق أو بعد تبرئها لربا بالجملة ، ولما في الكفن . وفي اليوم التالي لهذه الليلة اللبلاء ، كانوا يظلمون حللين للقمصون الى موقع تنفيذ الاعدام . وهم يرتدون لباس القرمزية اللون ،

"Le corps adorable de Jésus Christ".

Boucher d'Argis.

Bastif de la Broche.

Prélat de la Croix.

Conseiller des Agéniaux.

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

والنساء منهم وذرارهم الأسود • ويصلون بأيديهم مساح طويطة من الخيش
السوداء المغطاة بتاج من الأشواك • ويحول سبند المسجون اثنين من
النساء من يرتديان أوشحتها السوداء ثم يتشلون أحد الأناشيد الدينية
ويرتلون أذعية أخرى ليسوع والقديسين • وعندما ينتهي كل شيء ، يحملون
الجنة المكفة الى إحدى الكنائس (*) • وهناك يجفون طوال الليل ، ثم يدفنون
الجنة في مقبرة الكنيسة • وهي مقبرة مخصصة للجرمين وحدهم ، منذ
عهد الطاعون الكبير (١٦٣٢) • وتمد هذه الإجراءات الكنسية شهادة على
ما يأمله المسيحي ، وعلى التضامن بين جميع المؤمنين في الدراما الكبيرة
للخطيئة والخلاس • ولكي يتكبل المرض ، قد يقوم أحد الإخوان الصالحين
باصدار تعليمات الى خلفائه بصفته بجوار المنبوذين ، الذين رافقهم في
آخر رحلات عذابهم • • وهناك كتاب شهر صدر في عهد التنوير ضد
بشاعات قانون العقوبات وافقاره الى النطق (**) (١٧٦٤) • وأحدث تأثيرا
عازما في فرنسا بعد ترجمته الى الفرنسية ١٧٦٦ ، كما أحدثت مقالات
سيرفان وفولتير اللذين أذاعا معتقدات كتاب بيكاريا على نطاق واسع آثارا
مماثلة ، وحديث نفس الأثر بعد انتشار الكتابات الرائقة للمحلفين الذين
شجبوا قانون العقوبات • بيد أن المصلح الايطالي والمعلم الفرنسيين قد
قبلا نفس الابداء النفسي الأساسي • فقد اعتقد بيكاريا أن الحجة المستندة
الى فكرة الردع تقي بالفرض ، وقبل الموت كعبر مناسب لمن يهدرون
الأمن الداخلي أو الخارجي للدولة • ولكنه رأى فيها يتعلق بالجرائم الأخرى ،
أن أشد الروادع فاعلية هو البودية الدائمة - فلا يعلم القاضيثير الشهور
بالتعاطف على الضحية ، ثم ينسى كل شيء بعد ذلك • أما منظر المستبد
المقيد بالاصفاة ، فيمثل درسا حافلا بالمر • والواقع أن بيكاريا قد سابر
مبادئ المنصب النفسي الى أبعد الحدود المنطقية ، فلم يتخفى من مذهب أي
اعتراف بشبهة الاقرار بالذنب (***) • وكل ما يقال عن غاية الانظام أو
التكفير • إذ اعتقد أن أهم ما يجب أن يراعى هو ما يحدثه الجرم من دمار
في المجتمع • ولم يكثر بما يجب الشخص المضرو أو يلحق كرامة
المجرم من إساءة ، أو ما قد يسط من جلال الله • وعندما تجعل بيكاريا
هذه الاعتبارات ، فإنه يكون قد تصور المجتمع - ضمنا - قائما على
المساواة • ودنيويا في طابعه ، وتجاهل المظاهر الفيبية القائمة التي قد
تفرض لنا عندما نتخيل ما يحدث في مراسم الاعظام الرسمية • ولقد
أثبت جان جاك روسو كيف استطاع قتل هذه المظاهر الفيبية من دساتير
البرلمانات الى المدينة الجديدة (التي كان يحلم بها) التي تسودها المساواة

(*) كتاب St. Constant

(ب/أ) كتاب Dictionnaire Traité de la Justice et de la Peine

(★★★) Amable Humboldt

والمناسبة للإرادة العامة ، وحيث لا تستمد قوة الحياة والموت من أي تفويض إلهي ، وأما يتم التفويض من كل من ينم بمميزات النظام الاجتماعي . « وبذلك لا أتق صحة لأي سفاح ، ولكنني سأموت وأضيا عندما يحكم القضاء . » ووفق كل ذلك ، فإن السلوك الإجرامي يحمل في ثناياه وصمة الشرور والحياة . (وهناك امتداد أكثر اتساعا بالروح الشريرة لهذه الفكرة سمحي ، ذكره في الفصل الذي يتحدث فيه روسو عن الدين المدني) . ويرفض بيكاريا كل هذه الخواطر . فلا أحد قد تماقد على التنازل للآخرين عن حق التسلسل على روحه . فالأمر عبارة عن شر يفلس إلى باقي الشرور ، وربما حقق إعدام شخص ما تقعا ضروريا ، ولكنه ليس مستمعا من أي نوع من الرضا والقبول . أنه إجراء من إجراءات الحرب . ولا يدافع بيكاريا في مثل هذا الرأي عن المبدأ المسيحي الذي يؤمن بقسسية الحياة الانسانية . أنه يطالب من يدعو إلى إزهاق الحياة أن لا يقتلوا أنفسهم ، ويسألون مقبة قتلهم . وهناك اختبار بسيط بالاستطاعة إجراءه لتقدير مدى الإحلاص في هذا الشأن : « هل تقبل الاعتراف بالجلاد العام كمواظي خير يشارك في الصالح العام ؟ لم أنك تقشعر من مجرد وجوده ! » .

وقبل المحامون الفرنسيون بالفعل مبادئ بيكاريا الشهيرة في العقوبة التي تنص على وجوب اتصافها أولا - بالمعلية - ثانيا - بتعد بأهل مظهرات ممكنة - ثالثا - أن تنفذ قويا - رابعا - أن يكون هناك تناسب بينها وبين الجريمة - خامسا - أن تتحدد بعرفة القانون - ويرجع الاختلاف إلى اللون التاسع في تعريف ما تعنيه الكلمات الآتية : « ضرورية » « أدبي » « متناسب » ، و « تعدي » . وكان مونتنسكيو قد امتدح بالفعل اتباع شرط ما يقضي بأن لا يوقع حكم الإعدام في المسائل التي تمس الدين والأخلاق (في المبلغان المسورة الحال ، حيث لا تتفاوت كثيرا ثروات الأفراد) . حتى لا يحدث أي اعتناء على الممتلكات ، واتباع روسو مسيارا مخطئا : من الخطأ الحكم بإعدام شخص ما إذا لمكن إبقاؤه على قيد الحياة ودون ترميض أحد للخطر . ولو طمعت هذه الشروط لما كان من المستبعد أن تحدث تحولا في تشرعات «العالم القديم» ، وشجب قولنير الإجراءات القاسية بلا مبرر ، وصفي لأعادة النظر في جميع أحكام الإعدام بحيث يترك أمرها لحكمة الحاكم نفسه . وفي ١٧٦٢ ، بدأ حملته ضد مظالم الإجراءات الجنائية الفرنسية ، وتحقق أول انتصاراته في مارس ١٧٦٥ ، عندما نجح في رد اعتبار ذكرى كلاس (٢) .

(٢) Jean Calas (١٦٩٨ - ١٧٦٥) . لهم زورا وروكا بأنه تسبب في مصرع ابنه لاحتقاله البروتستانتية . وكان بالغة أحماله ١٧١٧ ، أولا هتف هاتنر لدى مجلس مدينة نياجز . والكتابهم بهاء .

• الحد الأدنى المناسب للرجال ، لقد كان من السهل الإصرار على القول بوجود حالات تستوجب إصدار أحكام بالإعدام ، ولكن ما أصعب الدفاع عن بعض الإجراءات المظة كالتعريق بواسطة السجلة أو الإحراق ، وإزدادت الاحتجاجات العارضا بفضل الدعوة إلى اتباع العقل (*) في الأدب ، الذي أبدت الاسميين في مباحثهم بالكشحيات أكثر من ترددها مثل الاحتجاج على السلوك الوحشي ، ففي ١٧٧٠ ، كان هولندي على استعداد للإبقاء على الوسائل الموحشة في الإعدام ، عندما تنبئ في حالات مثل جناية قتل الأقرنين والحياة واشغال المراقبي . وبعد سبع سنوات ، اكتفى بالمطالبة بالإعدام . وقال بوشيه أوجيز (١٧٨١) مباشرة ما يقال عن وحشوب مراعاة التدرج في الحالات التي تستحق التعذيب عند توقيع عقوبة الإعدام . لا شيء يمكن أن يضاف إلى عقوبة الإعدام - وقارن بريسو وسائل تنفيذ الإعدام المتحصرة بالوسائل التي كانت تسع في مصر قديما عندما كان المجرم يخضع باستعمال البحور ، والمقوبة الحديثة فخره باستعمال السجلة الوحشية ، ثم الاختراع الوافد من شمال أوروبا ، ونقل بطريق مصطنع إلى الدروب الأكثر ارتقاء وتحصرا . واعتقد أن علما أن مراعى مقدار الأماكن تيسير ميتة الشخص المدان ، وإن وجب علينا أيضا جعل الإعدام يبدو أمرا مفرغا في نظر المشاهدين (**) تشبها مع ما قاله مفاراه بعد نبذه نفس المبدأ . وينبأ هذه العناية الاسامة الطابع تحطت أثرها . فقبل الثورة، التي التعذيب ، وألغى تماما لذلك « الاستجواب التعذيب » (١٧٨١) والاستجواب الاستثنائي ١٧٨٨ (وما يلبنا على طابع العصر تغلب القضية عن الاستجواب التعذيب . قبل أن يخصص به في منشور ١٧٨١ ، ولكنهم لم يتنازلوا عنه تماما بعد ذلك) .

ومن بين الوسائل العملية لتطبيق المبدأ النفسي عند بيكاريا النظر إلى كل جريمة كبرى على حدة - يعني إلى ردائها أن صبح القول - لتقرير هل يعد الحكم بالإعدام رادعا فعلا حقا . واتباع مبرليه هذا الاتجاه في نظريته إلى حلال الفراء من الجيش . ومبرليه ضابط محترف محك . وقد ذكر ذلك في مبحث نشر ١٧٧٠ ، وأصور فرصة إردباد اهتمام عامة الناس بالموضوع بعد ظهور أوروبا لسيدان (***) ، لاقت سجاها ١٧٦٩ ، وقام مرسبه بتأليف دراما نثرية تدور حول الموضوع نفسه ووصف مبرليه كيف يخضع الجيش عقوباته : فعلمنا يلجأ الهاربون إلى العدو يشقون .

Sensibilité.

(x)

Bendez affreux l'appareil du supplice mais que la mort soit (x.x) douce.

Monsieur (****) مؤلف نص لوبرا كوميك فرنسية وضع موسيكا Monigny

Le Drameur.

(١٧٦٩) والسما

لما الهاربون الماديون فيقتلون رميا بالرصاص بواسطة فصيلة الاعدام المؤلفة من أفرادهم الجنود . بيد أن الجريمة في الحالتين واحدة . ولقد تظلم بعض الهاربين من الوسيلة التي اتبعت في تجنيدهم كالتمريض للضغوط ، وتقديم الرشاوى لهم حتى يوقسوا على طلبات التطوع ، وكان أغلبهم من الفلاحين الذين لا يؤمنون بشرف الانضمام لصغوف المقاتلين . وكان سفار الجنود هم الذين يفرون دائما ، أي من لم يعرفوا طرق النظام أو يتمرسوا على الضبط والربط ، والذين ربما حققوا نكاحا أكبر اذا اعتقروا وتركوا أحرارا . ويقترح ميرليه عدم اغناء القوانين من الخدمة بعد انتهاء عقوبتهم ، وأن يرسلوا إلى بعض الاستصلاحيات بعد إطلاق سراحهم ، حيث يقسمون الولاء مرة أخرى . ليله عهد جديد في الخدمة العسكرية . وبعد ذلك بست سنوات ، طرح الأب جوير (٢) مبرراته لما يعود به الصنح من نفع اجتماعي في معرض تأييده للانفراج عن قنابات منهيات براد أطفالهن ، وأيد استحقاق هؤلاء القنابات للموت ، ولكن القضاء عليهن يعني تدمير حياة أشخاص مكتملات النضج تكبد المجتمع نفقات وعائتهن ونضجهن ، ويقادروهن خطة هذا المجتمع للتكفير عن جريمة قتلهم أطفال لم يكتمل نضجهم . وقال جوير : إن ما يتنازل مع هذه الحالة في التمدد والفظافة الحكم باعدام المجرمين ، لأن حياة الرجال أثمن من حياة أقصائهم النكراء . غير أن لهذا الرأى النفسية له مخاطره ، فقد لا يحقق دوما نتائج إنسانية ، فكما قال مؤلف سويسري في كتابه عن شريعة المساعدة : « إن ما تلحقه الأمراض النفسية من ضرر للدولة في سنة واحدة يفوق الضرر الذي يلحقها من وراء الحرائم النفسية التي تقع في قرن مأكله » ، ولما كان ذلك كذلك ، فقد نصح بإرسال الشخصيات الأخلاقية التي تسبب في تفشي هذه الأمراض إلى المستشفى .

ومن بين الوسائل الأخرى لتطبيق مبادئ القصب النفسي ، والربط بينها وبين التأثير المتصاعد لاتباع مسلك عقلائي قصوى تأثير طقوس الشنق على المجتمع بصورة عامة . فلو كان هناك نفر من الناس فسدت عقولهم ، واجذبوا إلى الاهتمام غير السليم بالعنف بعد تأثرهم بالوسائل القسرية الوحشية التي يتبعها المجتمع ذاته - إن هذا هو رأى لانورو دمين أوبيك . فلقد حلت زويدة شريرة من الفرائز الوحشية حول الجلادين الصوميين ، مست أسرارهم الخاصة وأحوال أسرهم . فالطلبة الذين يدرسسون علم التشريح قد تجردوا من المشاعر الإنسانية من أثر تمعنهم في التحديق في جثث المجرمين ، وما يظهر عليها من علامات الشر والذعر التي تطنى على مظهر السكينة الذي يصحب الموت . وتزداد الفظافة عند السواد الأعظم

من الفلسفي من تأثير مساعدة الفكرة وهي تصنف الرقاب ، ومساعد صوتها . ويقول لا تدرو ان هذا يضرب سر ما تفقد شرطتها من عون من علمة الناس . ولو اننا جعلنا القانون الجنائي واضحا وبسطنا صياغته ، وراعينا الاعتدال في عقوباته ، لا كان من المستبعد تعلمون الكفاية معنا في فرض احترامه . وعندما بدلت اول مذابيح الشووة ، تناول أحد كتاب المنشورات القانونية فكرة لا تدرو بالتنقيب وقال : « لقد رأينا الجبابرة وهي تسبح في بحار من العمل البشرية ، فمن أين اكتسبت فكرة هذا الحق للزعوم بالذبح ، اللهم الا اذا كان هذا الحق هو نفسه الذي ينسب للمجتمع » ؟

لقد كان بيرو مؤلف هذه المنشورات يرمي بإرائه الى الانشاء التام لقوية الاعلم ، لاعتقاده أنه من الخطأ بناء على اية ذريعة قتل أحد رفاقه الانتماء الى الجنس البشري . ولم تتوافر لاي كاتب قبله التبشيرة التي تنفذه الى مثل هذا الحد من التطرف المنطقي . وقد عبر عن هذا المصي من قبيل الزهو ، ولعله لمصا في رأيه اذا لمكنا استثناء لا تدرو او « من لوبيك » (*) . واعتقد حتى أبعد اصحاب الطريقات الاساسية تطرقا ان هناك جرائم شائكة للغاية قضيت عدم انتماء مقترنها الى الآدميين . فهم وحوش « ماتت ضمائرهم تباعا » ، وبلا استطاعة الخلاص منهم ، واسعب الفكرة الاساسية للاصلاح للنهج ذاته على وجه التقريب ، الذي نهجه بيكوليا ، يعني اقرار استمرار اتباع نظام الحكم بالاعتماد ، وى وجب عدم تنفيذه الا في الحالات النادرة ، ويمكن الاستعانة به بالسجى مدى الحياة ، وخطرت ببال بعض الفرنسيين قبل أن يشر بيكاريا مؤلف فكرة انقاذ الأفارقة الأشداء من القسوة ، ودفعهم للعمل للنتج الذي يعود بالنفع على الاقتصاد . ودافع بعض الفرنسيين(*) عن فكرة انشاء ثكنات للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، والأشرار الذين أعفوا من حكم الاعلم ، والذين يحصلون وصيات في وجوبهم تحول دون عودتهم للحياة الطبيعية في المجتمع ، فالأصلح هو ان نساعدهم على استئثار جهدهم في اصلاح الطرقات أو العمل في المناجم . ووضع بيكاريا بعض اللزمات على هذا المشروع الاقتصادي لكي يتخذ مظهرا محترما . وتحس له ولاذره الانسانية ، وحسب أثره الرادع على طريقة المحامين . وتبني تولير الفكرة بعمامة ، واستند الى جميع المبررات ، وبخاصة الاقتصادية :

Maine-et-Loire.

(*)

(*) من كتاب L'écrouille, Servus Faigal de Villeneuve.

« إن الرجل المشنوق لن يصلح لأي شيء » (*) - وابتداء من ١٧٧٧ ، صعد فولتير إلى المطالبة بإتهام الحكم بالاعدام القتل - فبالقدور الانتفاع بيهودهم ، كما أثبتت أيجلرا عندما أرسلت المحكوم عليهم بالنشق إلى المستعمرات ، وكما فعلت روسيا عندما أرسلت مجرميها إلى سيبيريا - فما « دينرو » ، وهو من المساندين الواقعيين للحكم بالاعدام ، فقد اقترح إعفاء الجميع من هذا الحكم ، والاستعانة بهم في المشروعات العامة ، باستثناء السجاني المينوس من إصلاحهم « لأن قتل شخص لا يمد مبررا لقتل شخص آخر » وأجرى حسابا دقيقا لقيمة الكائن البشري في تلك الأيام ، التي اشتهرت بسمو أخلاقها : « أما عندما نحكم بالاعدام على إنسان في الثلاثين من عمره ، فأننا لا نضمن قيما أقلعنا على فعله - فمدا أجريا حسابا لم حلت سيتمح لنا أن هذا الرجل هو الوحيد الذي سيبقى على قيد الحياة من بين عشرين شخصا ، أن شرائصنا الجبانة لا تعرف أي شيء عن قيمة حياة أبه الثلاثين من عمرهم » ، وقبل المصلحون الفرنسيون - بوجه عام - فكرة الاستعاضة عن حكم الاعدام بالسجن مدى الحياة ، ومن ثم رأيا نفرا مهم (**) يخشون على إنباع هذا الرأي (وأصاف « موهر » فكرة شريرة) ، هي إجراء التجارب الجراحية على المجرمين الذين قد يفصلون تشريحهم - وهم أحياء - مع احتمال الإفراج عنهم ، على السجن مدى الحياة ، وأوصى « لانفرو دي مي أويك » بالسجن بدلا من الاعدام ، واشترط ، بدافع غلبه مشاعر الشفقة المسيحية ، المعاملة الرحيمة والإفراج عند بلوغ مي السبعين - ولاحظ بسذاجة أن هؤلاء الشيوخ البطركه عندما يخرجون من السجن سيكونون أفضل من علم تصانع مخصصة للشباب (!) ولت المعامي فلان (***) (١٦٧٠) اتنياء الجمعية الوطنية « إلى جعافل العمال أصحاب البوايا الطيبة الذين سيتوافرون في حالة إلغاء الحكم بالاعدام » ، وبذلك يتيسر تحويل أشتع الإساءات الصارخة للنظام الاستبدادي إلى معاصر شرائصنا الجديدة « - وربما بدنا من التريب أن يفسح مفكرو القرن الثامن عشر أنفسهم - بكل سهولة - بالقيمة الاحتمالية للعصاة عند نرلاء السجون - نعر أن نظام المعيد المتبع في المستعمرات قد عاد بالكثير من القبح ، وبذلك ارتقى منسوب العمل في مواجعة الترع بالصفوة ، وأعسر علماء علم السكان تضاعف الأيدي العاملة في الدولة مقياسا للحكومة الساجعة - فكلما ازدادت قاعلة الوسائل التهذيبية المتبعة في المسكرات الحرية والمفروس والمصانع والإصلاحات ، إرداد الأمل - كما يبدو - في احتمالات إعادة التنظيم العقلاني للمجتمع »

On homme pendu n'est bon à rien.

(٠)

Parotet, Mirabeau, Boucher d'Agris, Mahana, Brissot.

(*) من لثال

Vassila.

(***)

ويخضع النظر عن تأييد الحكم بالاعدام ، أو الاعتراض عليه ، فقد
 حدث اتفاق على جعل مصير المجرم من المشاهد التي تعرض على الكافة .
 ويرجع ذلك الى النظرة التي اشترك فيها الرعبيون والمصلحون معا ، التي
 ترى العقوبة بمثابة دافع . فما دعا قد سلبا بحرية البشر في افعالهم ،
 فلا بد ادن من تقييد نظرة الردع بشروط اخلاقية ، لان اللوم سينصب على
 دوافع السلوك الاحرامى . وليس على نتائجه . ولما كان بناء النظام يتصف
 بالهشاشة ، ولذا فهناك مبرر قوى لاعطاء الاولوية للنتائج ، ولقمع
 المواقف الخطيرة . وقد شجع المصلحون هذا الانجاء اعتمادا على تيسار
 فكرى شائع كان يرتاب في الحرية الانسانية . فلدنيا مثلا ديمو ، الذي
 اهتم في منحيه اهتماما اساسيا بالعوامل الوراثية التي رافها متشابكة
 الى حد العقيد هي والمشكلات المتعلقة بحرية الارادة . وهناك ايضا
 هلفسيوس الذي تركز اهتمامه على التأثير التكيفي للتربية والتعليم
 والوسط الاجتماعي ، لما لامتريه (*) فقد تصور مصير البشر على غرار
 تصوره لمصير الحضرات ، اى اعتبره حيلة بقوة وتربية . وحسب .
 ومن ثم بدا له اللبس والقابل الشهير كارتوزي ، قد خلق لكى يكون
 كارتوزيا ، وما كان يوسعه ان يخلو شخصا آخر ، وهناك مفكرون من
 أمثال فولير وآخرين كهولناخ (**) ، الذى قبل بفنود انهاء المسؤولية
 الاخلاقية بصفة مطلقة . ويقدر قبول هؤلاء المفكرين لآى نوع من الختمية ،
 كان من الضروري ان يحى صوراتهم للعقوبة كفى مصطم . وقد طرح
 دالمير (***) الفضية بوضوح فقال : « لو كان البشر أحرارا ، فان العقوبة
 ستجبر بين ضرورتها واصعبها بالانصاف . ولو كانوا غير أحرار ستكون
 العقوبة ضرورية فحسب » . وفى نهاية المطاف ، وربما فى حالة عدم الادانة
 الاخلاقية ، لابد من الالتجاء الى استئصال شىء ما ، لأن الحاجة ستدعو
 الى استبعاد بعض الافراد الناشزين من المجتمع ، ولذا كان البشر قد أمسحوا
 على ما هم عليه من تأثير محتمات خفية ، سمحق لنا أنته أن نقول لهم
 عدما لا نرضى عن مسلكهم بأن العقوبة أمر مقدر لهم . وادنا قلنا أنهم
 نتاج لمعامل تكيفية قابلة للتعامل معها - وهذا هو الاحتمال الأكبر ..
 مستعبر حسداك ضغط دوافع العقوبة ، لانتاج النموذج الاجتماعى الأنفع
 لاحتمالات حياتنا المشتركة . وهكذا ننود مرة أخرى الى حساب الألم

(*) Julien Offroy de La Mettrie (١٧٠٩ - ١٧٥١) عالم

المفرداء والفيلسوف المسمى مؤلف كتاب *Histoire Naturelle de l'homme* (١٧٤٥)

(**) Paul Thiry, Baron d'Holbach (١٧٣٢ - ١٧٨٩) من قطب الشعب

المسمى فى عصر التنوير بفرنسا .

(***) Jean le Rond d'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٣) من فلاسفة التنوير وأحد

من اشتركوا فى تأليف الموسوعة الشهيرة .

كما فعل مصلحو « العهد القديم » ممن اعتقدوا أنهم يتعاملون مع الأشخاص يتمتعون بحرية العمل ، وإن كنا نتعود بعد ازدياد اتصالنا بالإنسانية ، وازدياد ميثلتنا تنورا . وسواء كان الإنسان حرا ، أو خاضعا ميكولوجيا للحتمية فإن هناك حبيبا يمكن أن تساق لشبرير مصلك حشود الغمما ، في ميدان ذي جريف ، كما بين عند التحقيق في صندوق الدنيا في اليوتوبيا التي أنت الرق وحقت المساواة (*) وأعطت المشتغلات بالترينو حق تقرير المصير بالفضلة ...

ولقد أشار كتاب « التراجع » إلى التباين بين معارضة رويسير لحكم الإعدام قبل الثورة ، ودفاعه عن « الرعب » ، وإن كان لا وجود لأي نواحي بين موقفيه . فقد رأينا كيف اعترف ميكلورا بملوك كمقوية مناسبة لمن يهددون أمن الدولة ، واتباعه في هذا الرأي جميع المتقين (**). الفرنسيين ، وتمثلوا هم والمخطفون في النظام القديم الذين اعتقدوا أن المقوية مسألة وادعة أساسا ، ومن ثم فمن البديهي - على ما يبدو - القول بوجود حرمان المتحردين من كل أمل في النجاة بمساعدة أقرانهم من المتأمرين . فالخيانة لن تنجح أبدا ، ويرجع ذلك لأسباب كاسية في مصلها ، ولأن الخونة لن يطلوا على قيد الحياة ليروا نتيجة ما فعلوا وجروا . وقال سيرفان في هذا الشأن : « إن المشقة هي سلاحنا الأخير لتخليصنا من المجرمين الأعداء الذين لن نستطيع إبقائهم أحياء وسطنا . دون تعريض أنفسنا للخطر . ولربما رضى فولتير عن استعمال المشقة لو أنه أدرك علم وجود وسيلة أخرى لا تقاذ أرواح الأغلبية الساحقة ، وما أنبه هذه الحالة بقتل مسعود . ولقد أباح بريسو وراستوريه الحكم بالإعدام في حالات لوثكاب جريمة الحياة : « كالتكلم سرا ، والانتفاضات الصاعدة التي تهدد أمن الوطن ، لو التي إعدام متبري الشعب » . ولقد قيل هنا الكلام في مساويف عصر جديد ، وكان « المتقيون » من فوائل من تطلوا لاحداث الإصلاح على نطاق واسع ، وعندما كتبوا عن الحياة لم يكن ما جال بخاطرهم الأقوال المأثورة في تاريخ الرومان (***) التي كان لها الصدارة في دراستهم فطليا ، لو حتى شيئا أقل من ذلك . أي الترجمة الغيبشة ليدرو لهذا القول المأثور ، والتي جاء فيها « أن القانون الأسمي هو القانون الذي

Le Peuple (☆)

أشاره إلى بعض الصوة التي كن يشتركن الكتاب الثورة الفرنسية في إعدام فولتير إعدام الثورة ، وهذا فكر عام يفرج في قصة ديكتاتور ليكنز .

(☆☆)

Abolitionist.

(☆☆☆) *Deus populi suprema lex* (القانون الأسمي هو الذي يحكم

صلاح الشعب)

يحقق مصلحة من يمكنون الضمب ، ، ان ما كانوا يحصونه ليس بلادهم كما هي كذلك ، ولكنها بلادهم كما ينبغي أن تكون ، وهذا ما زاد من نفهم للتأمر . وذهب مارا (أحد زعماء الثورة الفرنسية) في سبيل الدعوة ليوتوبيته ، وحلمه بإنشاء لمة حرة تسودها المساواة الى حد المطالبة باستبقاء بشاعات المثقفة التي تنسب اليها ظلمات تشريعات ، النظام القديم ، وطالب بالحكم بالاعدام على من يشرع في اشغال البرولان بالسفن او الترسانات ودور المحفوظات والأبنية العامة (٣) ، ان هذه الأقوال البليمة القاتمة ، التي لم يدرك أحد حينذاك دلالتها قد استطاعت بعد ذلك المتور على من تنطبق عليه هذه الكلمات . ولقد كان هذا الشخص هو الملك مالدات . ولقد انتقلت فكرة قتل شخص الملوك والتي استند اليها في تبرير حالات التعذيب التي اوردوها داميس الى الثورة في التصور الدستوري « لانتهاكية » (٤) . وتزعم مارا المطالبة بأعادة تعرضها على ضوء المحاكمات وأحكام الاعدام : « كيف يمكن أن يحاكم الملك السابق ؟ أما الرد فهو ضرورة مراعاة إحاطة هذه المحاكمة بمظاهر الأبهة ، مع معاملته بصف ، والابتعاد عى الأفكار الرائجة الطنانة التي تدعو الى التسامح والكرم ، والتي يصر عنها بعبارات ترضى الضرور القومي وتخدعه ! » وأنه من المؤسف أن نرى كيف اعتمد على الجانب القاتم من فكر بيكاريا وبريسو من فكرة المثل الأعلى للعبودية ، بدلا من الحكم بالاعدام فما دار من حوار حول غيابة لويس في عازلات مظلمة بالكراصة في خطب أصحاب السراويل المضفاضة (٥) عن الطفلة المروضين في انقاص ، حتى تكون عبرة لشعوب أوروبا .

وترايد كشف كتاب عصر التنوير عن دوايتهم بالحاجة الى الإصلاح الاجتماعي للخلاص من أسباب الجريمة ، ووجه بيكاريا اللوم الى المفالة في فرض الضرائب وخضوع الأسرة الزائد عن الحد لمسطرة الأب ، وانحياز القوانين ، ونسب العنف في المجتمع لجميع هذه الأسباب . وقال هولباخ : ان الحكومة التي تساعد شعبها على تحقيق السعادة والرخاء لن تحتاج لابتكار عقوبات قاسية للمجرمين . وقال فولتير : « على الأغنياء الذين يستنون القوانين دراسة ما يتعين قيامهم به لمساعدة الفقراء قبل سوقهم للجلاد » فلذا قطنوا الى حابة الساتطات الى عمل شريف وإلى مؤسسات ، مثلا ، فإن هذا سيحول دون انزعاجهم لأرواح ما ينتجن من أطفال ، وأشار بوشيه تاريخه الى ما هناك من اعتماد عن الانصاف

que l'appareil de son supplice soit effrayant, et qu'il en soit ()
témoin lui-même.

Invokability.

Seneculotia.

(*)

(*)

في وصف سرقات الخقم من المنازل بالجنايات الجسيمة ، لأن مثل هذه المخالفات غالبا ما ترجع إلى التباين بين ما يتمتع به الأسيداء من ترف والأجور الهزيلة التي يتقاضاها من يعملون في خدمتهم ، وطالب مارا بإجراء اصلاح يحقق المساواة للمجتمع ، ويظهره من أوصاياه ، يعني باستحداث نظام يحقق المشاركة في احتلال الأراضي ، ويسر التعليم للجميع ، ويعني بالمستين - آلفد ميتسني للمشرع الاستشهاد بروائع ماثورات العهد الكلاسيكي القديم ، وتطبيق القوانين التي تثيب الفضيلة بدلا من قمع الرذيلة . وكتب بريسو : « لم يولد الإنسان عدوا للمجتمع ، ان الظروف هي التي دفعت ، من جراء الفقر والشعور بالأحباط » نعم عليكم بتحقيق المساواة بين البشر في الثراء والتزام الاعتدال عند فرض الضرائب ، وتعليم الناس الأخلاق ، وتبسيط القوانين بحيث يتسنى تجميعها في مجلد صغير الحجم وريعي ، يمكن حمله للكافة كما تباع ، العظمت الدينية . وسترون أثر ذلك على السواد الأعظم من المواطنين ، الذين سيرتفع شأنهم ، وسيلتزمون بالقانون . واقتربت بعض صفحات كتاب بريسو في تحويل مسائل الاجرام إلى مسائل تنبع علم الاجتماع ، وعلى الأخص عندما اكتشف حاجة كثير من المجرمين إلى إعادة تعليمهم أو المون الطبي ، وقال لامترية : ان بعض الجرائم الفظة لا يستبعد أن يرد لخلل عقلي (وكان يقصد بذلك المثل الغامض بالمرأة التي قتلت ابنها والتهمتهم !) ولا يجب أن ينحول القصة إلى محاميين ، بل أطباء مدارس دوى خبرة (أى مثل لامترية بالذات) ويعد لامترية في هذه الناحية . وفي النواحي الأخرى أيضا . أكرم المصلحين الإنسانيين ، لأنه رأى جميع المجرمين أشخاصا يمانون من اضطراب عقلي : « الحق أن جميع المجرمين مخبولون » وتتوجب معاملتهم بناء على هذه الصفة من قبل من يتمتعون بالصحة العقلية ، « وبصرف النظر عن جميع هذه الآراء ، فإن الردع قد بدا لجميع هؤلاء الكتاب هو الغاية الأولى من العقوبة ، واستمر الحكم بالإعدام في نظرهم جميعا - ما عدا لانغرو - سلاحا لا غنى عنه للتعامل مع حالات انتأمر ضد الدولة .

فالي أي حد تأثرت سياسة أحكام القضاة في البرلمانات والمحاكم بمعتقدات المصلحين في عصر التنوير ؟ وتمشيا وما ذكره أحد الشهود والمختصين من شهود العيان (٤) ، فإن المحاكم ازدادت نزوعا إلى الرحمة في العقد الأخير قبل ١٧٨٩ . ولهذه أصناف في هذا الرأي ، وإن كان من

(٤) Pierre-Louis Baudouin (١٧٥٤ - ١٨٢٥) السيلس والاقتصادي والمؤرخ والشاعر . يقال عنه انه رسم أروع صورة انسانية لهروب المائلة الملكية الفرنسية من باريس . وما تبع ذلك من جيش طريح وأطفيهم إلى طرطهم .

الضرب تأييد هذا الانطباع بالإحصائيات الدقيقة للقمعة . فليس بالقصور تحليل سياسات القضاة بعزل عن باقي المؤثرات . لأن السلوك الإجرامي كان يتطور ، ويعرض مشكلات وأخطارا جديدة . ففي آخر سنوات النظام القديم ، قسم للمحاكمة عدد أكبر من المعتدين على القانون ، وتصاعف عدد من دخلوا السجن ، كما يبين من للتوسطات التي تضمنتها سجل سجن آكس في بواكير السبعينيات عن عيدهم (١٧٥٠) في نورمانديا ولانجفوك . وفي طلق السلطة القضائية لبرلمانان ليل والسيس والفلامرز ، هناك دليل واضح على حدوث تحول من غلبة جرائم العنف في بدايات القرن الى جرائم الاعتداء على الملكية فيما بعد . وهناك ما يقبض أيضا ارتفاع حرفة السرقة وزيادة تنظيمها ونوع أساليبها . فلقد ارتقى المجتمع ، وانصيابه ، بفعل تقدم أعمال الشرطة ، وازدياد الوعي بقيمة الملكية . وفي المقابل ، ارتقت الفئات الإجرامية وازدادت كفاية . ولربما حدثت ضغوط ساعدت على الابتعاد عن الأمانة بعد حدوث تفورات بين الممد المترايد للسكان وموارد بعض البفاع ، ومن المؤكد أن التشرذ قد ازداد ، وتعامق القلق عند الطبقات المالكة . وفي مواجهة تصاعد الروح الإجرامية وظهر أنواع مستحدثة منها ، اضطر برلمان تولوز الى الردع الى اتباع الأساليب الصلومة ، بينما حشحت برلمانات شمال فرنسا نحو اللين والترقى . وحكم برلمان الفلامرز بالأعدام على تسعة وثلاثين من مائة وستين شخصا من المدين بين ١٧٢١ و ١٧٢٠ . ولكن في الحقبة الواقعة بين ١٧٨١ و ١٧٩٠ ، لم يوقع حكم الأعدام على أكثر من ستة وعشرين شخصا من بين خمسمائة . وباد برلمان باريس من أحكام الأعدام بين ١٧٦٠ و ١٧٦٢ ، ولكنه نزع بعد ذلك من تأثير تقدم الوعي الاجتماعي في أغلب الظن الى خفض هذه الأعداد بقدر كبير (فلم يتجاوز من صدر حكم باعدامهم ١٧٨٧ سبعة أشخاص) . ومن جهة أخرى ، فقد زج برلمان باريس بعدد كبير من مرتكبي الجرائم الى السجون . ها يوسعا أن يفترض وجود نية لمحاولة تطوير الأشغال الشاقة ، بدلا من توقيع حكم الأعدام . وأن كان تعذيب الأشغال الشاقة قد اتصف بالهامة ، حتى بدأ أقرب الى وسيلة بديلة للحكم بالأعدام . فما لم يستع الشخص بيبان متين ، فانه لن يمر طويلا اذا حكم عليه بالسجن مدى الحياة . فمن بين أربعة آلاف من المعتدين في قاعده مارسيليا ١٧٤٨ ، صدرت أحكام على مائتين تقريبا قبل ١٧٢٠ ، وعلى ما يتوف على العين وخمسمائة ، قيدت أقدامهم بالأصفاد الحديدية في السنوات الثماني الأخيرة (ولم يكونوا حياضا ممن يمشون السجن مدى الحياة ، ولكن أغلبهم كان من المحكوم عليهم بالسجن مدة طويلة . ولا يعني انتهاء مدة السجن الإفراج الفوري عن

السجين ، وليس من شك أن منظر نزلاء اللومان (*) وهم يهرون بسلاسلهم وسط التلال والوديان ، وقصص « الأحياء الأموات » الذين ينتظرون الموت كل لحظة تحت شمس البحر المتوسط ، كان من الروادع التي لا تتجاوب مع ما قاله بيكفورا وآتباعه ، وتوحى بعدم وجود أي شيء دس في بالهم . ففي الحق لم يكن « النظام القديم » قد بلغ درجة من الاقتناع الفكري تؤهله لتحمل إنشاء نظام للنفوبات يصبح بين المظهر الانساني والعاطفية ، أو للاتهام على مثل هذه الخطوة . ولعل الأمور كانت ستتجه اتجاها آخر لو أن استراليا وقع بين أيدي الفرنسيين ، ودعا كل من بريسو ولافايت لإنشاء شبكة من خطوط السكك الحديدية . فقلد كانت فرنسا عامرة بالسجون ، وكان يصفا أشبه باللوحات الخيالية المخيفة التي رسمها حور إيغال شهر (**) فهناك الزنازن السفلية في قلعة كان حيث تصلب الأقدام الملونة في المياه حتى الكاحل والمهيدة بالأصناد بالعنفريتا ، ولا نسي الأتصاص الحديدية في برلمان باريس التي يسجن أي شخص عن الوقوف فيها مستصحب القوام . وربما أضى سنوات طويلة دون أن يرى الشمس ولو مرة واحدة ، أو دون أن يشاهد نارا أو قسا يسترف له . أما الإصلاحيات (***) حيث تودع النساء مفترقات بعض الجرائم والأطفال المشبهون ، لا تقاضهم واتقاضهم من مصير أسوأ قد يحل بهم لو أنهم استمروا في العيش وسط عائلاتهم . فكانت أبشع حالا . ومن طواهر هذه الحقبة الأمر « بالقض المشوائي » (****) الذي يلقى بموجبه بالشخص وسط الأفاتين المشوس من إصلاحهم والقاسقين . وثمة سجون أخرى اتخذت مظهر الإطلال الرمزية - فهي مزودة بأبواب مفاصلها مكسورة وبوافذها خالية من القضبان - ويديرها سجانون سفلة مطعومو الكفاية ، ولكن إذا تجاوزنا عن اللومان الذي التفتت الضرورات التقنية تسخير نزلاءه لبعض الأشغال الشاقة ، فإنا نستطيع القول بأن « النظام القديم » لم يعرف نظاما للسجون يسمى لتحقيق أية غاية غير الاحتجاز لفترة زمنية ما ، ولم تتوافر له أية دراية بالوسائل التي يمكن استعمالها كبديل للبشقة .

لقد رأينا نوع الحجة وقسمها عند مصلحي عصر التنوير في فرنسا . فالأى حد حاولت تشريعات الثورة وضع معتقداتها موضع التنفيذ ؟ لعل كرامات ١٧٨٩ تزودنا بأنطباع يبين لنا إلى أي حد انتشرت هذه المعتقدات ، بين الطبقات المثقفة على الأقل تقدير ، فقلد طالبت بعض

Gedizian.

(*)

(**) Jean Baptiste Pironet. (١٧٧٠ - ١٧٧٨)

(***)

Maisons de force.

(****)

Lettre du cachet.

(*****)

الكراسات بأنها العقوبات القاسية « التي تدفع البشر إلى التقرُّز » ، وبالإقلال من الجرائم الكبرى ، وتسلاوة بين النبلاء والموافق أمام المشقة ، ولم تطالب أية كراسة واحدة بإلغاء الحكم بالإعدام ، والإقلال من الانتباه إليه بقدر المستطاع . وتجاوز قانون ١٧٩١ ما جاء « بالكراسات » ، وبما وكأنه انعكاس معقول للحد الأدنى من القاسم المشترك عند التحسين للإصلاح . فلقد اقترح اتباع وسيلة واحدة في تنفيذ حكم الإعدام تطبق على جميع الطبقات والفئات ، وهي أقل الطرائق قسوة التي عرفها العلم . (ولم يخترع «طبيب الذكر» الدكتور جيلوتين آلة التهلكة التي اشتهرت باسمه . ولكنه أشرف على التجارب الشاقة لمض الطن بأن الرؤوس بعد بثرتها تشمر بأى ألم) . ورئي أن اتباع إجراءات أقرب إلى الانصاف ستوفرطمئنا أكبر للأبرياء ، وإن كان الأمل في المسامحة والغفران ميثوسا منه ، وهذه مغارقة ! ولم تعد العقوبة تمتد بحيث تشمل أسرة المدان وتطبق في ناحية التجريد من الممتلكات أو التشهير والحرمان من الحقوق المدنية . ولم يعد الحكم بالإعدام يصدر في جرائم الاعتداء على الملكية ، أو الأخلاق أو الدين . وظل الحكم بالإعدام ساريا في جرائم القتل والسف . واستمرت عمليات تنفيذ الأحكام تجري علنا ، ويشاهدها المتفرجون . وفوق كل ذلك ، فقد تسائل النظامان القديم والجديد في أصرارهما على الإشادة بضرورة حماية العولة ، التي اودانت قسميتها الآن ، بعد التراض رضاء الشعب عنها . واستبقى الحكم بالإعدام في حالات الخيانة والاعتداء على حياة الرأس الحاكمة ، وأيضاً في محاولات الاعتداء على أعضاء الجمعية التشريعية ، ونزوع أى وزير من الوزراء إلى نشر قانون لم يجر التصويت عليه . وحماية الفرائب بطريق غير مشروع ، والاتجار بأصوات الناخبين للبرلمان ، وسمح القانون بعدم إغلاق نائب الرعب . . .

المراجع

- D. Bien, *The Calas Affair : Persecution, Toleration and Heresy in Eighteenth-Century Toulouse* (1960).
- J. A. Cary, *Judicial Reform in France before the Revolution of 1789* (1981).
- D. D. Cooper, *The Lesson of the Scaffold : The Public Execution Controversy in Victorian England* (1974).
- W. R. Cornish et al, *Crime and Law in Nineteenth Century Britain* (1978).
- R. Forster and O. Ranum eds, *Deviants and the Abandoned in French Society* (1978).
- D. Hay ed., *Albion's Fatal Tree : Crime and Society in Eighteenth-Century England* (1975).
- M. Ignatiff, *A Just Measure of Pain : The Penitentiary in the Industrial Revolution (1750-1650)* 1978
- J. H. Langbein, *Torture and the Law of Proof : Europe and England in the « Ancien Regime »* (1977).
- P. B. Munro, *Gentlemen and Poachers : The English Game Laws*
- L. Radzinowiz, *A History of English Criminal Law and Its Administration from 1750* (4 vol) 1671-1831. 1968.
- R. Smith, *Trial by Medicine : Insanity and Responsibility in Victorian Times* (1981).
- E. P. Thompson, *Whigs and Hunters : The Origin of the Black Act* 1976.
- G. Wright, *Between the Guillotine and Liberty : Two Centuries of the Crime Problem in France* 1983.
- H. Zehr, *Crime and the Development of Modern Society : Patterns of Criminality in Nineteenth-Century Germany and France* (1976).

وسائل التسويق في السوق الدولية المحركات البخارية - قضية بولتون ووات

جنيفر تان

يحتمل أن تكون المحركات البخارية أهم اختراع ظهر في الحقبة المبكرة من الثورة الصناعية . فلقد أنتجت مصدرا للطاقة القابلة للتحويل من موضع لآخر ، مما ساعد على إنشاء المصانع في مواقع قريبة من المصادر اللازمة للصناعة والعمالة ، بدلا من نقلها مسافات طويلة . وتيسر أيضا استعمال المحرك البخاري لفئة مهم شاقة ، متصلة ومتنوعة .

يبد أن اختراع المحرك البخاري وصنعه لا يمثل الا جانبا واحدا من العملية التي أصبحت تسميها عملية التصنيع . إذ كان من الضروري اكتشاف سوق لهذا الاختراع الجديد ، أو خلقها ، فلابد من اكتشاف مشتريين له ، ولابد أن تباع المحركات وفقا لشروط توفر الحماية لمصلحة المخترع والمصالح الاقتصادية ، وعندما حاولت الشركة التي ألفها جيمس وات وماثيو بولتون تسويق منتجاتهما في الأسواق الخارجية بنفس الطريقة المثبتة في إنجلترا ، تمثل الخطر الأعظم في احتمال تقليد للمهندسين الأجانب للمحركات ، واقتسامهم على إنتاجها بمعرفتهم ، ولذا سعت الشركة لضمان الحفاظ على حقوق امتيازها في شتى أنحاء أوروبا . وبينما سعى وات وبولتون لتأمين حقوقهما على هذا الوجه ، قلما أيضا في ذات الوقت بالبحث عن زبائن مشهورين ، أو يحتلون مراكز مرموقة ، حتى يساعد شراؤهم للمحركات على القناع الآخرين بالاعتناء بهم .

واكتشف وات وبولتون - مناعا اكتشفت شركات كثيرة تعمل في المنتجات الثقيلة بعد ذلك بقرنين - عدم قدرة المحركات البخارية على بيع

تلا من كتاب Marketing Methods in the International Steam Engine Market : The Case of Boulton and Watt

المجلد Jennifer Tann في مجلة Journal of Economic History. الجزء ٦٨ (١٩٧٨) ص ٢١٢ - ٢٨٩ .

لنفسها بنفسها • ومن باب الإجراء بالشرء ، أولاد التريكلان خبراء ميكانيكيين لإنشاء مصطلات في المفرد لخدمة الحركات ، وصيانتها • والتفتت الضرورة الإزاحة بتقنية أخرى هي عملية حزم ودرز للحركات ، واستلزم هذا الإجراء ، إلى جانب بيع الحرك ، التعريف بطريقة صنعه ، وعقد اتفاقية لتسليمه وخمسة كذا زمنية معينة • وحاولا أيضا بيع مصانع كاملة للخارج ، وعلى الأخص طواحين الحبوب ، والآلات صك التتود واليداليات •

وخلقت تقنياتها للتنوع سوقا غير البعاز اعتبرها وات وبولتون عقيمة الأهمية ، غير أن القاري قد يصاب بالدهول عندما يعرف مدى القصور النسبي لهذه السوق ، والندرة الماحقة للمهندسين الكبريين الذين كانت هناك حاجة ملحة اليهم لتركيب الحركات البخارية وتسليمها ، وتبين مراعاة الطعين مما عند ادراك مدى ضيقة التوسع في التقدم في نهاية الثورة الصناعية ، وطلته الزمنى نسبيا •

سجل جيمس وات امتياز اختراعه المحسن للمحرك البخارى ١٧٦٩ • ولكن وكما هو معروف ، فإنه قد افتر إلى رأس المال ، وباقى التسهيلات التي تساعد على استغلال هذا الامتياز • ولم يبدأ التقدم التقنى والاستغلال التجارى لمحرك يحقق غايته الا عندما اشترك منه في المشروع ماتيو بولتون (١٧٧٥) • بعد نجاحه في الحصول على قرار من البرلمان بمنح الامتياز حتى ١٨٠٠ • وكانت الحركات الأولى جسيما من المضخات الترددية التي تحرك عمليات الضخ والآلات ولدوات النفع فيما بعد • غير أن وات اخترع محركا دوارا ، وحصل على امتياز اختراعه ١٧٨٢ بناء على اصرار بولتون حتى يضمن له تصعيد انتاج محركات المصانع •

واستمر زهاء عشرين سنة من انشاء شركتهما صنع بعض أجزاء من المحركات الأصغر في مصنع بولتون في سوهو ، الذي انشئ في ستينيات القرن الثامن عشر ، لانتاج لمب أطفال من الصلب ، وغيرها من المصنوعات المعدنية • أما عمليات الصباكة والحفادة الأكبر ، فكانت تتم بناء على تعاقدات فرعية في مصانع الحديد في ليدلاند أو في أماكن غائية في العراء • ولم يتمكن بولتون ووات من صنع محركات كاملة الا بعد أن افتتحا مسكنا للمحركات (١٧٩٥ - ١٧٩٦) وعلى الرغم من أن نظام العقود الفرعية كان له بعض النفع • لأنه سمح للشريكين بالعمل اعتمادا على رأس مال صغير ، إلا أنه قد حد بشدة من كفاية الناتج • فلم يتسن الا لقلاتل من السباكين والحفادين بلوغ المستوى الاسمى من الانتاج الذي يطالب به بولتون ووات • أما من كانوا قادرين على ذلك ، فكانوا منشغلين

بأعمال أخرى تعد عليهم وحسب أكثر من الربح الذين يحصلون عليه مقابل صناعة أجزاء من المحركات . وهكذا فلم يكن من المستبعد أن يؤدي إلى ارتفاع بسيط في الطلب إلى الانتظار مدة زمنية طويلة ، وإلى تأخر الإنتاج ثمانية عشر شهرا ، وفي السنوات العشر الأولى لإنشاء المصنع تم تصنيع ثمانية عشر محركا ، من بينها ٢١ محركا لكورنويل ولرخصة لخارج إنجلترا - وتم إنشاء ١٨٧ محركا بين ١٧٨٦ و ١٧٩٥ ، من بينها ١٢ لزبائن أو عملاء من خارج إنجلترا ، وتزايد الطلب الخارجى ابتداء من العقد الأخير في القرن الثامن عشر . وفي ١٨٢٥ ، بلغ عدد الطلبات ١١٠ محركات ، اثني منها ثمانية طلبات .

وقبل ١٨٠٠ ، كان بولتون ووات يحصلان على أرباحهما المحلية من استحقاقهما مقابل بيع حق تشغيل المحرك ، ومن الترويد بالرسومات ، وبيع قطع الغيار ومن المصاريف الإضافية التي كانوا يفرسونها على القطع التي يسحقون للمتعاقدين الفرعيين بصمها . وفي السوق الخارجية ، كانت الريادات في الشحن تضاف إلى مجموع أثمان السلع والخدمات بعد إضافة الاستحقاقات البريطانية . وفي معظم الحالات ، كانوا يحتاجون إلى ضمان من لندن ، وابتداء من حوالي ١٨٨٠ ، كانت معظم الطلبات الآتية من خارج إنجلترا لمحركات بولتون ووات تقسم ويطلب ثلثها للمكاتب بضي التجار في لندن وليفربول وبريستول . وعندما انتهى امتياز وات (وكانت المحركات تنتج آنذاك بالكامل بمعرفة بولتون ووات) ، لم يحدث هبوط في الأسعار داخل أسواق إنجلترا ، كما كان متوقعا . وتزايد ، بصفة استثنائية اقبال المصانع الكبرى ، أو المصانع التي سبق لها شراء محركات وات قبل ١٨٠٠ ، والتي كانت تسعى لإحلال محركات جديدة محل القديمة أو الإضافة إليها إلى جانب المبيعات الأخرى غير الحكومية . واستمرت الأسعار خارج إنجلترا مرتفعة أيضا . أي في نفس مستواها في سنوات ما قبل ١٨٠٠ . وفي ١٨٢٥ انخفضت صناعة محركات وات ومحركات الضغط العالي أسعارا تنافسية لمواجهة إنتاج فرنسا وبلجيكا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة . وابتداء من هذا التاريخ ، انخفض طلب محركات وات .

وعندما ألف بولتون ووات شركتهما ، كان بولتون قد وطد مركزه بالفعل في تجارة اللعب ببرمنجهام زهاء أكثر من عشر سنوات ، وإبان هذه الحقبة ، استطاع إنشاء شبكة تسويقية قوامها بعض العملاء الذين يتقاضون أجرا نظير العمل طول الوقت ، وبعض العملاء المستقلين الذين يحاسبون بالقسط . وكانت سلع بولتون تباع في مختلف أنحاء أوروبا . ويرود الوكلاء بمعلومات تفضيلة عن أحوال السوق ، والاتجاهات التي

يشتمل أن تنال القدرة ، والنفوذ في « الوحدة » ، وما للقاه صناعة في منافسة من المصانع البريطانية ، وفي مصانع القلب خارج إنجلترا . وتمثل بولتون هو وودجود (*) في ناحية ادراك أهمية الاعلان وسبل اجتذاب الزبائن ودعمهم الى ايجاد منتجاته . واستفيد في العناية بتأثير مختلف السلع على أفراد الأسرة المالكة والنبلاء باعتبارهم القدوة التي اعتاد المجتمع الاقتداء بها . وفي عالم صناعات السلع الاستهلاكية في القرن الثامن عشر ، كانت المصانع تنتعش وترقى أو تستمر في البقاء أو تنهار تبعاً لاسلوبها التسويقي . وكما بين مالكندريك وروبسون ، فان وودجود وروبسون قد ادركا الى حد كبير تعقيدات أساليب تسويق السلع ، ورفعا من مستوى أساليب البيع بالتعبئة ، ومن ناحية أخرى ، لم تنوافر لوات أية حيرة بالتسويق لا داخل إنجلترا ولا خارجها . ولكن بينما ساهم بولتون اسهاماً هاماً في تكنولوجيا صناعة الصلب ، فإنه أثبت مهارته كهندس انتاج ، عندما وضع مخطط مصانع سوهريل وأدى اهتمامه بالمحرك البخاري ، قبل أن يتباحث هو ووات في فكرة الاشتراك معه . إلا أنه لم يكن يملك أية خبرة في الصناعة وتسويق السلع المصنوعة .

وكانت استراتيجية التسويق خارج إنجلترا في بواكير عهدها ، لبولتون ووات ، من الأفكار الملهمة لبولتون ، وأثبتت بعض هذه الاستراتيجيات المنقولة عن تجارب تسويق الصلب عدم ماسبيتها ، إذ كانت فرصة خلق طلب للطاقة البخارية أقل من فرصة طلب السلع الشائعة (كالصّب) . وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن انتشار سلع بولتون ووات في الدوائر الحكومية وعند النبلاء وعلة القوم داخل إنجلترا وخارجها ، قد أوحى باستهواء منتجاتها لقطاع كبير من الزبائن ممن يتأثرون بإحاطة الشئ منهما ارفع ، ويضمون له أولوية مناجرة في مشترياتهم ، وفضلاً عن ذلك ، فقد أدرك بولتون أن فئة الزبائن المشار إليها آنفاً ستكون أكثر تقبلاً للطلبات التي تراعى فيها ناحية حماية الاقتصاد القومي ، والتجاوب معها .

(٩)

أنشئت شركة بولتون ووات الاستثمارية بامتياز بريطاني . ولقد صيغت حقوق « وات » بمنتهى الدقة ، وبإشراف السلطات القانونية

(*) Josiah Wedgwood (١٧٢٠ - ١٧٩٥) خزان بريطاني مشهور وصاحب مصانع با ذلك تنوع الفشل أنواع الخزف في العالم حتى الآن .

الانجليزية . وذلك اتخفت الصدارة في سياسة الشركة الداخلية ،
 حماية منتجاتها . ولم تقدم أية مبررات لتعديل هذه السياسة في
 عمليات التسويق خارج إنجلترا ، وكانت المطالبة بشكل ما من حماية
 الاحتياطي هي الرد الثابت في معظم الحالات على استفسارات العملاء الموقنين
 من خارج إنجلترا ، لشراء المحركات خلال الحقبة بين سبعينيات القرن
 الثامن عشر وثمانينياته .

وجرت أول مباحثات حادة لبيع المحركات في الخارج مع عملاء من
 فرنسا . واصر الشريكان على الحصول على رأي الخبراء والاستشاريين (٢٥)
 قبل التصديق على موافقتها على الطلبات . واستعان بولتون بالتقنيات
 البرلمانية البريطانية المؤثرة والمجربة ، فقام بجس نبض المسؤولين في
 الحكومة ، واحد الكونتات الفرنسيين وصاحب أحد المصارف الباريسية
 وغيرهم . وساعدت على تدعيم القضية طبيعة الطلبات الفرنسية ، إذ كان
 أحد العملاء من المنتسبين للطبقة الأرستقراطية ، وكان الآخر مفتشا في
 الناحية . أما الطرف الثالث فكان شركة للإنشاء مؤسسية حديثا لتوريد
 باريس بالمياه . وصدر القرار الاستشاري في أبريل ١٧٧٨ . غير أن
 تنفيذ الشروط تطلب إجراء تجربة لمحرك بولتون ووات على إحدى المحطات
 المستعملة في رصد أحوال الجو ، لما في باريس أو في ضيعة الكونت في
 نورمانديا . وعندما ألفى طلب الكونت دي هورنفل ، حصل مفتش الناحية
 جانوي على تصريح بإجراء التجربة في متحف الشمال (٢٦) في برتاني ، بدلا
 من إجرائها في الضيعة . ووفق على القرار في أكتوبر ١٧٧٨ ، ومع
 حثي الحق الأوسع لبيع محركات وات وتركبها ، بقر موافقة الشريك
 (بولتون) في مقابل خدماته للحصول على حماية حقوق محركات وات في
 فرنسا . بعد الاتفاق على عدم تركيب أية محركات أخرى بغير موافقة
 الشريك . غير أن اتفاق شركة بولتون ووات وحاري تعرضي للانتهاك قبل
 أن يجتف مفاده . . عندما قبل الشريكان الانجليزيان طلبا لتوريد محركين
 كبيرين للأشغال المائية في باريس ، وقيل في تبرير هذا العمل انه
 سيساعد على الدعاية « للمحرك » .

وحدة الرد على القرار بالاستعداد لقبول أدنى عرض . وخلال السنوات
 الثلاث التالية ، ظهرت مضي لمبرات الاهتمام . ولكن بولتون ووات لم
 يتقيا به ذلك أية طلبات من فرنسا ، وخشية احتمال حصول المهتمين
 الفرنسيين على طلبات لاحقة للمحرك البخاري . استنشا الشريكان

جينييه (٢٤) ، وعلا على تأكيد القرار مستنادا الى براءة الامتياز . وارسلت مذكرة الى «جينييه» في فرسلي ، تحمل تقرير بولتون ووات لحظليهما اعتمادا على خبرتهما كخبراء ، لانهما يتصوران انهما اقدم على المساعدة في تطبيق ما تريده السلطات الفرنسية في مساهمة لتدعيم الصناعات والأشغال العامة . وجد رد جينييه مشجعا في يوليو ١٧٨٢ . وفيه يؤكد : أنه قد فوض ، للتأكد لكم بالحصول على أكبر قدر من الحماية في وزارتنا عندما تحتاجون اليها ، (٢٥) . ولكن بعد زيارة بولتون ووات لفرنسا ١٧٨٦ . توقفت الاستجابة للمطالب مرة أخرى ولم يلتفت اليها .

ولم يحل سوء استجابة أسواق فرنسا ، دون قيام بولتون ووات بمحاولات أخرى للحصول على امتيازات في أسواق أخرى خارج إنجلترا . ولقد استحوذت فكرة وجوب الحصول على الحماية على أمخاهيم حتى تصورها الموثقون في سوهر (مقر الشركة) كسياسة لا تنزعزع . وعندما فعلوا ذلك كادوا يفقدون عميلا روسيا ذا مكانة مرموقة . وعندما أقدم فان ليندر من روتردام على محاولة للتعاقد مع بولتون ووات ١٧٨٢ ، استشار بولتون شريكه وات متأسيا روح الزمالة في المحادثات : « اعتقد أن أفضل رد يمكن الإجابة به هو أن تطرحه أننا غير متلهفين على شرف الحصول على ميداليات ذهبية أو على ذبوع صيتنا في الجمعيات الفلسفية . » . اننا لن نكتفي بمجرد المدونة ، ولكننا سنقدم على تنفيذ شيء فعل ، « . شرطة حصولنا على امتياز قاطع في طول البلاد وعرضها ، « . وبدأت المفاوضات في ١٧٨٥ مع فان ليندر للحصول على امتياز باسم الجمعية البافارية لصالح بولتون ووات . ومنح الامتياز لمدة خمس عشرة سنة في يناير ١٧٨٦ .

وكان ما ساعد على منح الشريكين امتياز الحماية خارج إنجلترا هو اتصالات بولتون الدولية التي وثقت صلته بمسألة المصنوعات المعدنية والتجارة ، واللقاءات الاجتماعية التي جرت أثناء زيارته لأوروبا . وساعد على ذلك أيضا وجود مجيبين « بوات » من أعضاء الجمعيات العلمية الدولية والعلماء والفلاسفة ممن لم تفهمهم المفرد الدولية للالتصيب ضد أي شخص غريب عنهم . فعنلا قام ماجيلان ، الى جانب نهوضه بدور الوسيط بين بولتون ووات من جهة ، وهروقتيل وجينييه من جهة أخرى في المناقشات الفرنسية بالحماية لهما في البلدان الواقعة الخاضعة للحكم النمساوي . وحاول الحصول على طلب حكومي لتوريد محركات ، ومآل

Grenet.

(٢٤)

Je vous prie d'être autorisé à vous assurer que vous trouverez la (٢٥) protection la plus signalée dans notre Ministère lorsque vous en aurez besoin.

«الشريكين : هل ما زلنا في حاجة الى امتياز احتكاري في هذا البلد ؟ »
 ولكن لا شيء قد تحقق من ناحية المطلب أو الامتياز . وبعد أربع سنوات .
 بدأت المفاوضات للحصول على امتياز في اسبانيا . وكما حدث في فرنسا
 مع جاري . فان مانع الامتياز والميل الأول دون باسكوال منسا اى
 مارش (*) قد كوفى باعطائه امتياز احتكاري لبيع محركات بولتون
 ووات . ولكن بينما ساد الكثير من الاهتمام بمحركات وات على المستوى
 الحكومي في فرنسا ، فاننا نرى « منسا » يخشى من عدم الاكتراث في
 اسبانيا : « لأنه في الوقت الحاضر مالزال لا يوجد أحد يعرف أهمية
 محركاتها أو فائدتها » . وفي التو ، ارسل بولتون مذكرة الى ملك
 اسبانيا شرح فيها موضوعه طالباً مع الامتياز لمدة عشرين سنة ١٧٩٠ .

والرمت شروط توريد المحركات لاسبانيا بولتون ووات بدوريد
 المحركات بأسعار محددة متفق عليها ، وتقديم النصيحة حول طريقة
 استعمال القوى البخارية ، والنزويد برسومات للتوربينات وتقديم عمال
 ميكانيكيين وشحن البضائع . ووافق الوكيل المتحد على عدم صنع
 محركات أو شرائها من أي مورد آخر . ورنى أن يتحمل الوكيل ما تستطيع
 السوق الأسبانية بحمله ، ولكن قبل أن تتم الاتفاقية ، تلقى بولتون ووات
 طلباً مستقلاً بتوريد محرك آلة نشر للخشب من اسبانيا . وثار جدل
 طويل لأن الحجم المطلوب يتجاوز بكثير الأحجام المتصوّر عليها في
 التشريفة الأسبانية . ولعلم التصديق على اتفاقية احتكار الوكالة لاستيراد
 المحركات ، ووافق بولتون ووات على هذا المحرك ، مثلما حدث في حالة
 الأشغال المائية في باريس .

ودارت المفاوضات أيضاً في النمسا مع صاحب الامتياز الاحتكاري
 لانتشاء محركات بخارية في الامبراطورية النمساوية (**) . ونشر بولتون
 ووات بقاء الامتياز باسم كيبلي . وبتوزيعهما المحركات البخارية وفقاً
 للتصريف الثابتة . وعلى الرغم من احتمال حصول بولتون ووات على بعض
 المبررات - وإن كان هذا لم يكن مؤكداً على حال - إلا أن الأرباح التي
 كان من المنتظر أن يحققها قون كيبلي كانت ضئيلة ، وكما حدث في
 حالة الامتيازات التي اقترحت في وقت أبكر في بروسيا - وعلى ما يحصل
 في إيطاليا - فإن الاتفاق لم يتم .

وحاول بعض الرواد الأوائل للقوى البخارية في الولايات المتحدة
 الحصول على شكل ما من حماية الدولة ، أو الحماية القومية لصالحهم .

ففي ١٧٨٨ ، أجرى جيمس رامزاي مشاورات هو وبولتون ووات قبله
تقدمه بطلب للحصول على امتياز في الولايات المتحدة . وتركزت الشروط
موضع البحث على عبارة تنص على الاقتصاد على توريد بولتون ووات
الحركات لرامزاي ، وإن يعمل على الحيلولة دون اقدم أي شخص آخر
على صنع محركات في الولايات المتحدة ، وجرى محاولة للوصول على امتياز
في الولايات المتحدة ، يشترك فيها بالاسم كل من بولتون ووات ورامزاي .
على أن يدفع الطرف الأول ثلثي الثمن ، وتقسم الأرباح بالتساوي .
ويحصل رامزاي على الثلث إلى جانب جميع الأرباح المكتسبة من محركاته
السفن البحرية . غير أن رامزاي اعتبر الشروط المقترحة مقيدة إلى أبعد
حد ، واعتقد أن الأسعار التي يطالب بها بولتون ووات مبالغ فيها . ولم
يتحقق أي اتفاق .

ولم يتصف أي امتياز أو اتفاق بالارغام ، من الناحية العملية . كما
كانت الشروط الأمريكية للاتفاق غير قابلة للتنفيذ . وكان بالمقدور للمحاكمة
بالقول بأن الحماية التي يطالب بها بولتون ووات بعيدة عن الواقع إلى
حد كبير ، ولن يستطيع اكسابها الفاعلية إلا في جو تسوده الثقة المتبادلة .
وتعرضت هذه الحالة لصعوبات جمة داخل السوق الداخلية ناهيك عن
امكان تقلصها خارج إنجلترا ، وكما لاحظ بولتون فيما يتعلق بالاتفاقية
النموسية المقترحة : « عندما يخطف شخص ما شريكا ، فإنه يظن أن في
مقدوره جره إلى التهلكة ، ومن ثم فبالاستطاعة تشبيه مثل هذه الشركة
بعملية الزواج ، من حيث تعرضها للخطر » .

ويمكن وراء المطالبة بالحماية في الأسواق الأجنبية افتراض احتمال
أن لا تكون المبيعات خارج البلاد مجزية . وغيب بولتون فيما يتعلق بصحة
الحركات البخارية الألمانية بأنه يحتاج إلى امتياز أو مكافأة تقدر بزيادة
الف حنيه على كل محرك . ولابد أن الشريكين كاما يأملان من وراء
الامتياز الحصول على المزيد من الطلبات . غير أن هذا التصور قد اتضح
أنه تفاؤل لا يستند إلى أي أساس . فلم يخلق بولتون ووات إلا القليل
من الطلبات بعد الاتفاق الفرنسي . وسرعان ما قامت المصانع المحلية
للمحركات بسرقة أسرار اختراعهما . ومع هذا فقد جدا في السعي
للحصول على الحماية في الأسواق الأجنبية الأخرى حتى ١٧٩٠ . وقضا
بعد تأكد عدم جدوى حماية محركهما في الخارج ، بعد الصعوبات التي
تعرضا لها في سبيل حماية اختراعهما حتى في إنجلترا ، وهكذا سرعان
ما ومن اهتمامهما بالامتياز الأجنبي .

ولقد حصل بولتون ووات على شكل ما من الحماية (*) في إنجلترا
بلدان خارج إنجلترا (فرنسا واسبانيا والبلدان الواطنة) ، ودارت
مباحثات حول الشروط في أربعة بلدان أخرى (بروسيا والبلدان الواطنة
الخاصة للنمسا والولايات المتحدة وإيطاليا فيما يحتمل) ولم تكن
الحماية ، حتى عندما تحققت ، جامعة مائة . وشرعت المصانع في انتاج
محركات عن طريق القرصنة في فرنسا دون أن يعترض احد سبيلها .
وإذا رئي أن الهدف الأول كان صلب التسويق خارج إنجلترا ، سيصبح
القول أشد باخفاق السياسة المتبعة ، لأن عائدا لم يرد عن طلبات قليلة
أثناء فترة الامتياز . وحقق قبول بولتون لطلب كبير من كل من فرنسا
واسبانيا ، مع تخطي وكالات المبيعات التي حددتها سموه في هذه البلدان
أربابا في المدى القصير ، ولكنه لم يحقق أي ربح للوكلاء يدفعهم إلى السعي
للتقدم بطلبات أخرى ، ويتساوى هذا الفعل هو والاعتراف بعدم توقع أن
يحقق احتكار حقوق البيع أي تعزيز لمصالح بولتون ووات خارج إنجلترا ،
وإنه قد قدم كمجرد مكافأة على الامتياز . غير أن بولتون ووات لم يتكبدا
أي نفقات لتحقيق الحماية خارج إنجلترا ، ومن ثم فانهما لم يخسرا أي
شيء في محاولتهما الحصول على احتكارات ، ومن المؤكد أن معيبيهما
للحصول على الامتياز قد ساعد على نشر الدعاية لمحركات ووات ، وإذا نظر
إليها على هذا الوجه سيكون من اليسور اعتبار مفاوضات الامتيازات شكلا
منها من أعمال الدعاية والاعلان .

(٢)

زهاء عشر سنوات من المشاركة بين بولتون ووات ، كانت القوة
الدافعة لوات وروء جانب كبير من السعي للبحث عن أسواق خارج
إنجلترا ، وزيادة المبيعات ، وإن وجب علينا أيضا أن لا ننسى دور مثلي
للمصالح الأخرى لبولتون . فلقد كلف القاتلون بالأعمال الكتابية والوكلاء
للتحولون من شركته الخاصة بالمنتجات المدونة والست التجاري ،
بالهوض بهم خاصية بتسويق المحركات دون تقاضي أي أتعاب من شركة
محركات « وات وبولتون » . فقام على سبيل المثال أحد الوكلاء أثناء زيارته
لروسيا ١٧٧٧ بتوزيع بعض البشورات الدعاية لمحرك بولتون ووات في
البلاد الروسي . غير أنه أخطر « ستم جنوى هذه الأشياء في هذا البلد . .
بالنظر إلى أن أحد الأهداف وروء محرك توفير المسألة . . والمسال
(في روسيا) جميعا من المبيد ، ومن ثم تكون الميزة غير ذات موضوع . .
واعطيت لوكيل آخر كان يوشك على السفر إلى ألمانيا والبلدان الواطنة

١٧٨٧ ، توجيهات معاكسة ، وقدم بعض المتصلين الآخرين بمالم التجارة والسياسة خدماتهم لبولتون اعتمادا على دوافع وطنية ، فمثلا تطوع اللورد ماكرتنى بالمعاينة لمحركات بولتون في الصين ١٧٩٢ .

ومع هذا فقد استطاع بولتون ووات تحقيق أول مبيعات لهما خارج إنجلترا ١٧٨٦ ، ووجها جهودهما إلى فرنسا ، باعتبارها سوقا واعدة بالفضل المبالغى . وفى هذه المناسبة أيضا ، أدت المصالح التجارية الأخرى لبولتون دورا حاما ، فعلى سبيل المثال فإنه كلف من قبل الحكومة الفرنسية بالتوصية بإجراء تحسينات كبيرة فى أحد مصانع الصلب الفرنسية (*) ، وبذلك تحقق له الاتصال والاقتراب من الورد المهنى . ووفقا لما ذكره وات ، فإن الوزارة الفرنسية « قد أبدت استمالتها لتكليفنا بمهام تتواءم وما نهدف إليه هناك » . وبعد ذلك بقليل من الوقت بدأ بولتون محادثات مقعة مع وليم ولكسون لإنشاء مصنع للمحركات فى فرنسا ، من خلال تطوير إحدى منشآت المشغولات الحديدية ، واقترح جون بلومجارتير - وهو عاجز من معارف بولتون - لى ينشئ الشريكان وكذا للمحركات بإسبانيا ، سينتسنى لها تحقيق الأرباح . . الا أن الثورة الفرنسية اندلعت وعطلت المشروع ، وبعد بضعة سنوات ، أعاد بولتون توجيه اهتمامه بروسيا . عن طريق أحد مسئلى بيته التجارى ، وكما حدث من قبل ، ولعل الدافع الذى شجبه على إجراء هذه الصفقة الثانية من المبيعات الروسية هو المبادرة المشجعة التى ظهرت فى طلب الحكومة الروسية آلات لصك النقود ، بالإضافة إلى « أنهم عنفما يسمحون عن أى شيء جديد ولطيف فاتهم بمللهم له ، ويصررون على الحصول عليه » . وهنا - كما يبدو - ربما تماثلت إجراءات تسويق السلع الرأسمالية مع واحوال سوق السلع الاستهلاكية ، التى يستعج بولتون بخبرة كبيرة بها .

وكان دوكر المصيل المستول لبولتون للبحث عن توكيلات فى روسيا شديد الاعتقاد ، بأن الافتقار إلى الدراية بالمسائل الميكانيكية ، سيمصّب النجاح فى أية بقعة من بقاع العالم فى تعريف أى مستفسر سعر المحرك البخارى وحججه المناسب بالمقّة المطلوبة ، حتى يتسنى له النهوض بمهته للكلب بها . . ولندرك أن مهته تتلخص فيما يأتى : « تحديد أساس عام دائم وثابت يعتمد عليه مستقبلا فى المعاملات ، بنض النظر عن التوكيلات العرضية التى تحدث عن طريق المصادفة ، وبذلك تنهى السبل السليمة التى لا تخطئ » . والتى يتيسر البياغها فى جميع الأوقات للحصول على التوكيلات التى تستحق القبول دون تكبد أى مصروفات لإنجازها .

والحروب النابوليونية وما جرت في ذيلها من اضطراب : « ان القادرين على تركيب (للمركات) فاندرون ، حتى أصبحنا مرغبين على أن نكون خدما لهم بدلا من أن نكون أميادا » . وعليها أن تسائر نزواتهم ورغباتهم مهما بدا فيها من جوانب مسهجة » . وعندما بحث بولتون ووات : « هل سيتحمل الرجل الذي يتوون إيفاده الى أسيانيا (١٧٩١) مخاطر سوء المعاملة أثناء رحلته ، تلقيا تأكيدا بأن الأمر سيكون عكس ذلك ، لأنه سيتلقى رعاية كاملة » . ووصف وات أحد الميكانيكيين « بأنه خادم أمين » ولما وصل هذا الميكانيكي الى إيطاليا « عومل معاملة عطية الرحال ، وكانوا يسطرونه بالملاوت لاغرائه على الاستمرار في البقاء هناك » .

وحاول بولتون ووات الحلولة دون قيام العملاء الانجليز بتقديم عطائهم للميكانيكيين الثنايين لهم ، فأدخلوا نظام التماثل لمدة ثلاث سنوات لعظم من يتولون تركيب المحركات البخارية . غير أن السوق خارج إنجلترا كشفت بعض مشكلات ذات طابع خاص . إذ ظهر أنه من المتعذر تتبع خطوات الميكانيكيين الهاربين ، فاصبح بإمكان استعادتهم . وربما دفع تركيب أي محرك بخاري في مكان قصي الميكانيكي الى البقاء مدة أطول من ثلاث سنوات ، وكانت الأجور التي تقدم للميكانيكيين المصاحبين للمحركات البخارية في الخارج تقوى بوجه عام أجورهم في بريطانيا . وبالإضافة الى ذلك ، فقد جرت العادة على موقع هذه الميكانيكي «هدية لطيفة» بعد اكتمال المهمة بتجاح ، وكان الأجر الأعلى هو الاغرة الأوسع للعمل في الخارج عند بعض الفنيين للتخصصين في الطولين والميكانيكيين . وأدرك آخرون أن المدة التي يحصل فيها العامل على أجر مضمون بحكم العقد ستيسر له الاتصاف على جملة تماثلات أجنبية تساهم لها على الاستقلال بعلمه الفني في اصلاح المعدات ، أو على الإعتناء الى وظيفة دائمة مناسبة . فبشر بتحقيق تطلعاته ، واستوطن أحد الميكانيكيين من سوهو إيطاليا ، وأنشأ عدة مصانع هناك ، واشغلا أخرى ، قبل وفاته في ظروف غامضة قبل الفوز الفرنسي لإيطاليا بقليل ، وتولى آخر عملية تركيب محرك بخاري في البلدان الواطئة ١٧٩٣ ، ثم اختفى بعد ذلك . ولما أخفقت محاولات تتبع آثاره ، سلم وات باحتمال ذهابه لاسبانيا ، لعل ما يؤيد هذا الرأي اعرايه الدائم عن الرغبة في العمل خارج إنجلترا ، حتى يعيش بعيدا عن زوجته ، التي كانت تقسم أحيانا على بعض التصرفات العنيفة بحكم تعلقها الشديد به ! » . وذكر فيما بعد أنه شوهد في أمستردام يعمل في شركة يملكها أحد الأمريكان ، وفي لوانر تسمينيات القرن الثامن عشر ، جل بالولايات المحفة ، وعمل بمكتب نفولاس ، أ ، روزفليت للأعمال الهندسية ، وفي ١٨٠٠ كان مقفول روزفليت الرعم « بأنه لا يفتقر الى الفائقين القادرين على تركيب المحركات طبقا لأفضل المخططات تصمينا

التي وضعها السيفان بولتون ووات ، لأننا لسنا مدنيين لكما فقط بقدرتنا على استخدام اختياركما وفق مشيئتنا ، ولكننا مدنيون بالفضل أيضا للمهندسين الذين قبلوا بتنفيذها ، وأغلب الظن أنهم أدخلوا تحسينات على هذه المخططات » .

وبعد أن تكررت أحداث علم وجوع الميكانيكيين إلى سوهو ، نزع بولتون ووات إلى الإرتياب في ارتطاب قبول الطلبات من العملاء خارج إنجلترا ممن يحتاجون إلى ميكانيكيين لمراقبة المحرك . اللهم إلا إذا ظهرت بشائر تدل على اقتراب التعاقد على صفقات أخرى . ففي ١٧٩٣ ، مثلا ، رفض طلب أجنبي كان حقلنا من قبيل اختيار النوايا : « لصعوبة توقع إيفاد عامل لتركيبه ، وغير ذلك من المشاق ذات الأهمية البسيطة » ، وليس من شك أن هذا السبب بالذات كان وراء المراقبة على تلبية ثلاثة طلبات بتوريد محركات للسجور والسما بعد أن أقر شرط علم المطالبة بإيفاد ميكانيكيين لمراقبة المحركات ، فكما أوضح بولتون لأحد العملاء الفيسلويين : « يسعدنا أن نزودكم بالمحركات » . أما فيما يتعلق بالتعهد بإيفاد أشخاص لتعريف الآخرين كيفية تركيب محرك واحد فقط في مثل هذه القيمة القصية ، فإنه سيكون من ناحيتنا ضربا من الحماقة البالغة » .

وفيما بعد ، وكلما سمحت الظروف ، كان بولتون ووات يرشحا أحد الخبراء أو الميكانيكيين للمصبل الأجبي المميز في حالة تلقى أي مطلب جاد ، مع توقع احتمال استمرار بقاء الشخص في الخارج . وعندما قدم أحد العملاء خارج إنجلترا طلبا لصفقة إنجليزية تضم إلى جانب المحرك مصنوعات من تشغيل دار أخرى للصناعة ، استطاع بولتون ووات أحادنا تحويل مسئولية المورد على الميكانيكي المناسب إلى إحدى الشركات المشغلة بتدريب العمال الميكانيكيين المهرة . فمثلا سافر مصمم جري - وكان من العاملين للميكانيكيين السابقين للآلات عند « ريني » - إلى البرازيل للإشراف على تركيب آلة صك تقود وآلات أخرى هناك .

ومن حيث الجدا ، فهناك احتمال قاتر موقف في ميكانيكي الآلات ينوي السفر للخارج بالتشريعات التي تحرم خروج العمال المهرة والأدوات والمعدات . وعلى الرغم من أن التشريع لم يحظر تصدير المحركات البخارية - بصفة خاصة - إلا أن هذا اللبس في تفسير التشريع قد زاد من علم المصنّان صناع الآلات لموقفهم ، فمثلا سمي بنجامين هاتسمان المصنوع على تصيصة بولتون ١٧٨٩ : « أرجو أن قضيدي حل يساهم تصدير المحركات البخارية » أرجو لأنني مطالب بتوريد أحد هذه المحركات » . وفي ١٧٩٢ ، عندما طلب منهما الرأي إجابيا بأنهما يتيران إيفاد أحد الميكانيكيين إلى الخارج لتركيب آلة مصنوعة في إنجلترا شيئا ، وإيفاد

ميكانيكى لتصنيع منتجات انجليزية في الخارج شيئا آخر . ودار جدل بين الطرفين مؤداه أن أهمية الميكانيكى ترجع الى أنه اذا صدر أمر بتحريم مفادرة المستغلي بتركيب الآلات في إنجلترا ، فإن هذا سيكون مساويا لخطر تصدير المحركات البخارية من صنع بولتون ووات ، وما يستخلص من رأى بولتون ووات هو وجوب ترك الأمر لهما لاختيار القرار الأصوب ، بعد مراجعة مرايا كل حالة من الحالات . ومن ثم ففى ذات البسة اعتنر بولتون ووات عن إيضاح أحد الميكانيكيين الى أسبابها لتركيب آلة ذات محرك لشفر الخشب (وغاما بدلا من ذلك باقاع أحد العاملين الميكانيكيين السابقين - وكان آنذاك فى إيطاليا - بتركيبها) ، وصعدوا مطحنة غلال وبعض الآلات الى سانت بفرنسا ، كما أوفدوا العمال الميكانيكيين اللازمين لتركيب هذه الآلات ٠٠ وعدم الصلاء الفرنسيون طلبوا لتوريد ثلاثة محركات أثناء بلوغ الحرب الأمريكية للاستقلال ذرونها ، غير أن بولتون بعد تقديمه جملة التماسات وقيلامه ببعض الضغوط الشخصية على أعضاء المجلس الخاص ، استطاع الحصول على جوازات سفر لتصدير السلع ، وحصل أيضا على تصريح برفع الحظر المفروض على السفن الى مستقر. يشي هذه السلع - ولاحظ جون ولكسون - وهو صاحب مصنع للحديد : « ان بقصور المستر بولتون الاضطلاع بمهام في مثل هذه الحالات تفوق المهام التى يهوى بها فارسان فى الآلة » (٢) . ورغم كل هذا فقد أمر مفتشو الجمرك إيقاف تصدير المحرك (٣) . وفى حوارهما أثناء هذه المداولات تصحلت قوة خفية من المواقع الوطنية فحجبت الصالح الشخصى . وفى مثل آخر ، اشترت شركة المياه فى باريس محركا واحدا ، بالإضافة الى قطع غيار لمحرك آخر ، وبعض أدوات التركيب من الصلب ، بدلا من شراء محركين كاملين . وتبين مدى دراية بولتون ووات من علم شرعية هذا الاجراء من تصميمهما على وصف الأدوات « بقطع غيار للمحرك » ، وأثناء تفاوض بولتون من أجل التعاقد لتوريد آلة لصك النقود الى سان بطرسبورج فى روسيا ، صدر اليها نموذجها لهذه الآلة ، وزيادة فى الاحتياط والحذر ، التمس من إيضاح مسروق التأكد من علم وجود عطات تحول دون اتمام عملية الشحن ، وحذره من علم التوجه الى الجوازات بشخصه حتى لا يثير الشبهات . وعندما قبلت الطلبات بصفة نهائية ، تم الحصول على قرارات شخصية لتصدير آلات صك النقود الروسية والأمريكية ، بالرغم من وجود ممارسة شديدة لذلك ، وليس من شك

Shire.

(٣٠)

"by a proper dose of the golden power the eye might had been cleared. ٣١.

« لو أمكن نظر العين القطرات الناعمة ذات المفعول الصحيح ، سينسى لنا الرألة الفقدارة من العين » .

أنه من المتصور وصف هذه الناحية من السياسة التسويقية لبولتون ووات بأنها خالية من التناقض ، فيما عدا عدم سماحها إطلاقا بعملولة التشريعات دون اقلهاهما على تصدير التماذج والمحركات (وتبيين تركيبها) بل واقدسوا في مناسبات خاصة على تصدير مصانع كاملة .

وبدت المراقبة أوضح في نظرة وات الى زوار سوهو من البلدان خارج إنجلترا . وربما رجعت حيرتهم الى ادراكهم قيمة الجانب الترفيهي في تقنية المبيعات . وربما رجعت أيضا الى حساسيتهم المفرطة من الاشتباه في عمليات التجسس الصناعي . ومن المحتمل أن لا تكون النية قد توافقت لبعض الزوار لشراء محرك بولتون ووات . وبينما انضقت عملية التجسس الصناعي داخل إنجلترا بين الفئة والأخرى طابعا مترا للصنك والسخرية ، الا أن بعض المؤامرات المتعددة الألوان لجواسيس الصناعة من البلدان خارج إنجلترا قد اقترنت من الهزليات ، كسكر الجواسيس في شخصيات أخرى أو تسميهم بأسماء مختلفة ، وحذر جورج وارنست وولف «بولتون ووات» ١٧٨٧ من دانركي ذي ملامح شاحبة دائم النظر الى الأرض ، وهنابل في مشيته ، ومن رفقاءه يولاتي أخذ اسم مستعاراً (*) . وحتى بعد إقفال الورش الهندسية في سوهو ، فإنه كان في المتجر الجبلولة دون مساعدة زوار البلدان الأجنبية محركات بولتون ووات أثناء تشغيلها في أماكن أخرى . وليس من شك أن الضرورة قد اقتضت تشجيع مثل هذه الأعمال . وحصل البارون شتاين على ما يريد من معلومات عن معمل للتخمين « بركلاي وبركيز » بعد أن دفع رشوة لأحد الميكانيكيين . وبعد وقوع هذا الحادث ، التمس الشريكان النصيح من السير حوريف بانكس ، الذي ألقى عظة جاء فيها : « عليكم أن لا تأمنوا أجنبيا . فانا لا اعتقد أن أحدا منهم سيمحر عن مطولة سرقة المخترعات » .

أما الى أي حد أثبتت الجاسوسية الصناعية قاعليتها عند البلدان التي قامت النهضة الصناعية مسألة تتأهل النقاش ، فلقد حاول باكلنج صنع محرك على غرار محرك بولتون ووات ، ولكنه لم يست فاعله على النحو المرغوب . واضطر الى العودة الى إنجلترا حتى يرداد استشارة . ونزيد هذه الواقعة اصراء بولتون على ضرورة الامتعاة بالعمال الميكانيكيين الانجليز لاصلاح المحرك المصدر ، لاتساع الفجوة التقنية بين الصادرات الانجليزية وطريقة استعمال البلدان المستوردة لها . على أن للميكانيكيين أو الهندسين عندما اضطلموا بدور الجواسيس فإن التنبيط جاءت غالبا حمرة . وعلى الرغم من استبعاد احتمال السماح لهؤلاء الأغراب بزيارة

جاري الشريكين ، والتقلصهم الى اتفاق الثقة المصولة او الألقاب الحقيقية
 أو المنتحلة ، إلا أن ملاحظاتهم كانت في أغلب الظن أشد فاعلية ونفاذاً ،
 وحاول أول عميلين لبولتون ووات الحصول على معلومات عن محركات وات
 عن طريق القرصنة - واشترى الاثنان في نهاية المطاف محركات من سوهو
 بتسهيلات وتخفيضات كثيرة فلبقت ما حدث في صفقات العملاء الذين جاؤوا
 فيما بعد ، ولم يوفق الميكانيكيون في تركيب هذه المحركات - ولا يرجع
 ذلك الى اشتغال الحرب بين بريطانيا وفرنسا - فقلقت أسر العميلان على
 علم حاجتهما الى مساعدة أي ميكانيكيين - وعندما ظهرت بوانو سفير
 بضمهم الى باريس برفقة آلات الأشغال المائية ، اعترض للمهندس المسئول
 برييه متقدرا بأن هذا الاجراء سيسبب اخراجا له في فرنسا ، وأرسلت
 لوحات التصميم والأدوات برفقة الآلات عوضا عن ذلك ، وهكذا تيسر
 صنع محركات وات في فرنسا ، وكانت هذه النتيجة هي الماية التي
 سعى اليها بلا شك برييه -

(٤)

وهناك مؤثر هلم له تأثير أبعد لأليات اجتذاب الزبائن في الأسواق
 خارج إنجلترا - انه جانب أسدء النصح في مسائل هندسة الإنتاج - وإذا
 استثنينا بعض الموقعين مثل فان ليمس من البلدان الواطئة وروبرت فالتون
 في الولايات المتحدة ، سنرى أن عملاء بولتون ووات خارج إنجلترا كانوا
 أقل دراية بالمسائل الميكانيكية من أقرانهم البريطانيين - وحتى في منشأة
 مثل محطة الغلال في فانت حيث عهد بالمسئولية الى مهندس فرنسي قدير ،
 فان بولتون ووات كانا من الثقافات التي يوثق رأيها في الخدمات الهندسية
 الانتاجية ، وكثيرا ما أسديا النصح في مرحلة وضع التصميمات - وفضلا
 عن ذلك ، قام الاتصالات بين بولتون ووات وبين جون ريس (وهو من
 الموظفين السابقين) وأيضا مسك م - بولتون وشركاء قد سرت للشريكين
 الترويد بشحنة كاملة للعملاء خارج إنجلترا بالمعدات الموصى عليها والمجهزة
 تجهيرا خاصا ، بالإضافة الى بعض المصانع الصغيرة والآلات من حين لآخر -

وكانت المسورة في المسائل الهندسية الانتاجية لبولتون ووات
 مطلوبة بقدر كبير في مسائل تشييل القوى البخارية في صناعتين : طعن
 الغلال والسباكة - وكان لكل من بولتون ووات خبرة عملية في إحدى
 الصناعتين ، وساعدت التجربة المكتسبة من المطاحن التحريية في مصنع
 سوهو ، وفيما بعد من محطة البيون التي تفلر بالبخار بطنين على اعتبار
 بولتون ووات من الثقافات في مسائل تكنولوجيا المطاحن والإدارة ، وإن
 كانت محطة البيون قد طرحت مشكلات في الناحية التقنية والمالية

الإدارية لم تصادف في التجربة الأضييق نطاقا التي تمت في سموهو .
 ومطالب ما يقارب ثلثي المصلاء المتوقفين للمحركات البخارية في صناعة
 المصانع ، ومخططات الأبنية . وإن كان لم يظهر في أية حالة من الحالات
 تمنع المدير المسئول بما هو أكثر من الخبرة الهيئة بطحن القلال ! ويصح
 القول بأن مطحنة اليون قد حققت نتيجة إعلامية قوية ، وعمل بولتون
 ووات في خمسة مشروعات من سبعة أجريت في ميدان طحن القلال
 باستعمال المحركات البخارية كنهضتين استثماريين للإنتاج ، وفي حالتين
 (في طاحونتي نانت بفرنسا وقلمس بإسبانيا) تضمنت الاستشارة
 مسائل الحزم والرزم وطريقة إدارة المصنع وتشغيل الآلات المستوردة
 من ريني . وعندما بحثت فكرة إنشاء مطحنة بخارية دانمركية ١٧٩٤ ،
 طلب من بولتون ووات النهوض بكل ما يتعلق بهذه المطحنة ماعدا مسئولية
 إنشاء المبني . وبعد أن التهمت النيران مطحنة البيون ودمرتها قدم ووات
 النصيح للمسئولين في نانت عن طريقة الوقاية من النيران .

وإنشاء الخبقة التي شعر فيها الشريكان بالقبضة لما أنجزوا في مطحنة
 البيون ، لم يقتصر الأمر على إسعاد النصيح للمصلاء المتوقفين للآلات في
 مسائل الإنتاج والهندسة الميكانيكية للطواحين المطارة بالبخار ، فقد سعى
 هؤلاء المصلاء للتعرف على أسعار المستحدثات في طواحين القلال . وقبل أن
 يشتهر بولتون ووات ، وصايا بحالة انهيار ، بدت أسعارها متواضعة .
 وأرباحها مشجعة . وفي ١٧٨٥ ، اشترك ووات في مباحثات خاصة
 بمشروع لاستعمال القوة البخارية في طحن القلال في ليون ، ووضع
 مخططا اشتمل على بيان تفصيلي بالتكاليف الثابتة والسنوية لطاحونة
 تضم ستة أزواج من حجر الرشي تعمل بلا انقطاع (يحتمل أن يكون
 مجموعها ثمانية أزواج) لطحن ٧٢٠ بوشيل من القيق يوميا ، ولم
 يرسل هذه المقايسة ، وقبل أنها تحتوي على تفاصيل أكثر من اللازم .
 وعدلت صورتها المختصرة فيما بعد لتخفيض تكاليف الضخم إلى ٩٩٩ جنيهها
 إنجليزيا ، وبذلك انخفضت التكاليف السنوية إلى ٢٨٧ جنيهها واربعة
 بسطات . وازدادت مزايا عملية الطحن بالقوة البخارية بعد أن بلغ ثمن
 الحولة خمسة شلنات وخمسة بنسات .

وحول ١٧٨٩ أجريت مقايسة تفصيلية أخرى لتكاليف إنشاء معدة
 لاطفاء الحرائق ، وتناظرها مطحنة لطحن القيق على أن تكون عمليات
 الانشاء والتشغيل والإقامة في مقاطعة أندلسيا في إسبانيا . وتجهز
 المطحنة بحيث تتمكن من طحن ١٢١٠ بوشيل يوميا . ولكي يتعرف
 الأسبان على مزايا المصنع الذي يعار بالبخار عقد بولتون ووات مقارنة بينه

وبين ما تتكبد له المصانع المظلمة بالبخال (*) من ظلمات لاتنتج مقدار مماثل من الطحن ، ولكن وبعد أن تزايد وضوح الخسارة المترتبة على مخاطرة بولتون ووات في عالم الطحن في لندن أحسبنا بإحباط دفعهما إلى عدم التحمس لتقديم النصيح والمضورة في المسائل الخاصة بإنشاء المصانع .

وأثبتت دهر سك النقود والميداليات التي أنشأها ماتيو بولتون في سوهو بعد سنوات قليلة من تشغيلها كهدايا ودقتها في سك النقود والميداليات التذكارية . وليس هذه القدرة الملوك واصحاب المقام الرفيع من الأرستقراط وأيضا أعضاء الحكومة والتجار في البلدان الأجنبية . وأدركت قيمتها في الدعاية . وبعد أن ذاع صيت بولتون كمخترع لآلة السك ، إلى جانب تصميماته المبتكرة في نظام الانتاج المتدفق في المسبك ، أدى ذلك إلى سعي الآخرين لطلب مشورته في شئون هندسة الانتاج والهندسة الميكانيكية ، وقرابة انتهاء حياة بولتون ، حصص بعض وقته للاهتمام بالتزايد بأعمال السبائك . وهكذا أثبتت الحاجة الاستشارية الهندسية عنده في جعلتها أهم أكثر واقعية من المقصورة التي كان يطمحها بالاشتراك مع ووات في مسائل الطحن . وكان يتجنب الانزلاق إلى الحديث عن الجوانب المالية في السبائك التي لم تكن ذات أولوية كبرى عند عملائه من الأجانب على أي نحو ، وكان العملاء الميزون المحتلون والمصلاء الفضليون في البلدان الأجنبية - من حكومات وملوك ونلاء - يشعرون بحريات عامة ويقدمون الطلبات للحصول على ما يجري في عمليات السبك من بولتون مباشرة خلال مباحثاتهم لإنشاء مشروع متكامل للسبائك . واضطلع ماتيو وبولتون - ثم بعد ذلك ابنه - بمسئولية انتاج الآلات الهندسية والسبك على نفس النحو الذي اتبعه عندهما اشتراك مع ووات في صناعة المحركات .

وساعدت قدرة بولتون على التخطيط وتحمل المسئولية لإنشاء مسابك كاملة في نجاح التباحث لإنشاء محركات للسبك في روسيا والمانرك والبرازيل والهند :

« لا أزعج أنني مهندس ، ولكن خبرتي قد مكنتني من تنظيم وتسبق مسبك امبريال عظيم . (ومن الضروري) أن تنظم غرف دهر السك على نحو يساعد على تدفق النقود إلى الأمام من غرفة لأخرى إلى أن تتم تعبئتها وتقديمها للتداول ، وأن لا يتجه خط الانتاج مرة إلى الأمام وأخرى للوراء ، ولابد أن أقدم بالرجاء باسم أحدث أي تغيير في أية غرفة من الغرف

التي يتوقع أن توضع فيها الآلات لتشغيلها ... لأن هناك وحدة لا تنقسم
إلى حد ما بين تصميم البناء والآلي ...

واردف قائلا : « لعل لرتيابي في الأولويات التي يضعها بعض
الصلاء تدفعني إلى تفضيل البناء المتواضع المريح للنظم والمزود بالآلات حسنة
على البناء الذي يجمع بين الضخامة وعدم الصلاحية » .

وأدى اعتماد بولتون ووات الواضح لاسماء النصح للعمليات في
المسائل الهندسية الكبرى والمشكلات المالية إلى اعتبارها من المصادر المباشرة
لرؤوس المال القابلة للتصدير ، وسعى كثيرون من المسئولين عن الإدارة
إلى إشراك الشريكين ماليا في المشروعات الصناعية خارج إنجلترا ، من
خلال عروض الأسهم في السندات أو الاشتراك في المشروع ، فلقد طلب
من بولتون الأسهم المالية في مشروعات تصنيع الأسطوانات المعدنية
والشرائح المعدنية في روسيا ، وفي أحد النتائج بألمانيا ومطبخه بباريس ،
والملفات النحاسية وسك النقود في باريس والتنجيم في الولايات المتحدة
وفي مشروعات مختلفة في المقاطعة الكندية (تولا سكوتيا) وشرك
الشريكين بأدوار متصلة في مباحثات المشاركة ماليا في مشروعات
صناعية أجنبية (بولتون في مشروع الأخوين مانيدون في باريس لإنتاج
الملفات النحاسية وسك النقود - ووات في مشروع المحلحة البحرية في
ليون) غير أن جميع هذه المشروعات لم تحقق النجاح المنشود ، وبوصفهما
شريكين فانهما اشتركا كحصة للاسهم في المشروعات المالية بباريس ،
بالرغم من أن هذه المشاركة لم تحط إلا بعد أن تزايد ادراكهما عدم
احتمال حصولهما على ثمن فوري لحركاتهما ، ولم يبد قبول بولتون ووات
للاسهم في شركة الأعمال المالية في باريس في نظرهما عملا بعيدا عن
الوطنية ، أو لا يتواءم هو والاتجاه الدولاني نحو المصالح البريطانية في
المصانع الأجنبية للمصنوعات المعدنية واللعب ، كما أن بولتون بعد أن
تقيد بالارتباط في مشروع مخترب لصنع اللعب ، لم يزال بما ظهر من
تعارض بين استثمارات الهندسة في أعمال المسالك الفرنسية ،
وما يتقاسم من عائد مالي : « اعتقد أنني منحت فرنسا اختراعي ... والى
جانب ذلك ، ساقط كل عون ميسور لي لهذا البلد (فرنسا) لصالح
المشروع » . لقد كان بولتون رجل أعمال في المقام الأول ، وإنجليزيا
في المقام الثاني .

(٥)

طلت أسمار للمحركات البخارية لبولتون ووات ثابته بدرجة ملحوظة
في السوق الانجليزية في الحقبة الواقعة بين منتصف عشرينات القرن

الثامن عشر وعشرينات القرن التاسع عشر ، واستوعب أصحاب المصانع التقلبات في أسعار المصولة الى حد كبير . وعلى الرغم من أن جدائل الأسعار لم تنشر قط ، إلا أن الأرقام التي استشهد بها عند التعامل والصلاء المتوقعين قد كانت قريبة من الأسعار داخل انجلترا المتفق عليها التي وضعت بمعرفة الشركة . ولم تكن هناك قوائم عامة بالأسعار للسوق الأجنبية ، وكانت إسبانيا هي البلد الوحيد التي قدمت قائمة بالتريفة الجمركية ، وتمثل هذه القائمة ارتفاعاً ملحوظاً عن الأسعار الانجليزية ، التي سمحت لأصحاب المصانع بالحصول على ربح اضافي يتراوح بين ٢٠٪ و ٢٠٪ بالرغم من انكازها وتصلها من فرض أي مكاسب لو تلمينات . ولم يفت أي التزام دقيق بالمقاييس حتى في إسبانيا ، وإن كانت أغلبية الأسعار التي استشهد بها ، ودفعت للأسواق الخارجية بين ١٧٩٠ و ١٨١٠ قد سمحت لنفسها بنفس نسبة الترفة الاسيانية ، على أن هذا التحميل بالزيادة لم يؤثر على مبيعات المحركات البخارية . لأن أسعار المحركات لم تتخذ درجة للانخفاض في ثلثية العلبات أو رفض أي طلب .

إن النسبة العالية من مشروعات التشغيل العامة الى جانب العملاء المرموقين ولواثل من تبينوا المحرك لمشروعاتهم الخاصة والتي تمثل ٤٢٧٪ من العملاء الأجانب لبولتون ووات قد تقصر جزئاً أسباب تساهل المشتريين في مسألة السعر ، وعندما اكتشف البائعون مجالا يسمح لهم بالمانورة ، تحولت أسعار المحركات البخارية الى مسألة مرتبطة بما يستطيع السوق تحمله . فمثلا دفع ملك نابيل مبلغ ألف جنيه مقابل مكونات المحرك ، بالإضافة الى ألف جنيه أخرى مقابل الضخعات والرسومات والربيع عندما كان سعر المحرك ٧٧٨ جنيهاً ، واعتبر وات ما حدث ربحاً ضخماً بدون وجه حق . وحذر بولتون الذي كان حينذاك مشغلاً بالتفاوض مع الكونت الفرنسي « لعمد أفضل صفقة بالمقدور انجازها وقال له : عليك أن تراعى أنك لا تبيع الآن اختراعاً لأحد الملوك ولكنك تصنع محركاً لأحد التجار » . وكاس آلات السبك التي اشترتها الحكومة الهانركية أعلى بـ ٥٠٪ من الأسعار المقررة في قائمة بولتون ووات ، البريطانية ، وكان المسئولون للمالين في سوهو يتمتعون - كما يبدو - بقدر ما من من الحرية في تحديد أسعار العملاء الأجانب ! وعقب وات (الابن) على ذلك بالقول بأنه اكتشف أن تقدير المسئول للمال لشركة حليج همسون (١٨١١) كان باعظاً للغاية ، ولكنه تجاوز عن هذه المسألة ، وحصلوا على الصفقة . وعندما تقدمت الحكومة الهولندية ١٨٢٥ بطلب محركات بحرية (قوة ٧٠ حصاناً) حدد وات الابن مبلغ تسعة آلاف جنيه ثماً لها ، ولاحظ : « أنهم كانوا مستعدين لتلها لدفع هذا الثمن . . . بالرغم

من أنه يتجاوز بكثير السعر الذي تماعدا عليه مع مكتب البريد بـ مبلغ سبعين شلنًا . ولودف قائلا إن فلويسيت من ليفربول قد تماعد هو واحد الصلاء على توريد محركين بحرين (قوة ٧٥ حصانا) بـ مبلغ ٨٨٠٠ جنيه ، وكان بولتون ووات يتوقعان تحقيق ربح يتراوح بين ٧١٪ و ١١١٪ من بيع المحركات في الخارج ، بالمقارنة بالربح الذي يحصلون عليه من المبيعات داخل إنجلترا ، والذي يتراوح بين ٥٢٪ و ٨٧٪ . وجرى محاولات لوسند للصاريف الإضافية بالنسبة للصلاء من خروج إنجلترا ١٨٢١ ، عندما اقترح وات (الابن) إضافة ٢١٪ للأسعار البريطانية ، ولكن وحتى ١٨٢٥ لم يطبق الاقتراح تطبيقا كاملا . وكانت السوق الهولندية امتنته في الأسعار ، إذ طلب من البيت التجاري القائم بالتفاوض ليجل الأسعار تقترب كثيرا من أسعار المحركات البخارية في إنجلترا . غير أن هذا البيت التجاري قد عمل بصغة استثنائية في مقام آخر . إذ تغل بولتون ووات عن مطلبها للمعاد بضرورة وجود أحد الضامين من لندن لاعتماد الطلبات .

والحالة الوحيدة التي يفر فيها الشريكان التنازل عن الحصول على أرباح طائلة من المحركات المصاة خارج إنجلترا هي الحالة التي تجرى فيها الصفقة مع بلد يتوقع عقد صفقات مبيعات لاحقة فيها . فلقد تباحت جاري (أول عميل لبولتون ووات في فرنسا) من أجل وضع سعر محدد مع الاعفاء من دفع التأمين ، « لأن الواجب يقضي إيتار فرنسا في المعاملة باعتبارها كانت أول زبون للمحرك » . وباعتصار وكما لاحظ ويلكنسون : « أن جاري من الشخصيات المعروفة بالأمور » . وهذه الميزة تزكية لمقد أية صفقات أخرى . وكان أول محرك بخاري تم توريده للبلدان الواطئة بسعر التكلفة للمحرك الذي بيع إلى الجمعية البانافية . غير أنه عندما جرى بعد ذلك بحث من قبل الهولنديين عن محرك (١٧٩١) طلب بولتون ووات مبلغ ٣٠٠ جنيه انجليري . وبرروا ذلك بقولهما : « نعم لقد وردنا محركا واحدا بلا ربح لاقتناع أهل هولاندة » . ولكننا لن نستمر على هذا الحال . إن ما طالبنا به يمثل لدى سعر يمكننا تقاضيه في مقابل مثل هذا المحرك . ومن جهة أخرى ، دفع عميل كسفي مبلغ ألف ومائة جنيه (١٧٨٩) مقابل توريد محرك قوة ١٦ حصانا وهو سعر يزيد عن السعر للثبت في التعريفة الأسبانية في نفس التاريخ ، وسمح بربح ٢٩٪ بالرغم من مزاعم الصانع : « بأنه لم يربح إلا أدنى ربح » . باعتبار هذه الصفقة هي الأولى مع هذا البلد .

يتعذر تقدير الوقت والجهد الذي بذله بولتون ووات في متابعة عملها في الخارج ، وأيضاً جسر - باستثناء حالات قليلة - تقدير المبالغ التي أنفقتها للتزفيه من الصلاء الأجانب وتقديم الهدايا ، وبلغ مجموع

بإيطاليا اجتده من تاريخ الاتفاق على السلام بين نابلي وفرنسا ١٨٠٩ ونهاية الحرب • وبلاستطاعة ملاحظة وجود نمط مماثل في أسبانيا والبرتغال • وفزادات الطلبات الآتية من خارج انجلترا انتظاما وتوافقا ابتداء من ١٨١٦ • ولم يعبط هذا المستوى انطلاقا عن طلبين • وارتفع من أربعة طلبات الى تسعة سنويا في بعض للناسبات •

ولقد لوحظ انخفاض آليات « العفنة » في الاممواق خارج انجلترا • وكيس من شك ان هذا هو ما خطر ببال مستر ر. بولتون علما عقب في سياق حديثه عن السوق الروسية • فقال ان تبديد اى وقت آخر لو جهد آخر • سيكون عملا بسيما على الحكمة • اذا راعينا ان بولتون ووات كان يتجهورهما الحصول على طلبات أكثر من جيرانهما الأتريه بأعداد تفوقه القدرة على تنفيذها • ولربما صحت هذه الملاحظة على المدى القصير • ولكن بعد الترويد بالخدمات الفنية الإضافية التخصصية التي أثرت في آليات الاجتذاب • يصح القول بان الزيادة التي حققها بولتون ووات من الأسواق خارج انجلترا قد برزت للجهود التي بذلت من أجل المبيعات • وأثبت صحة ما قاله ماتيو بولتون عن بيته تقديم خدماته لجميع ربوع العالم بتزويده بمحركات من أصناف مختلفة الأحجام • وذكر هذا القول قبيل شروعه في احتاج المحرك بالاشتراك مع ووات •

المراجع

- I. T. Berend and G. Ranki, *The European Periphery and Industrialization 1780-1914* (1982).
- F. Braudel, *Capitalism and Material Life 1400-1800* (1944).
- F. Braudel, *The Structure of Every Life* (1982).
- P. Deane, *The First Industrial Revolution* (1979).
- R. L. Jones, *Agriculture and Economic Growth in England (1550-1615)*, 1968.
- D. Landes, *The Unbound Prometheus : Technological Change and Industrial Development in Western Europe from 1750 to the Present* 1969.
- J. Lord, *Capital and Steam Power 1750-1800*, (1966).
- N. McKendrick, *The Birth of a Consumer Society*, (1982).
- P. Mathias, *The First Industrial Nation : An Economic History of Britain (1700-1914)*, 1969.
- A. Munson, and E. Robinson, *James Watt and the Steam Engine*, [1888]
- S. Pallard, *The Genesis of Modern Management*, (1965).
- S. Poffard, *Peaceful Conquest : The Industrialization of Europe*, (1981).
- R. E. Schofield, *The Lunar Society of Birmingham* (1965).

« حروب الموسوعة » في فرنسا ما قبل الثورة

روبرت دارنتون

ربما كان للكتب التي تصنع التاريخ تاريخ مهم هي نفسها . وهذا ما حدث في حالة « الإنسكلوبيديا » أشهر ما نشر في عهد التنوير . وعندما اندم ديدرو على تنفيد هذا المشروع في خمسينات القرن الثامن عشر ، واجه الكثير من المعارضة من السلطات السياسية والدينية أبان حكم الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا . بيد أنه نجح في إخراج السفر العظيم المؤلف من عدة أجزاء . وانهى العمل فيه ١٧٧٢ . ويحتوي السفر على مقالات في الأدب والفلسفة والدين ، أبدع براع عقله كتاب عصر التنوير ، إلى جانب مقالات عن الحياة الاقتصادية المعاصرة ، ما برحت تعد مصدر الرئيسي لمعرفتنا بأحوال الزراعة والصناعة والأساليب المتبعة فيهما في منتصف القرن الثامن عشر .

لعل هذا الجانب من القصة معروف إلى حد ما . ولكن بعد أن انتهى تأليف الإنسكلوبيديا (ولستعمل من الآن فصاعدا كلمة موسوعة بدلا من إنسكلوبيديا) وطبعا ، كيف أمكن توزيعها ؟ وما الذي تعرضت له بعد ظهور طبعتها الأولى ؟ ومن استفاد من هذه المخاطرة ؟ ومن اشترى المجموعة (أين يقطن المنتسرون ؟ إن الردود على هذه الأسئلة الخاصة بدور « التنوير » تدفع المؤرخ إلى خوض إثراء عميقة من التاريخ الاجتماعي « للنظام القديم » . أنها تكشف عن معاملات مالية امتدت إلى نطاق واسع ، وعن محاولات للفسخ والابتزاز وتهريب الكتب خارج حدود فرنسا ، وعن جهود بذلت للتغلب على التقصير في الورق واللحام والآلات الطباعة ، وعن صراع شرس في عالم المنافسة الحادة التي لا ترحم ، إذ يكمن وراء اشباع

The Encyclopédie Wars of Pre-revolutionary France

American Historical Review في

Robert Darnton

بقلم

الجزء ٧٨ (١٩٧٢) من ١٢٢٦ - ١٢٥٢

نور العقل الذي اشعته الموسوعة علمان متضاربان : الحرية الفكرية ،
والمراسلات العلمية للتسبحة . غير أن المؤرخ عندما يتابع تاريخ نشر
الموسوعة ، فإنه يلاحظ تعدياً مهماً في توجهات الحكومة الفرنسية نحو
النشور ، ويدرك أيضاً صورة واضحة واثمة لنوعية الأشخاص الذين ائتمروا
بالموسوعة ، ولا يستبعد أن يكون بينهم من قرأها .

نظر الى نشر الموسوعة فترة طويلة من الزمان على أنه نقطة تحول
في حركة التنوير . فمتى ما سمح لسفر ديدرو بالظهور في صورة مطبوعة ،
فإن الدولة بنص النظر عن اجتماعها عن الكمال ، وعدم رضاها عن الفكر
الحري ، قد اتاحت الفرصة للفلاسفة لاختيار سلمتهم في ميدان الابتكار .
ولكن ماذا كانت عواقب هذا الاحتراق للحواجز التقليدية للكلمة المطبوعة
في فرنسا ؟ عندما ركر العلماء الباحثون على الميازة بين الموسوعيين
والسلطات الفرنسية ، فاتهم لم يذكروا أكثر من نصف القصة . أما النصف
الآخر فيخص المسائل الأساسية في التاريخ الاجتماعي للأفكار ، فكيف
كان الشارون ينظفون وينظفون عملية الطبع والنشر في القرن الثامن
عشر ؟ وكيف كان مدى الاقبال على أعمال مثل الموسوعة ؟ . ومن كان
المشترون ؟ هذا السؤال يعني بهذه المسائل . فنحن عندما نريد رواية قصة
دورة الحياة لكتاب من الكتب ، فإنا نقصد بذلك الإشارة الى جانب من
الامكانات في تاريخ النشر - وهو ميدان ظل دون أي التفات اليه رغم ما فيه
من جاذبية في مفترق طرق التاريخ الفكري والاجتماعي والاقتصادي
والسياسي .

وعندما أخرج ديدرو وشاروه المجلد الأخير من الموسوعة ١٧٧٢ ،
فإنهم ظفروا بما هو أكثر من الاتصال المسوي على نظام السيطرة على
النشر في فرنسا . ومن المحتمل أن تكون الطبعة الأولى قد ضمت مليوناً
وحصفت المليون من الكتب التي حققت ربحاً هاملاً . غير أن الدولة صمدت
تداول الكتاب علناً وصمدت معظم المجموعات (٤٢٢٥ مجموعة) الى عملاء
خارج فرنسا . والظاهر أيضاً أن الطبعة الثانية قد اعتمدت الى حد كبير
على اعداد غير فرنسي ، إذ كانت إعادة طبع على صفحات فوليو (١) للنص

(١) تشير مصطلحات فوليو وكوارتو وأوكتافو الى حجم صفحات الكتاب . وترجع
التسمية الى عدد الصفحات التي مطبع على فرخ ورق الطباعة الجاهز . فلي حالة للفوليو
(٦٠ صفحة) مطبع صفحتان في كل وجه . وبذلك يصل عدد الصفحات المطبوعة الى أربع
صفحات . أما الأوكتافو فيقسم ثمانى صفحات مطبع على كل وجه . وبذلك يصل مجموع
الصفحات الى ١٦ صفحة . ويطلق الفرخ المطبوع . ويؤلف مطبعة من المكتبات . وكلما
زاد عدد الصفحات المطبوعة على الفرخ صغر حجم الصفحة المطبوعة وصغرت حروف
الطباعة .

الأصلي ، وقام بطبعها في جنيف اتحاد من الناشرين بالاشتراك مع شارل جوريف بانكوك في باريس . ولم يكتب البقاء لسجلات المبيعات ، ولكن باشرها كانوا يأملون في الأصل تصويق نصف مجموعاتهم (٢٢٠٠ نسخة) في فرنسا ، وابتداء ١٩٣٠ مجموعة في شتى أنحاء أوروبا كما ظهر عند تصفيتهم لحساباتهم النهائية في يونيو ١٩٧٥ ، وبذلك يكون عدد النسخ التي بقيت في فرنسا في هذا التاريخ ٢٠٠٠ نسخة فقط من الطبعتين الأولى ، على أكثر تقدير . وبذلك لا تكون الموسوعة قد غبرت البلاد رغم الاعتراف شبه القانوني بها .

بيد أن نشر الطبعتين التاليتين (طبعة ١/٢ كروتو و ٢ أوكافو) للنص الأصلي له قصة جد مختلفة . عن نشر الطبعتين الأولى ، وبالمقدور روايتها بالتفصيل بفضل البحوث التي جرت في سويسرا (*) ، وبدأ القصة بالإداري القند بانكوك المعروف « بأطلس تجارة الكتب » ، وأسلوبه المشهور في عقد التحالفات وإثارة الخصومات في عالم النشر والسياسة .

ففي ١٩٦٨ ، اشترى بانكوك من الناشرين الأصليين الأصول الرنك للموسوعة . وحقوق نشرها . أما ملحق هذه الحقوق ، فمن المتعذر معرفتها على وجه الدقة ، واستعمل بانكوك في مراسلاته بعض المصطلحات (**) ، ولكن الحكومة تمكنت للاعتراف الذي سبق أن منحت للموسوعة ١٩٥٩ ، ولم يوضع مسجلو الامتيازات في المكتبة الوطنية بباريس حقوق أي استرداد لهذا الامتياز ، وبيّنوا أن بانكوك قد منح امتيازاً عاماً لمدة ١٢ سنة في ٢٩ مارس ١٩٧٦ ، لجميع لوحات خاصة بالعلوم والفنون والحرف ، مما يزيد زعمه الحصول على نوع ما من حق النشر . وعلى العموم ، فلقد أكد بانكوك هذا الزعم بمضادة شديدة . فلم يكتب بإظهار القند الذي اشترى بموجبه حقوق الناشرين الأصليين . ولكنه أبرز أيضاً ترخيص الحكومة الفرنسية . وباع حصته كاملة من امتياز طبعته من الشركاء ، لمدة محدودة . إذ كان يبيد البيع والشراء ، لشركه حدد وإصدار طبعات جديدة .

وأول موسوعة يصدرها بانكوك هي الطبعة الثانية (وكانت إعادة طبع في حجم الفولير ١٩٧١ - ١٩٧٢) . وتمه هذه السنوات من السنوات العصيبة في تاريخ تجارة الكتب من تأثير الاجراءات القسرية التي اتخذتها حكومة التالوث (ميرابو - تيراي وأجلون) ، ومن ثم رأى بانكوك طابعها

Société Typographique de Neuchâtel.
Brevet des planches sur les sciences, arts et métiers.

(*)

(*) استخدام مصطلح « droit » و « privilège »

في جنيف بمعرفة شركائه السويسريين ، ومن بينهم ناشر فولتير (الملك جيريل) كرهفر . وكانت عملية الطباعة عاصفة خفقت بالمشاجرات مع الشركاء . وبالصراع مع الموسوعة ، بروستانتية ، مافسة ، وبخلتها معركة حاسرة مع الحكومة الفرنسية التي صادت ستة آلاف مجلد كان بانكوك قد طبعا في باريس أصلا . ولما حل ساعده النجاح في إصدار هذه الطبعة على أحدث « فرقة » في السوق الفرنسية فأمر غير معروف ، إلا أن الصعوبات التي واجهته لم تنبئ عريته . وكانت الأبواب تفتح على مصراعها عندما يفتل بوابة دكر الحكومة بفرساي « وكأنه أحد كبار الزوراء » أما رسائله فكانت مرصعة بعبارات الحماية من كبار رجال الشرطة ، والمختصين بنشر الكتب والوزراء .

وفي ٣ يوليو ١٧٧٦ ، باع بانكوك نصف أرباحه من ملكيته لامتياز إصدار الموسوعة مقابل ١٤٣٠٠٠ لاحتى دور النشر (٢) ، التي تعد من أهم دور النشر الفرنسية خلال القرنين سبعة السابقة للتوراة . وبعد أن أصاب الوقت في التخطيط لنشر إعادة طبع أخرى ، قرر هذا الاتحاد الجديد إصدار طبعة مريفة منقحة ، ورتى أن يتولى إعادة كتابة النص نخبه من الفلاسفة الجاهلة من بينهم مارمونتيل وموريليه ولاهارب ودابو وسانت لامير وتوماسي وتحت إشراف سويار . وبمساعده دالمبير وكوندورسيه ، ولم يضم بانكوك اليهم ديدو . لأنه عيب (٣) ويطلب مبلغا خرافيا ، وربما أشعرا بالأحباط ، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على دالمبير بحكم قوته على التأثير على الملك فردريك الثاني ملك بروسيا . ولما يقمعه بقبول أهدائه الصل الجديد ، وبحث دالمبير أيضا فكرة كتابة تلويغ للموسوعة في الطبعة الجديدة . غير أن هذا المقال مات قبل أن يرى الدور . مثل الكثير من الكلاسيكيات الأخرى التي لاقت نفس المصير كتلويغ الحركة البروتستانتية الفرنسية لرايغال وتلويغ وزارة تيرجو لفولتير . فلم تتجاوز هذه الأعمال مرحلة المشروعات التي تلقت ضربة قاضية عند عرضها على سائط البحث على الكتاب والنشر . وفي آخر الأمر أسقط مشروع إنتاج هذه الموسوعة رغم المخطط الهائلة التي أعدها مساندوما . بعد أن ظهرت طبعة منافسة برخص ثمنها . أنها الطبعة الكوارتو ، التي أصدرها جوزيف دولان من ليون ١٧٧٦ . والتي قام بدور الخصم في هذه الرواية ، وبعد واحدا من أحباء القراصنة في عصر ، الأسلاب الرأسمالية .

وخصص دوبلان دار نشره على غرار كثيرين من المستغلين ببيع الكتب ونشرها في الاقاليم لنشر الكتب الرخيصة او المتقولة عن طبعات أخرى من التاج دور النشر التي انتشرت خارج حدود فرنسا . هربا من قيود « الامتياز » والرقابة على الفكر التي خفقت دور النشر المستعبدة داخل فرنسا . واشتمت دوبلان واثمة الكسب من امكانية اصدار طبعة من الحجم الكبير للموسوعة ، واطن الفتاح باب الاشتراك في الطبعة الكوارتو الرخيصة التي تتألف من خمسة اجزاء من الاجزاء التي ظهرت في النص الأصلي . ولجا في سبيل حماية نفسه الى نسبة الطبعة لجان ليونارد بيليت ، وهو من اصحاب المطابع في جنيف ، وكافاه بثلاثة آلاف نسخة نظير قيامه بطور خيال لثاته . وعندما اطمأن الى زيادة الاقبال على حجر نسخ من الموسوعة ، تعاقد دوبلان على الطباعة هو والعديد من المحلات في جنيف محتفظا بالاموال المالية والادارية لنفسه ، وعول على امكانية نقل الكتب الى فرنسا لما بالتهريب - اذ كان يتمتع بنفوذ كبير عند نقابة بائعي الكتب في ليون ، بالرغم من قوة اعدائه في نقابة باريس - او بالحصول على التزام السلطات الفرنسية للحياد ، ولكنه لم يعمل حسايا لبانكوك .

وكان امام بانكوك احتمالان : اما ان يصرع دوبلان ، او ينضم اليه ويستوى الحل الاول بانكوك . لاقتناعه بإمكان الاستناد الى الحماية بطريقة فعالة تمكنه من سد قنوات التطرفة في الكتب في السوق السوداء . غير ان نجاح « الاشتراك » في السجز ، زاد من اغرائه . وكان بانكوك يعرف كل خطوة يخطوها دوبلان بفضل التقارير السرية التي كان يتلقاها من احد باعة الكتب(*) - وكان رحولت يعرف ان الاشتراك يعني البيع عن طريق المطبعة ، واثبتت المعلومات المتلقاة « من شتي الانحاء » ، بان الطبعة الكوارتو من الموسوعة مستحق اعظم ربح حثت خلال القرن - ومن ثم طرح رحولت حانسا مشروع اصدار طبعة منقحة ، وتباحث هو ودوبلان في وسيلة أخرى ، فباع استكراهه للامتياز القانوني الذي يبيع له الشتر مقابل وقف الاشتراكات . وفي ١٤ يناير ١٧٧٧ ، وقع الاثنان (بانكوك ودوبلان) ، ما أصبح يعرف فيما بعد « بمعاهدة ديجون » واتفق الاثنان على ان يتقاسم كل منهما نصف الربح في مشروع الكوارتو الذي قسماه فيما بعد على شركائهما (وانتهى الأمر بحصول الجمعية الطبائية**) على خمس المشروع الكلي لصالحها) ، والزم دوبلان بحدود الانتاج والتوزيع والتسويق للطبعة تما لشروط حددت تفصيلا في العقد ، وتمهد بانكوك بالتزويد بنصف رأس المال . وبثلاثة اشهر من الزك ويتنظية المشروع بحماية امتيازه . ولم يكن البند الأخير مبرة هينة ، ففي اغسطس ١٧٧٧ ، كتب بانكوك

« سيحي مدير المكتبة (*) مشروعا » ، بل ومنح بانكوك صريحا بتوريد الكتب الى مخازنه في باريس مباشرة ، متخطيا الجمارك ورقابة بائعي الكتب والرقابة . وفي ذات الوقت ، كتب توجيهها للمسئول عن رقابة الكتب المصدرة في ليون بالتصريح بمرور الصالدين المشحونة من سويسرا ، وكأنه وزير من الوزراء ! . والواقع ان بانكوك قد احكم تمثيل دوره حتى اضغغ اصحاب المطابع السويسرية ، واقنعوا على تبعية شحناتهم من كتب الموسوعة المحظورة ، وبدلا من ان تضطر السلطات المشؤلة الى استخدام قوتها ، كما فعلت في خمسينات القرن الثامن عشر ، فقد وزعت الموسوعة تحت اشراف المسئولين وحمايتهم . وساعدت هذه العناية على التنويه ، وبيع الكتب التي اُرادت القولة مصلحتها .

ولم يخطر ببال بانكوك ودويلان ان مثل هذه العملية الهريرية البسيطة ستجر في ديلها ابتزارا . فقد وجها كل عايتهما للحصول على الحد الأقصى للربح ، وأثبتت الطبعة الكوارتو أنها عمل مربح الى درجة غير مألوفة . فلقد تفققت الطلبات من كل صنف وصوب ، وجى الثانون ثمارا لم يسمع عنها من قبل ، ودعش البائون لما حلت من بهم لاقضاء الموسوعة ، فقبل ذلك ، كان الاقبال خائفا عند الزبائن الذين عجزوا عن شراء الطبعة الغوليو . وكتب أحد الزبائن من مستريرحت (**) : « لم يسبق ظهور كتاب انتشر مثل هذا الانتشار » وكتب سيلانسي من تولوز « لقد ملأت الموسوعة شوارعنا » مرددا نفس الملحوظة التي رددتها أحد باعة الكتب في ليون « كان مدينتنا قد أصبحت مرسوفة بالموسوعة » . وقال بانكوك متعجبا : « تحولز نجاح الطبعة الكوارتو كل توقع » . وعند فتح باب الاشتراك ، كان دويلان يحلم أحلاما بعيدة المنال ، اذ كان يأمل في بيع اربعين ألف نسخة . وبعلا باب الاشتراك حتى فاض بسرعة منحلة . ومن ثم فبح دويلان بابا آخر للاشتراك ، بلغ عدد ما حجر فيه ثمانين ألف مجموعة (تحتوى كل مجموعة على ٣٦ مجلدا) وهذا عدد غير عادي في عصر كانت فيه طباعة المؤلفات المكونة من مجلد واحد لا تببع أكثر من ألف نسخة .

ويفسر ما حدث من تعاقب للاشتراكات سر اشتفاء الطبعة الثانية الكوارتو ، وبذل كتاب البليوجرافيا جهودا عظيمة بحثا عن هذه الطبعة

Le Carnus de Neuville.

(٢٠)

(★ ★) Dufour - ويستريقت Macarichet وهو اسم البلدة التي وقع فيها التفاق الشهير لتوقيع الاتحاد الدولي الأدبي . والذي ما زال يشغل بال الأوساط العالمية ، وتجري الاستفتاءات الشعبية للاشتغال الى حسن تقبل مختلف القائل الأدبية له قبل وعنده موضع التنفيذ .

الثانية، ولكنهم لم يهتموا إلا للطبعة الأولى أو طبعة بيليه (٢)، أو الطبعة الثالثة للنوسوعة النواديو - والتزم دوبلان بطباعة النسخ المطلوبة للاشتراك الثاني، إلى أن وصل عمال الطباعة إلى الفرع ١ من المجلد السادس، وجرى ذلك باستخدام آلة طباعة طاقاتها الانتاجية أربعة آلاف نسخة - وأصدر دوبلان توجيهات بأعادة طبع التي نسخة من كل ما أنشأ من طباعة، على أن يواصلوا العمل بعد مراعاة زيادة طاقة الإنتاج إلى ستة آلاف نسخة - وهكذا لا يصح القول بوجود طبعة ثانية قائمة بذاتها - وتوافق فتح باب الاشتراك للمرة الثالثة هو والطبعة الثالثة المنفصلة - بعد اعادة صف كل فرع، وانفاج التي نسخة - ويتم المظهر العام لكل صفحة، وطريقة توضيحيها على ان هذه الطبعة هي يمينها للطبعة الثالثة الصادرة في نويشتال بمعرفة الجمعية الطباعية - وليس من شك أن هذه الطبعة كانت مجرد حيلة ابتكرها دوبلان لتضليل المشتركين الذين شعروا بالامتناع من الطبعة الرديئة التي أصدرها بيليه - والواقع أن الجمعية الطباعية لم تتبدل طبع أكثر من مجلد واحد في طبعتهما، وأنتجت أربعة مجلدات من تلك التي ظهرت باسم بيليه - وفي كل حالة، كان دوبلان يجرى تماقدا قريبا للطبع، ويسمى وراء اسم الجمعية الطباعة الزائفة -

واستعان دوبلان بعمال طباعة من نويشتال وجيف وليون وتروير وجريويل، وشغل أكثر من أربعين مطبعة لأخراج حوالي وبعائة ألف مجلد - وتطلب إنتاج مثل هذا القدر من الكتب، وتوزيعها، حشد أكبر عدد من عمال الطباعة لإنتاج أصخم عملية طباعة في العهد السابق للعصر الحديث - وتكد النشر تكاليف باهظة - فقد احتكرت الموسوعة زهاء ستين مطبعة وصادف عمليات الطباعة في جميع المنطقة المحيطة بليون، واقتصر الأمر على طباعها هي وحدها باستثناء بعض المؤلفات الكنسية - هكذا ذكر أحد العمال ١٧٧٨، واستقرت جمعية الطباعين خمسة شهور لطباعة ستة آلاف نسخة من أحد الأجزاء الضخمة التي تحتوي كل صفحة من صفحاتها على عمودين - واحتاج تمويل ثمانمائة نسخة من كل مجلد من المجلدات إلى رأس مال ضخم مماثل بانكوك ودوبلان إلى الاتجاه إلى اتحاد البنوك الفرنسية والسويسرية - ولاحظ الصيبل ذاته في ليون: إن كل من امتلك قليلا من المال، واستطاع تخصيص جانب منه لشراء الكتب كل شهر أو كل سنة قد استثمره في مشروع إخراج الموسوعة الكولوتو - واستهلكت الموسوعة مقدارا كبيرا من الورق مما أدى إلى تضار عثور أحد البائعين على فرع واحد يبيعه « للجمعية » بواسطة الطباعة مما دفع هذه الجمعية إلى إيفاد معرفين لها في شتى أنحاء فرنسا وغرب سويسرا بحثا عن كل رزمة ورق من القطع المربع مقاس ٥٠ في ٦٤ المصب - ولم يتمكن عمال الزنكوجراف من ملاحظة

المطابع وتزويدها بما يكفي من الحروف (وكانت أنسب حروف واحت
الورق الكولتو هي الحروف المسماة حروف الفلاسفة) - وهكذا استحق
بعض الماملين بالطباعة في جنيف في بدء العمل وفقا للخطة الموضوعة .
١٧٧٧ . واضطر الماملون بطابع نويشاتل الى التوقف عن الطباعة في
أرجح المطابع بعد استلامهم برميلا من لئناد الردي . بينما قام صانع
الأسبسل - وهو من اليساريين ويسعى لاتجولوا - بنصب حله لارتفاع
التكاليف . ولم يحصل على الأرباح التي كان سيحققها كاجور لعمال
جنيف محصول الزيتون الهزيل في حين - واستغل « المربحية » الموقف
بعد تلاحق الطلبات ، وطالبوا بزيادة أجورهم - وأحدثت الموسوعة حالة
من القوم في سوق الطباعة . ولم يقتصر الأمر على اضطراب المشتغلين
بالطباعة الى السير مثبات الأرباح يضا عن العمال . ودفعهم شح المواليد الى
شن الحملات للبحث عنها في مختلف المطابع . مع الاستمارة يجواسيس
مخصصين في الصناعة من لئناد أحد « الساعاتية » المخلص في جنيف
(لويس مارسينيش) الذي كتب لجميعه الطباعين في يوليو ١٧٧٧ :

« لقد أفسد بيليه وباسومير بوعودهم المبالغ فيها الكثير من العمال.
واستغلوا كل ماضر عليه في محلات الطباعة القريبة. ولكنهما لم يرغبوا دفع
ما هو أكثر من ١٥ فلورين و ١٥ سول من استحقاقنا عن كل فرخ ورق .
ومن هنا صمم عدد لا بأس به من العمال على تركنا لأنهم يطالبون بمبلغ
١٧ فلورين عن كل فرخ . والرحل الذي ستركنا هذا الأسبوع قاصدا
نويشاتل واحد من هؤلاء . واسه كازيل . وهناك اثنان من المشتغلين
بالطباعة وعدائي بالمضور للتساحت . وفي نيتهم الرحل أيضا . ولي
أتردد عندما تسبح الفرصة في موافقتك باسماء الساعطين من محلات بيليه
وباسومير ونوفر » .

وباختصار . لقد أحدثت الموسوعة الكولتو ردود فعل حتى في
القطاعات الاقتصادية البعيدة عن الطباعة . فلقد استدعى الموقف شغل عالم
بأسره من جامعي « الخرق » وذووعي الزيتون والمولكين والفلاسفة الذين
تعاونوا لخلق عمل مكلفي للجهود المادية التي بدلت فيه ولرسائله الفكرية .
فيوصفها شيئا ماديا . فلقد اشترك في انشاء الموسوعة استجابة لمتطلباتها
المادية وكأداة للفكر ألف من العلوم والفنون والحرف . ولعلها مثلت عصر
التنوير روحا وجسدا .

ولا ينبغي أن يكون ناشرو الموسوعة قد لمضوا وقتنا طويلا . وأحروا
عمليات حسابية عديدة لتقدير التكاليف والأرباح لتحقيق مثل هذه الفكرة
السامية - وقدرت جمعية الطباعين الأيراد الكلي للمشروع بمليونين واربعمائة
وخمسين ألفا واثنيون تسعين جنيها. اما التكاليف فكانت مليون ومائة وسبعة

عشر ألفا وثلاثمائة وأربعة وخمسين جنيهاً • وبذلك يكون الربح الصافي قد ناهز مبلغ مليون وثلاثمائة وستة وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين جنيهاً • وبعبارة أخرى فقد حقق المشروع عائداً يقدر بمائة وعشرين في المائة من التكاليف الفعلية • فلا غرو إذا اعتبروا هذه العملية نوع عمل يمكن أن يجرى في عالم النشر • أو إذا اشتعلت بسببها نيران مريسة من الحروب التجارية •

ولم يبق أمام دوبلان الذي قسم الطبعة الكوارتو كمفامرة شخصية • وبعد أن اعترف - شرعياً - بخسارته غير دفع ما اقتنتى من ثروات • وظهر قراصنة آخرون ساءلوا الربح السائدة • وتساخروا في هذا الخسار • فأولاً حصلت الأنباء خير ظهور طبعت مزيفة منالسة من جنيف وأقينيون • وبعد أن اطلع بانكوك على هذه الأنباء • اعتقد أنها مجرد خدع • واستشار رفاقه في طريقة الخروج من المأزق • وأخطروهم أنه رب الأمور للحيولة دون دخول أي كتاب من هذه الطبعت إلى فرنسا : • وهل يتحقق أي نجاح بغير ساء • ؟ ولقد أصاب القول • وجاء اعلانه كوسيلة لايقاف ماشرى الكوارتو عند حلقهم ولزغامهم على دفع فدية • وهدد باضطرازه إلى الخضارية وبيع الموسوعة بالخسارة ما لم يدفعوا مبلغاً من المال من قبيل التوضي وساية حقوق الشر • ويمكن الخطر في الحكم على هذه المبالاة في تنفذ التفرقة بين الهجوم المضاد والهجوم الحق • حتى يتضح موقف من حاجهم • وبعد أن اختفت من الأفق طبعت الكوارتو في جنيف وأقينيون • أعلن • جرابيت • و • باريث • من ليون خططا لشراء موسوعة أخرى في حجم الكوارتو • وأثبتا أنها لم يقصدا أي استفزاز بلليل طبعهم مجلدات قليلة • ورأى دوبلان وبانكوك أن الأحكم في هذه الحالة هو الاستسلام • وقررا بمويش جرابيت وباريت مبلغ ٢٧,٠٠٠ جنيه لتسوية هذه الأزمة • وهو مبلغ يتساوى تقريباً مع أجر الملادين معهم في الطباعة طيلة حياتهم • وتلقيا في المقابل وعداً موثقاً بالامتناع عن أية أعمال ترهيبية أخرى • ثم عرفا اعترام اتحاد الناشرين في لوزان وبرن اخراج طبعة ربما كانت أصغر ولوحص من الموسوعة (الحجم الاوكتافو) يمكن أن سباع بحوالى مائتي حصة • وصمم دوبلان وبانكوك هذه المرة على الصود والقتال •

وفي النهاية كان ماشرا الطبعة الكوارتو بإعلان في تعرض مفامرة الاوكتافو للخسارة • وتنفروا على ما سيحدث لقراء هذه الطبعة المنسية • وتناً تعرضهم لفتتان الإحصار • وأعلن بانكوك • • أن هذه الطبعة الاوكتافو قد تحلت بعض القرع • ولكنها لن تضرنا • • فمن الحماقة طبع الموسوعة في مثل هذا القطع الصغير • ولضلا عن ذلك • فأننا سيمتدى إلى من يدافع عما هنا • وأنا في انتظار عودة الحاكم (*) حتى يوضح له كل شيء •

وأعدكم بالغلظ الايمان بعدم دخول هذه الموسوعة الى فرنسا قط ، • واجابت الجمعية الطبية : « انك تحبل مفاتيح الملكية » • ولكن التقارير التي جاءت من بائعي الكتب في الاقاليم اخبرت بان اشتراكات الاوكتافو تباع على بحر مدخل يمينائل وما حدث في حالة الكوارتو • ومن ثم بدأت جماعة الكوارتو في التشاور ، لا يفرض المصالحة ، واسا لتأخير تنفيذ الاوكتافو الى أن يكتمل « الكوارتو » ، ويعلن عن ظهور الطبعة الجديدة المنقحة ، وبذلك يقطعون الطريق أمام سوق الاوكتافو • وأدرك ناشرو لوزان ويرن حله الخطه - وكاتبوا من المعلنين في النشر على طريقة القراصنة - بعد قليل من المفاوضات ، وصمموا على المضي قدما في طباعة الاوكتافو • وحاول دوبلان انكساحهم بصلية هجوم بالمواجهة ، فنشر اعلانا يفيد احتمال إصدار جماعة الكوارتو طبعة جديدة بسعر أرخص من طبعة الاوكتافو في لوزان ويرن • وفي أول نوفمبر ١٧٧٧ ، صدقت لوزان ويرن بالناشر : اسحبوا تصريحكم في غضون خمسة عشر يوما، والا ستضطر لتخفيض السعر الخاص بالاكثافو الى مستوى سعر كيا ، وستنقضي على طبعتكما الكوارتو باصدار طبعتنا بسعر أرخص :

• عليكم أن تقبلوا عرضنا ، وإن تخفضوا سعركم • فبهذه الطريقة سيذبح كل ما الآخر • ولكم كنتم الياطين • (والياطين اظم) • وقد فرسب علينا هذه الضرورة ولا نطلبنا ان هذا التهديد تهديد أجوف • فالترامج جاهزة ، ولدينا نص الحروف وآلات الطبع الضرورية تحت امرنا في ايجردون •

وأرغمت هذه الماورة دوبلان على التراجع ، ولكنها أسفرت أيضا عن اشتعال الحرب سافرة • فعلى الرغم من استمرار المفاوضات بلا توقف - وهذا أمر مألوف في حروب القرن الثامن عشر - فإن كل طرف قد استمر في حملته بلا هوادة ، محاولا تعطيم سوق الطرف الآخر •

واعتمدت جماعة الاكتافو على استراتيجية التهريب ، وجمعوا الاشتراكات المطلوبة ، وارتكبوا على امكان الاتصال بزيائهم من خلال السوق التحتية لتحاول الكتب في الضفة (السوق السوداء) • ووسمت جماعة الكوارتو خططلها على أساس القائمة تصنيفات ضد هذه السوق ، فوعده بانكوك شركاه : « اؤكد أنهم لن يحاولوا اقتحام فرنسا • ولقد وعدني الحاكم بذلك • ولعلكم تعرفون أيضا السادة أن التسليح بالامتياز يساعدكم على عدم التنازل عن حقوقكم مثلما فعلت • فدوبلان مضطر الى الاتفاق معنا ، لأن لدينا عقودا وامتيازًا ، وسيسمى فريق لوزان للقيام بنفس الشيء • • إن امتلاك الامتياز والحماية ، الذي كاد يقضي على الطبعة

الأول من الموسوعة قد استغل كخط دفاع أساسي في مطولة انقاد الطبيعة التالية . فلقد حدثت عدة ظروف غيرت الحال عما كانت عليه في عهد لويس الخامس عشر ، وظهرت أوضاع جديدة في عهد لويس السادس عشر ، دعت الحكومة الى اعتبار الموسوعة صفة تجارية أكثر من كونها مسألة أيديولوجية . ويؤرخ هذا التوجه الجديد بتفلفل معتقدات التنوير في الحكومة ذاتها ، ولكنها لا تفلح - حتما - على حدوث وعن في الهمه . والواقع أن الصراع بين استراتيجيه التهريب والاستراتيجية البوليسية قد جاء بمثابة اختبار لقدرة الحكومة على السيطرة على الكلمة المطبوعة .

وفي منتصف ١٧٧٨ ، لوفتت جمعية المشتغلين بالطباعة في نويشاتل بموننا (*) في جولة في جنوب فرنسا ووسطها - وكلف للبعوث بادي ، ذي به بالتحقق من خطوط الامتداد على الحدود الفرنسية السويسرية - وعرف عندما وصل الى سانت موليس (وهي آخر مدينة على الطرف السويسري من الحدود) أن أدوات التهريب لم يرون وشركائه قد سقطت على حسمانة قصص يتبع كل منها لمحاولة قهرها خمسمائة رطل انجليزى) تحصى المجلد الأول من الموسوعة الاوكتافو . ولقد أبلفه الاحوان ميرون ذلك بأنفسهم ، وهم يشعرون بما هو أكثر من الزهو بهتهم . لا لانهم أسلموا المجتمع ما حرب ، وإنما كتعويض وقتى لبيون من بونتالييه أول خطوط التهريب الذين يرغبون في الحلول محلّه . وعلى الطرف الآخر من الحدود في بونتالييه ، أبلغ بيون « لافارجار » أنه شاهد خمس شهادات للاعفاء من الجمارك - أى من الضريبة الجمركية التي تسعها بها العولة الفرنسية للتحكم في الواردات من الكتب الأجنبية - حررت بمعرفة كايل عن طريق الفنى . وكايل هو تقيب باعة الكتب في ديجون . ولما كان كايل مطلوباً للمساءلة بعد مصادره الكتب التي صدرها ، فقد وعدت ديجون الآن بتعطى بيرامون بوصفها المستودع الرئيسى لهذا الطريق التحتى ، كما أنصع فامارجار بلهجة المنصرين عندما أخطر موقفه ينقل « الاوكتافو » من برن الى سان موليس الى ديجون ، وأنها في طريقها الآن الى باويس رأساً . وأصحت حمية المشتغلين بالطباعة اسم كايل أملة . أن يقدم لنا حصة مسائلة مقابل مبلغ من المال ، وروى باقى ما عنده من معلومات لباتكوك الذى نبه السلطات الفرنسية ، التى انتهى بها الأمر الى مصادرة الأضامن ، ووضعت السلطات حطة أخرى لعملية مصادرة أخرى في تولوز على سبيل المثال حيث ألحقت إحدى المشاجرات الكبرى خسائر ضخمة بجماعة الاوكتافو . ولما جاء شهر أغسطس ، لوتت التقارير الميدانية لافارجار بتغلى المشتركين عن الاوكتافو ، وادفاعهم نحو ميدي . وفي بواكير

١٧٧٩ ، تقدم ناشرو الأوكتافو مطلب للمصالحة مقابل دفع التوزيع للناس .

واستمرت المفاوضات طوال العام . بينما أنهت صناعة الكوارتو نسوية لوضعها في فرنسا ، وحاولت صناعة الأوكتافو توزيع حساساتها عن طريق تسويق الموسوعة وسط أوروبا ، وشرقها - وأميركا في فبراير ١٧٨٠ ، باع بانكوك ترخيصه للنشر في فرنسا إلى اتحاد لوزان - برن لقاء ٢٤٠٠٠ جنيه إنجليزي . واعتبرت هذه الصفقة عملية بنسة ، لأنها تعادل ٨٪ من سعر الإنتاج الجارى تقريبا . وهذا جذبت إلى أى حد استمرت قوة الطلب على الموسوعة ، في حسابات الناشرين . على أقل تقدير ، الذين اكتشفوا جماهير جديدة من القراء لم تبلغ حالة التشبع . وفي آخر المطاف ، وبعد أن شعرت صناعة الأوكتافو بالأمان ، زادت مطبوعاتها إلى ستة آلاف نسخة . وهذا يفسر سر فقدان الطبعة الأخرى . وبذلك وقعت في التو في فخ آخر من فخاخ بانكوك . ولما كانوا عاجزين عن الدفع الفوري له ، لذا لكسوه بقبول فدية نوعية . يمتد ما قيمته أربعة وعشرون جنيها إنجليزيا من الموسوعة الأوكتافو . وأغرق بانكوك السوق الفرنسية بالنسخ الأوكتافو ، بسعر مخفض ، ثم ربط الخسارة بمبيعات صناعة الأوكتافو مستقبلا ، بأن أشاع قرب إصداره موسوعة أخرى تجب جميع الموسوعات . وإن تكون هذه الموسوعة الجديدة مجرد طبعة منقحة - كان قد خطط لها بالاشتراك مع جمعية المشتغلين بالطباعة - ولكنها ستكون موسوعة منظمة بطريقة علمية . وكان عاكفا آنذ على تربيها بمعاونة اتحاد من لبيع . ولم تكن هذه الضربة هي الضربة القاضية في الحركة (تحت الحزام) . فبعد ذلك بأربع سنوات ، اجتمع الأعضاء القعاء في جمعية الأوكتافو . ومن الغريب أن ينضم إليهم حليف بانكوك السابق . يمتد جمعية المشتغلين بالطباعة ، التي أعطت عن خطة لسلب الموسوعة التي وعد بها . ولم تذهب هذه الخطة إلى ما هو أبعد من مرحلة التخطيط . ومع هذا فيمكن القول بأن حرب الكوارتو والأوكتافو قد انتهت بهزيمة لوزان وبرن .

لم تتسبب معارك النشر في انقطاع تزود فرنسا بالموسوعات المربحة نسبيا . والأمير عكس ذلك . فقد أثبتت مدى شراسة كفاح الناشرين لاشباع حاجة السوق الفرنسية ، ومدى أهمية هذه السوق ، وصوروت أيضا الطابع الموائى للمستوليين الإداريين عن النشر في عهد التوزيع بالمقارنة بصناعة البشر ذات الاتجاه المحافظ التي كانت خاضعة للروح النقابية داخل فرنسا . واتسرا فانها كشفت عن عمق كفاية النظرة العامة ، التي اعتقدت أن التوزيع و « الرجم » كانا مصحورين في قتال حتى الموت . لأن صناعة الكوارتو قد استطاعت السيطرة على السوق ، عندما تبنت الدولة استراتيجية تجمع بين

الحماية والامتياز ، وتمثل أساليب «النظام القديم» ، وتوحى بحدوث تحول في اتجاه الحكومة في منتصف سبعينات القرن الثامن عشر . فالكتاب الذي يصعب القول باستطاعته النجاة من الاضطهاد على عهد لويس الثامن عشر ، قد أصبح الأفضل مبيعاً ايان حكم لويس السادس عشر ، بعد وفاة الحكومة عنه .

وحدث آخر معارك الموسوعة داخل فرنسا . انها معركة اهلية بين دو بلان ورفاقه . ففي فبراير ١٧٧٩ ، تقابلوا في ليون لتقييم موقفهم . وعلى نقيض كل التوقعات ، ذكر دو بلان اولاماً مشائبة عن حركة البيع . وأوضح رأيه بالقول بأن أوائل المشتركين قد « أحسنوا التعامل معاً » . ولعل هذا النجاح هو الذي أغرى الراجطة بالتوسع ، وربما تعد الطعة الثالثة للموسوعة كارثة - وقد استطاع اقتادها لو أمكن توزيع الألف مجموعة التي لم تسع ، على أن تتولى كل رابطة تسويقها في الأماكن التي ارتفعت فيها الأسعار إلى ذروتها ، وأيد بانكوك هذا الاقتراح . لأن منطقة باريس كانت محبوزة له . وكان مقدوره توزيع حوالي نصف المجموعات الخمسة على « جمعية المستغنيين بالطباعة » . وبعد ذلك بستة شهور ، وفي تقرير اتسم بشدة البهامة ، حذر دو بلان من عدم كفاية هذه المنورة ، لانقاذ الطبعة الثالثة . وأخبرهم أن مئات المجلدات مستحالة بالطبع بالمخازن ما لم تتخذ إجراءات حاسمة . وأنه اكتشف لحسن الطالع تأجراً يسمى بيران . وهو من معانين الموسوعات ، ومن ثم بات بمقدورهم اغراقه بالنسخ غير الماعة . على أن يرضى طالب بشروط غير مألوفة كتنقيض مبلغ خمسين في المائة . ولكن الخط سيكون بجانبهم اذا نجحوا في التخلص من فاقض المخزون لديهم بأي سعر . وقد أبدى بيران استعداده للحصول على عدد ضخم ، يقدر برسائة واثني وعشرين مجموعة ، بالإضافة إلى ١٦٠ مجموعة من نصيب بانكوك (ألف مجموعة) التي تقلصها هو ودوبلان في فبراير . وأقر بانكوك الاقتراح . ولكنه فود توقيع عقد بيران . شرع في الكشف عن ارتيابه . فلقد سمع أن دو بلان قد حاول توريط صديق مشترك في مؤامرة سرية لاغراق سوق باريس بنسخه من الكوارتو . واكتشف ما يكشف رسائل دو بلان من غموض يدعو إلى القلق ، فيما يتعلق بيران الذي وصف بأنه « عميل تجاري من ستراسبورج ، ولديه أعمال في ليون - أو ربما في باريس بمعنى أصبح - وأنه شديد الثراء ، مما يعني إمكان الجواب عنه » . وفي سبتمبر ١٧٧٩ ، أمر بانكوك إلى جمعية المشتغلين بالطباعة : « اني جده مقتنع بأن هذا (البيران) لا يزد عن مخلوق من صنع الخيال . أو على أقصى تقدير انسان حش ، والعوبة . فهو يخيل ، واضطباعه الرقة لا يخفي على أحد » . فقه أصبح مقتنعا بأن دو بلان « شخصية شريرة » ، وشره ويسد المال إلى درجة شموه بالنصب من كل

ما يسمى هذه الناحية ، • وليست هناك أية حدود لضروته ومطلعه • ونصح
 جميعه المستغلين بالطباعة بإيجاد جيلوس الى دكان دويلان ، وان كانوا
 لم يشعروا بأية حاجة الى التشجيع على القيام بذلك لانهم كانوا قد اقموا
 على هذه الخطوة منذ امد بعيد • والواقع ان جميع اعضاء الرابطة كانوا
 يتبادلون التجسس • فخصص بانكوك رجلا لمراقبة دويلان ، وتلقى مواعيد
 تومسانل تقارير سرية عن بانكوك ، وخصصوا عميلا لهم في جيف •
 وتصب عميلهم في ليون قنفا من الجواسيس للتسلل في المصانع ، وتسلي
 لهم ايقاع دويلان فيه في فبراير ١٧٨٠ •

وجدت شبكة ليون لاقطه اثر المرفوع بيران ، الذي اتضح انه العوبة
 وعميل أجبر لدويلان • ثم لوقته الشبكة في فتح أكبر ، بعد أن عثرت على
 نسخة من قائمة سرية باسماء المشتركين ، وتتضمن أيضا مقادير المبيعات
 الفعلية الموسوعة • ولم تشر القائمة الى مبيعات بيران ، ولكنها احتوت
 - بدلا من ذلك - على عدد من الاشتراكات يزيد بمقدار ٩٧٨ عن العدد
 الذي أبلغ عنه دويلان في آخر تسوية للحسابات في فبراير ١٧٨٠ •
 وكانت جمعية المستغلين بالطباعة قد لفتت في طووت غش ، قبل هذا
 الاجتماع ، وتحققت من وقوعه ، بمجرد تقديم دويلان لتقريره ، وكتبت الى
 بانتي الكتب الذين زيف عدد ما لديهم من مشتركين ، بعد مقارنة
 الاشتراكات للبلع عنها ، بما جاء في القائمة السرية • وبذلك اكتشفت
 عدم توقف سبل الطلبات قط ، كما زعم دويلان • وعلى العكس ، فقد
 بيعت الطبعة الثالثة عن بكرة أبيها بالسعر المادي ، باستثناء خمسمائة
 مجموعة استودعها « دويلان » بانكوك • وهكذا اتضح اخفاء دويلان حقيقة
 المبيعات حتى يستولي عليها بأكملها ، دون أن يقع مقابل لخمسائة نسخة
 عن الموسوعة ، اشتراها وباعها للباقيين بنصف السعر اعتمادا على الوسيط
 الرافق: بيران •

وبدلا من أن يفتح دويلان بهذه العملية المفصلة من الفش المزدوج ،
 التي ترمع منها ما يدور عن الاثنى الف حنيه ، تبادى في عمليات الفش •
 حتى أصبحت العملية حجة التقيد ، بحيث يتخذ تفسيرها بالكامل •
 وأباح له دوره كمدير علم للشروع فرصا عديدة للاختلاس ، لأن رابطة
 الكوارتو متحثة بمبالغ طائلة لتغطية نفقاته • ، ومن ثم تعاقد على الطباعة
 هو والمقسم بأدنى عطاء • ولهدف • في جيبه الفارق بين ما منح (يضم الميم)
 وما دفع • وغش أيضا في تقدير اثمان الورق وتكاليف النقل ، بل واشترك
 في تقنية تسميق « الماكيب » والترقيم التي صممها أحد المختصين في
 الطباعة من جيف • وكشف في هذه النواحي عن مهارته في حيل الفش
 والتدليس • وهذه ناحية ربما جلت تألفه في نظر أي نصيب مبتدئ • ولكنها
 ساعدت على تضخيم الجزء التاسع عشر ، الذي أضيفت إليه ست وتسعون

صفحة بلا أدنى حاجة ، وقد ثمنها بسبعمائة وأربعة وأربعين جنيها ، وقدر بانكوك وجمعية المستغلين بالطباعة ما نال دويلان من ردود الفصل القوية والصولة للحرمة بمقدار ١٢٧٠٠٠ جنيه - وإن كان هذا مجرد تقدير تقريبي ، لا أنه يتوافق مع بحفيرة دويلان - ولربما تجاوزت أرباحه ثلاثة ملايين من الجنيهات بفضل حساباته الفاضلة - بقصد - والتي تخفت في ثنائها اختلاساته ، التي اشتملت على بعض المصروفات الثرية والإيرادات المشبوهة - ولعل دويلان قد احترف الشئ في كل صغيرة وكبيرة - فمثلا سبب ٤٩٤ اشتراكا لصنع ليون : أودابرون وحوسينيه بالسعر المنخفض (الذي يمنح عادة لباعة الكتب) بمقدار ٢٩٤ جنيها يضاف إليها مجموعة مجابية لكل ١٢ اشتراكا ، مما جعل المجموع الكلي يصل إلى ٥٢٥ اشتراكا - واكتشفت الشبكة للمصصة لدويلان أن « أودابرون وحوسينه » ما هما إلا جهات زائفة نسبت إليها هذه القصص للتويه ، يسا قام دويلان في الحقيقة ببيع هذه المجموعات (٥٢٥) بالسعر الكامل للاشتراك (٢٨٤ جنيها) وبذلك سلب الرابطة ما قيمته ٥٦٠٢٠٤ جنيهات !

ولما كان مشروع الكولتو قد أدير بأسلوب المؤامرات من البداية ، لذا فقد انتهى بالتفجير وكأنه إحدى نهايات الدراما البوردجوازية ، أو « صراع الديوك عند الإنجليز » على حد قول جمعية المستغلين بالطباعة - ولقد أخفت القوى العادية لدويلان شكوكها ، بسما كانت تجمع قدرا من المتفجرات يكفي لتسبب دويلان في اللقاء الأخير لاجتماع الحسابات الختامية في ليون (فبراير ١٧٨٠) - ولم تكن عبلة مواجهة المواجهة سهلة ، كما اعترفت جمعية المستغلين بالطباعة لبانكوك : « لقد كنت حكيما عندما استشرتنا ، وطلبت موافقتنا على مباحثته وعدم اظهارنا لأي ضيق من مسلكه حتى يكشف أمره » - غير أنه بعد أن تدخل الشيطان، ازدادت صعوبة الموقف يوما بعد آخر - فصعدا تكشف الحقائق ، فاحلت الرابطة دويلان بوابل من الاتهامات التي أعفوها فما يقرب من السنة - وقدموا صورة صحيحة من الحسابات ، وكشفوا عن تسلسل مهمل لحسابات الاختلاس ، وأطاحوا اللثام عن مسألة مران ، وانتزعوا علامات التويه التي أحاطت « بأودابرون » و « حوسينه » ، وعرضوا القائمة السرية للاشتراكات مصححة برسائل من باعة الكتب تشهد بوفرة أحداث الفشي في المساهمة - ولكن رغم كل ذلك ، فقد رفض دويلان التعاضد والاعتراف ، ومن ثم شنها حملة على مكتبه ، بمرافقة مدفوع من الشرطة والمدعي العام وأحد المضربين ، وطالوا بحرد أوراقه ، وأثاروا أسرته وأصدقائه ضده ، وهددوا بتعطيل اسم الأسرة بالكشف عن المسألة برمتها للكافة - وأخيرا استسلم دويلان ووافق على تمويض شركائه مبلغ مائتي ألف جنيه ، إذا واروا كل شئ عن الأنظار ، وعلازت المسألة مستترة حتى اليوم .

قال نوع من الرجال كان هذا المويلان ؟ والمسؤال جاذبية خاصة
 نهم التاريخ الاقتصادي ، وتاريخ النفس الانسانية على السواء . لقد كان
 دولان من « شيوخ المنس » في تجارة الكتب ، ومقامرا يظلم بالتمرض
 لانتظار فادحة في سبيل المصروف على لرياح عالية . واستطاع ان يجعل من
 « التور » موردا للاستقلال - فلقد صمم على المجازفة بكل شيء في سبيل
 الموسوعة الكوارتو . فباع محله ووصيفه من الكتب وبينه ومفروشاتة .
 واستقل للاقامة في غرفة مفروشة حتى يفرغ لمسته الكبرى . ثم حالفه
 الحظ في اوراق لمسته . فقد وجدت هذه المقامرة في التراث ، الذي لم يتأثر
 حتى بعد ان اجري تسوية المائتي الف جنيه . وبمجرد ان أدرك ما أصابه
 من ثراء . بدأ في تخطيط خطوات حياته . فحصل اولاً على زوجة جميلة
 من ليون اسرت لب بانكوك . ثم حصل على صنتعة في الريح . وأخيراً حصل
 على وظيفة رئيس القسم الخاص بالملك (*) . وهو ما يعني انضمامه الى
 طبقة الاشراف . وكان يختم الملك في اوقات العمل الرسمية في فرساي .
 ويمشي برفقة زوجته حياة مترفة بيضاء في باريس . قبل ان ينتقلا منها
 للاقامة في قصره .

لما هي السيرة المستقاة من هذه القصة ؟ انها دراما تفكرنا بلزناك .
 قصة رجل أعمال يورجوازي شق طريقه الى القمة . ثم استهلك ثروته في
 المظاهر . وفي حياة ارسقراطية ، بعيداً عن الناس . انها قصة أسطورية
 للثروة القمتة من عمليات الشر . وما يصحبها من اوهام ضائعة (**) .
 ويصح ان نوصف أيضاً بقصة الرأسمالية الفرنسية . وأعظم ما فيها من
 سحره ان تكون الوسيلة التي اعتمد عليها دولان في تسلفه الى قمة النظام
 البالي لطبقات في فرنسا قبل ان يقضى عليه بسنوات قليلة ، هي موسوعة
 ديدرو . ولعل باستطاعتنا الاستناد الى قصة دولان كتبذير ضد الافراط
 في الوثوق في التحليل الاجتماعية من النوع الذي سيجي ذكره . فحتى
 اذا أمكنك ادراج شخص ما ضمن فئة اجتماعية واقتصادية ما - فلربما يكون
 قلبه في موضع آخر . سم لقد اوضح ان الرأسمالي اليورجوازي الكامل
 دولان من السلا الراشدين . او هل يصح القول بان الطمة الثالثة المتحلة
 للموسوعة كانت هي جوهر اليورجوازية الفرنسية ؟

وربما استطاع التاريخ « الحواني » للحرب بين من أصبحوا الموسوعة
 ان يكشف شيئاً ما عن روح الرأسمالية وطبيعة رجال الأعمال في بداية
 عهد فرنسا الحديثة . غير ان هذا التاريخ لن يجيب على التساؤل الاكبر
 حول ماهية ما دار من مزاك . بطبيعة الحال ، لقد كانت الرأسمالية الأسلاب

كشّن من أجل الأسلاب - فقد أدرك بانكوك وغيره من القراصنة من أمثال دوبلان والسويسريين ، ومن سار على عديم من مولين ومهريين وبائمين محتولين ، أن باستطاعتهم اقتناء ثروة ضخمة إن هم تجاوزوا والمطالبة الرهيبة للسوق في فرنسا بطبعة شعبية لهذا العمل الجبار الذي ظهر في عصر التنوير . وتوسى شراسة المنافسة لتحقيق هذا المطلب بشيوع الاهتمام بمعتقدات التنوير وذيرعها على تطلق واسع في فرنسا بين الجماهير المريضة ، إن لم يصح تسميتها بطبقة عملة الناس ، ولكن ما هو طابع هذه الجماهير ؟ يتماثل هذا السؤال هو والكثير من مشكلات سوسيولوجية الأدب في صعوبة إجابته ، وإن كان بمقدورنا تحديد المظاهر الخارجية لطبيعة قراء الموسوعة . قالوا لابد أن يستعرض الحقائق الأساسية المتعلقة بطبعات نص ديدرو . ولعل هذا العرض سيساعدا على التعرف على المستويات الاقتصادية لمختلف أنماط المستهلكين - وأخيرا فيسقدورنا أن نحاول بيان التوزيع الجغرافي والاجتماعي للطبعات الكوارتو ، والتي كانت إلى أبعد حد الأكثر عددا في فرنسا ما قبل الثورة . وإذا صرفنا النظر عن الطبعات الإيطالية التي نشرت (بالفرنسية) في لوكا ولجوهون والموسوعة الورتستانية المنقحة التي نشرت في إيفردون بوساطة بارتليسي دي فلس والموسوعة المنهجية - العمل الذي أعيد ترتيبه بالكامل ويقع في اثنتين وعشرين مجلدا ولم يكتمل حتى ١٨٣٢ - فلنا سنرى أن نص ديدرو قد مر بمراحل أربع أساسية :

١ - الطبعة الأولى (١٧٥١ - ١٧٥٢) وهي طبعة فوليو مكونة من سبعة عشر مجلدا ، وتحتوي على متن و١١ لوحة متبوعة بطبع (٤) من حسنة أحراء ، ونص المداول التحليلية في حريين - وطبع منها ٤٢٢٥ مجموعة . لم يبع منها أكثر من نصفها . أو ربما وبعها في فرنسا - وكانت قيمة الاشتراك ٨٩٠ حنيتها وتراوح سعرها في السوق في سبعينات القرن الثاني عشر بين ١٢٠٠ جنيه و١٥٠٠ جنيه -

٢ - الطبعة للمادة في جنيف (١٧٧١ - ١٧٧٦) وصدر منها نفس عدد مجلدات الطبعة الفوليو ، وطبع منها ٢٢٠ مجموعة . وكانت قيمة الاشتراك ٧٩٤ جنيها ، ولكنها كانت تباع سنة ١٧٧٧ بمبلغ سببصافة حنيه بعد منافسة الطبعات الكوارتو لها .

٣ - الطبعات الثلاث الكوارتو (١٧٧١ - ١٧٨١) وتناظر الاشتراكات الثلاثة لدوبلان . وظهرت بمعرفة يليله وجمعية المشتغلين بالطباعة في نويشاتل ، كما ذكر آخفا . واشتملت الطبعات الكوارتو على ستة وثلاثين

مجلدات تحتوي على المتن ، وثلاثة أجزاء تضم اللوحات • وتشتمل هذه المجلدات في مجلدتها على ٨٠١١ مجموعة • وقد بيعت بأكملها تقريباً بقيمة الاسراك (٢٨٤ جنيهها) • ثم خفضت قيمة الاشتراك للأفراد وبأدنى الكتب إلى ٢٩٤ جنيهها ، مع إعطاء نسخة مجانية لكل ١٢ طالباً •

٤ - الطبعتان الأوكشاف (١٧٧٨ - ١٧٨٢) • ويعدان بالفعل طبعة واحدة مريضة مقابل اشتراكين • ونشرت في لوغان وبرن • وتضم الطبعة الأوكشاف ٣٦ جزءاً من المتن وثلاثة أجزاء من اللوحات • وقد ظهر منها ستة آلاف مجموعة بيع كل منها بمبلغ ٢٣١ جنيهها •

وتستخلص من هذه الوقائع والأرقام إحدى النتائج المدهشة وهي وجود أعداد من الموسوعة في فرنسا ما قبل الثورة الفرنسية تجلوز كل ما يحظر ببال البشر باستثناء الناشري في القرن الثامن عشر • وعلى الرغم من معذر إجراء حسبة دقيقة لعدد ما بقي من نسخ اعتباراً على معرفة أعداد المشتركين التي وردت في مستندات الناشرين ، إلا أن هذا لن يحول دون إجراء مثل هذا التقدير على نحو بعيد عن الزلل • فقد وجد في فرنسا ما بين أربعة عشر ألف مجموعة وسنة عشر ألف مجموعة من الموسوعة قبل ١٧٨٩ ، ولي يعتمد نتيج أنار نصفها ، ومن ثم فيغير ادعاء معرفة كل من مجموعات الموسوعة عد قريء ، أو على لى نحو استجلب القراء لها ، فإن يومئذ حقا أن رغم انتشار التعلق بالموسوعة في المجتمع الفرنسي على نطاق أوسع مما يعتقد بوجه عام •

وبعد أن تطورت طباعة الموسوعة من طبعة لأخرى ، تناقص حجم صفحاتها ، وقل عدد اللوحات ، واسط مستوى الورق ، وانخفض سعرها • وبعد أن تناوبت دور النشر إخراج الموسوعة ، فإنها مدت شباكها لاحتذاب جماهير جديدة • مما أدى إلى وصول الطبعات الجديدة إلى قطاعات قصية من جماهير القراء • ويبي من تنوع أسعار الموسوعة ، على نحو دفع من يقتونها إلى المناضلة بين مختلف الطبقات ، الحدود التقريبية لما حدث من اتساع في سط المسعات • إذ كانت الطبعة الكوارتو تتكلف أكثر من ربع سعر أول طبعة فوليو ظهرت في سبعينات القرن الثامن عشر ، بينما لم تتكلف الطبعة الأوكشاف ما هو أكثر من الخمس • ولكن ما هي الحدود الاجتماعية • لاستهلاك الموسوعة ؟ • ربما بدأ هذه السؤال غير مناسب لأن علم الاقتصاد لا يقدم تفسيراً لما يعنيه مصطلح « استهلاك الكتاب » ، لأن عملية شراء الكتاب شيء ، وعملية قراءته شيء آخر • ومع هذا فإن بيع الكتاب إجراء مهم إذا نظر إليه من الساحة الثقافية والساحة الاقتصادية معاً ، لأن هذه الظاهرة تزودنا بمضى دلائل عن مدى انتشار الأفكار خارج الوسط الفكري ، الذي جرت العادة على تركيز التاريخ الحضاري أو الثقافي.

عليه . ولما كان لم يسبق على الإطلاق إجراء دراسة لمبيعات أى كتاب فى القرن الثامن عشر ، لما يمد تحليل مبيعات أهم سفر ظهر فى عصر التنوير مسألة هامة الأهمية .

وبمقدورنا أن نقيم مدى اقتراب « الموسوعة » من الاحتكاك بالطبقات الدنيا ، إذا برجمنا قيمتها إلى حيز . يعنى إلى السلعة الرئيسية فى مائدة « النظام القديم » والنصر الأساسى فى غذاء معظم الفرنسيين . وسرى أشد أن أول موسوعة دوليو تعادل حوالى ٢٥٠٠ رغيف من الخبز . وتعادل الموسوعة الكوارتو ٩٦٠ رغيفا من خبز التسليم على أساس ثمانية « سو » لكل أربعة أرطال فى حيز التسليم فى باريس ما قبل الثورة . ولما كان العامل غير الماهر المتزوج ولديه ثلاثة أولاد يحتاج لشراء مالا يقل عن ثمانية أرغفة لتغذية أسرته ، وينفق فى أوقات البسر نصف دخله على الخبز ، لذا تحل الطبعة الرخيصة من الموسوعة الكوارتو ما يوفى عما يحتاجه اقتنيات أسرة فى سنة على وجه التقريب . ويبدو بعيدا عن التصور احتمال شراء عائلة للموسوعة - بفرض يمكنه من قراءتها - فلفل هذه الصعقة أقرب - بها بأحمال شرائه لقصر من القصور ! وربما تكبت أسر العامل فى سبيل شراء نسخة من العوليو أجر ٩٢ أسبوعا . وتعادل الطبعة الكوارتو أجر ٢٦ أسبوعا والاوكتافو أجر ١٥٧ أسبوعا . ومن ثم كان من المستبعد أن تقم الشريحة العليا من الطبقة العاملة والحرفيين أى أولئك الذين اشتركوا فى طبع الموسوعة ، على تحمل تكاليف شرائها .

أما من اشتركوا فى تحريرها من صفار الكتاب(*) الموسوعة أسماؤهم فى صفحة العالوين ، فقد كان باستطاعتهم شراء الطبقات الأرخصى . وحدد دييرو بالذات متوسط ٢٦٠٠ جنيه سنويا مقابل جهده لمدة ثلاثين سنة فى الموسوعة . ولحل الطبعة الكوارتو كانت ستركلفه ٧٧٪ من أتعابه والاوكتافو ٤٤٪ وهذا التعدير لا صلاحة فيه . إذا راعينا اعتماده على مصادر دخل أخرى - وكان هناك كئلب كثيرون أغنى من دييرو يتقاضون ما يكفى لسد الرمق من أولياء نعمتهم ومعاشهم . ومن نمادج ميسورى الحال الجديريين مالتويه سلورين (**) وقد مى أمره الآن وكان دخله بأمر ٨٦٠٠ جنيه سنويا من معاشه وأتعابه . وقد أدرج اسمه ضمن فئة الكوارتو . باعدا ر تمها يبادل ٢ ٪ دخله فى أسبوع . وغير كاتب على قدر الحال (***) - وهو من الكتاب المفاهيم الذين كانوا يقاتلون على فتات مائدة فولتر - عن شدة تحمسه لطبعة الاوكتافو فى رسالة إلى حممة المشتغلين بالطباعة فى نويشاتل بقوله :

Gras de lettres.

B. J. Saurin.

Durcy de Morman.

(*)

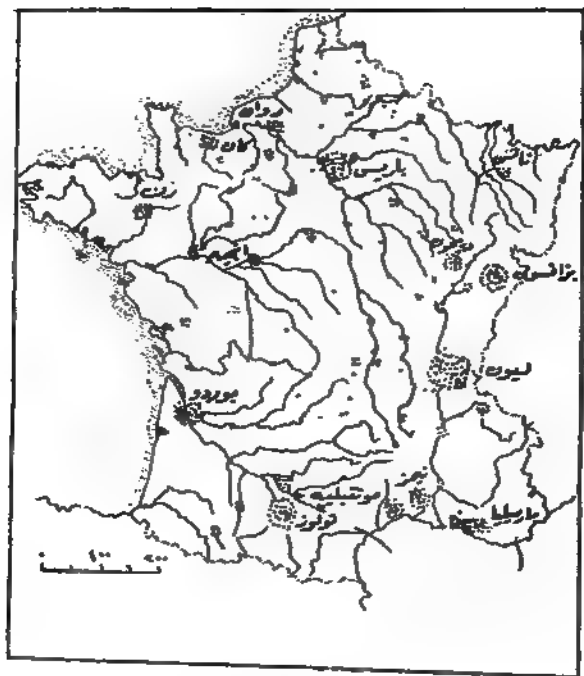
(**)

(***)

• إن عدد الأدباء السالكين يتجاوز كثيرا القراء الأحرار • وكما أشرنا
بالنقطة لأن سعر هذا السطر - الذي ما زال مرتفع الثمن حتى الآن -
ما زال مناسباً لنسبة الغلبة أفضال • وكما أتمنى أن يفتح باب العلوم والفنون
والحقائق الباقية على مصراعيه ليلا ونهارا لكل قادر على القراءة •

ومن المتصور ذكر أرقام دقيقة عن شتى الدخول المتفاوتة بين أبناء
الطبقة المتوسطة في الإقليم • وإن كانت التقديرات تثبت لنا مدى ارتفاع
ثمن الموسوعة بالنسبة للأشخاص الذين تقل مرتبتهم عن دخل أي تيّيل من
النبل أو ترقى من الأحرار من يوقع دخلهم عن دخل عملة البس • وعلى
الرغم من أن القسس كانوا يتقاضون قرابة خمسمائة حنيه فقط ، وهو
راتب لا يقيم الأود بعد ١٧٦٨ • إلا أن دخلهم السنوي كثيرا ما ارتفع فبلغ
ما يتراوح بين ألف وألفين من الجنيهات • ويحتل قضاء المحاكم الإقطاعية
قمة السلم الوظيفي بين رجال القانون من البورجوازيين في الإقليم •
وكثيرا ما كانوا يتقاضون ما بين ألفين وثلاثة آلاف حنيه سنويا • وبذلك
مثل الموسوعة الكولوب ما يعادل أجر من ستة إلى سبعة أسابيع من دخلهم •
وكي يبيع البورجوازي في مستوى النبل • كان عليه أن يدبر أموره
بحيث يحصل على إيراد يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف حنيه سنويا •
وبذلك يضاج إلى آخر خمسة أسابيع من دخله لشراء نسخة كولوب من
الموسوعة •

وهكذا يتضح ، إذا ما برنا علماء الاقتصاد في دقة استغلالهم
لمصطلحناهم مدى ارتفاع ثمن الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الموسوعة •
مما جعلها صعبة لشمال خارج دائرة رجال البلاط ونجوم الصالونات
والبرلمانيين التقنيين ، الذين كانوا يؤلفون كوكبة الطبعة الثقافية (الأقاليم
جاءت) • وتمت الطبعة الأخرى من مواد الترف • وإن كان بملفود كثيرين
من أبناء الطبقة المتوسطة - لو راعوا الكثير من التدبير - اقتناؤها كما يحدث
في عالم الموسوعات اليوم • ولقد تجاوب ثمن الموسوعة الكولوب والموسوعة
الأوكامو مع دخل نخبة متنوعة من صفوة المرموقين من أهل المدن وأعيان
الأقاليم ، وتجاوب بالمثل مضمونها معهم • ولكن هاتين الموسوعتين كانتا
خارج حدود تطلعات من هم أدنى مرتبة من البورجوازيين • وكما لاحظ
المشرون - وهم خير من يعرف زبائنهم - فإن الحجم القولي قد ناسب
عصة القوم والمكتبات • بينما اعتبر الحجم الكولوب في منسوخ الأدباء
والشعوب من القراء • من يتمتعون بالستر فحسب • • وأدرك الإدريون
من المملكين بالموسوعة أن ببقودهم زيادة هامش أرباحهم إذا زادوا من
اتساع السوق • فلقد اكتشفوا منجما من الذهب لم يطره أحد من الإدم •
وبدل تهاونهم على استغلاله على مدى تقم الثقافة • وانتشارها بين عامة
القراء • ولكن أين كان يعيش هؤلاء القراء ، ومن هم ؟ •



توزيع الزيتون في فرنسا

ان الخريطة (شكل ١) المنقولة عن قائمة دوبلان السرية للمشتريين تبين التوزيع الجغرافي لجميع نسخ الكواترو على وجه التقريب ، يعني ما يقرب من نصف الموسوعات التي كانت موجودة في فرنسا قبل ثورتها . ومنها يبين ان الموسوعة ، قد وصلت الى كل شبر من ارض البلاد ، وتوافق توزيعها على حيز واحد - بقدر ما نستطيع ان نعرف - هو توزيع السكان . وكانت الاشتراكات في منطقة باريس والشمال الغربي شحيحة . ويرجع ذلك - في أغلب الظن - الى اكتظاظ هذه الأسواق بطبقات اخرى . واذا تجاوزنا مدينة ريم ، سنرى ان بريتانى تكاد تشبه صحراء قفراء فكريا . وربما صبح هذا الحكم . ولكننا نشاهد متحني كشيبة بالهلال المضموم لتوزيع الموسوعة عبر مبدى من ليون الى ميسس ومونبليه وتولوز وبوردو . وحتى وسط فرنسا الكثيف السكان ، يبين وجود كثافة عالية نوعا للاشتراكات . ومن ثم يبين ضعف الدليل القائل بانقسام فرنسا الى جنوب متحلب ثقافيا وشمال متقدم . ويفصل بينهما حد فاصل . يجرى بين تلال سان ميشيل الى جنف . والظاهر ان مصفات الموسوعة كانت افضل حالا في المدينتين . حيث توجد البرلمانات والاكاديميات ، ولكن مصفاتنا في شتى الانحاء كانت لا بأس بها . ولعل هذه النتيجة يمكن استخلاصها من الخريطة . ووجدت اعادة إصدار الموسوعة في طبعة ونسخة نسبية . انتقلت كتابات ديديو الى انهاء قصبة في جميع الجهات الأصلية ، أكثر مما توقع (لوحة ١) .

ولم تعد القائمة السرية لاشتراكات دوبلان جميع المشتريين . فهي لا تحتوى على غير اسماء باعة الكتب ، الذين كانوا يشترون عادة بضعة عشرات او يربط من المجموعات ، ثم يقومون ببيعها «بالقطاع» بين الربائس المحليين . ولكن هناك قائمة فريدة بالمشتريين من «الأفراد لطبعة الكواترو» . ولقد ترجمت الى رسم بياني (لوحة رقم ٢) يضم بيزاسون واحسنى الوحدات الادارية والقضائية والكنسية وأحد المراكز الحربية ، حيث ارتفعت المبيعات الى دوحه كبرى . ويبين الرسم البياني مدى ارتفاع نسبة المشتريين للموسوعة بين العاملين بالشئون القانونية من محامين وأعضاء البرلمان ميراسون . ولقد دمج من الموسوعة نسخ عديدة في القطاعات الأولى . ومحاكاة بين كبار قادة الجيش . وهذا امر متوقع في مدينة تضم حامية عسكرية . واشترى الاداريون في الخاصة الملكية - ويكاد أغلبهم يسمى لطبقة النبلاء - الموسوعة بأعداد كبيرة . وفعل الشيء نفسه البورجوازيون من المهنيين ، خصوصا الأطباء . وان كان هذا بقدر محدود . واقتنى أربع عشرة مجموعة من المجموعات المائة صبعة وثلاثون من التجار

والمتشككون بالضرورة - وهي نسبة عالية بالضرورة باعتمادنا على دانييل روشي الأكاديميين في الإقليم ، وتحليل جاك بروسست للمساهمين في تحرير الموسوعة ، واقتنى ما يقرب من نصف في المائة من أهل بيزانسون الموسوعة الكوارتو . وهي نسبة عالية لا تستبعد صحتها ، بعد الاطلاع على التحليل المذكور آنفاً عن الحالة الاقتصادية للمصنوع ، وتحليل تكاليف الموسوعة . ولم يتوقع المائتان الأساسيان في المدينة بيع أكثر من عشر نسخ أو يزيد من المجموعات ، وشعرا بالاندهاش لما صادفته الموسوعة من اقبال ، خصوصا بعد أن تعرضت لجارتهما للكساد بعد ١٧٧٧ وكتب أحدهم الى جمعية المشتغلين بالطباعة : « أرجو أن لا تعتقد أنني استطعت ترويج ما لدى من كتب كما أتسى » . وأقسم لك أنني بعد توزيع كتب التاريخ العالي والتاريخ الكنسي (كنيسة العالي) وأحد الانجيل والموسوعة وروسو . لم أحصل على أي كسب آخر في السنتين الماضيتين » .

وربما لا يصح اعتبار نمط المبيعات في بيزانسون مثلاً دقيقاً لفرنسا في حينها . وإن كانت البيانات غير الاحصائية تبين وجود حساسة ماثلة للموسوعة في مراكز أخرى - ففي تولوز ، في الطرف الجنوبي من المملكة ، باع صاحب محل تعليل يدعى جاستون ١٨٢ نسخة من الموسوعة الكوارتو في ثلاثة أسابيع . وكان يتوقع تلقي رخصة نسخة من حجم الأوكتانو . وبوجه عام عنهما تحدث باع الكتب الفرنسيون عن إزيائين الذين اشتروا الكوارتو ، فاهم ذكروا المحامين وموظفي الخاصة الملكية والسلاة القسبيين في الاقاليم . وبذلك احتلوا عن أفرادهم في شمال أوروبا ووسطها وشرقها ، الذين لم يشيروا الى غير رجال القصر والبلاط . وهكذا تشير جميع الدلائل الى الاتجاه نفسه . ففي فرنسا ما قبل الثورة استطاعت موسوعتها ، شق طريقها بين عالم الصفوة في الاقاليم ، الذين ترعوا الثورة الفرنسية ، وواصلوا الهمة على أهالي الاقاليم ايام القرن التاسع عشر .

ولا أحد يستطيع ادعاء معرفة الرسالة التي حققها الموسوعة ، وال اثر الذي تركته في عمول هؤلاء القراء . ولا بد أن يكون كثيرون قد اشتروا الموسوعة نائرا بما رعبته عن نفسها ، أي كخلاصه للمعرفة بأسرها . أكثر من كونها دعابة فلسفية . وكما عبر عن ذلك بانكوك : « سوف تفلو الموسوعة دوما الكتب الاول في كل مكتبة أو مكتب » . ولكن لم ينظر ببالحمل احتمال تحول الموسوعة الى سفر استعراضي يودع رفوف المكتبات للزينة ، وليس للقراءة ! . فعليا ان لا ننسى أن بانكوك قد وصف بعض المشتريين في ليون بأنهم كانوا عاجزين تماما عن القراءة . ولكن من الصعب الاعتقاد بعدم تجاوز بعض اصحاب الموسوعة ، قراءة بعضها التمهيلي ،

والذي تضمن مقدمة صافية عن خصائص عصر التنوير . ولابد أن يكونه
 جمهور أوسع قد قرأ الموسوعة أكثر من كونه قد اقتناها . وهذا احتمال
 متوقع في عصر كان يبيع استمارة الكتب بلا قيد أو شرط . وكان هناك
 انتعاش للمكاتب الأدبية (٢٠) . ومن ثم يصح القول بأن المقومات الرئيسية
 لقصة مسيرة هذا السفر هي الحماية التي وفرتها لها السلطات الفرنسية ،
 والصراع لاستقلالها بين عملاء الكتاب ، وانتشارها بين زبائن من المروقيين
 من متوسطي الحال في شتى أنحاء البلاد ، ونقول أن هذا النجاح منقطع
 النظير لهذه القصة قد كشف عن انتشار التنوير وبلوغه مجالات تتجاوز
 صفوف رجال البلاط والمهاسة ، وأنها انتشرت بين أقطاب « النظام القديم »
 كما بين من رسالة جمعية المشتغلين بالطباعة إلى أحد المسلاء في
 أغسطس ١٧٨٩ :

« لم يسبق أن حقق مشروع من هذا القبيل نجاحاً أعظم ، أو تم
 تنفيذه بمثل هذه السرعة . ففي أقل من سنتين ونصف السنة ، وبعد أن
 نجدد الاشتراك مرتين قمنا بطباعة ثمانين ألف نسخة من هذه الموسوعة .
 والتي لم يبق لدينا منها غير عدد قليل من نسخها . والظاهر أن الجماهير
 قد انتظرت بصبر نافذ أن يظهر ناشرون أقل شراسة من مخرجي الطبعة
 الأولى (وهذا قول مشكوك فيه) . أننا نقدر نحن وشركاؤنا أننا وفقنا إلى
 إرضاء الجماهير في هذا المضمار . وستلاحظ يا سيدي أن هذا العالم الذي
 يعتبر أفضل العوالم الممكنة لو افترق إلى التنوير (٢١) فإن الخطأ لن يكون
 خطانا » .

المراجع

- T Bosterman, *Voltaire* (1969).
- E. Cassirer, *The Philosophy of the Enlightenment* (1951).
- H Chisick, *The Limits of Reform in the Enlightenment. Attitudes toward the Education of the Lower Classes in the Eighteenth-Century France* (1981).
- R. Darnton, *The Business of Enlightenment . A Publishing History of the Encyclopedia 1775-1800* (1979).
- P. Gay, *The Enlightenment : An Interpretation* (2 Vol.) 1960-1969.
- N. Hampson, *A Cultural History of the Enlightenment.* (1969)
- M. C. Jacob, *The Radical Enlightenment : Pantheism, Free masons and Republicans* (1981).
- J Lough. *The Contributors to the Encyclopedie* (1973).
- F. Manuel, *The Eighteenth Century Confronts the Gods* 1959.
- A. M. Wilson, *Diderot* (1979).

الدمستور المدني لرجال الدين في الثورة الفرنسية

ميكائيل كندي

ابتداءً من أواخر ربيع ١٧٨٩ ، تعرضت فرنسا لما يصح أن يوصف
بمهد الهزات الثورية السياسية والاجتماعية ، التي أسفرت عن قلب النظام
الملكي وإنشاء النظام الجمهوري . وعلى الرغم من أن الحكومة لثورية قد
أعادت إنشاء جميع المؤسسات الفرنسية ، فإنها أدمت أيضاً على أحداث
اعتلم تغير جذري لها في نطاق الدين .

ولقد مرت السياسة الدينية للحكومة الثورية في عدة أطوار ، وعلى
الرغم من تأييد القسس للكلير من أكبر منجزات الجمعية الوطنية ، إلا أن
هذه الجمعية صارت معظم ممتلكات الكنيسة في خريف ١٧٨٩ .
وما لبثت أن قععت الأديرة ، وأتجه مختلف رجال الدين وعامة الناس
من المحافظين ، فيما بعد ، إلى معارضة الثورة باسم الدين ، وحدثت
مصادمات محلية عديدة بين أنصار الكنيسة والحكومة . وفي يونيو
١٧٩٠ ، أقرت الجمعية الدستورية أنخطر التشريعات الدينية للثورة :
الدمستور المدني لرجال الدين . وحول هذا القانون الكنيسة - في واقع
الأمر - إلى سلاح الدولة . ومنذ ذلك الحين ، أصبح تعيين الأساقفة
والقسس في مناصبهم يتم عن طريق الانتخابات العامة ، وطلب من جميع
القساوسة أن يقدوا بالولاء للمستور المدني لرجال الدين ، ورفض
الأساقفة والقسس عديرون هذا القسم ، وأصبحت يعرفون باسم « رجال
الدين المشاكسين » ، أما من أقسموا هذا القسم ، فعدوا رجال الدين
« الدستوريين » ، وكما حدث انقسام بين رجال الدين ، جرى انقسام

The Jacobin Clubs in — Michael L. Kennedy.

(*) خلا من

the French Revolution The First Years. (١٩٨٦)

مماثل بين علمة النلس ، ال فرين ، وانظر لذلك على جانب النلس
الناسك .

وبينما اقرت الحكومة التشريعات الخاصة بهذه المسائل ، نشطت
اندية اليقويين في الاقاليم ، واتصلت انديتها صورة مطابقة للناتج
الرئيسي في باريس ، وتمثل الحد القاطع للثورة . وفي البداية ، لم يتخذ
اليقويون (مثل باقي الجمعيات الثورية) ، موقفا عدوانيا صريحا من
الكنيسة ، ولكن اتجاهاهم تغير بعد ظهور للقاومة الكنسية والانتخابات
الكنسية ، وما اكتفوا من مشاجرات ، وما صعبها من عنف محل متفاهم .
وفي أواخر ١٧٩١ ، وعلى مشارف حكم الرعب ، تصدر اليقويون حركة
المطالبة بتخل الدولة عن المسيحية بعد ان التزموا زعما مستين الاعتقال في
مسائل الدين .

وتعرض هذه التفكرات من كتاب ميكايل كاتلي تعطيلاً ممتازاً
للتفاعل بين سلطات باريس والثوريين اليقويين في الاقاليم ، وكيف
تحولت الثورة بمرور الأيام تحولا متزايدا تجاه التطرف .

يصعب القول بشيوع الكفر والالحاد في صميم الأندية اليقوية . فقد
لاحظا استهلال كولار الذي سجله بعبارة لاتينية « باسم المخلص يسوع
المسيح () » . ونصدا في مذكرات مختلف الطوائف ورسائلها
استعارات ومقتبسات من الكتاب المقدس . وربما تعد أعضاء « الأندية »
بمستغراق الهيراثية الكنسية في المنويات غير أنهم أجمعوا على الاعتراف
بمور الدين في خلق المواطن الصالح ، ووجوب الاستماعة به لخلق
فرنسا جديدة . وعند البداية ، اتبعوا عادة طبع العظائم الدينية هل
تلفتهم ، وكانوا يحيون ذكرى الانتصارات الثورية والمناسبات المأسوية
بالقاعة طقوس مسيحية ، وقال الاكليروس الكاثوليكي بدور مهم في هذه
الأندية ، وفي بعض أجزاء من فرنسا ، شارك الرعاة البروتستانت في
هذا الضمار أيضاً . وساعد الاحترام الذي يلقاه رجال الكنيسة من
اليقويين على استمرار انتعاجهم لشغل بعض المناصب بما يتجاوز العدد
التكافؤ مع أعدائهم .

ومع هذا فقد أثرت البذور التي بنوت داخل الأندية ثمرة وحشية
أدت الى الاتحاد عن المسيحية أبان عهد الرعب ، وبدأ عهد جديد من
الاضطراب الديني في فرنسا في نوفمبر ١٧٨٩ عندما صوتت أراضى

الكنيسة لتسديد الديون . واقترون بهذا القرار اعلان « الجمعية الوطنية » تخصيص اعتماد لدفع نفقات الشعائر العامة ، وعتبسات الكليروس وغوث الفقراء ، ولدى المشروع وما تضمنه من خفض لمثل رجال الدين الى ايفار صفورهم . وزاد من حالة التبرم القرار الصناد في ١٩ ديسمبر باعلان بيع ما قيمته وبمائة مليون جنيسة من الممتلكات المتروكة من الكنيسة . وأحدث الأثر نفسه قانون ١٣ فبراير ١٧٩٠ ، الذي سمح التنظيمات الكهنوتية ، وما لبثت الصيغيات أن تصاعدت من اليمين صفرة من مشروع الجمعية القضاء على الكنيسة .

ووقع أحد أعضاء المجلس الكنسي (اللوم جيرل) في شبك هذا النقد ، وارثي المنبر في ١٢ ايريل معلقا عن سياسة الجمعية . ودفعه الأمل الساذج في ازاله التوتر الى دعوة زملائه الى اعلان « الدين الكاثوليكي والرسولي هو دين الأمة ، وسيظل كذلك ، ولن يصرح بدين آخر غيره » ، وطالب المحافظون على الفور ، بقبول الحركة ، ولكن اليساريين عسما أدركوا تهديد هذا الاتجاه للحرية الدينية ، التي سمحت بمقتضى البلد العاشر من اعلان حقوق الانسان ، نجحوا في تأجيل هذا الاعلان ، وفي تلك الليلة ، حدث اجتماع صاخب في نادي اليعقوبيين في باريس وفيه اعتذر جيرل - العضو في النادي - بطريقة حسيسة عن اندفاعه (وعونه) وفي اليوم التالي ، وبعد مشاصمة حادة ، أراحت الجمعية المشكلة جانبا بإعرايها عن تمسكها بالكاثوليكية ، ولكنها رفضت مراعاة لحرية الضمير اتباع حركة جيرل . ومن قبيل الاحتجاج ، التفت أقلية مؤلفة من ٢٩٧ من أنصار الملك باليعقوبين الكاثوليك (الذين أطلق عليهم منذ ذلك الحين اسم السود) (*) في دير الكابوشين ، وحردوا بيانا ينبه الى تعرض الدين للخطر .

وتعد الأسابيع الستة التي أعقبت نشر احتجاج « الكابوشين » أسابيع مصيرية . فلأول مرة يتفق على رأي واحد في مشكلة ذات طابع قومي ، ونشرت اللجنة المناظرة لليعقوبيين في باريس نشرة خاصة عن حدث دوم جيرل كتبها البارون دي منو (**) . بيد أن التراجع الماطف ، للأندية لا يوضح أن يرد الى تأثير المشورات الصادرة من الجمعية الأصلية ، والأصح هو أنه كان دليلا على المشاعر الجاشة التي عاينها فرنسا من أحوال حكم « الطاغية لويس الرابع عشر » . ووثي أن من حق البروتستانت أن يتمتعوا بحرية العبادة ، ويسمح بقبولهم في المدارس والكليات ، وبالمشاركة الكاملة في الحياة المدنية ، كما يستأهل اليهود التسامح بالمثل .

Notre. (٤)
Memoire (٥٤١)

وعندما أستمع الحاضرون في النادي الوطني بوزندو الى قراءة احتجاج الأقلية في ٩ مايو . تفجرت صيحاتهم القوية (*) ، واقترح الحاضرون ، طبع البحث المتهم مصحوبا بالملاحظات الشائنة الموجهة ضد المسوئين الذين وقفوا عليه . وفي ١٠ مايو ، أحرق الأصيل أمام المدخل الرئيسي للمقهى ، وشنت دعى تمثل لليعوثين المذنبين الخمسة من بوردو ، وعلفت في أعمدة النور في شارع القبة الحمراء (**) ، وكتب على ظهر العمى « خائنا الوطن » .

ونشر النادي الوطني بياناً عن هذه الأحداث ، وبذلك شجع الجمعيات الشقيقة ، على توجيه ضربات ضد عدم التسامح . وفي ١١ مايو ، رفضت جماعة أعضاء دستور بوردو - في غضب - احتجاج « المواطنين الأردية » ، وفي ٢٥ مايو ، أعلنت خطايا تسحر حول شعار « الكنيسة في العولة ، ولست العولة في الكنيسة » . وفي الحفلة الانتخابية في ١٥ مايو ، حاصم نادي بيرجراك الوفود المعارضة « لمحاولتها تكبير صفو السلام » . وفي اليوم التالي ، تمكنت من اقتناع موظفي البلدية بارسال خطاب لوم الى الجمعية الوطنية(***). وفي أول اجتماع معروف عقد في ٢٠ مايو ، بسك أعضاء دستور تول تمسكا وقررا بجميع القوانين . وفي السهرة القادمة الى باريس اصحوا « السود » بالرغبة في « رج الامبراطورية الى القوضى » . وزعموا أن هذا الإيجار والملاحظ بدرجة كبيرة لدى من الأديان السماوية سيؤدي بالضرورة الى عدم التسامح ، وفي مدينة فوا (****) في ٢٨ مايو عقد الرئيس جلسة خاصة لاستعداد أحد الأعضاء اليسوثيين ويسعى موت وقال للحاضرين : « لقد سمعتم بالحربة الخطرة التي ارتكبها هذا المسوئ . ورأيتم موقعه أسفل هذا التصريح ، وما ترتب على ذلك من نصب ونزع شخصي » . ولكن بالرغم من هذا الدليل الساطع ، فقد رأى أعضاء الأندية صعوبة تصور ارتكاب هذا « الفتنة » . مثل هذا الخروج عن القانون ، وأجروا عملية اقتراع عن احتمال تزوير ما نسب اليه . أو احتمال أن يكون قد خدع فانضم « الى المعرضين من الاستقراط » ، الذين يمتنون أن نفرق فرنسا في دماء أبنائها .

وخلال شهر يونيو ، صبت الأندية لعنائها على « السود » . ونقشت مدينة مونبلييه أسماءهم « بحروف حمراء على سطح أسود »

(*) la lanterne et au feu. (خ) الى مورد النور حيث جرى شق للمنصوم)

Chapeau — Rouge.

(***)

Tulle,

(****)

Foix.

(*****)

للتذكرة بشار ال ٢٩٧ الذي نقشت أسماؤهم باللون الأحمر على الصفحة السوداء ، وتماثلت هي ونادي مارفجول ، فترلفت الى الجمعية المنتخبة ، ودعتم الى التمهيد بمعادة المتردين على القوانين الى الأبد . ودعت مدينة أخرى (*) الى « وجوب طهير الأسماء والأشخاص الذين وقصوا أو تمسكوا بهذه الاهانات المشاغبة ، وتصلهم من هذه الحماقات والسفالات » . وقامت مدينة آراس أيضا « بتأييب المافقيين والحائنين في القسم » وأعلنت استحقاق القصب المتدين الحر لفرمان ١٣ ابريل . أما مدينة أمبر فقد صليت بإبتعاد القانون تماما عن الإساءة للدين ، لأنه يمثل « أجمل مظهر من مظاهر الخشوع بالمقدور التعبير عنها » . وأعربت مدن أخرى عن مشاعر صائقة في رسائلها الى الجمعية الوطنية ، وطالبت بقوة هذه المشاعر في إقناع المصنع على استصدار قانون يرغم المحتجين على الاعتذار ، أو تحل قضايتهم لطوقهم كمواطنين عاملين .

وكان مراد انزعاج الأندية الاضطرابات الدينية ، التي أثارها والسود في الأقاليم ، ووقع حادث خطير في إحدى المدن (**). ففي هذه البلدة التي يبلغ تعداد سكانها خمسة وعشرين ألف نسمة ، انقسم غلاة الحاقدين الى اعلبية كاثوليكية وأقلية بروتستانتية (تمثل سبلس السكان) وسيطر الكاثوليك على بلدية المدينة على الرغم من عرقلة ضغوط الحرس الوطني لتطبيق القرارات الخاصة بمصادرة ممتلكات الكنيسة وحل التنظيمات الكهوتية . وفي ١٠ مايو ، أتى اليوم الذي حدد في نهاية المطاف لجرد الكنائس والأديرة واسراع ممتلكاتها . اندلع القتل المسلح ، وقتل العديد من المواطنين ، وأسر آخرون . وبعد عدة التطورات ، حث فريقا بورندو جميع اصحاب السوايا الطبية على التطوع لخدمة العسكرية التي ستستمر صد « مون أوباي » . وبعد ذلك بفترة وجيزة ، شن رجال الحرس الوطني حملة انقاذ . ولم ننجح الدعوة الى الكف عن سفك الدماء ، الا بعد أن عرف الجنود غير النظميين المهلهلين (***) بالطلاق سراح الوطنيين في مون أوباي ، فعادوا الى قواعدهم طائرين .

واشتعلت مدينة نيم (تضم لوبيس ألفا من الكاثوليك ١٣ ألفا من البروتستانت) جنرايا القراهية الدينية أيضا . وتجمعت في أحد العسكريين زمرة من رجال الدين والأرستقراط ، ساء بها قواتها المسلحة . وتعمل مستقلة عن الحرس الوطني . وفي المعسكر الآخر ، جناح وطني مناضح للقسس ، يقوده جمعية انصار الدستور التي أنشئت في

Chayelles.
Montauban
rag-tag.

(*)
(**)
(***)

١٦ ابريل - وفي ٢٠ ابريل ، وبعد أن شعر المناهضون الكاثوليك بوجود تهديد للدين والنظام الملكي ، قاموا بالتباعد الى الجمعية الوطنية وحصل توقيعات ٣١٧٢ من المواطنين ، ويدعو الى الاعتراف بالكاثوليكية ديناً للدولة ، وعدم اجراء أي تعديل في الهيرارشية الكنسية ، ويسمح لذلك باللقاء نظرة على القرارات التي صدرت من الجمعية للوطنية منذ ١٩ سبتمبر .

واغضب هذا الالتباس اندية « ميدي » ، وعلى الفور أعد الأعضاء المائة والاثني والستون لجمعية نيم بياناً خطافاً ، وأصدرت أيضاً مدون أخرى (*) بيانات تستنكر فيها اعتماد التخصيص عن الدين ، وتساؤل : هل يصح القول بأن روح عدم التسامح ، التي ألحقت بالمار والتمساسة بأبائنا ، عادت قائمة في القرون الثامن عشر ، أي في عصر بزوغ الحرية ؟ .

وسمى نادي نيم للنحالف في وقت الشدة هو وشقيقته هي مارسيليا ومونبيلييه ، ونشرت مارسيليا رسالة تتعهد فيها بالدفاع عن « نيم » حتى الموت ، وأوفدت اليها مبعوثين في ١٠ مايو للمساعدة العسكرية - لو اقتضت الحاجة - لتوليد سلطانها ، استناداً الى تصريح بلديتها بإقامة نظام كوتدابل من وحدات الحرس الوطني في يروفانس . غير أن هذه التفاير لم تحل دون نشوب العنف ، وفي ١٢ يونيو ، شن الأرستقراط هجومًا مسلحاً على الوطنيين . وبعد يومين من القتال ، هزم الوطنيون أعدائهم بمساعدة متطوعين من المدن المجاورة ، ولكنهم شوهوا انتصارهم عندما اغتصموا عدة أشخاص من « أعداء الثورة » ، وأرسلت الأحداث المأسوية في نيم ، ونشرت الفزع في مختلف أرجاء الشبكة . ودعت مونبيلييه الى عقد اجتماع غير علني في ١٤ يونيو ، وأوفدت مبعوثين الى قادة الحرس الوطني ، وفتحت باب التبرع للمساعدة في تمويل الحملة ، وأرسلت مارسيليا خمسين عربة محملة بالمعيق الى ديم ، لاطعام عائلات المواطنين الجائعين . وأعلنت قائلين قداماً تذكاريًا في ٢ يوليو - وفي ١٠ يوليو ، طبعت ستراسبورج أربعة آلاف نسخة في بيان يروي ما حدث من قلاقل (كتب بالألمانية) كتذكير لمن تسول له نفسه إشعال نار التخصيب في الأزمات .

وقبل انفجاسة نيم بيوم واحد (١٢ يونيو) أقرت الجمعية الوطنية الدستور المدني لرجال الدين ، والتي هذا الاجراء الشهير ميثاق المصالحة

(*) Marcelle Fontaine, Valence, Grenoble, Crest, Vienna, Montpelier.

(١٥١٦) فتح البابوية . وأمام تنظيم الكنيسة الفرنسية ، وذلك لأن يكون تعيين الأساقفة والنس من الآن فصاعداً بالانتخاب ، وتدفق الدولة رواتبهم ، وتعرضت للقمع جميع المجالس الأسقفية بالمصادرة الدينية والكاتدرائيات ، ونخفض عدد الأسقفيات من ١٢٦ أسقفية إلى ٨٢ . كما استبعد ما لا حصر له من الأبرشيات الصغيرة .

ولقد سبق أن تمتعت الكاثوليكية الفرنسية بالاستقلال الوطني ، وكان مبعوثو الكنيسة يتفادون بكل دقة أي تدخل باهية . غير أن المعارضة برغت على الفور . فقد رفض عدة مبعوثين للكنيسة الاقتراح في ١٢ يونيو ، وازداد تصليب المشاركين في الحركة ، عندما أصدر ثلاثون من الأساقفة في الجمعية الوطنية النشرة الشهيرة (*) التي تضمنت مبادئ المستور المدني لرجال الدين ، ونجحت حتى الدولة في الانفراد بالرأي في مسألة تغيير تشكيل الكنيسة ، واعتزمت على اشتراك البروسنتات في اختيار الأساقفة ، ورفضت رفضاً باتاً أن يكون تعيين القسيس بالانتخاب ، وتسلطت لذلك لم يؤخذ رأى البابا ، الذي كان يمين الأساقفة زهاء قرنين من الزمان ؟ . فلقد النمى لويس السادس عشر موافقة البابا ليوس السادس ، عندما أقر مرسوم ٢٤ أغسطس ، ولكن هذا البابا بالذات قد شجب بالعمل السياسة الدينية للشورة في حديث إلى مجمع الكرادلة في ٢٩ مارس (وعقد هذا الاجتماع بصفة سرية) . وعلى الرغم من إجماعه عن التصريح بذلك علناً حتى ربيع ١٧٩١ ، إلا أنه أكد من جانبية قراره بالاعتراف .

وأعلن المبعوثون في الأقاليم عن تأييدهم الذي لا يتزعزع للمستور المدني لرجال الدين . والحق ، وكما يبين واضحاً من الذكريات المعبرة عن آراء مختلف الأندية ، فلم يحدث من قبل أن كانت ثائرة تفسم بمثل هذه الشدة . وبدأ تدخل الأندية في الخلاف في سبتمبر - أكتوبر ١٧٩٠ عندما نشر القانون في الدوائر الحكومية ، وأعلن بعض الأساقفة والقساوسة عن شكائاتهم . وفي ستراسبورج ، وبعد أن كانت موضوعات النقاش تتركز فيما سبق على الاقتصاد والسياسة ، فلتة رأياً الدين يتخذ الصلابة ، وشبه أتباعهم ، وفي أكتوبر ، استهجن أحد الأعضاء قسا من القسيس الكارولين ، لأنه دعا إلى التسق في كنيسة القديس بطرس البجوز ، وفي جلسة ٩ أكتوبر ، استعمر واحد كنيسة القديس بطرس البجوز للدلاء بالقول عن أسباب عدم توافقه لقرارات

Exposé des principes sur la constitution civile du Clergé. (١٢)

الجمعية الوطنية ، واستمعت الجمعية الى تقرير عن أحد القسسي في سان ليونار بالعرب من أوبرنلي الذي ييانا شديد الحساسية ، وفي ١٥ أكتوبر ١٧٦٠ ، تداول النادي مسألة تنظيم الاكليروس البرونستاني ، ووقعت في اليوم التالي مسألة رواتب وجال الكنيسة .

وكشف على التو السماح للقسس الوطنيين بالانضمام عن اهميتهم الخاصة . وشاع بزوع الكلمة المشاكسين الى سلطة اللسان في احاديثهم ، وتزايدت الشكايات المرسلة الى لجنة التحريات (*) ، وبلغ عددها رقما خرافيا . ولامت بعض المدن (***) رسائل القسس التي يشكون فيها من اساقفتهم (٢٤ أكتوبر و ١٢ نوفمبر) ولجأت تولوز وفردون انقصار الهيراشية بوجه عام الى الولا (نوفمبر ١٠ - ١٢) وابلان الحقة نفسها ، فوسلت تورر ستين مستندة بحت موط اذكيروس الكاندراثة في اثارة الفتن .

وفي ٣ نوفمبر ، نشرت صحيفة اكس رسالة مهمة تعلن تحديد الجمعية الوطنية موعدا يقسم فيه رجال الكنيسة اليين للدستور ، ويحرم المبشرون من جميع وظائفهم الدينية ورواتبهم وعقار ائمتهم ، وتلقت تولوز وبوفه (***) نسخا من هذه الرسالة ، والتزمت بها جاء فيها التراما حماسيا ، وانضمت ونية أيضا ، وحررت التماسا حارا تبناه بعض الاعضاء (***) ، ممن اغربوا عن توددهم للجمعية الوطنية ، وتمهدهم باعذار دم المشاغبيين من رجال الكنيسة : « لقد أدت المؤامرة الخطيرة الى ظهور تيار متعصب ، اشبه بالوحش الضاري في تمهه وتمطشه للنساء ، وما اشبهه باين شائن للدين ، وهو يلوح بيديه بشعلة الاشفاق » ان كلمات الله على شفاههم فحصب ، بينما يكمن الغضب والياس في سخائم اقتلتهم » .

وعززت هذه الصيحات من قبضة المبعوثين الوطنيين بين الياشين . واستتارت مشاعرهم الساوثة للكنيسة ، فأقرروا قرارا في ٢٧ نوفمبر زاد الهوة اتساعا بين الكنيسة والدولة . وفيه يطالب جميع الاساقفة والقسس والشماسين والاكليروس بممارسة وظائفهم العامة ، والتمهه بالولا للدستور في حرة الحلقين المستولين الرسميين في دوائرهم ، أما من يرفض ذلك ، فيعتبر تلقائيا متخليا عن وظيفته . ولا يستمد حرمان

Comité de recherche

(*) .

(**) . Séguier

Beauvais

(***) .

Quimper / Guingamp تيماء (****) .

دافعى قسم الولاء ممن يحاولون ممارسة وظائفهم على الطريقة القديمة - وهو ما يعد انتهاكا للقانون - لا يستبعد حرمانهم من حقوقهم كموطنين صليبيين . أما اذا أقدموا على أى فعل تصليبي صريح ، فاهم سيكونون عرضة لتوجيه الاتهام الجبانى اليهم .

وفى ٢٧ ديسمبر ، وبعد أن وقع لويس السادس عشر هذا المرسوم . ظهر جريجوار على منصة الجمعية الوطنية ، وألقى خطابا دافع فيه عن الدستور للمدعى لرجال الدين ، وأقسم بين الولاء للجمهور ، واعتدى به مائة وثمانية من البعوثى فى الأسبوع التالى . وعلى الرغم من تعرضهم لتهديد الحشود فى مقصورات الجمعية الوطنية ، فإن ٤٢ من ٤٤ من الأساقفة ، وآخرين من مراتب أدنى فى هيرارشية الكليروس رفضوا الاشتراك فى القسم . وأثناء تطبيق القرار فى باريس فى ٩ يناير ، تار التسمب (*) . وطبقا للمعلومات التى جمعتها الجهات الادارية . والمشكوك فى صحتها ، فإن عدد المؤمنين لم يجاوز ٦٠٪ من رجال الدين فى العاصمة .

وبعدئذ امين نيابة عن أغلبية اندية الأقاليم عنفما عبرت عن اغباطها بمرسوم ٢٧ نوفمبر . وحظى اقتراح تورز بالتأييد من «التبكة» لالتماسها فى بواكير ديسمبر الاصرار على اعتماد الملك لويس السادس عشر للقرار على الفور ، وقبل أن يضع الملك ختمه بالموافقة اقترعت إحدى المدن (**) فى ١٢ ديسمبر على إيقاد مبعوثين إلى كل الابرشيات للتحقق من قيام رجال الكنيسة بالتمهيد المطلوب ، وطالبت مدينة أخرى فى يناير أساسها بحضور حفلات حلف اليمين ، « وهم مسلحون بالرماح والسيوف » ، وتمثلت مع باقى الجهات ، فائت - تارة - على الإداريين المحليين ، ولعنات سنسقبل حدودهم - نفرة أخرى - على الاجراءات التى اتخذوها لتطبيق الطقوس وحماية السلام .

وعبت العمليات الاستنكارية لمؤامرات الأساقفة الداعية لافساد مظاهر الاحتجاج لحلف اليمين فى شتى أنحاء الشبكة فى شهر ديسمبر وهداية شهر يناير ، بل وذهبت مدينة أوتون بعيدا إلى حد اتهامها قس كاتدرائتها ببنم رشوة لرجال الدين لتشجيعهم على الرفض . وردت المسوع على الدعاية الأسقفية باطلاق منشورات فى الهواء تحمل عبارات التهنيم على القسم ، ومن يناصرونهم . ووزعت مئزر ألف نسخة من الدفوع التى أعدها أحد

فلبونين (*) عن الدساتير الزائفة لأستيف تريف ، وطبعت « كان » خمس نسخ تضمنت تأييدا أعده من بعض كاثوليك في سان ماسيلان ، وأدبع في ٣ ديسمبر - وانتشر المذبح الأريب للقوانين الدينية في شتي نوادي وسط فرنسا . وأصدرت مدينة جرينوبل كتابا خطي فيه الاعترافات الأخيرة لأعضاء كثيرين من الأكليروس (**) - وأعلنت مدينة بوم ، وبيزنسون طبعه ، وكلفت ليوج أمستاد اللاهوت في كلية سانت ملويا تأليف بحث عن المستور المدني ، وبلغ حدا كبيرا تقدير « أوش » وبوردو وكاستر للمطال التي وضعها القس بول بنوا بارت من تادي تولوز ، مما دفعها إلى إصدار أمر بإعتدال التي نسخة منها .

وكرزت منشورات الأندية في هذا العهد على المحنة الموحشة لصغار رجال الدين ، والتفاوت الكبير في الدخل والثروة في ظل « النظام القديم » ، وبورك القسس الطيبون - ويدل على أن ينظر إلى الأعضاء غير المتجاوبين في الهيرارشية على أنهم مغافون عن العقيدة وصوبوا بالأنانية ، لعدم اهتمامهم بأي شيء سوى مصالحهم الشخصية ، ولأنهم لا يهتمون بأي شيء غير فسادهم للدخول الكبيرة التي ليس لهم حق فيها بوصفهم آخر القسس ، وتركز الإصلاح على الزعم بعدم حدوث أساس بالعقيدة والقيم الأخلاقية والسلطة الروحية للكنيسة - وكما قال أحد المشايخ للأديبة : « لقد التزمت الجمعية الوطنية بالروح الدينية الصحيحة ، فحصرت نشاطها فيما يملكه قيصر وأعطت الله كل ما ينبغي لله » .

وبدأت إجراءات قسم الدين في القرار الرسمية من ٩ إلى ١٦ يناير ، واستمرت عدة أسابيع ، ولم يتجاوب معها غير مبيعة أساقفة من مجموعهم الإجمالي (١٢٦ أسقفا) - وقدرت أفضل الإحصائيات النسبة المدنية بحدود يتراوح بين ٥٠٪ و ٦٠٪ من جميع أعضاء الأكليروس ، وقامت بعض الأندية بجدولة النتائج ، وأخطرت بها اليقوبيين في باريس وأيضاً الجمعية الوطنية - وأعلنت بعض المدن ، مزعومة ، بأصصاع حشد القسس في مقاطعاتها للقرار ، أما بعض المدن الأخرى فحدث حظا نقابا عدد من أيادى القرار - وأعلنت بروج عن استجابة مؤسستين كنسيتين منها للقرار ، ونسب أقبال الأغلبية في المناطق الريفية لأقليم الشر إلى النداء الذي وجهته المدينة إليهم .

Frédéric-Xavier Lecomte.

(١٤)

Mémoires des principes contenus dans les dernières paroles (١٤٥)
tatiété de plusieurs membres du clergé.

Joseph-Vincent Desobry كاهن

والتزم قسس عديون التخط في خطوبهم . كما أن سلطات البلديات تحنوها الرغبة في السلام كثيرا ما امرت عن استصدار قبول قسم البمين ، ولكن بشروط . بيد أن الأندية طالبت بالإصباغ بكل دقة ، وتأفمت قول (٢) من باريس لأنها لم تتخذ أي إجراء ضد قسسين استهلا بالقسم بالكلمات الآتية : « بعد أن أكلت الجمعية الوطنية بقرارتها احترام الديانة المسيحية والحفاظ عليها فإني أقسم .. » . فلقد أجت مثل هذه المرافعة إلى إشاعة الحيرة ، وعندما راوغ أحد القسس (٣٣) على هذا النحو في ٢ فبراير فسر مسئلكه بالقول بأن الدستور المذني يحدد السلطان الروحي لكنيسة ، فردت عليه جماعه من نادي كويمبر بازدهاد : « لملك ترهب في تهذيبنا ! ليس أمامك غير طريق واحد : طاعة القانون ، الذي كان عيسى عليه السلام نفسه سيتبعه » .

واعناد القسس البقوييون القاء عطلات وطنية أثناء القانهم للقسم . وما من شك في وجود ميادي سامية ألهمت اتجاههم . وكئن من بين المنتمين للنادي سان سارديس ، وكان الأوجه بين ١٧ قسا في مدن أريان الذي ارتضى القسم ، واشتهر منذ عهد جيد بالتواضع ، وبأنه وهبه الفقراء الجاني الأكبر من دخله . ورغم الأب كيريه (٣٤) بأن ما فعله كان « واجبا مقصدا ليس مسئلتهما من الطموح والصالح الذاتي أو الخوف ، ولكنه أقدم عليه طوعا . وبإملاء من العقل » . غير أن الأوغاد يميلون إلى الزعم بأن الكثير من القسس كانوا يتشدون اجتناب الإتيان . ويأملون من وراء المسيرة الحصول على المناصب التي خلقت بعد أن استمد رؤسأوها . وكما أشار أحد النقاد (٣٥) : لا جبال أن الكسب المادي كان من بين عوامل تقييم القسس للمستور الكنسي الجديد .

ونشرت الأندية ووزعت وفرة من العطلات التي ألقاها من أقسوم البمين ، فجلست لهم الشهرة على القور ، وطبع في رومان وكان محث لأحد قسس الإبرشية (٣٦) وتلى تلاوة حبسية في أماكن قسية كنولوز ، وطمعت حربنول حديثا قسس آخر (٣٧) ، وأخطر بدعروك حسم البلديات عن تعامله على قس من سانت فوا ، وعلا صوت كلود دوبرتييه

| | |
|-----------------|--------------------------|
| Tulle | (٣٨) |
| Lobershet | (★★) |
| Quéré | (★★★) |
| Timothy Tackett | (★★★★) |
| Le Verdier | (★★★★★) |
| Meaux | بالقرب من Comble (★★★★★) |

أسقف القيرون ، وبلغ مكانة مرموقة عندما توسل عدة تعقيبات على القسم
الى جمعية أخصار الدستور في روديه .

وابتحث أبعاد الطائفت قبولاً للاستجسار، من شمسفاه قس نويزي
في سبك (*) ، ونشرت في باريس وشارلويل ومونبيليه وأيرومير .
واستشهد نيبوريه باباه الكنيسة وبالاسماء المسيحية الشهيرة من أمثال
صوبيل وأرميا وجريجوري الأكبر والمديس أغسطس وقتلون كمصادر
مربوطة ، وقال : « لو كانت هناك حقيقة كاثوليكية معترف بها عالمياً من
الكنيسة ، ومرفوعة في الأسفار المقدسة . ولو كان هناك شعار نسباه جميع
المذاهب ، وتردده جميع المناير المسيحية ، فانه سيكون القول بأنه ليس
بمقدور قس الكنيسة التراجع عن ممارسة سلطة من التشريعات على
الأرض دون أن يهتوا بالفتنة » . وبعد أن أضفى على نفسه صفة
القداسة ، أعاد احياه الحجج التي استعان بها أخصار التشريع في الجمعية
الوطنية في يونيو السابق : إن التقسيم الإداري الجديد لا يتنل ما هو
أكثر من الرجوع الى الأيام الباكورة للمسيحية . عندما كان هناك تمايز
بين الأسقفيات وولايات الامبراطورية الرومانية ، وإبان هذه الحقبة
البداية ، انتخب المؤمنون الأساقفة والقسس . ورجع القسود المؤقتة
التي فرضت على سلطات البابوات الى قسوقهم وحشومهم في حقب مغارة ،
فهل بمقدور أحد في قرن التنوير للثلاثة بإعادة احياه هذين العائشين
في تيه الجبال ؟

ويبدأ بشهر يناير ١٧٧٦ ، ساحت حالة أشبه بالحرب الدينية في
الأقاليم الفرنسية . ففي بروفانس ولانجودوك والألزاس ، حدثت مواجهات
عنده بين أخصار الكنيسة الجديدة والكنيسة القديمة . ولأول مرة
انقلب نفر كبير من صفار الكهان والقسس على الثورة الفرنسية . وأصدر
الأساقفة الذين لم يهاجروا فرنسا بيانات علنية ، وعنفوا المحلفين من
الانزاع على القدسات . أما من هاجروا فانهم تركوا تعليمات « للقسس
المشاكسين » بالتزام البقاء في أبرشسياتهم - إن أمكن - وإن يؤدوا
واجباتهم الدينية في الملن والسر وأن يعاملوا القسس الدستوريين
كعلاء .

ورج المحلفون الى الاعتماد على البقويين لحمايتهم من الاضطهاد .
وعمل نادي أخصار الدستور - من ناحيتهم - من أقسموا اليمين معاملة
الملك ، وأعتكوا عليهم الخناج والهدايا . وكانوا يحفونهم بظواهر الجلال
في الطرقات ، وينظرون اليهم بعين النطق عندما يرون قسس الأبرشسية
يتفربون منهم سمياً وراء بركتهم ، ويركون لتقيل أطراف ثيابهم .

ونادرا ما سمعت كلمة تنطع بالمرارة ، وإذا اعترفنا بصحة هذه الرسالة (٣) ، سنرى أن مونتارجيه كان يطالب بأحو أكثر من القسبر . فلو جاء اليوم الذي يتساق فيه القسس هم والمهراطة ، ونقشت حقوق الإنسان على جدران المايه ، أنتد فقط سيترف بهم كمواطنين حقا .

وتكاد جميع النواى أن تكون قد تعرضت لتقندن أحد المواطنين والقسس الكاثوليك فى بدايات ١٧٩١ ، كنتيجة للمصبيان وحركات التطهير . ولكن على أية حل ، فيصح تشبيه الإشفاق الدينى برصاصه أصابت دواع الحركة الهقوبية . فالمجموعات الأقلم التى أضيفت بالعرج (٤) ١٧٩٠ ، بدأت ملتقى الآن بانتظام أكبر ، وسفد جلسات عليه ونضم أعضاء جندا . وترغب يعضى الدوائر الوطنية المتنافسة لعمليات الدواع عن العس . وارتمع مصلل اشياء الأندية وبلغ رقما قياسيا ، وشارك الهقوبيون فى باريس (بهذا المعنى الجديد لرسالتهم) بإصدار مشور دورى فى ٩ يناير طالبا من المنصحين اليهم استعمال جميع السبل ما عدا العنف لتهديد الكسبيين الذين يدعون إلى « الحرب باسم اله السلام » . وطبعت فرساي التى نسخة من هذه الرسالة ، واستجابت جميعات كثيرة بإرسال نشرات إلى المواطنين تدعو إلى تحقيق السلام والوثم ومسط نيران التصب . وتحضت تول فى ٢ يناير أسقفها للشق ، ودعاه إلى الاشتراك فى مناظرة رسمية حول مزايا الدستور للذنى لرجال الدين ، وتجمست جميعات الحراسة (٥) فى عدة تنظيمات . واتخذت عدة أدبية شمار « الدين الساهرة » وأعلنت جمعية ليوكس قيام ثلاثين من أعضائها بالتحوال كل يوم أحد فى الأقاليم للدعوة إلى اتباع القانون ، وأنشأ الوطنون فى فدييه ، جمعية (٥٥٥) متنقلة ، من مدينة أخرى لمعاربة التصصب .

وتولد عن الرقابة المزيد من الشكايات ، وفى الشهور الأولى (١٧٩١) قلما مر يوم بغير ظهور اتهامات جديدة بالتصصب ، وفى إحدى المناسبات ، قدمت تورز لمجلس مدينتها نشرات ملتهبة كانت منتشرة فى حوض نهر الإيدار والدوار ، وأخطرت مدينة برصت لجنة التحريكات (٥٥٥٥) فى الجمعية الوطنية بأن القسس المتطرفين قد هددوا بتطليب أسماء الشساين غير

(*) نشرت فى Patriote française فى ٢٢ فبراير

(**) جميعات Arriens, Angoulême, Rodez, Le Mans

Surveillance (***)

Société ambulante (****)

Comité des recherches (*****)

المتعاونين من سجلات المصلحين ، وإبليت بلدية وأنت من جيلوت ضبوط
سرية في أحد الأديرة ، وشعرت مدينة أخرى (*) بإرددها لرجال الكنيسة
الذين استشاروا الشعب واعتبروا « القسس المحليين غير جديسين
بالقسسية » ونهبت مدينة أمين تمرد كليتها . وكشفت أوتون من شروع
نائبها الأسقفى (**) في جمع تبرعات مالية لمبارنة من امتنعوا عن صلح
اليمين ، وشرب لاجرو بودج بالنصب لاختلاف مقاطعتين من مقاطعاتها في
اسكات غير المحليين ، وشككت مونفور من « القسس المتكاسفين » الذين
استمروا في حرق البخور . وشجبت كليرمون فيران الرهبان الذين يركضون
رداسهم الرسمي من أثر الجهل أو فزدهم للقانون .

ومن الموضوعات المتكررة في وسائل النادى في بواكير ١٧٩١ ،
التساير المزدوج للقسس غير المحليين على النساء ، ففى ستراسبورج ،
دفع تمرد النساء للجمع إلى الخلق للمهد اللاهوتى ، واقتحم حشد من
الأمهات والأطفال نطق المدينة (***). لتسبح عمدتها من تطليق قانون
٢٧ نوفمبر ، واضطر نادى بودج إلى اتخاذ إجراءات ملحة لتهدئة مخاوف
الرياضيات . وفي سانت قوى ، تجمهرت شريحة من المتصبات دفاعا عن
قس رفض تلاوة ألهم صادرة من الجمعية الوطنية ، وشعرت مدينة
أخرى (****) بالازدراء لاشتغالها عجز نساها الطبيبات عن الكتابة ، وإن
كن تعرفن كيفية صب الشتايم على الكاهن المستورى . وشعرت لى مانس
بالأسى ، لأن النسوة « كن تحرم من الاعتراف . وتتلقي تهديدات
بالحرمان من رعاية الكنيسة ما لم يبعثن أزواجهن عن « مدرسة إبليس » ،
يعنى جامعنا » .

وفي المدن التي امتنع فيها رجال الدين عن التمدد بالولاء للمستور ،
عكفت الأندية بكل جد وعزم على الاطمتنان إلى أدله شعارى العبادة دون
مقاطعة . وتطرح مسائل بله للحلات الشاغرة في كنائس البرشة
بالمدينة إلى أن يمين قسس حدد . وعملت توز للكنسيين الموالين في
مقاطعتها مهمة تلقى الاعترافات والاعتراف على القسسيات في ثلاث
أبرشية خالية من القسس . غير أن هذه الإجراءات لم تزد عن إجراءات
وقتها ، إذ كان الحل الدائم الأوجع والشروع . كما أدرك أنصار الأندية .
هو دعوة من يحق لهم الانتخاب بالمجالس الدينية إلى جلسة لاختار من

Airans - Vives

Vicars-généraux

Milieu

(*)

(***)

(****)

Toungoux

مدينة

(☆☆☆☆)

يعطونهم على الإيجار ، وحسب إتيانهم إلى القبط لأغرام الموظفين في
الجامعة بالإجازات على استعداد الناجين على الفور ، وتمت صيحات
الإحتجاج عند حدوث أي تأخير .

وبدأت الانتخابات في أواخر يناير ، وسارت في طريقها زهاء
أربعة شهور . وكما لاحظ أحد كتّاب النشرات من أعضاء الملكية :
« لم يسبق قط أن بدأ تأثير الأندية ملحوظا إلى هذا الحد » ، ويبدو
بالإتراع على وظائف الأسقفية . وفي ليلة الإذلاء بالأصوات ، اشتبكت
الجمعية في كحاح مرير ضد القسس والشماسين السابقين(*) . ونشرت
بورج دفوعا بليغة (**) لمؤازرة أسقف بوسيميه ، وذكر أن محله ليس
شائرا وعنصرا أعلن رئيس الجلسة (***) أن الكنيسة قد تعتبر كل من
يذل بصوته من الهرطقة ، مدد قوش بنشر اسمه جميع الحقنة ، الذين
غابوا عن عملية الانتخاب .

وخشي بروجيه (****) من محاولة المكشكات المالية دون استطاعة
الساحبين السفر إلى مقر الانتخابات ، ومن ثم وزعت قائمة بأسماء الأعضاء
الذين أبدوا استعدادهم لتدبير أماكن إيواء مجانية ، وفتح برجواك اعتبارا
لنفع مكات السفر ، واشترك هو وسان بريك في كتابة التماس للجمعية
الوطنية لتحمل جميع النفقات ، وكان من واجب الجمعية التشريعية
الاتصاف بالحكمة والواقفة على هذا الطلب ، لأن عدد الحاضرين كان
ضئيلا إلى درجة مخيبة للأمال . ففي بورج لم يلب النداء سوى ١٩٨
ناخبا بالقرنة بثلاثمائة وخمسة وعشرين في السنة الفائتة ، وفي قنديه ،
لم يظهر من الناجين المستوفين للشروط أكثر من ١٧٣ ، من عددهم
القانوني (٤٧٦) ، وامتنع ٢٨ منهم عن التصويت . وانتخب كلود غوشيه
أسقفا لكالفادوس بعد حصوله على ٣٥٪ من أصوات المجلس الديني .

واشتبكت الأندية في حملة انتقالية مع المجتمع من التصويت ،
وسعت من ورائها إلى إعادة تجديد شطلة الناجين . ولكن من مخزيات
القدر أن يؤدي تقصص جماعات المجتمع إلى تضخيم التأثير « البقوي » ،
وترأس الجمعية المنتخبة رئيس نادي كولي ، وامتنع أعماله بإقامة
قداس حضره أعضاء النادي كتلة واحدة . وفي بورج ، انتخب أعضاء

(*) على ترأس الجلسات

Perigoux (**) للإيجار

La Tour du Pin Montauban

Perigoux

(*) (**) (١٩٣٤)

(١٩٣٤) (١٩٣٤)

الجمعية كسكرتيرين ومستولين عن عد الأصوات ، وأوفدت بعض المدن (*) بعض المبعوثين لتسليم التعليمات ، وعقدت الأندية القائمة في مواقع الكليات المسخبة اجتماعات عامة يوميا وتولى تطبيق خاطر المنتخبين للمعززين لجمعية كاستر (من ١٢ - ١٦ مارس) متحدثون من المناهضين عن المستور المدني لرجال الدين . وطبقا للبيانات التي وردت في الجرائد اليومية . فإن « كان » استطاعت جمع ألف ومائتي عضو وروار من الناحيتين في قاعة اجتماعها في ١٤ مارس . وهو اليوم المحدد لاختيار الأسقف الجديد . وورد في أحد المجلات (**) أن عددا يناهز ٢٢٠ من السابقين قد خرج إلى اجتماع النادي في نانسي في ١٢ - ١٤ مارس . وأدرجت مترامبورج ١٢٢ نائبا كأعضاء في الجلسة المنعقدة من ٢٦ فبراير إلى أول مارس . ويقال لنا إن كثيرين من السابقين قد جاؤا لجميع المعلومات التي سيكون يوسمهم الاستمارة بها في اختيار المولفين المسؤولين ، وقامت مدن أخرى (***) بتعريف من يحق لهم الانتخاب الصفات التي يراد تحل الأساقفة المولفين بها .

ووجه للماصرون الاتهامات لتدخل النادي لصالح بعض مرشحين بالذات . واعترفوا بوجود أدلة مؤيدة لهذا الادعاء . ويسمى أن هناك مدنا مهمة قد حضمت للإيجاء بانتخاب جريجوار . وشنت بورج في البداية حملة لانتخاب لويس شارويه من لاووش . ولكنه عندما رفض المنصب اجتازت بيير أناستاسي تورتيه ، وهو قس يالغ اليهويويون في الإشادة بسابقه في باريس . وعندما طلب ويوم ترشيح بعض من يساهلون الارتقاء إلى منصب الأسقفية وشنت مدينة أوتون لخدمة اسمه (لم ينتخب أحد منهم) . وأعلنت الجمعيات الشعبية في ليون وسانت اتيين قوائم بأسماء بعض رجال الكنيسة التي تزكي للقبول ، وادعت الفصل في ترشيح اسم الأب أطوان لاموريت أسقفا للرون واللوار .

وكوفي ١٩ من المبعوثين بمنصب الأسقفية ، وزكي الناخبون أيضا بعض أعضاء الأندية ، واختار الدوم (****) زعيما لجمعية أنصار المسور في فالسي . وزكت تولوز ترشيح أساقفة للهارون الأعلى (*****) . وأعلن بعض الفائزين الآخرين عن ترشيحهم للأندية ، بنشر مقالات تدافع

(*) حنن مثل Gueret, Foix, Courances ونالسي

(**) Journal de Meurthe.

(***) Le Mans, Cherbourg, Soissons.

(****) Drôme تنظيم أدلري قديم في فرنسا كان يجمع بعض المدن الهامة وولسه

(*****) Valence مكتب المنظمة المحلية بجمعية

(*) Haute-Garonne.

عن الدستور للمنى ، لما بارت الذى انتخب أساقفا لجيرس ، فقد اكتسب شهرة في الجنوب بفضل عدة مؤتمرات عقدتها ، وأرسل لي قيوديه (*) مبحثا لنادى رومان قبل أيام قليلة من انتخابه أساقفا . وهكذا دواليك .

وبعض النظر عن حل كل الاساقفة مدينين بمناصبهم للنائبين الحقوقيين ، أم غير ذلك ، فانهم حظوا بالمساندة من الأندية بعد توليهم أعمالهم . وفي الحالات التي كان الزعماء المحدد يقيمون على مقربة ، كانت الجمعيات تبذلهم بحظهم لائق وتصحبهم في موكب طائر الى الكنيسة الكاتدرائية ، أما القديسون في باريس أو في مناطق نائية ، فقد أرسل لهم رسائل التهنئة على جناح الأثير . وأثناء رحلات الاساقفة الى مقار عملهم ، تقيم الأندية مظاهرات حافلة للترحيب بهم ، وتدعو لهم بالتوفيق في نشرات مطبوعة أو تهدهم بعض الأسفار أو القطع الفنية القيمة ، وتنصب للأساقفة عروشا ومبصات ، ويحيى معمو الأندية عربة الأسقف خارج البوابة ، ويقسمون شمائر التقدير والتأمين ، ولا ينسون القساء بعض الخطب المفسولة ، ثم يصحبون الموكب الرسمي في طريقه الى المدينة ، وبعد المسبحة أو القلماس المختصر (**) يزور ضيف الشرف الجمعية ، حيث يماثقه الرئيس ويستدح فضائله ، وغالبا ما تقام وليلة على شرفه ، ثم يرافق أعضاء النادى الكاهن وسط مظمار الحفاوة بعض الطريق الى الوقفة التالية .

واقامت احتفالات مهيبة لدى وصول الاساقفة الى مقار عملهم ، ودعا الكهني كل جماعة في إقليم التاون لارسال ممثلين لها في حل تنصيب الأسقف . وحتى تثبت بعض البلدان المنافسة ، عدم وجود من يميزها في هذا المسار ، أنست كاستريز(***) وجودها باقامة عرض حافل ، وأثناء الحفل الدينى الذى أقام لأسقف مابن ، احتشد ألفان من المواطنين في نادى لافال واجتمع قرابة ألفين وخمسمائة في جمعية مارسييا لاستقبال أسقف خلق حوض الرون . وأمرت بلدية بوج المواطنين ، بناء على طلب الادى نانارة بيونهم . على أنه في بعض الأحيان حدث عدم تعاون من السلطات كما رأينا أميين تتخل عن بعض الاداريين ممن تخلوا عن الحضور في حل تنصيب أسقفها . واشتكت جمعية لانجرية لال موظفى الإقليم بذلوا قصارى جهدهم لافساد الحفلات البهيجة التي أقيمت هناك ، الى حد إقدامها على تنفيذ حكم بالاعدام العلنى في نفس اليوم .

Le Verde Choi y Le Roi
Missa breva
Cantata

(*)
(**) (***)
(****)

وجمعت مظاهرات ربيع ١٩٩١ بين مظاهر التعبير عن الابتهاج والجهود المحسوبة للعداية . وفي كالفادوس حيث جدد فوشيه (*) بالحرمان الكنسي من قبل الأسقف السابق ، عانت الجمعيات الأمريين لالتبات التأييد الشعبي . وأعلنت مدينة أخرى (**) المدة لتقوم الأسقف ، وطبعت بعض أحداثه التي سبق أن ألقاها ، وعندما وصل عومل كأنه « ملاك حبط من السلة » ، وفي « كان » منح عضوية مجلس المدينة ، وبألف رئيس الجمعية في افتتاحه . وقاد أنصار المستور عرضا اتجه الى الكنيسة الرئيسية حيث أقيم احتفال لشكر الإله . وفي هونفلور يارك فوشيه العلم . وألقى خطايا طبعته الجمعية ، وقدم للصحفيين البارسيين ، وفري في حضرة أعضاء جمعية فير عقالة عن النظام الاجتماعي ، ولقى إعجابا شديدا . ثم حضر يومه ذلك ولاية حضرها مايتوف عن المائة شخص .

وبرز الأساقفة في شتي الأنحاء كزعماء للجمعيات . ويصح هنا القول بوجه خاص عن الأسقفيات التي استمرت فيها أغلبية الكليروس والمقصي تدوين بالأخلاص للنظام الأقدم ، ومثل اليغوريون الصلا، الوحيدين الذين يمكن أن يعتمد عليهم الأساقفة الجدد ، وفي كالفادوس احتل فوشيه الصدارة شهورا قليلة ، فكان يحرق رسائل الأندية ، ويصدر تعليقات باسمها ، وتشر قوديه الثورة من خلال جمعية جورج ، وتشمل الحراسة عند اكليروس شير . وارتقى بلنثل الأسقف يوفيه الى أعل المراتب . وإن كلف ذلك لم يتم طويلا . وصلى النادي تحت قيادته لشحن حملة لاستبعاد « التساكين » الذين أناروا المشغب أثناء حناز ميرابو في شهر ابريل .

ومخط سلف ماسيو على الانتخابات ، وفي أواخر ابريل اقترعت بوفيه على طبع ألف ومائتي نسخة من الرد . وعكفت الجمعيات الشقيقة على اعداد دفع لصالح الأساقفة السابقين أيضا ، وكان أكثر اللامع الجديدة ادعانا المقالات المناهضة للهيرلوشية في ربيع ١٩٩١ عنف لهجتها ، وشبهت بلوا أسقفيا السابق يوحى يتلف سمومه ، وفي إحدى نشرات دويه (***) قودون بريعات الأسقف المستورى للشمال بالأديب الحكيم

Fouchet
Cheyng
Donel

(*)
(**)
(***)

طنلون ، وما عرف منه من فضل • ومقابل ذلك ، صور الاستف
السابق لارنس كوزيه (*) كقاهر كرس حياته للمتح الشهوانية •

وتعزز موقف الهيرارشية الفرنسية للثققة في مارس ١٧٦٩ ،
عندما عاقب البابا لوفيه دي برين اسقف سنس ، لأنه انقسم اليمين
للبرلمان للقس ، وأثارت رسالة البابا إلى يومئذيه زبوسة عاتية في النادي ،
ورفع سنس شكايته إلى الجمعية الوطنية ، وأبلغ سانت مارسيلان
اليمتويين غاضبا عن وجود أفراد من أصحاب النوايا الخبيثة قد أرسلوا
بعض النشرات إلى القسس المستورين في دائرته وأحرق جيون نعمتين في
الميدان الرئيسي : تمثل جناحها البابا مسكا بمنشوره البابوي ، وتبين
الدعية الأخرى الأب موري السيء السمعة جالسا تحت قنفيه • غير أن
هذه الأفعال بدت هيئة الشان بالمقارنة بالانفعالات التي ثارت عندما روع
أحد الصحفيين من أصدر الملك بعض الرسائل البابوية في شتى أنحاء
فرنسا في أوائل شهر مايو ، وأعلنت الرسائل المشار إليها ، والمؤرخة في
١ مارس و ١٢ مارس لأن الإصلاحات الدينية للجمعية الوطنية خرق لتعاليم
الكنيسة ، وتعني الفناء الانتخابي الأسقفية ، وأنذر من انقسموا السبح
يوجب سحب قسهم في بحر أربعين يوما ، والا واجهوا الايقاف عن
أداء عملهم •

ولم يترف أنصار النادي في سيزان وبيتون (*) وجرى بمسئولية
البابا عن هذه البيانات ، وعللوا ذلك في البداية بتفريق رويس لهذه
الرسائل ، التي لا أصل لها ، على أنه يوجه عام يستطاع القول بقبول
الجمعية للمنشورات البابوية في طعنها ، وأدانت الجمعيات البابا ديوس
السادس ، وتسائل الأب فيارد من لينيه في معرض حديثه عن ماونات
روما : « عن مدى ما أثارت نزواتهم وكراهياتهم الناجمة من الأنانية من
أوراق لعاء آلاف البشرية ؟ » وأصدت جميعات عديدة ردودا مطبوعة ،
واقهر حو فرنسا من غير حرائق الاحتفالات القنسية وتلقى جنحاه (***)
الرسائل في ١٧ مايو ، وعكف على القود في البحث عن وسيلة « لجلب
الاحتقار والسخرية من هذه الأعمال الطفلة التي اصطنعت لبث العرب
في النفوس المائرة ولشن حرب دينية في الملكة » • وانتهى الأمر إلى
اتخاذ القرار باتباع الأتي : يقوم ٤١ من الأعضاء بحمل الوثائق بالتقدم في
خطوات وقود صوب المدين الرئيسي ، حيث ينتظرم موظفو البلدية

Comité
Béthune, Roubaix
Général

(ج)
(خ ٤٩)
(***)

بصحبة حشد من المواطنين • وبلغ غضب الجنود ذروته الى حد تزيينهم
للمشورات البابوية ، اثناء سيرهم ، وتسلم الصلصلة الأجزاء المتناثرة من
احدى الرسائل ، وتلقى رئيس النادى الرسالة الثانية ، وانتقلت أعداد
نشره (رويوت) من يد لأخرى ، وعند تلقي الاشارة القيت هذه النشرات في
النيران •

وجرت عمليات الانتخاب لاجل قس من غير المحلفين في جمعيات
الأقاليم ، لاسيما في مارس وايريل ومايو . وحاولت الأندية مرة أخرى
تشجيع الحضور . وأشارت في تعليقات مطبوعة الى أن اختيار القسس
حق للشعب منذ لوائل عهد الكنيسة ، وأرغم ييمبوف (**) جميع من يحق
لهم التصويت على التمتع بالحضور ، ونظرت « بروجراك » في مسألة
تدبير أماكن للإقامة المجانية للناخبين في مقاطعتها ، واقترحت على حصر
أسماء المتخلفين عن الحضور ، وبصح القول بأن كل جماعة في عواصم
المقاطعات كانت تقدم اجتماعات يومية يحضرها العديد من الناخبين •

وفي اليوم الأخير لقد الجمعية الانتخابية في سيران ، أعلن
مبعوثون من النادى « كم هو رائع أن نرى بين الكنسيين الجدد مواطنين
اشتركوا معهم في عقد أنفس تحالف » • وفي مواضع أخرى أيضا •
أوضح أن العديدين ممن حلوا محل القسس كانوا أعضاء في الجمعيات •
أو صيغ من قبلها ، وفي « فير » حيث وزع النادى قائمة باتساع
المحلفين ، وبمن هم ليسوا أتباعا لهم ، للاسرشاد بها ، كان القسس
الجسد وجميع الشمسين التابعين لهم من اليعقوبيين • وقم رئيس
أساقفة بروجراك شكره لأعضاء الجمعيات : « لا أهديتوه من اهتمام
بانتخابي » ولما سمع لادوشيل عن وجود زيادة في رجال الدين من
المحلفين (***) ، وطلب من ليوج-إرسال قس لشغل الأماكن الشاغرة في
الأبرشيات ، وكتب سان باولو الى جنرالهم طالبا إرسال قوائم بأسماء
بعض الأساقفة الطيبين ممن هم على استعداد للانتقال الى أماكن أخرى •
وزكت تورز لستراسبورج اسمه اثنين من الرهبان من القادرين على
التحدث بالألمانية ، ومن يرغبون انشاء أبرشيات في الألزاس ، وأشارت
ستراسبورج على كولمار باسمه لمحمد الصالحين الأظهر من القسس في
باتنهايم ، من- كانوا يتوون- المحل من مكانة الأبرشية (****) •

Gazette.

Palmbœuf

Runk-Wienne.

(*)

(**) (***)

(****) (*****)

• وجعلها مجرد مكان صغير لا يقدم احدا غير القسوس •

وفي الأبرشيات التي حل فيها القسس المنتخبون سجل غير المحلفين ،
 نارت المتعاقب عادة ، وغالبا ما كان الخوري القديم يبقى قريبا من موقع
 الأحداث ، وكان الآباء والأمهات يصحبون أطفالهم اليه للمصاحبة
 والتعميد ، ويسمى اليه أقرباء المحضرين للاشراف على الطقوس الأخيرة
 ويطلب منه الشباب ترأس احتفالات زفافهم ، وفي المصليات الخاصة
 والبيوت والمقوت وفي أي مكان متاح ، كان المؤمنون يلتقون للاستماع الى
 « المتكلمين » وهم يلون القديس والعشاء الرباني . ووصف
 بيري دي لاجوس موقف القس المستورى على هذا النحو :

« في الأبرشية التي ستؤول اليه ، لا أحد يرشده الى الطريق .
 ففي نظره ، لا حاجة لوجود من يدق ناقوس الكنيسة ، ويتجمل عبه وضع
 الكسوة للذبح ، وترك الأبرشية خاوية كأنها مكان جرد من محتوياته
 قبل تركه للوقوع في ايدي الأعداء ، وفي المساء ، يجرد من كانوا رجال
 أبرشيته يوما ما الكنيسة من محتوياتها ، ويلقون القش في البئر ويلطخون
 الأبواب بالأوساخ ، ويسدون الاقفال بالرمال » . وعندما ييسر الكنان
 القسس المحلفون يتبعهم الأطفال مقلدين صيحات الديكة ، كتلميح للثيافنة
 التي تعرض لها القديس بطرس ، وعندما يمر في الطريق ، يطلق الفلاحون
 كلامهم لاعتراض مبيله » .

وعندما تقع مثل هذه الأحداث ، كان القسس المستوريون يزعمون
 لطلب المساعدة من الأندية التي تهتت بمسئوليتها عن حياتهم ، والتي
 مثلو جمع الجمعيات (*) في مؤتمر بكليرمون - فيراند ليبحث مشكلة
 المقاومة الشعبية للمستور المدني ، وسبل العلاج الميسورة . وأصبح من
 بين الأمور المألوفة في الأندية أيضا إحياء صيحات لحضور حفلات تسميم
 الخوريين البعد ، وتطوع أحد القسويين من غير باختيار طفل من أبنائه
 ليكون أول من يصعد القس المنتخب . واقترح سان برييه تأليف جيش
 من المتطوعين في بريثاني للانتقال الى أي مكان يتعرض فيه القسس
 « الصالحون » للاضطهاد ، وأنشأ القسس المحلفون جمعيات أبرشية
 كوسيلة دفاعية إضافية ضد التسميم ، وأنشأ الأب ماسوريه (**) القس
 المستورى ، وبالقصور ذكر عشرات الأمثلة للمائلة .

وسرور الأيام ، طالبت الجمعيات الجمعية الوطنية باستصدار قوانين
 جديدة صارمة ، وسعت جبهتان لكي يشمل القسم جميع العاملين

(*) في Puy de Dôme

Chavennes (ج.ج) • Marmoret كما أنشأ ليندا Lemaire خوري
 Chateaufort sur-Cher جميعه

والكنائس مسوأة أكانوا من المواطنين المؤمنين أم لا ، زالت جميع جماعات أخرى على تخفيض مرتبات غير للتعليم أو وثقفا ، أما جمعية برنود وبعض جماعات غيرها فلكه طالبت باستبعاد القسس السابقين من أبرشياتهم . بينما طالبت جماعات أخرى بتفويض إلى مكان يبعد ثلاث فلك أو أربع . واقتترحت مدينة كولنبرو حلقتهم في الميادين الرئيسية لتقاطعات ، أما ستراسبورج فزات الصالحهم خارج الحدود . بينما اقترحت مدينة بلوا تكليف جمعية نائنة لتجميع جميع المشاكسين في بعض السفن ثم شحنهم إلى امراج افريقيا وأمريكا ١ .

واقترحت فير في سبتمبر ١٧٩٠ السماح لرجال الدين بالزواج . حتى يصبحوا مواطنين بالمعنى الصحيح للكلمة ، واستفترت ستراسبورج في أغسطس من الجمعية الوطنية عن حل يحق للكنيسة الافراد بالسيطرة على سجلات الزواج والتمديد . وعندما زادت مسافة المتعصبين ، عن حدها . تورطت بعض الجماعات في عمليات العنف . ففي حادثتين منفصلتين في ليپورن في مايو ، قبض على بعض القسس وهم يجوبون المدينة على ظهور الحبر ، ويشتون الجماهير بالحجارة ، أما الأدهى من ذلك فهو البيان المائل بالزعمو الذي أرسله نادى لسورن إلى اليعقوبيين في باريس . وعلى الرغم من أن أحداث السدوان والقتل ظلت نادرة ١٧٩١ ، إلا أن الوقت كان قد حان لكي يصبح الرعب مبدأ الممارسة المقبولة للتعامل مع القسس الأوغاد ١ .

المراجع

- A. Cobban, *Aspects of the French Revolution* (1970).
 W. Doyle, *Origins of the French Revolution* (1980).
 J. Egret, *The French Pre Revolution 1787-88*, (1978).
 A. Forrest, *The French Revolution and the Poor* (1981).
 J. Godechot, *The Counter-Revolution : Doctrine and Action 1789-1809* (1971).
 L. Hunt, *Politics, Culture, and Class in the French Revolution*
 D. Johnson, ed. *French Society and the Revolution* (1976).
 G. Lefevre, *The Coming of the French Revolution* (1947).
 M. Lyons, *France under the Directory* (1975).
 R. R. Palmer, *Twelve Who Ruled : The Committee of Public Safety during the Terror* (1941).
 A. Sabon, *The French Revolution* (trans. 1975).
 I. Tackett, *Religion, Revolution and Regional Culture in Eighteenth-Century France : The Ecclesiastical Oath of 1681* (1986).
 C. Tilly, *The Vendée* (1964).

أصل الاتجاه المحافظ في ألمانيا

كلاوس ابشتاين

من سفرات التاريخ ، ومفارقاته ، أن يكون الاتجاه المحافظ ، يعني الأيديولوجية التي تسمى للمحافظ على حكمة الماضي ، ظاهرة فكرية عصرية . وما كان بالاستطاعة بزوغ هذا الاتجاه إلا بعد أن تعرضت لمعتقدات الأوربية التقليدية في الدين والسياسة للتنحى للتشديد والانتقاد المدعوان من قبل كتاب عصر التنوير ، وبعد أن اعتنقت الحكومات جانباً من هذه الأفكار التقدمية .

ولقد جرت العادة على الربط بين الاتجاه المحافظ وورد الفصل ضد الثورة الفرنسية ، غير أن العديد من معتقدات هذا الاتجاه ونظراته الأساسية تمت إبان العشرين سنة التي سبقت ١٧٨٩ كاعتراض على التزعشة التنويرية المطلقة لحكام وسط أوروبا ، وشرها ، خصوصاً فردريك الأكبر ملك بروسيا وجوزيف الثاني ملك النمسا . إذ أحاط المعلنان نفسيهما باتنام من أبواب النظرة للثورة ، واتبعوا سياسات إصلاح عقلانية في شتى الموضوعات وفي جباية الضرائب ، وكان الود ملقوداً بينهما وبين المؤسسات الدينية في كليهما . وجرد جوزيف الثاني الكنيسة مما تمتلك من أوقاف .

وزعم لسان حال الموقف للمحافظ ، الصاعد آنذاك ، أن المعتقدات العقلانية للتنوير قد أدت إلى الشك والاضطلال الأخلاقي ، فبقر الإيمان ديني تقليدي ، سيجنح السواد الأعظم من البشر إلى العيش حياة فوضوية بعيدة عن الانضباط ، فالعقل وحده عاجز عن التزويد بوسائل للسلوك التي يتبع في الحياة اليومية . واستعان « المحافظون » بهذه الحجة في معرض الدفاع عن المبادئ الاجتماعية التقليدية ، والدور المساعد للدين

The Genesis of German Conservatism

(*) نكلا من كتاب

Klaus Epstein (١٩٦٦) ص ٦٥ - ٨٢ .

والكنيسة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وانكروا - بوجه خاص - مقوده البشر على تحقيق أي نوع من التقدم الأخلاقي لهم . وكان المقصود من جميع هذه التصريحات الدفاع عن الوضع الراهن (٢) في الناحية الاجتماعية والناحية السياسية .

ولما كان المحافظون الجدد إلى أنواع شتى من التكتيكات في حروبهم الصليبية ضد التنوير ، وحرفوا الحكومات على الانجذاب للرئاسة ، ما أمكن ، أو إقامة العقيات أمام الصحف الانتقادية ، وهاجموا شتى أشكال التعليم التقدمي التي يقصد بها - على ما يبدو - إثبات إمكان رفع المستوى الأخلاقي ، أو مرغوبة المصعود الاجتماعي . وعلى الرغم من كراهيتهم لعالم الصحافة ، إلا أنهم التحصوه ، فانشأوا جرائد كئامرة قضيتهم . وحتى اندلاع الثورة في فرنسا ، لم تحقق هذه الاتجاهات المحافظة ، ومطامعها إلا نجاحا متراجعا . ولكن فيما بعد ، عملت الحكومات والأرستقراط عبر أوروبا إلى تبني أفكارها ، ونشرها زهاء نصف قرن من الزمان .

ظهرت الاتجاهات المحافظة طيلة عصور التاريخ المكتوب . ويعنى بهذا المصطلح الاتجاه الذي يشعر فيه الناس بمعاداة التغيرات التي تطرأ على ما اعتادوا من حياة ، وما تعلقوا به من معتقدات ، قسمة أو تيسا . وتضاع بين هذه الاتجاهات ومعنى التنوير ذاته ، ونبتد جنود هذه الاتجاهات إلى الخوف الأعمى من المجهول ، والرغبة في العيشة في بيئة بالاستطاعة التنبؤ بكل ما يجري فيها ، ولقد حدثت جملة تغيرات طوال التاريخ لم يقتصر أثرها على تعزيز الشعور سيكولوجيا بلهم الارتياح . وإنما ترنّب عليها أيضا التعبير الصريح عن الخفاق عن الاتجاه المحافظ . فمثلا اعتقد المأمرون الذين اغتالوا القيصر أنهم يملكون عن الدستور البرلاني القديم ضد نوع جديد من الطفيلان ، ودافع القيدوكج السكسون عن آلهة حدودهم ضد الدين المستحدث لشرلان ، ودافعت محاكم التفتيش الفومنيكية عن اتجاه الكاثوليكية المحافظة ضد الهرطقة (٣٣) . كما دافع اليسوعيون المناهضون للإصلاح الديني عن وحدة العالم المسيحي ضد غزو المصلحين البروتستانت ، ودافع جون هاسدن عن الحق الإنجليزى العتيق في عدم فرض أية ضرائب عليه دون موافقته في معرض الأعراض على المطالب المدينة للاحتيازات الملكية ، وفي ذات الوقت ، دافع السبل الألمانى كالك شتاين عن الحقوق التقليدية للولايات البروسية الشهيرة ضد الحكم المطلق للوال الأكبر وما فيه من إصناف .

وتعد جميع هذه الحالات ، التي اخترناها بطريقة عشوية أمثلة للدفاع عن وضع رامن خاص في زمن خاص ضد رامن معين ، اما ماله أهمية وعنفوى في القرن الثامن عشر - في ألمانيا حوالي ١٧٧٠ - فهو انه بالرغم من أن الاتجاه المحافظ قد ظل في جوهره دفاعا عن المؤسسات الممتدة للأوضاع الراهنة (*) ، إلا أنه تبني للمرة الأولى نظرية عامة (**) لها شخصية مميزة .

للم خطر بيال بروتنس وفيدوكنج وعاميدن انهم يدافعون عن نظام اجتماعي وسياسي وثقافي جامع ضد هجوم عام يتهدى من رؤيا تصورية جديدة ساما للمجتمع ، وكيف يتمكن أن يكون * ولا ريب أنهم شعروا ان ما يدافعون عنه له أهمية تتجاوز الوصف المباشر وما يتربى عن هويتهم في هذه الناحية من ردود فعل بعيدة الأثر ، وإطلاقا من هذا الشعور ، باتت الخطوة قصيرة للغاية للاقتراب من المنظور المحافظ السافر . وبإلها من خطوة قصيرة حقا ، وإن كانت حاسمة ، ولم يتم بخطوها اعد في ألمانيا قبل يوستوس مورر (***) ولقد أصبحت آنئذ كرد فعل لا ماص منه لسحدى التنوير (****) بيرنامجه العام الذي يدعو إلى أحداث تحول في كل قطاع من قطاعات الحياة ، وأرغم ، التنوير ، أصحاب الميول المحافظة على التحلي عن تقليديتهم التي تولدت عن عدم استبطانهم لفاتهم ، يعني قولهم الفريزي للمعم للوضع الرامن ، إبناروا للدفاع على نحو سافر عن المجتمع في جملته ، والوعي الذاتي به ، ولعل ما هو أهدج من ذلك إرغام هذه النزعة التقليدية أنصار الاتجاه المحافظ على انتقاد مبنوسة قد عصر التنوير لذاته . غير أن الرد المجزا الذي يتناول كل قضية من قضايا البحث على حدة بالتحليل والفحص لم يحقق أكثر من انتصارات مؤقتة أو عامة ، وقدر للاتجاه المحافظ من بدايته أن يضطر رغم شجبه للنقد والمحاكاة إلى عدم الانحياز إلى السبيلين . والواقع أن بزوغ الفكر المحافظ والحاجة المحافظة قد ساهبا في اشتتال الممركة الدائمة للأفكار التي اعتبرها المحافظون - في أغلب الظن - أكثر مظهر روح العصر الحديث إثارة للأسف .

ولا بد أن نكرر القول بأن التورط المؤسف للاتجاه المحافظ قد ظهر منذ اللحظة الأولى من مولده . فالمحافظون يقدرون أي مجتمع قدام . أنه الكفاءة النظام الوطني بلا اعتراض ، وحيث يكون النشاط الفكري

Status quo
Weltanschauung
Justus Moerer
Aufklärung

(x)
(xx)
(xxx)
(xxxx)

أما في أدنى مستوياته ، أو يكون مكرسا لتهدية النبط القائم للحياة ، بدلا من تلبية ، وهم يفتنون ويستمتعون من عادة النقد - والتي اتخذت صورة منهجية إبان عصر التنوير - والتشكيكي كل شيء ، والسخط على كل شيء . ومع هذا فقد شعروا أنهم مرغوبون بتأثير الروح النقدية الجديدة التي يتصور كتبها على الدفاع عن المؤسسات التقليدية من كنائس وحكومات وأنظمة اجتماعية ، عند ما يوجه إليها أي هجوم ، ويشعرون غريزيا أن الحركة قد تعرضت لتصف خسارة ، بعد إرغامهم على خوضها . فلابد في رأيهم ، رغم بغضهم للمحاكمة والمجادلة ، أن يدافعوا ، رغم شعورهم بأن الاكتفء بالقبول بلا تساؤل أقدر على تحقيق الرضا الشعوري . وإرغامهم على الاقتناع ، رغم كون الاقتناع بلا ضرورة ، ولا يحتمل أن يعود بأي نفع . إن من يضع شروط المجادلة هو الفريق المؤمن بالحركة - ولقد كتب على الاتجاه المحافظ أن يحارب - بالضرورة - حربا دفاعية إلى الأبد . والانتصارات التي تتحقق عن طريق الجدل هي على أفضل الأحوال من الانتصارات المبتدئة للتشكيك (٢) . لأنه حتى المؤسسة التي تنجح في الدفاع عن نفسها مستحوذ إلى شيء مختلف تماما من تلك التي لم تتعرض لأي تحديات تدفعها إلى التزام الدفاع . فالقضية التضالفة لا تزيد عن عوض هزيل لسعر البراءة ، وإذا تعرضت البراءة للغشيان ، قلن يكون بالإمكان استردادها البتة . إن هذا هو المعنى الأساسي للقبول الذي ينسب إلى تالران : « إن من لم يشق قسا ١٧٨٩ لن يكون بمقدوره ادراك ما هي حلاوة الحياة » . وتبدو ضرورة انبعاث محافظ صرمة عند المحافظين الصبيين علامة لا تخطئ في دلالتها على اختفاء العصر الذهبي إلى الأبد .

نقد النزعة النقدية للتنوير

كان من الطبيعي أن يطلق المحافظون من حصونهم الدفاعية لشحن هجوم مضاد قوى ضد روح التنوير وأساليبه . وبالإستطاعة تحليل مجموعهم المضاد تحليلًا نافعا بعد إدراجه تحت عنوانين : أولا - نقد نتائج « السور » ، تشبها مع النظرة التي ترى أن علينا أن نحكم على الشجرة من ثمارها . ثانيا - الهجوم على دوافع التنوير وضروره الزعمية .

ويؤكد المحافظون أن التنوير قد أدى - على نحو منحرف وملبوس لا طر منه - إلى وقوع شرور ثلاثة : الشك ، واللا أخلاق واضعاف جميع

(٢) Pyrrhic نسبة إلى الفيلسوف اليوناني بيرد المؤمن بملعب للشك المطلق .

السلطات الثلاثة . فلقد أصبحت نظرة العقلايين الى الدين الايمان بالحقائق الأساسية للدين التلويحي . وفي نظر المحافظين . ليست هذه الحقائق متعارضة هي والعقل . ولكنها - يقينا - لا تتركز الى العقل وحده . ولقد ضل أنصار التنوير السبيل اساما عندما اعتبروا العقل القياس الأوجه للمصادقية . والواقع أن أنصار التنوير كانوا معادين لدرجة كبيرة للعبقرات والفبيكات والقدره الالهيه . وكانت النظرة التي ترتبت على رفض هذه العناصر الثلاثة الأساسية للمسيحية التاريخية هي احتمال نشوء دين « طبيعي » يحافظ على جوهر المسيحية (المتمثل في تصورات الله الخالق . والقانون الأخلاقي . والتخلود) مع التخلي عن كل ما يسمى بالعوارض التاريخية . على أن هذا الموقف لم يكن ملزما من الناحية المنطقية للمفكرين . كما أنه لم يجتنب السواد الأعظم من الشعب . فعالبا ما بدا هذا الحل مجرد توقف عند منتصف الطريق بين الفلسفة الكامل والمذهب للمادى الكامل .

وكان الشاعر والعالم السويسري البرنخت فون هالدر (١٧٠٨ - ١٧٧٧) من أوائل منتقدي تيار الشك . وتكتسب حجبته أهميتها من كونها قد تركزت على أسس نفسية بحثة بدلا من استنادها على العقيدة الدينية . فلقد ذكر هالدر أن الشك يضعف - بالضرورة - الايمان . يأسس الأخلاق التي تساعد على بزوغ نوع جديد من الانسان : الانسان الذي يجب حياته للجري وراء المتع الحسية غير المقيدة بتصور وجود الله منتقم في الحياة الآتية . فمثل هذا الانسان لن يعترف بأى قيود أخلاقية اطلاقا . وهذا الاتجاه يؤدي في الحياة الخاصة الى العواقب الآتية :

- ١ - انحلال الصلات المؤقتة محل الزواج ٢ - إهمال الأبناء - أو ربما النظر اليهم كمصدر قلق وأذى . ٣ - قتل الوالدين المسنين . لأن يقامعا على قيد الحياة لن يكون مناسبا . ٤ - ولما كانت الصداقة تحتاج الى شيء ما من التضحية . فإن أمرها سينتهي بالفصل . وستكون العواقب العامة جاثمة بالمثل . إذ سيختفى الشرف في المعاملات التجارية . وسيتوقف الخدم عن الولاء . لاسيادهم . وستتعمد قيمة التمهلات . وسيصبح الخوف من العقوبة الوقتية الكابح الوحيد للجريمة . وحتى هذا الكابح فإنه سيتعرض للوهن من أثر فساد دمة القضاة . ومن الآن فصاعدا . لن يطبش أى حاكم لمن يملكون تحت امرته . ولن يثق حتى في ايكال المحافظنة على سلامته لحرسه الخاص . إن هذا الموقف سيكون حتما الموقف الذي تحدث عنه هوبز . عندما وصفه وصفا دقيقا بحرب الكل ضد الكل . وقدم هالدر الصورة الآتية للانسان انشاك الجديد :

« ان الشاك الذى ينكر وجود الله منتقم ، وينكر الحياة الأبدية الآتية يحصر سعادتنا في الفترة الوجيزة لحياتنا فوق سطح الأرض من حيث الديمومة ، ويحصر تمتعنا في الاستمتاع - من حيث الجوهر - بالمتع الحسية . انه يؤكد ان لكل انسان الحق في السعادة ، وان عليه ان يبتنى اليها حيثما تكون ، ويتساوى المجرم هو والقدسي في استحقاقها لهذه السعادة ، وينظر الى متعة الحب - وعلى الأخص الجانب الحيواني من الحب - والى أكثر الأشياء اتلوة لحواسنا على أنها تسمى خير يصيب الانسان - فهي وجعنا التي تحقق لنا السعادة ، حتى اذا تحققت عن طريق غير شريف ، ولم يرض عنها أقراننا من البشر ، فلا يجب على الإطلاق أن تنقيد هذه السعادة بالكلمة المتصلة باليأس المساة بالفضيلة ، ان هذا المعنى بالذات من أوهام الخيال ومن السبل التي اخترعها البشر ، انه حقا ثبت غريب لا ينمو على نحو طبيعي في قلوبنا . ان ما نتمنى به من تأنيب للضمير أو احساس بالذنب يطاردنا بلا مودة ، يجب أن يسنيه ، وينظر اليه على أنه مجرد فكرة مستحوزة علينا من تأثير الضميريات والطمطمات التي وجهتها الحياة اليها في الطولية . نعم علينا أن لا نفكر في الله قط . وقد ثبت انه لا وجود لأخرة ، ومن ثم فلا شيء يسحق ان يخشى سوى المخلوق الوحيد الذي يشوه سعادنا ، يسى الملاد العام ، فحتى الفلاسفة الذين يخشون شيئاً آخر ، أى لا شيء ، أعلى في السماء أو تحتها ، فإن عليهم أن يحترسوا منه ، وما فقط ، -

ثم قارن بعد ذلك هالكر القوضى الأخلاقية التي تنجم عن الشك ، وما يترتب عليها من حدوث حرب لكل ضد الكل ، بصورة حياة المسيحي التقليدي المتأغية :

« تترتب على الايمان المسيحي نتائج متعارضة على طول الخط هي والنتائج الناجمة عن الكفر . فالذين يوحى الجهود والإرادات المتساعسة ، ويضعها في جهد واحد ولاة واحدة تتركز حول الله ، فقانونه يطالسا بحبه ويحب جيراننا أكثر من أى شيء آخر ، مثلما نحب أنفسنا ، فكم هناك من حكمة لا نهاية لها . وكم هناك من قدرة لا متناهية على فعل الخير تكمن في هذا الايمان البسيط ؟ - ان الوحي يعلمنا أن مصيرنا لا يتبع هذا العالم وحده ، ومن ثم فلا بد من الاستمتاع بخيرات الدنيا بمتعظ ، وأن لا تتعلق قلوبنا بها . فنحن نعرف ان إقامتنا في هذا العالم مؤقتة ، وان الموت سيقبل علينا ، عندها ننتقل الى عالم روحيات تختفى منه متع الجسد . ويفقد كل طموح معناه ، والحق أننا بحكم الطبيعة كائنات متدنية ، تحتاج الى اعادة تشكيل عن طريق العناية الإلهية ، قبل أن

تستحق من جدارة الاعتقال الى حضرة برقنة آلاف المخلوقات ذات الطبيعة التي تسمو على طبيعتنا (الملائكة) .

ففي هذا المسالم الراهن ، نحن جميعا نخوة مكلفون بالالتزام بأن نعمل للآخرين كل ما يتمنى أن نقوم به من أجل الله يشيب بلا حدود ، انا ظهر وسطا متخفا في مظهر انساني وطلب منا اللون ، ان هذا المسمى أبعد الراما من أية شريعة أخلاقية تدفع اعتمادا على البلاغة الانسانية فحسب ، فمن هذه القوامين الأساسية القليلة تتدفق جميع الفضائل المدنية ، وإذا أطيعت فانها مستثمر - قطعا - سماعة البشر على الفور ،

ولكن يوازن بين صورته الأولى لرذائل الشاك ، خصص هالدر باقى مقاله لنقد عن فصائل المسيحي ، فباين بين الحياة الأسرية المسيحية ، وما يكتنفها من شعور بالارنياف ، والقلق للترتب على الصلوات الجنسية المؤقتة ، وقارن بين تربية الأطفال على الطريقة المسيحية ، بما يحدث عندما يكون الأبوان مهملين لا يسيان تغير البحث عن المتعة ، وقارن بين رضا المسيحي عن كل موقع في الحياة والواجب الأخلاقي الذي يدعو الى الالتزام بما يفرضه هذا الموقع - ويوسك أن تقارنه بسمى الشاك وراء الطلوح والاشباع الحسى بلا حسود ، وأن تقارن بين التزام المسيحي بالقانون الأخلاقي المفروض بحكم الوعي بوجود الله حاضر في كل شيء ، وعدم التقيد بأية قاعدة أو أى قانون عند الشاك الذى لا يخشى غير اكتشاف الشرطة له - وهناك اختلاف بين التصور المسيحي للحكومة ، حيث تعد طاعة السلطة انكسبية عن جدارة واجبا معنويا ، وطرح هالدر الرأى المحافظ الكلاسيكي ، والقاتل بعدم وجود مجتمع محضر بمقدوره الاستغناء عن الأسس الدينية - وأضاف أن هذه الأسس لا يمكن أن تكون غير مسيحية ، على الأقل فيما يخص المجتمع الأوربي - فمارا بالاستطاعة الحيولة دون تفكك الحضارة الأوربية بفضل التأثير الباقي للمسيحية - وصور هالدر المجتمع الأوربي على أنه يصا منزلا عن الرصد (الروحي) الذى تراكم عبر القرون التى سبقت « التنوير » ، وليس هناك سوى الرؤى القائمة لما قد يحدث اذا لم يشرع في التو هي تعزيز وصيد أوروبا من المسيحية .

وانضم كتاب محافظون آخرون الى هالدر في تصويره عدم قدرة العقل وحده الاتيان بأساس لأخلاقيات تفي باحتياجات المجتمع ، وأكد بانفارى محافظ مرموق : كارل فون اكارتمهاوزن (١٧٣٢ - ١٨٣) في حاجاته على اعتبار الدين التقليدي دعامة ما استمر في اليقاف من اخلاق في أوروبا ، كما أكد على عدم استطاعة الأخلاق الاستناد على غير

المبادئ الدينية والتقاليد ، وليس على المستندات العقلانية لأي أفراد مهما كانت هويتهم .

ويسأل هائلر لنتور ، الذى لا يكتف عن نقد المبادئ التقليدية ، إلا تدرى أن القانون الأخلاقى يفقد قهراً كثيراً من قواعده إذا لم يتوقف عن الظن فى أذاننا أثناء طفولتنا ، أى قبل عدة طويلة من بلوغ عقولنا مكانة تؤولها للحكم على المصائب التى تلحق بالإنسان من وراء الرذيلة ، ويهتم إيكارتسهاوزن « لنتور » بالفضاء على الإحساس بالخزي : إن الشعور بالخزي الذى تنشر به عندما تناقب عقوبة متصلة من بين النعم النفيسة التى وهبتها لنا الطبيعة ، فلا وجود لبدل لشخصية العقوبة الإلهية لنفع الأخلاق . ولا سيما عند أنصار المذهب الكادى الذين يجنحون إلى الظن بأن العقوبة الدنيوية التى تنفذ بواسطة « المجلة » أو « رشا » بواسطة أدوات تعذيب آقسى ، لا تختلف من حيث المبدأ عن نزلة قمرى ثقيلة أو حمض كلوى موجع « إن هذه الأسباب النفسية حصلت من المحتوم على أوروبا بواسطة التعلق بالتقاليد المسيحية . حتى بغض النظر عن حقيقتها اللوجيائية ، وذهب إيكارتسهاوزن إلى ما هو أبعد إلى حد إصراره على القول « بأنه إذا ظهر عرضاً علم صحبة المسيحية - وإن كان هو بالذات من المؤمنين للمتحسين - فإنها مستحاجة رغم ذلك للحفاظ عليها ، لأنها تمثل الأساس الممكن الوحيد للأخلاقيات الأوروبية » . وتوسل إلى « لنتور » أن يلتفت إلى المثل الذى ضربه سقراط الذى كثيراً ما حللوا له كرفيق روحانى . فلقد كان سقراط حريصاً على مراعاة المبادئ الدينية الآتية ، التى لم يتظاهر باحترامها بناء على أسس دينية . لأنه أدرك أنها الأساس الممكن الوحيد للأخلاق الآتية .

ومن بين النتائج الأبعد « لنتور » القضاء على كل احترام للسلطة القائمة . فلا وجود لأية مؤسسة مهما كانت درجة احترامها محصنة من النقد . ولم يكتف « لنتور » بتحويل النقد الهدم إلى عادة شخصية ، ولكنه عبد إلى استحداث الكافة - مهما كانت هويتهم ، أى كانوا من الثغوم أو من غير المتعلمين - إلى مشاركته فى هذه المائدة . وكان الكاهن اللوترى المدعو دانيال يواقيم كوين (*) - من يومانيا - واحداً من العدد من الكتاب المحافظين ، الذين دافعوا عن الحاجة إلى السلطة الدينية والسلطة الدينية على أسس عامة . وكتب ١٧٨٩ - دون تأثر بالثورة الفرنسية - بأن أحداً لم يبرهن حتى الآن :

« على أن عامة الناس - في حالتهم الطبيعية ، لو فيما يحتمل أن يصبحوا - قادرون على أن يكتشفوا بأنفسهم الحق والخير ، ومن السامع أن عامة الناس - يعني السواد الأعظم من البشر - يعني التقدم وعيال الميومة والكلاسيكيين والحرفيين النارجيين ، وغيرهم ، الذين قد يكونون أصحاب مرتبة أسنى من الناحية الرسمية - وإن كان مسلكهم ماثلا في بدائته - عاجزون عن القيام بذلك ، نظرا لقوانينهم الفطرية (البيولوجي) وأحوالهم الخارجية في الحياة ، أنهم يحتاجون قطعا إلى الإرشاد من عل ، ومستظل هذه الحقيقة محتفظة بصحتها حادام عامة الناس يرضحون في أوصاف حالتهم الخارجية - فما دام الناس قد ولدوا ولدهم طباع وحشية يرتعون في الجهالة - ومستظل هذه الحقيقة سائدة إلى أن يخفى البشرية من فوق البسيطة - ويحصلون على التعليم الأخلاقي عن طريق التعليم والتوجيه من مصدر خارجي ما ، وما دام مضمون هذا التعليم ليس بالتوجه المجاهد ، ولكنه يشكل المسلك البالغ برمته للشعب ، لجميع هذه الاعتبارات ، فلا مفر من وجود إشراف ما على المبادئ الدينية والأخلاق التي ترضى على عامة الناس من خارج صفوفهم - ولكن من هو الذي يتولى هذا الإشراف الضروري ؟ لا يخفى أن هذا الواجب من اختصاص السلطة القضائية .

ولقد استعان المحافظون في القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا المرة تلو الأخرى بالمعج التي تنسب إلى أهل الصفة والمستولين .

ولا يقع المحافظون بالإشارة إلى المواقف الوخيمة التي ترتبت على « التنوير » ، عندما قضى على الدين والأخلاق والسلطة ، ولكنهم يلحون إلى المحاسبة (*) ضد الرذائل الشخصية « المتنور » - ومن غير الأصناف اتهام المحافظين بأنهم أول من لجأ للتحجيج الشخصي ، لأن مروجي الأفكار من الراديكاليين قد ذابوا على وصمم أعدائهم بأنهم عصبية من الأعياء والأدائيين من أرباب القول للستخلفة والأقطاط المتفقرين إلى الخيال ، ورد المحافظون على هذه الألفاظ المكررة ، التي تردد نضا واحدا بعيدا عن الأطراد ، بلضخ المتنورين ، ووصفهم بأنهم عصبية من التنصبيين والمتحمسين الجائرين الذين كرسوا أنفسهم للنقد السلبي المحض لأنهم لا يصلحون لأداء أي دور بناء ، وهو جبروا أيضا باعتبارهم شخصيات تقتصر إلى الاتزان وينقصها الإحساس بأهمية المشاعر والروحانيات والثقاليه ودورها في شئون الإنسان ، ولأنهم أصيبوا بنشوة في أفعالهم حالت دون رؤيائهم طائفي المشاعر القومية .

(*) غير المنزعة من المصالح الذاتية ad dominum

ولا يولع المحافظون بشئ، مثل ميلهم لزجر التعصب وعدم التسامح
 ضد المتنورين . وهذه اتجاهات تشهد بما لديهم من روح عدوانية ، لأن
 المتنورين يزعمون ، زعما صائبا بأنهم يسعون لازهاق روح عدم التسامح
 والتعصب باعتبارها دثائل . وخصم إيكارتسهاوزن جل أحد أحاديثه
 العامة (٥ أبريل ١٧٨٥) للتحذير عن عدم التسامح الأدبي في عصرنا
 وقال متعجبا :

« أيها التسامح ! أيها التسامح ! - يالها من كلمة رائعة ! كثيرا
 ما تتردد على الألسنة ، وإن كانت قلما تمارس في قرننا المتنور ! فنحن
 نسمع الفلاسفة الزائفين يصيحون في صلب : عليكم أن تفكروا منلسا
 تفكر ، والا فإتانا مستنعتكم في كتاباتنا بالمعتين أو المضللين ، وسنلهب
 ظهوركم بالسياط ، ونشكل بكم في نصف العالم - هذه هي الصيحات التي
 تنطلق من أفواه من أزهقوا روح الأدب - انهم لن يترددوا عن التشهير
 بالشرقاء الأمانة الى حد التضلع عليهم »

ولهذه إيكارتسهاوزن الى وصف التعصب للخرافات عند « التنوير »
 في هذا النداء البليغ ، الذي وجهه لأعدائه :

« حيروني ، متى كانت الحزبيات ماثلة في آثارها للسخرية
 للفلسفاتكم ؟ ومتى كشفت عن مثل هذه الحمية الانفعالية لكسب المشربي
 لدعوة خاصة ؟ ومتى غمرت الحزبيات العالم بالكثير من النشرات الغامضة
 المتنافسة والمنيرة للسخرية ؟ ومتى سمعت الى تحيز العالم ضد من يمايها
 العداة اعتمادا على العديد من الأباطيل والنسوعات والأشعار والحواديت ؟ »

ونسب إيكارتسهاوزن الشهرة التي تمتع بها دعاة « التنوير »
 الى شين مسلكهم وأهوائهم ولهمم بالنار والتنكيل بالأشخاص -

ووجه المحافظون قدرا كبيرا من النقد الى الوسائل البشعة الجائرة
 التي لحا إليها « المستبدون المتنورون » - وبخاصة إمبراطور الهابسبورج
 جوزيف الثاني - لدى عرضهم لقضية التنوير - ولتكف بمثل واحد :
 المؤلف المحافظ ابن هانوفر : ارنست برانديس ، الذي شن في كتاباته
 هجوما شرسا ضد الطريقة التي اتبها جوزيف في اصلاح الكنيسة .
 ولابد من ملاحظة عدم شعور برانديس بأي تعاطف نحو الرهبانية بحكم
 كونه بروتستانتي ، ولقد أدرك إدراكا كاملا الحاجات المالية للدولة
 النمساوية التي دفعها اضطرارا الى مصادرة بعض الأديرة ، ولكنه احتج
 على الطابع المتهود لأفعال الإمبراطور والقسوة بلا مبرر التي عومل بها
 الرهبان والتنكيل بشخصهم . والتعبر الهيجي للفنانين الفنية التي

لا تقدر بشئ ، والافتقار انشام لتبجيل مؤسسات يزيد عمرها عادة عن مئات السنين ، والاحادى فى اعداد الراى العام بتؤدة لمواجهة خطوات تبدو الحاجة ماسة اليها ، وهاجم برانديس الامبراطور « المصلح » لئلا يكثر الافعال اتساعا بالروح الخيرة ، بالحق ، ووصفت بالنظرة المستبعدة ، وبخاصة عندما اضطلعت بالحياة التى اعتادها عامة الناس ، ومن أمثلة ذلك ، التأؤء لسلطات الرسمية الزائدة عن الحاجة ، وحمته ضد مراسم الدفن فى نوابيت خشبية غير صحية وغير اقتصادية ، ومثل جوزيف اعظم نمثيل « اختنود » بحكم اعتقاده المنطرس أنه يعرف على خير وجه ما الذى يعود بالخير على الآخرين ، ووجوب إعادة بناء المجتمع على أسس عقلانية ، وطلبه أن كل عدو للإصلاح إما يتصف بالقباه ، أو من الحقودين الأراذل ، ولا يستبعد جيمه بين الصفتين ، واعتقاده بوجوب الامراع بتطبيق برنامج التنوير دون مراعاة لأية عصبات تضرع طريقه .

وكثيرا ما هجا المحافظون أصحاب النشرات من أنصار « التنوير » ، ووصفهم بزمرة من الماطلين المأجورين العاجزين عن الاشتغال بأى عمل محترم ، ورسم ايكلرتهساووزن هذه الصورة البعيدة عن الملمحة لروحى معتقدات « التنوير » بلفظ قوة ، اشتهرت بها مجادلات المصير :

« انهم اناس يفتخرون الى أية فلسفة حقة . أدمعتهم مشحونة بما يسعى بالتصورات (للتسورة) التى يثت قبيهم على نحو مهوش . ساما ، ثم تعينوها لجزهم عن عضمها . انهم يفتخرون الى أية معرفة بالطبيعة البسرية ، لأن حياتهم اقتصرت على الدراسة » لو لورنياد القاهى فى أكثر تقدير . انهم فى واقع الأمر عابرة مزعمون ، بسراويل مثقوبة (*) أو أوباش ، أو أعضاء فى جمعيات سرية ، لو من ظلال الظل الذين يتصورون أنفسهم لدماء طرفاء (**) . ومن ينفسون عن حقهم وضميرتهم ، ويعتوبوا فى وجه كل من يفتخر الى تصورات مهوشة مثل تصوراتهم ، أن أعوانهم وأنواعهم منتشرون فى طول ألمانيا وعرضها وتضم طوائفهم فى كل مكان الساخطين الدائمى ، والكثير من المخدوعين فى أنفسهم من يتوهمون أنهم الحكماء الوحيدون . بينما الحقيقة هى أن كل ما يسمون اليه هو التور على وعاء يصبون فيه غاطهم الفكرى (***) . فهم يظنون أن لديهم القدرة على تسير دفة الحكم . بينما والحق يقال ، هم يتمسكون

Meisterhells Genies in terri senen Rosen.

(*)

Witzlinge

(***)

die dann froh sind, wenn sie einen Topf aben, wo sie ihren (★★★) Urath ausleeren Können.

بالجزء حتى عن تدبير شئونهم الخاصة ، وغلقون حتى أذانهم في ديون
لا يستطيعون الوقف بها ؟ -

ولاك المحافظون أن « المتورين » اناسي يوزعم الاتزان ، ويعملون
جوانب عديدة مهمة في حياة البشر ، وانى نصبتهم بمعتقداتهم وعملاتهم
التي تصور ملكاتهم الشعورية (٢) . ويتفق على هذا الرأي رواد الاجسام
المحافظ وشعراء حركة « الانتفاضة الماسفة » (٣) « سحرة الشمال » .
لقد روجوا الزعم بأن التور ينزع الى تناسي مطالب الناس وافتقار
والتيجيل والمخافة ، لأنهم يرون الحياة ينطور تقى متعصب ضيق ،
وجست غلايتهم - فوق ذلك - الى ايجاد نظرتهم للعالم عن الاحساس
التاريخي بشكل خطير . فهم لا يبالون كثيرا بدور الفرد ، الذي يعد من
أهم سمات التطور التاريخي . لما ما شغل أذهانهم فكان البحث عن مبادئ
تصلح للتطبيق في جميع المواقف والأوقات ، وتطبيقها على نحو يناسب
هذا التصور ، وهكذا فقد الحركة التاريخية التي وصفها المؤرخ
الألماني فردريش ماينكه ، بأنها واحدة من أعظم الثورات الفكرية التي
أقيم عليها العقل الغربي ، حليفا قويا للنزعة المحافظة ، وإن كان روادها
وكثيرون من لوائيل أنصارها ، خصوصا يوهان جوتفريد هرزر
(١٧٤٤ - ١٨٠٣) قد تاملوا بشخصهم مع الكثير من أجه في برنامج
« التور » .

واعترض المحافظون على الايمان « بالقبليات » عند المتورين كياناتهم
بأن الكون لا يتصف بخصايه الروحية المستقلة - كما اعتقد طويلا -
لأنه ميسور الفهم . وكان ايكارتسهاوزن من بين الكتاب المحافظين
العديدين . الذين لم يكتفوا بإثبات اعتقادهم بتحقير فهم الكثير من جوانب
العالم ، ولكنه طرب لهذا الاعتقاد - فلا أحد غير الله بعموره فهم حقايا
الكون الذي خلقه . فأنى لننقل المتناسي للانسان الاعتداء الى فهم كامل
للكون اللامتناهي ، والذي لا يتطابق - كما لا يخفى - هو والطابع المحدود
للمتاسي ؟ - ولقد أكمل الله بحكم رحمته الوجه النقص التي لا مفر منها
لفهم الانساني بالوحي ، وإن كان حتى الوحي نفسه يحتوى على عناصر
خفية عديدة . ولو كان ذلك ليس كذلك - كما يجادل ايكارتسهاوزن -
فإن الايمان لن يزيد عن حالة من الرضوخ الألى ، ويتوقف عن الاتصاف
بالفضيلة المسيحية ، فلا بد لكل ناهج أن يهتم التعامش مع الأسرار
الخفية وأن يشبه بها . وعليه أن يتفادى الخطأ والساذج الذي ولع فيه

والمثنيون» عندما اعتقدوا تشابه كل حقيقة نافذة وضرورية بالبلور في الصلابة والشفافية ، لأن الحقيقة « قد تحتوي على الكثير مما يصعب فهمه دون أن توصف لهذا السبب بأنها غير ضرورية أو من الحقائق التي لانفع لها » .

نقد استند اعتقاد مفكرى التنوير بالتقدم الانساني أساسا على ايمانهم بالنتائج النافذة للمعرفة العلمية التي تحقق الارتفاع الرفاهية المادية والسعادة الانسانية . ولكن ما القول اذا كانت المعرفة في المجالات الأساسية الحقيقية للحياة (الدين والأخلاق .. الخ) ثابتة في الواقع ، لعدم صلاحية المنهج العلمى للتطبيق عليها ، وأنها من الناحية العملية ربما تعرضت للتكوص بعد ارتفاع تيار الشك ؟ وكان برانديس من بين من رفضوا الظن بحدوث تقدم حقيقى فعل فى القرون القريبة العهد ، وليس هناك من يتكرر حدوث بعض التقدم فى مستوى المعيشة ، وإن كان هذا التقدم لم يؤد الى ما هو أكثر من زيادة الترف والإسراف والابتعاد عن الأخلاق ، نعم لقد حدث بعض التقدم فى التعليم ، وإن كان أثر ذلك قد أدى فقط الى تعرضى الطفيليات اللائقة لاصابة بالناهب المدمرة « للتنوير » . ومن ثم فقد انتهى بهم الأمر الى وقوعهم فرائس للاغراءات التي كن الأفضل تجنبهم لها . ان التقدم الحق لى معنى الا التقدم الأخلاقى للفرد وحسب ، وزيادة عمق ادراك حقائق الديانة المسيحية . ومن أسف لا يوجد ، ولو أوحى دليل ، على أن شيئا ما من هذا القبيل قد حدث . وعلى العكس ، فإن ما بات واضحا للعيان هو انتشار الابتعاد عن الأخلاق ، والوقوع فى براثن الشك ، إن أصحاب العقول المتعصبة الضحلة هم الوحيدون الذين يستفيدون فى حدوث تقدم ثقافى منذ عهد الاغريق القدماء ، فهل استطاع « التنوير » تجنب فيلسوف أعظم من افلاطون ، أو مؤرخ أعظم من توكوديد أو كاتب سير أعظم من بلوتارك ، أو رسام يتسائل فى عظيمته هو وراقيلو ؟ ان أسسوا أثر ترتب على منصف « السور » - فى اعتقاد برانديس - تزويد - البشر ببديل ميكولوجى للاعتقاد فى الخلود الشخصى ، مما ساعد على إضعاف المذهب المسيحى الضرورى للأخلاق الشخصية والاستقرار الاجتماعى . لقد زود البشر أيضا برؤيا يوتوبية للمستقبل ، يبدو فيها كل شيء ممكنا ، وأدى أيضا الى شلل المحافظين وما يلازمهم من إيمان وله بالقصور نادم من اعتقادهم أنهم يحاربون حربا ميثوسا منها فى نهاية الأمر ضد عبلة التاريخ التي لا مناس من دورانها .

أما آخر اتهام وجه « للمثنيون » فهو اعتقادهم الى الشعور الحرمانى القومى ، فانكارهم كلية (عالية) فى مضمونها ، ويرجع أصلها الى أوروبا

الغريبة ، مما يوحى بوجوب تعرضها لهجوم مضاد ذي طابع قومي ،
 ألا يجب على الألمان أن يؤمنوا وتتشبثوا بالمستفدات والمؤسسات الألمانية
 التي نبعت من الموروثات الجرمانية المميزة ؟ ولم تستطع هذه الفكرة
 أداء أكثر من دور صغير تسييا في القرن الثامن عشر ، لفلبة الروح لعالية
 (الكوزموبوليتانية) على هذا القرن ، ولكنها بشرت ومهدت لما أصبح أنه
 أعظم الحجج المؤيدة للاتجاه المحافظ في القرن التاسع عشر .

يكفي القول في هذه النقطة بأن الاتجاه الجرمانى للمحافظ لم يكن
 بمقدوره الاكتفاء بالاعتماد - سومبولوجيا - على مقومات المجتمع الجرمانى ،
 كما أجعلناها في القسم السابق ، ولكنه كان قادرا على الاستناد أيضا
 فكريا على الكثير من أقوى ميارات الحياة الثقافية في ألمانيا . إذ كان
 باستطلاع الاتجاه الفكرى للمحافظ في هجومه على « المنورين » و « التنوير »
 الارتكان الى أفكار مثل التعلق بالمطرفة (*) في حركة الانتفاضة العاصفة ،
 وعلى الزعة القبية لهامان ، والتاريخانية (**) لهردر ، والتبرم من
 الحضارة ، كما عبر عنه برانديس .

منهج الدفاع عن الاتجاه المحافظ

اعتمد الدفاع العام عن المجتمع الألمانى في سبعينيات القرن الثامن
 عشر ، وثمانياته - أساسا - على قمع أصوات النقد الراديكالى ، وزاد من
 صعوبة هذه التعددية في نظام العولة بالألمانيا . بيد أنه حدثت عدة محاولات
 لفرض الرقابة برزنها تيريرا راسخا حجة ترى عدم أهلية الأشخاص
 العاديين للتصديق بالتقائش في المسائل العامة على نحو ناضج . واتكأت
 أحيانا حتى الحكومة البروسية - رغم ما عرف عنها بوجه عام من نزوع
 نحو الليبرالية - على هذه الحجة لآخراس السنة رؤساء التحرير الذين
 سموا لهاحتتها . ولتكتف بمثل واحد للتقليل على ذلك . أنه حريدة
 حوكنج (***) الجريدة التي يكتبها الألمان للألمان) والتي تسببت في شكاية
 بعض القوم المحاورة من بروسيا . لا وحه في هذه الجريدة من نقد
 لحكامها . وقام في التو وزيران بروسيا (****) بلورسال توبخ شديد
 للمهجة لحكومة هالبرشتات (المقاطعة التي تصدر فيها هذه الجريدة)
 في ١٢ ديسمبر (١٧٨٤) به فيه ما يأتي :

Gefühl

(٤)

Historicism

(٥)

Journal von und über Deutschland . الجريدة التي كان يصدراها .
 Geking

Finkestein الكونت والثانى الكونت Hertzberg (وكان معروفًا)

بإيمانه بالتنوير)

« ليس من حق أحد إصدار أحكام عامة على الأفعال والإجراءات والقوانين والتشريعات ، والقرارات الصادرة من الحكام أو وزراءهم ، أو من المكاتب الإدارية أو المحاكم ، بما في ذلك - بوجه خاص - الأحكام غير المستحبة . ويصح هذا القول أيضا - بطبيعة الحال - فيما يتعلق بنشر الأخبار المتلقاة بصفة شخصية عن أمثال هؤلاء الحكام والفراد حاشيتهم ... الخ . فلا ينبغي أن أي شخص يعفوه يقتصر - بالضرورة - إلى المعرفة الوثيقة بالسياق العام للأحداث ودوافع الشخصيات العامة ، سيحجز عن إصدار أحكام تخص هذه المسائل ، وتستحق الالتفات إليها ... »

لن نستنير الأمة فكريا ولن ترتقي أخلاقها ، إذا دار نقاش متهور حول شئونها ، ولكنها ستزداد تعرضا للفساد . لقد أثرت الدافع الأرعن للتنوير - سمة عصرنا - إلى حالة من التطرف والخلاعة البعيدة عن اللياقة . لقد داس المتورون جميع الأشياء التي تنصف بالقداسة بالأقدام ، وجعلوا كل القيم الراسخة موضع إزدراء في نظر الشعب ، وأحدثوا بطلا في تصوراتهم ، وأشاعوا الشغب والفنسة والحسين والشجر والتمرد ، دون أن يساعدوا على تهذيب الشعب أو الهوى يستواء . . .

كانت هذه الحجة العامة هي التي يتذرعون بها في الأغلب عندما يطالبون بقمع جرائمه بالذات قد أقمعت على أحداث أية أسامة . ولم يتردد المحافظون عند شعورهم بالنفسب عن التوصية بالاتجاه إلى الضغوط الاقتصادية وغيرها من السبل لاحت الرافضين من أهل الحكم على أسكت الحورين ، الداعين إلى الفتنة ، . ومن الأمثلة التي كثر الحديث عنها الكونت أوجست فون ليمبورج - سيروم الأسقف الجسور لشباير ، الذي اتسمت عظاته بشدة الزوع نحو الاتجاه السياسي المحافظ ، وسخر منها شلوتسر (*) على نحو أساء للأسقف بالغ الإساءة ، وكتب شلوتسر بوصفه أحد دعايا هانوفر ، مما جعل حكومتها مسئولة - على الأقل في نظر شتيروم ، عن الأراء التي نشرت . ولا لم تسفر الشكوى الموجة لحكومة هانوفر - طريقة مباشرة - عن أية نتيجة ، لجأ الأسقف إلى « الدابت » أو برلمان المقاطعة في ويجمسبورج لتوقيع عقوبة على هانوفر . وعندما رفض البرلمان اتخاذ أي إجراء ، دعا أقرانه لشن الحرب على مصالح هانوفر (كان يقاطعون حامية حوتنجن التي ينتمي شلوتسر إليها) ولكن وملاء الحاكم رفضوا هذا الاقتراح غير العلي ، وطلنا هذا المثال على مدى استمهاد المحافظين للتملد في معارضة « التنوير » ...

وأصف المحافظون في أغلب الأحيان لما كان ينشر وينذع في الجرائد اليومية (*) . ولمي كثير من الحالات لم يهتموا عن النظرة الفارسية التي أسست لاختراع الطباعة التي طملا حلت له حركة التنوير ، واعتبرته من آيات العصر التي ستساعد على تحقيق التقدم الإنساني . ولكن المحافظين اعتبروه مصدر متاعب للبشرية ، وتبعا لذلك ، ساد الأسف أيضا لما حدث من تقدم في انتشار التعليم بين الكافة التي بها يزحف حثيثا نحو أمية الكتل البشرية . وتساملوا ألم يؤد هذا الإجراء إلى إتاحة الفرصة لاصابة عامة الناس بالتسمم الفكري ، والشعور - تبعا لذلك - بالتبرم من صيغهم التقليدية في الحياة ؟ وعبر الفيلسوف الشعبي (**) جازفه في كتاب بحث فيه عن حالة الزراعة في موطنه شيليزيا ، وعما شعرت به طبقة الأعيان بخصوص هذه المشكلة ، عبارات مؤدبا :

و لم تسنح الفرصة قط لجدودنا للمراكم وعبيدهم الأميين . على أن مثل هذه الأمية لم تمنعهم من زرع الأرض على نحو مماثل لما يحدث الآن في أقل تقدير . وكانت الآداب المرعية حينئذ أفضل بما لا يحتمل الشك . واليوم لم يند الأمر يقتصر على إتقان الفلاحين القراءة والكتابة ، ولكنهم شرعوا أيضا في الألم بالحبس ، بل ونزع بعضهم إلى تنقيف نفسه بالإطلاع على الكتب ، فهل سيساعد هذا حقا على ارتقائهم ؟ هل منصح حياتهم أقل انحلالا ؟ وهل سيصبحون دعايا أكثر انصياعا ولاء ؟ لو مزارعين أفضل للأرض ؟ إن ما حدث كان عكس ذلك . ألا يصح القول بأن آداب السلوك قد تدهورت بفجرة ملحوظة ؟ وأن الأعيان قد أصبحوا يعانون الأمرين في سبيل الحفاظ على تحكمهم في عبيدهم أكثر مما كان الحال عندما كانوا أميين ؟ ولو أحصينا من كانوا مصدرنا للسعاب في القرية (فلقد شهدت شيليزيا بعض اضطرابات بسيطة) ، ومن جرحوا إلى تصليل الشعب ، فانا سنكتشف دوما أن هذه الفئة قد انحدرت من صفوف من انحسروا وقتنا أطول في المدارس ، ومن انههروا بادعائهم الحكمة ... ومن القواعد العامة حاليا أن أكثر الفلاحين انصيافا بالأمانة هم الأغني والأهل . ويصادف ضابط الجيش في أرض الطاير نفس تجربة المالك على أرضه . ولن يختلف اثنان على القول بأن أسهل الفلاحين وأحسبهم طمعا هم الذين يشكلون أفضل الجنود . فيالاستطاعة معاملتهم كأنهم آلات . وإذا علمناهم على هذا النحو سيتسنى لنا الاعتماد عليهم بصفة مطلقة .

وهاجم المحافظون هجومًا ضارًا التعليم التقدمي الذي أدخله بلزيدو (*) وأتباعه ، ووصفوا أنصار البرزة الإنسانية (**) بأنهم مفسدون للشباب ، نعم لقد جاءوا بأناص أفضل نورا ، ولكنهم عديمو الفائدة في أي نوع من الأعمال البينة في المجتمع . واثار المثل الأعلى لبازيدو الذي سعى لخلق الإنسان « الشامل » ، بدلا من التشجيع على التخصص ، وتعليم الأطفال بروح تشعروهم بعدم وجود فارق بين ما يشقون من لعب ، وبين التعليم ، وأنهم لن يتعلموا الا ما يحبون تعلمه غنما يجنون أنفسهم على استعداد لذلك ، شعورا لمزج قيمه العلماء بالبحرية . وطرح شلوسر (***) قضية التخصص المبكر في الممارات الآتية :

« في أغلب الأحيان ، لا تكون مهنة الشخص متوافقة هي وما يجري للمكانة النحوية من تطور شامل (تخصص بلزيدو لهذه الفكرة) مما يدعى الى القول بأنه في غير مقصور المرء البعد منذ وقت مبكر كاف لنشيط ضبور ثلثي هذه الملكات ، لأن الأغلبية نهيا للنهوض بهما لا يتوقع استعادتهم منها في مستقبل أيامهم ، فلياذا ينضج الثور والمهر حتى تؤهلها لحمل مشاق جر العربات . ومع هذا فانما يسبل على انهاء القوى الإنسانية في شمولها مع علمنا بالمثل بأنها قد حكم عليها تحلل مشاق البير وجر العربات ؟ .. اهم سيسقطون في الأخاذيد ، اذا لم يدوا اعدادا صحيحة ، أو يرقسون يحافروهم علامات الارشاد حتى يصابوا بالتهلكة » .

واعتقد شلوسر ان مهمة التعليم ليست تخريج أشخاص شاملين متعددي المهارات ، وانما بالأحرى هي اعداد أفراد قادرين على أداء دور اجتماعي (مهما كانت درجة توافقه) لم يتعرض للمسح من جراء التوقعات العالي فيها . « فمن السبر صيغ أسمي درجات الكمال بالروح المثالية ، ولكن ما أصعب تحديد الدرجة المناسبة من الخير » . وقدان شلوسر ولع بلزيدو بالألعاب الرياضية كمثل لخطورة الاسراف في السعي وراء الكمال . فهل هناك هدف وراء تحويل الأطفال الى أبطال رياضيين ، بينما سبرهم معظمهم بعد البلوغ على ملازمة مكانهم ، وقد لا يحتاجون لتحريك أظرافهم ؟ ان ممكن أكبر خطر هو ما يتصف به الإنسان الشامل من حمة مشوعة تحميم بن اللعب والتمتة (ألم يعتقد بلزيدو في وجوب تنوع أنشطة الأطفال بحيث لا يستمر أي نشاط أكثر من نصف ساعة) . ان مثل هذا

(Johann Bernard) Basedow, (1706 - 1723)

(*)

Philanthropine.

(***)

J. G. Schlömer (★ ★ ★) (١٧٢٩ - ١٧٩٩) وهو من المؤلفين البارزين في

بائن والده انتخب من الكتب المسيحية والاقتصادية والتربوية .

الاسلوب هو أسوأ اعداد للحياة الحقة . « ألم يظن » أنصار الدعوة لخلق الإنسان الشامل عندما أخفقوا في تمويده سبحانه منذ وقت مبكر على الالتزام بعمل مستقر ثابت ، خصوصا العمل الذهني المتواصل الشاق الذي يستغرق مدة طويلة ؟ « نعم إن الحياة تتطلب الانتهاء من انجاز المهمة المخصصة من العمل للشخص ، قبل أن يفكر في الترويح عن نفسه ، غير أننا نرى يازيدو على عكس ذلك ، يعلم تلامذته حليطا مؤسسا من العمل والترجيع عن النفس . ومن أمثلة ذلك طريقته في تعليم اللغات الأجنبية التي يتبع فيها أسلوبا شبيها بأسلوب المباريات الرياضية ، بدلا من اتباع الطريقة التقليدية التي تعتمد على تحفيظ الكلمات على ظهر قلب . وارباب شلوسر في النتائج الجوهرية للطريقة الجديدة ، وكان على يقين من تمتع الطريقة التقليدية « بقيمة أكبر في بناء الشخصية ، وتشجيعها على الجهد والاجتهاد والجلد والانتباه : « إن من أنقى طقوله في الملاعب لابد - من ناحية أخرى - أن يظل ولما (لعبا) طيلة حياته » .

وانتقد برانديس برانديس مبدأ الاكتفاء بتعليم الأطفال المواد القابلة للفهم ، عندما يكونون مهيتين لذلك ، لأن هذا المبدأ يتجاهل حقيقة مهمة وهي أن بطي الأشياء المهمة لا تتبع الفهم على الإطلاق ، ولكنها بالأحرى تتبع الوحدان والاعتقاد . كالدين مثلا ، الذي استخف به يازيدو ، لأن مبادئه تعلم على مستوى الفهم عند الأطفال . واستمر يازيدو شعور الغضب عند برانديس برصه تعليم النشر ، الذي كان مسئولاً عن رعايتهم أي درس في الصلاة قبل بلوغهم سن العاشرة على أساس أن صلواتهم المبكرة لن تزيد عن تمتع بكلمات غير مفهومة لهم .

وأصدر إيكارتسهاوزن هذا الحكم النهائي على ممارسات المصلحين التربويين الذين يسرون على نهج يازيدو :

« أهم يفكرون إلى حسر الانتظار حتى يحل الخريف ، فهم يرغبون في إردعاز الأشجار وإثمارها في نفس الوقت ! أنهم يدعون إمكانهم إدراك صورة الرجل الناضج من خلال مظهر الطفل ، ولكنهم في الحق يحولون البالغ إلى طفل دائم » . أنهم قد وودونا نباتات أرغمت على الإخضرار في بيوتهم الزجاجية ، وحصل نكهة المستنبتات (*) طيلة ما بقي لها من حياة ، وتحدث ضررا بالغا للثة أي أسنان سلم السنة . أنهم يتوقعون تعلم أطفالا كل شيء بأسلوب المباريات الرياضية ، ومن يتخرج على أيديهم من شباب يظل طول عمره (لعبا) يعتقد أن كل نشاط جاد وشاق موجود مظهر من مظاهر اللعبية » .

وهل الرغم من أن المحافظين كثيرا ما أسفوا لانتشار التعليم بين الكافة (وبخاصة التعليم التفصي) وانتشار محو الأمية ، وغلبة جمهور قراء الصحف ، إلا أنهم أدركوا بالرغم منهم ، أن كل خطوة من هذه الخطوات المتطورة لها طابعها الذي لا يقبل الإعتدال ، فكل يؤمل أي سع إذا نحن اكتفينا بالأسف والحزن للعاسي ، واستنكرنا الحاضر استنكرنا عتيا ، إذ أصبحت مهمة المحافظين على نشر رسالة المحافظين وتعاليمهم في شتى الأنحاء ، لكي تنافس مؤلفات أدوية حركة التنوير ، وعكف المحافظون على نشر كميات هائلة من الكتب التي تعرض المبادئ الدينية والسياسية المحافظة في ثمانينيات القرن الثامن عشر ، ونشر على سبيل المثال أحد وعاط الكاتوليكيين (*) كتابا بعنوان : « كتاب مسيحي عن التعاليم الأخلاقية لأهل المدينة والريف » ، وطبع منه عشرات آلاف السبع ساء على طلب الملك كريستيان السابع ملك الدانمرك ، واستخدمت في الكتاب عبارات سهلة معصية بالأمثلة المألوفة المنقولة عن الحياة اليومية الفارحة في وصف واجبات المسيحي في الزواج وتربية أولاده ، وكسب العيش والمواظبة على الذهاب إلى الكنيسة والولاء السياسي الخ . وحث « ليدرزين » قراءه من أبناء الطبقة الدنيا على الالتزام بقضايا المسيحية التقليدية ، وأثبت أن هذا النهج ميمود بالخير على مصالحهم الدنيوى الأبنى ...

وحول ١٧٨٠ ، بدأت في الظهور طاقة من الجرائد المحافظة ، كانت تهدف إلى الحد من تأثير « التنوير » على عقول الطبقات المتففة في ألمانيا ، واقتصرت في البداية على اختيار الموضوعات الدينية اللاهوتية .

وسمي أستاذ اللاهوت يعق كوستر (**) وهو من الشخصيات التي لم يصعب على المسورين التندر عليها والسخرية منها ، بعد أن كتب دفاعا عن وجود الشيطان ، لعله ساعد على رواحه وسرعة ظهور طبعته الثالثة ! وعهد كوستر إلى الجزء من جميع البروتستانت أعضاء التنوير في كتاب أحدث الأحداث الدينية (***) (١٧٧٧ - ١٧٩٦) ، واقتدى به جولماخن (١٧١٨ - ١٧٩٤) ، ولكنه وجه سخريته إلى دور الكاثوليك في ألمانيا في مجلة الدين (****) ، وكان جولماخن من الأعضاء الأشبه لأنصار الإمبراطور جوزيف إمبراطور النمسا ، وساندته جماعة من السموعين في أوجسبورج

Jacob Friederich Feddersen

(*)

H. Koster استاذ اللاهوت بجامعة Göttinger

(***)

Die neuesten Religionen begebenheiten.

(****)

Religionsjournal في مجلة Hermann Goldhagen ليسوي

(*****)

تحت زعامة يوزيف أنطون فايسنتاج (١٧٢٤ - ١٨٠١) ، وهو كاتب
غزير الإنتاج ، عرف بوجه خاص من كتاب « نذر الوثنية الجديدة » (*)
ومشر اليسوعيون في أوجسبورج عندما خلاصا من إحدى المجلات عن « نذر
بعض الشقاء والمسيحيين وأصحاب النشرات » (**) (١٧٨٧ - ١٧٩٦) .
وهدف هذا العدد الى دحض جميع الكتابات والنشرات التي أصدرها كتاب
النوير في ألمانيا ، وأكد اليسوعيون أيضا الحاجة لمحاوية النشرات عن
طريق انتقادها واصطلحوا نشرات يصاد طبعها أكثر من مرة وتكتب
باسلوب شعبي بسيط . وتوزع على طاق مماثل لما تفعله دعاية حركة
التنوير ، وألقوا هم بالثلاث جملة نشرات . وأعدوا طبع العديد من غيرها ،
وبخاصة الأبحاث المناهضة للإمبراطور جوزيف في سلسلة بدأ ظهورها
١٧٨٣ .

وشعر المحافظون بشئ أشبه بالعجز في مواجهة نزوع أشخاص مثل
جوزيف الثاني نحو « الاتجاه التنوير المطلق » . ولم يكن بمقدورهم الدعوة
بسهولة الى العصيان ضد الملك الشرعي (رغم ما في سياسته من انحراف
عن الطريق السوي) ، سيما أصبح نمسا ممسيا المذهب اليسوعي الذي
كان يحض على إباحة دم الطماعة ، والذي ظل لهذا طويلا يتخذ كدريعة لقب
اليسوعيين . وتركز الأمل الأوسع للمحافظين في قوة المعارضة الجماهيرية
العامة كرد فعل ضد المبادئ النظرية الصارمة لجوزيف وعدم الحرص على
الاعتراف بحقوق رجل الشارع . وكان من الطبيعي أن يندل للمحافظون
قصاري جهدهم لإثارة هذه المعارضة الموجهة ضد إصلاحات جوزيف .
وفي البلدان المتناحلات التي استمر فيها بقا الاقطاعيات (***) ، وعلى
الأخص في المجر وبوليكيا ، حاول المحافظون تعبئة المواطنين ضد تهديد
الأوضاع الراهنة ، لما في الحالات التي اختفت فيها الاقطاعيات أو أصبح
أصحابها بلا حول ولا قوة . فلم يكن أمام المحافظين فيها أي خيار غير
المماناة والاستسلام . الى أن يتخلل الملوك عن برامجهم الإصلاحية .
متأثرين بما صاد من دعر في أعقاب الثورة الفرنسية .

Die Vorboten des neuen Heidenthums.

(١.)

Kritik ueber gewisse Kritiker, Baumgarten und Brue. (٢.٢.)

Staden

(***)

المراجع

- P. P. Bernard, *The Limits of Enlightenment : Joseph II and Enlightened Despotism* (1979).
- M. Butler ed. *Burke, Paine, Godwin and the Revolution Controversy*. (1984)
- T.C.W. Blanney, *Joseph II and Enlightened Despotism* (1970).
- D. Cameron, *The Social Thought of Rousseau and Burke* 1973.
- O. Chadwick, *The Popes and European Revolution*, (1981).
- J. C D. Clark, *English Society 1688-1832* (1985).
- R. Cobb, *Reactions to the French Revolution* (1972).
- A. Cobban, *Edmund Burke and the Revolt against the Eighteenth Century* (2ed) 1960.
- M. Freeman, *Edmund Burke and the Critique of Political Radicalism* (1980).
- G. B. P. Gooch, *Germany and the French Revolution* (1923).
- I. Kramnick, *The Rage of Edmund Burke Portrait of an Ambivalent Conservative* (1977).
- F. O'Gorman, *Edmund Burke. His Political Philosophy* (1973).
- R. Pansola, *Representations of Revolution 1789-1820* (1963).
- J. D. Popkin, *The Right-wing Press in France 1792-1800* (1980).
- E. Wangemann, *From Joseph II to the Jacobin Trials Government Policy and Public Opinion in the Hapsburg Dominions in the Period of the French Revolution* 2ed (1969).

سادساً :

القرن التاسع عشر

شهد القرن التاسع عشر تيارات ملحوظة في الحياة الأوروبية والمجتمع الأوروبي ، فتلقت القوة الصناعية لأوروبا الغربية باقي العالم ، ونزح الأوروبيون في عملية هجرة واسعة من الريف إلى المدينة . وفي أواخر القرن ، هاجروا من أوروبا إلى شمال أمريكا وجنوبها . وساعد الله الجغراف للروح القومية وجيوش بيدمونت وبروسيا على خلق دولة إيطاليا ودولة ألمانيا المدينتي . وساعدت مثل القومية وضرورة إنشاء دولة قوية على زيادة الوعي الذاتي عند الأمم - الدول ، القائمة بالفعل ، وعلى تعزيز مبدأ القومية .

وإرداد الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر تعقدا في أعقاب ربع القرن الذي شهد الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية . ويكشف بحث فرنكلين جالومر عن كيف انخفضت الاحتمالات اللاعقلانية الصادرة في هذا القرن . ويتضح أيضا عن الوعي الجديد بالتاريخ ، الذي سلب دورا مهما في نزوع أوروبا في القرن التاسع عشر نحو الاتحادات القومية ، ويبحث كيف اتجه الكتاب الرومانتيكيون إلى البحث على ضرورة تصدور المحتسب كأنه كائن حي يواجه مواجهة متزايدة عملية تفسخ اجتماعي .

وأحدثت النهضة الصناعية والهجرة تغيرا في الأوضاع الاجتماعية في أوروبا . وظهرت أدوار جديدة وتشكال جديدة للعمل . امتلكت مشاركة المرأة في هذا المضمار . وتطلعت حوان سكوت ولويسا تيللي كيف اختارت بعض الفتيات القادحات من الريف أسلوب حياتهن ، وما صادفن لدى قدموهن للعيش في بيئة مدنية . وتوضحن كيف تطلعن عاداتهن القروية التقليدية وتطلعنهن إلى حياتهن في المدينة . وجمحت أطلوني وول بدقة وحيرة عن الأمراض التي توطنت في الملل ، وجهود الحكومة والمهن الطبية للتغلب على المشكلات الفتاة الترتبة عليها .

وتمزقت مكانة الدول المستقلة على فكرة القومية على أنحاء شتى في منتصف القرن - ولم تكن حروب « الوحدة » الا وسيلة من جملة وسائل ، ويكشف فيبر النقلاب عن بعض السبل التي كانت تتبع في تعليم النشء القيم التي تتركز حول دور المواطن في الدولة العلمانية والحضارة العلمانية عوضا عن القيم الدينية - ويرى ان مسابقة المدارس كانوا من جملة نواح اعلم من شارك في بناء الأمم - وكانت أقوى دولة جديدة هي ألمانيا الإمبريالية ، التي اشترك في توسيعها الجيش المحافظ والظام الملكي البروسي - ويحلل جوردون كريبج دستور هذه الأمة الجديدة ، ويوضح كيف استطاعت المؤسسات المحافظة الامساك بزمام الأمور ، وتحديد اتجاه التاريخ الألماني مستقبلا الى حد كبير ، حتى في ظل الحكومة الدستورية ، التي طالما طالب بها الليبراليون في القرن التاسع عشر .

العالم الرومانتيكي

فراكتلين • ل • بلومر

لم يختلف المؤرخون بشأن القليل من حركات الفكر بلدر اختلافهم حول تقييم الحركة الرومانتيكية. قائمة اتفاق عام على أنه في الحقبة الواقعة بين ١٧٧٥ و ١٨٥٠ ، احتلت المصادرة معتقدات معينة عن الطبيعة البشرية والمعرفة والدين والمجتمع والتاريخ في أوروبا ، وأثبتت هذه المعتقدات اختلافها عن المعتقدات التي تميز بها منتصف القرن الثامن عشر إبان حركة التنوير . بيد أن هناك اختلافا بين المؤرخين حول : هل كانت هناك حركة رومانتيكية واحدة شملت جميع هذه الأفكار للتنوع ، أم أن كل لغة أوروبية مرت بتجربة رومانتيكية مختلفة عن تجربة الأمم الأخرى ؟ وفصلا عن ذلك ، ولما كان الكتاب الرومانتيكيون كثيرا (وإن لم يكن دائما) ما ينتقدون مقدرة العقل على تفسير سلوك الإنسان ، ويمجدون للالامح غير العقلانية في الطبيعة البشرية ، إلا أن هناك قدرا من الاختلاف بينهم حول هل عاد تراث الرومانتيكية على الحياة الأوروبية والحضارة الأوروبية بالفكر أم بالشر ؟ .

ومن بين وسائل التحليل التي تسمى لتوضيح العديد من المشكلات المتعلقة بالرومانتيكية ، النظر إليها كرد فعل رحيب متعدد الوجود ضد كثرة من الأفكار الراكدة في عصر التنوير . هنا تصادفنا مجموعة من التباينات للهمة . فبعد أن اتى كتاب التنوير على انتشار نود العقل ، جنح الكتاب الرومانتيكيون إلى الانبهار بالوضوعات القاتمة وبسالم الأحلام ، وبينما أعجب فلاسفة القرن الثامن عشر بتصورات نيوتن الميكانيكية للطبيعة ، فاننا نرى الرومانتيكيين كثيرا ما ينتقدون نيوتن ، وتصوروا الطبيعة كائنا عضويا حيا . ولقد ارتبط عصر التنوير بنقد الدين ، وبالتالي

(*) خلا من كتاب : Modern European : Franklin L. Benson
Thought : Continuity and Change of Ideas 1800-1950 (1977).

و قد ترجمت هذا الكتاب للغة العربية ككتاب واحد في أربعة أجزاء .

الى الله على أنه بعيد عن الحياة اليومية • أما الرومانتيكية فنبئت حركة تسعى لإعادة دحية الدين وتصور الله مصادر الانبيات حافرا في الطبيعة • ويقطعوننا الاقتراب منه من خلال للشاعر الانسانية الذاتية • ولعجب كتاب القرن الثامن عشر • بالعالم القديم • ، بينما كشف الرومانتيكيون عن تعصبهم من جميع النواحي للقرون الوسطى •

ولقد استند على جملة عوامل في تسرع ما حدثت من تحول في اللوق والفكر • ولكن كان أحد هذه العوامل الهمة - يقينا - الاضطراب الذي صاحب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ، واثقت هذه الأحداث ظلال الشك على اعتقاد القرن الثامن عشر الذي ذاع على نطاق واسع باحتمال الاعتراف بكفاية العقل الانساني كمعشدة أولى للشئون الانسانية • في هذا الجو من البلبلة والعمالة والتحولات الجذرية ، اتجه مفكرون كثيرون الى إعادة توكيد القيمة الموجبة للشعائر والدين والتكوين الاجتماعي العسوي ، وتبجيل الماضي •

تمتد جذور العالم الرومانتيكي مستندنا حيقا في القرن الثامن عشر • بل وربما في القرن السابع عشر أيضا • وجرت المادة على تمثل العالم الرومانتيكي كمعركة مضادة للتنوير ، مثلما يقال ان التنوير مضطرب معارض للمسيحية واثباتها بالخوارق • وعلى الرغم مما يبدو في هذا النظرة من صدق ، إلا أنه يصح ادراك تسرع اتخاذ الحركة الرومانتيكية هذه الصورة بغير التنوير ، وضح القول بأنها نيمت - من جانب - من السور • ، وانها لا تمثل بلحى حال مجرد ارتداد لعالم يتجاوز التنوير • ،

والحق أن الحركة الرومانتيكية كانت ثورة يقدر كونها ثورة مضادة أيضا • وليس من شك أنه ربما صح النظر اليها على أنها أول احتجاج كبير على «العالم الحديث» ، يعني الحضارة العقلانية العلمية التي بدأت تتشكل في القرن السابع عشر ، ولمنتعت أبعدها في القرن الثامن عشر • غير أن احتجاجها قد جاء باسم الروح المصرية الحديثة ، لا اعتقد بعضي الرومانتيكيين أنهم محدثون أو عصريون • بمعنى أنهم مسيحيون ، ومنافضون للكلاسيكية في ذوقهم الفني • ولكن بمعنى آخر ، بوصفها القول بأنهم كانوا عصريين أو محدثين ، أو أكثر حداثة مما كانوا • وبخاصة عندما اكتشفوا جانب الليل في الحياة والأحلام واللاوعي ، ولأنهم جاؤوا بالأساس النظري للترعة القومية الحديثة • وفي هذه الجوانب من بين مجالات أخرى ، لا يخفى أن الرومانتيكيين قد أثاروا موجلت من الفكر ، لم يبدن غيرها كاملا لي أن جاء القرن العشرون •

على أن هناك صعوبة مستعصمة لنا حاولنا تعريف الرومانتيكية . ولا يرجع ذلك الى « تعدد الرومانديات » التي بيها أدرك لوفجوي ، والذي نال باستطاعته اكتشاف عدم وجود « فكرة رومانتيكية أساسية واحدة » في الخليط المضطرب من الحركات القومية التي تصرف اليها الآخرون ، ووصفوها وصفاً سيئاً عن الحق بالرومانتيكية ، ولاحظ لوفجوي أيضاً اشتقاقاً بين « ألمانيا والغرب » ، نال حول الجدل إبان الحرب العالمية الأولى ، واستمر على هذا الحال خلال الحرب العالمية الثانية ، ورثي رد هذا الانشقاق الى الحركة الرومانتيكية ، التي زعم أرنست ترولتش (*) وآخرون أنها تتميز بجرمانيتها ، أو على أقل تقدير قد احتلكت في الدنيا احتلالاً جديداً عن صورتها في البلدان الأخرى . غير أن تعدد تصور أية حركة ، ونسبة الاختلاف الى الواسي الاسمية بقدر ما ، مسألة تستدرك فيها جميع الحركات الفكرية . وربما أضغنا في ادراك كيف تنطبق هذه الحالة على الرومانتيكية ، أكثر مما تنطبق على عصر النهضة أو عصر الإصلاح الديني - مثلاً - إن صعوبة تعريف الرومانتيكية ترجع أساساً وبالأحرى الى طبيعة الحركة ذاتها ، إذ كان لدى الرومانتيكيين أيا كان البلد الذي يتنمون اليه ، ولح بالجوانب الشخصية ، وإعطاه السدولة للشاعر الفردي والسمات الفردية - كما نجحوا في خوض غمار عالم المفارقات . ومن ثم فليس من اليسور دائماً معرفة ما الذي كان الرومانتيكيون يتحدثون عنه ؟ وما الذي عنده شلايرماتشر بالخصيص عندما قال هذه العبارة الغامضة : « التحديق المتد في الكل وفيها لا يستنفد ؟ » - أو ماذا قصد الفيلسوف فردريش فون شلنج بمصطلح « المثالية الواقعية » ؟! وتزداد المشكلة تعقداً إذا تمعنا في كلمة « رومانكية » ذاتها ، فقد اتصفت هذه الكلمة بموضهها الى حد غير مألوف في نظر الجميع ماعدا الأكان . ولم تقبل بالإجماع حتى بين الرومانتيكيين أنفسهم ، وفهمت وفسرت على أنحاء شتى ، وفضلاً عن ذلك ، فلم يكن « للرومانتيكية » منظمة أو مؤسسة أو مشروع جسور يصير عن غايتها ، كالموسوعة الشهيرة في القرن الثامن عشر ، ولم يكن لديها مذهب محوري ، أو حتى مرجع موثوق به ، مثلما بدأ الكتاب المقدس في الحركة البروتستانتية والإصلاح الديني .

لما هي الرومانتيكية أساساً ؟ لعل الأسهل هو القول ما الذي لم يتصف بالرومانتيكية ، أو ما الذي اعترض عليه الرومانتيكيون الأوربيون ، لقد وضع الفيلسوف الانجليز جون ستوروات ميل - الذي لم يكن هو بالذات رومانكياً ، ولكنه كان ملاحظاً متعاطفاً علماً بالأمور - بصيغته دون خطأ على مواضع كراهية الرومانتيكيين ، وقال عندما كتب عن ألمان

كارليل (١٨٤٧) : ان الرومانتيكية تمثل رد فعل « ضد ضيق افق القرن التاسع عشر » . وعلى الرغم من ان ميل كان يتحدث في هذه الكلمات أساسا عن الأدب ، الا أنه من الواضح مما جاء فيها بعد في مقالات أخرى ، وعلى نحو جلي في مقاله الشهير عن كولريج ، انه قد تصور الرومانتيكية كنمرد ضد الضيق في عدة جهات : في الفلسفة والعلم والفكر التاريخي والسياسي ، وأيضا في الشعر والدراما . إذ كان من بين الصفات التي استعملها يوماس كارلايل في معرض حديثه عن أحد قطاب حركة التنوير : « دييرو » (١٨٢٣) : « انه لا يترك غير الجبرنيات » ، و « هامشي » و « تافه » و « حريل » . ورفض كارلايل العالم المألوف لدييرو ، ووصفه بأنه « نصف عالم قلم دييرو بطله حتى يبدو كأنه عالم كامل » . « بطبيعة الحال ، كانت الإشارة في الجائتين الى التنوير الأوروبي ، الذي انسحب حينذاك مظهرا متجسدا ، وأصيب من ناحية أخرى بالهزال » . واعتقد الرومانتيكيون ان عالم التنوير ضيق الأفق ، لأنه اولع الى حد الانهماك بالتفكير الهنسي ، وبالمنهج الكلاسيكي الجديد الخائف له ، وبالمنهج التجريبي للوك . فالروح الهنسية رغم جرأتها الميتافيزيقية قد حاولت اختصاع الحياة بأمرها للعقل ، وبذلك « ميكسها » ، وحطت من شأنها تبعا لذلك . وصر المنهج الكلاسيكي الجديد بحكم طموحه المبائل وسميه للبحث عن أنباط مثالية للطبيعة الى فرض قواعد كلية على الفن والعنان ، بنت أشبه بالأصفاك الحديدية . وهوجم للمنهج التجريبي لسبب مقابل ، يعني لأنه يبالغ في التشك ، ولأنه قصر المعرفة الإنسانية - بصراحة - على عالم الحس والمظهر ، ونظر الى نيوتن على أنه الممثل الرمزي لهذا الضيق .

وكان عالم الرومانتيكيين على عكس عالم نيوتن المنضبط بالصوء علما ليليا ، وعمل الليل يتباينه هو والنهاو والضوء على « القدرة على التحليق والارتفاع بالأحتة التعليلة للروح الى آفاق لا متناهية تتجاوز عالم المكان - الرمان » . وقال الشاعر الفيلسوف الألماني نوباليس (فردريش فون هاردنبرج) : « كم يبدو لي الدور الآن تافها وصيبانيا » . وفضل نوباليس على « الجيوم المتوهجة التي ترى في السماء » « العيون اللامتناعية التي فحمها الليل لي » . ان هذه الظاهرة واحدة من أعظم السمات الموجبة للعقل الرومانتيكي وميله : التعلق باللامتناهي الذي يمثل على أنحاء شتى ، دنوبيا ودينيا - وعلى الرغم من وجود أوجه قرابة بين جوته وبعض ملامح من الرومانتيكية (وان كان هذا الشاعر العظيم لم يعترف بها دائما) ، فإننا رأيناه يقول في بعض الأحيان ، « ان أعظم سملة للانسان بوصفه كائننا مفكرا هي قبيله بسبرغور ما هو معروف . وتقديره الرصين لما هو غير معروف » . ولعل هذه القاعدة اقرب الى الروح الكلاسيكية منها الى

الروح الرومانتيكية ، لأنها وضعت حدودا لما يتقدور العقل الانساني معرفته والتطلع اليه ، مثلما سبق أن فعل كانط ، غير أننا نرى جوته في « فاورست » يتطلع الى اللامتناهي بطريقة الخاصة ، مثلما فعل بعض الرومانتيكيين الآخرين ، الذين لم يتنازل سمو علو احساسهم الميتافيزيقي بالعلو الذي سما اليه توفاليس

واتهمت الرومانتيكية على محاولة لاعادة احياء الدين . واتخذت هذه الحركة جملة مظاهر ، لم يكن أقلها شأنا النزعة الصوفية لاضفاء الروحية على الطبيعة . وكما لمح كارلايل ، لم تكن جميع هذه المظاهر مستلهمة من الاحساس العميق بالضياع الميتافيزيقي نتيجة لحركة التنوير ، وما أحدثته من تأثيرات ثورية . وشاع الاعتقاد بفقدان العالم لركيزته الميتافيزيقية والدينية في القرن الثامن عشر ، وبأن البشر في حاجة الى استعادته ذاتيتهم ، لو اريد مرة أخرى ظهور أبطال وأعمال فنية عظيمة . ووصف كارلايل بطريقة شائقة هذا الشعور بالضياع في فصل سماه « لا الباقية » في كتاب سارتور ريزارتوس (١٨٢٣ - ١٨٢٤) بقوله : « في القرن الذي اختفى منه الايمان » ، لم يعد لله وجود ، بل اصبح على هامش العالم ، ومقيما بقوانينه العقلانية ، وفي هذا الكتاب الذي يعد من أعظم مصادر نظرة كارلايل الى الله والدين ، يتحدث على لسان الأستاذ توفلسبريخ (*) عن الأزمة الروحية التي مر بها (من تأثير الأثر الأكل لشك عصر التنوير) ، وكيف بعد أن عيمنت عليه روح البحث ، انتقل من الشك الى المروق . وانطلق في وجهه باب الأمل فيما لذلك ، واعتقد أن الله في أفضل الأحوال « ربما كان غائبا عن الوجود » جالسا بلا عمل منذ أول مبيت ، مكتفيا بالنفراج على الكون من خلوصه لكي يدرك ما بداخله .

ولكن كيف يسترد الايمان الحيوي ؟ ان بعض الرومانتيكيين لم يحسوا قط في تحقيق هذه الغاية ، وكان اختلافهم سببا في اصابتهم بالاكتئاب . ومن ناحية ثانية رأينا كثيرين يمتنعون الكاثوليكية ، أو يرتدون اليها ، وإن كانوا قد بردوا فعلتهم بمبررات حديثة . انقسمت بروحها الرومانتيكية أيضا . وظل آخرون يتبعون البروتستانتية ، ولكنهم نظروا الى الدين نظرة رومانتيكية . غير أن هناك آخرين أيضا - لم يكن عددهم قليلا - خلصوا رداء الكسبة ، وابتدعوا آلهة حديثة واساطير حديثة ، واحد هؤلاء ولیم بليك الذي اوتفى في قصيدته الملحمية « اورشليم » الايمان بخلط مبالغ فيه من المسحة والاساطير الشخصية ، ولعل توفاليس كان من أتباع هذا الاتجاه . فرغم استمراره في اعتناق المسحة ، إلا أنه أثر الباس دينه زيا غيبيا وغرافيا ، فرأينا « صوفيا »

« التي ترمز للحكمة » في إحدى حكاياته الخرافية (*) تقول : « لقد انكشف السر الأعظم للكافة ، وإن ظل خافيا إلى الأبد » . بيد أن علينا أن لا ننسى أن مثل هذه النزعات كانت تمثل للمؤمنين بالخوارق الطبيعية ، معنى من تماثلوا هم وكلازيميل نفسه ، الذي اكتشف نوعا جديدا من الآلهة يعمل في المسالم والطبيعة . والحق أن هذا الآلهة لم يوصف بمجاورته للعالم فحسب ، لأنه يظهر في شكل ما أو هيئة ما ، فيما يقارب جميع التجارب الرومانتيكية على اختلاف صورها .

ويصلد الفيكوت دى شاتوبريان مؤلف كتاب بحيرة المسيحية (١٨٠٢) الذي يوصف بانجيل الرومانتيكية مثلا حسنا للنوع الجديد من الطغاف عن الكاثوليكية . واقترح شاتوبريان لاعادة الحياة لقيمة يفترض أنها ووريت الترتيب النزوع الى استهواء الوجود الانساني هوذا عن البراهين العقلانية لايتأت وجود الله . او لاعادة طرح العقيدة وقل : « ان الاديانة المسيحية ذاتها نوع من المشاعر لها عمرة الراسها وأشواقها وقتهادها وأتراسها ودوعها وولها بالمجتمع والوحدة » . ولوضح شاتوبريان مدى تمتع المسيحية بالشاعرية ، والرومانية ، ومدى إشاعها للاحاساس الفني - وبخاصة عن طريق كتابتها - التي يظهر التباين بينها وبين الحايث الاغريقية (مهما كانت درجة أنافتها) مما تحدثه من الثورة لمشاعر التهييب والندكرة بالانتماسي . وكم في متجزاتها التاريخية من آثار خلافة ، فلم تكن المسيحية مادية المضطرة مثلما ظن المؤرخ الانجليزى جيبون (وكم حفل كلامه بالناقض) ، ولكنها زودتها بأعلاقيات مامية وفن عظيم وأدب رائع ، وبكل سبيل الاقتراد بها بالزراعة حتى أبعد العلوم تجريدها ، وقال شاتوبريان فيما بعد في مذكراته : لو أنه أعاد تأليف كتابه ، فإنه مبيين فيه كيف أرسيت للمسيحية أسس التماسك الاجتماعي الحق والسلوة والمدالة . وهذا تضرع محسوب لاحتفاء الكافة بما في ذلك الشباب في حقبة انهيار ذهني أخلاقي (كما تصصور شاتوبريان) .

وفي ذات الوقت تقريبا . حاول قس شاب من أبناء برلين ، ممن تعلموا عند التقويين اللوراثيين إعادة احياء البروتستانتية اعتمادا على مخالطة الناس بصفتهم الفردية . بدلا من الاستناد على النفع الاجتماعي . وظهرت جميع أسس البروتستانتية الرومانتيكية في تصور شلايرماخر للالهوت المتشاعر . خصوصيا في كتابه اليأكر « وسائل عن الدين الى محترفيه من الخلقين » . الذي ألفه ١٧٩٩ بناء على اصرار أصمغاته الرومانتيكين في العاصمة البروسية . ودافع شلايرماخر عن الابتعاد عن الثقافة الفرنسية ، التي لم تعد تكثر بالدين ، والابتعاد أيضا عن المذهب

المقالة الطبيعية (٢٠) واللاهوت الخلقي يوجه ضم ، (يبدو أن تمركز هو
 وكانت عند أيام هراسه ، رفض ما قاله كانط عن « الدين في حدود العقل
 وحده » ، وتصوره اعتماد وجود الله والأخلاق على الوعي الأخلاقي عند
 الإنسان . ففي اعتقاد شلايرماخر : الدين شيء ، والأخلاق أو الفلسفة
 شيء آخر ، وتمائل هو والكثير من معاصريه في شوقه للاعتناقي . وهذا
 الاتجاه سببه الاختلاف عن محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، أو رد الدين
 إلى الأخلاق . وقال في تعريفه للمسيح : « الدين الحق يعني الإحساس
 بالاعتناقي وتلوه » ، ولكن أين يستطيع الاعتناء إلى الاعتناقي ؟ ،
 وود على ذلك : في صميم روح الإنسان ، يعني في المشاعر . ورغم
 اعتراضه على كانط ، إلا أنه تعلم من الفلسفة النقدية عدم الوثوق في
 البراهين العقلية لإثبات وجود الله ، وبذلك رجح بالدين إلى حالة ما قبل
 الإدراك والمعرفة . فالشعور شيء فردي ، حتى وإن كان ملكة من ملكات
 الروح الإنسانية . وينظر على نحو ما الواقع الموضوعي ، وإن كانت هذه
 الفكرة لا تبهر واضعاً . وأعرب شلايرماخر عن عدم ثقته في نظرة عصر
 التنوير إلى الدين التي جنتحت إلى صيغة بصبغة كلية تعسفية ، وقليل
 ظل أمداً طويلاً قائماً بما اكتشفه « العقل الكلي » . ولكن شلايرماخر
 ارتأى فيما بعد وجوب « لرفع الإنسان إلى المستوى الأعلى للفردية » فلم
 أعد أقبح بالنظر إلى الإنسانية على أنها كتل وحشية عمالية ، متماثلة
 في داخلها تماثلاً كاملاً ، وهكذا يكون قد أضفى على الدين الطابع الفردي .
 ونظر إليه نظرة سيكولوجية شعورية . فكل فرد عبارة عن تجسيم منفرد
 للكل ، ويجرب الكل بطريقته المتفرقة . وإذا كان الله شلايرماخر ليس
 الله أنصار مذهب وحدة الوجود ، إلا أنه - يقينا - الله كامن يمكن الاعتناء
 إليه في العالم ، وبخاصة داخل روح الإنسان ، وبروحه محبباً فيما بعد
 لكلية اللاهوت في جامعة برلين الجديدة ، استطاع التأثير بصق في
 اللاهوت البروتستانتي ، ودفعه إلى هذا الاتجاه « الرومانيكي » الجديد .

واعتنى الرومانتيكون إلى الله في الطبيعة ، في صورة احتسبت من
 مميزاتهم ، ولم يبتعدوا إليه جسماً بطبيعة الحال . فلم يكن بين هؤلاء
 المهتمين الفرد ذي فئتيه (٢١) أو اللورد بايرون . وإنما كان هناك بالتأكيد
 نفر ملت - ولقد سمي هؤلاء الفلاسفة المؤمنون بخوارق الطبيعة من
 تمردوا ضد الآلية البيوتينية لجعل الطبيعة مكاناً يستطيع الإنسان معاودة
 العيش فيه والشعور بالاقتراب من الله ، وبذلك يحل مشكلة الثنائية التي
 تكب بها المفكرون منذ عهد ديكارت . وبهذه دافع هذه الطريقة في التفكير
 في الطبيعة من روسو والمثاليين كثيرين ممن ساقهم تأمل الطبيعة إلى الشعور

Dahm

(٢١)

(*) الفكر الغربي Alfred de Vigny (١٨٢٧-١٨٦١)

بالانتشاء الصوري (*) . ولقد حلل جوته دائما في دراساته المورفولوجية اكتشاف المبدأ الجواني الأصلي للأشياء ، أي الأبدى في المتاحى عند (امبيسون المقدس) الذى أعيد احيائه في ألمانيا على اواخر القرن الثامن عشر ، وكان قد دعا إلى إله كامن ، بينه وبين الكون هوية على نحو ما ، وازدهرت هذه الصوفية الطبيعية في مذهب شلنج (**) الذى أعجب به أيضا أعجاب صمويل تيلور كولريج ، مثلما أعجب به الألمان ، وتمثل هذا الإعجاب في شعر وردزورث عن الطبيعة ، وعند مصوري المناظر الطبيعية من أمثال جون كونستابل في إنجلترا ودافيد كاسيلر فردريش في ألمانيا .

فالإنسان في نظر الرومانتيكين ليس بقياس كل شيء ، كما هو الحال في الفكر الكلاسيكي . واشتركوا في رؤية الإنسان في سياق قوى كونية عظمى يحتل به في كل ، أو « لامتناه » أعظم منه هو ذاته ، فقال الدكتور كلروس في كتاب بعنوان « تسع رسائل عن تصور المناظر الطبيعية » (١٨٣٦) : « عندما يتأمل الإنسان الوحدة الرائعة للمنظر الطبيعي ، فإنه يسي تفاعته ، ويشعر أن كل شيء عبارة عن جزء من الله ، وبذلك يشعر باستيعاب الله له ، وينبذ وجوده الفردى » ، ولا يتعارض مثل هذا التشديد على « الكل الأعظم » على أي وجه وإلى تركيز مسائل للفردية ، يلاحظ بالفعل عند شلايرماشر ، أو في عمليات الخلق الإنساني ، ولكنه يوضح الطبيعة المتناقضية - بالضرورة - للإنسان الرومانتيكي ، ففي الأنثروبولوجيا الرومانتيكية ، ليس الإنسان مجرد « كائن مسكن مادية الأرض » كما تصوره فيكتور هيجو ، « ولكنه مغلف منتج نحو السماء » ، أي إلى الأصل الذى يمت منه » .

إن هذا يفسر لماذا قام الرومانتيكون بثورتهم الكوبرنيقية في الإستمولوجيا . فلابد أن يزود الإنسان بالملكات المرافية المكافئة لاحتياجاته الميتافيزيقية ، وتطلعاته ، ولا تخفى علم كفاية إستمولوجية لوك للنهوض بهذا الدور ، لأنها خصت انطباعات الحس بأكبر دور في المعرفة . وحتى كاتل ، رغم أنه زاد من فاعلية العقل اعتماده على مقولاته الشهيرة ، إلا أنه جعل المعرفة قاصرة على الظواهر في عالم الظواهر . ومن هنا وضع كولريج ، الذى كان شديد الاعتراض على لوك ، وإن كان شديد الإعجاب « بحكيم كوتنجر برج » (يقصد كاتل) - ولعله لم يفهم على خير وجه - ملكة خاصة للفن سلماتها على نحو متبر للبحث « بالعقل » للفرقة بينها وبين « الفهم » . وكانت هذه الفرقة المشهورة

Réveries du Promeneur Solitaire

(*) كما حدث في كتابه

(١٧٧٨ - ١٧٨٨)

Naturphilosophie .

(***)

التي عبر عنها جميع الرومانتيكيين تقريبا ، على نحو أو آخر ، معروفة بالفعل في ألمانيا بفضل الفيلسوف جاكوبي وكايت بالنات ، فليس بمقدور الفهم (*) معرفة أي شيء خلاف الظواهرات ، وتبعا لنشيبه يسبب لشوبنهاور : يتشابه الفهم هو وإنسان يدور ويسبح حول قلعة لرسم واحدها ، ولكنه لا يمتدح قط إلى أي مدخل . أما العقل (**) فياستطاعته احتراق حواشي القلعة ، يعني النفاذ إلى ما وراء الظاهرات ، إلى الشيء غير ذاته ، وعلى حد قول كولريج : « فانه يختار الحقائق الخفية والموضوعات الرومانتيكية العامة التي هدفت إلى تحويل العقل من مرآة (***) إلى مصباح قادر على تسليط أشعته للكشف » عن أوضاع جديدة وسما جديدة ، لم يحلم بها الحسيون والفخوريون بأنفسهم » .

وقارن كولريج أيضا بالاستعانة بفخبرته التي لا تستغنى من التشبيهات ، العقل بنبات يمتص الماصر الخارجية ، ولكنه عندما يتفلسف تساهم أفافسه في انقراض البيئة . وبعبارة أخرى ، فإن العقل يتميز بالقدرة الخلاقة ، لأنه ليس قادرا فقط على النفاذ في الفسيات ، وأما لديه أيضا القدرة على تحويلها وبث الحياة فيها بخلق أعمال دالة على المبقرة الأصيلة . ويمقدور الإنسان استحضار عوالم جديدة للحياة بالخلق والاختراع اعتمادا على الخيال شقيق العقل . وقد نسب إليه كولريج القدرة التشكيلية (****) . وضح هذا القول بقدر كبير عن الفنان ، الذي استحق عن جدارة في العالم الرومانتيكي صفة المثل الأعلى للإنسان ، وحل محل فلاسفة (****) الموسوعة المشهورين . فرأى شبلي ، مثلا ، الشاعر شيئا أكثر من إنسان ، لأنه صاحب رؤيا يشارك في العملية الأبدية لإمالة اللسان عن « الجمال الخفي للعالم » ، ويثلل رأينا شلج يؤلف فلسفة كاملة النضج للفن يرى فيها الفنان وحده متفردا بين بني البشر بفضل قدرته على حسن « المطلق » . ومن ثم استطاع في عمله أن يمرض « لا متناهيا ليس بمقدور أي فهم متناه الإحاطة به » .

على أن هذه النظرة الرومانتيكية للمبقرة لا يمكن أن تفهم فهما كاملا بغير رجوع إلى اللاوعي ، فلس من شك أن الانثروبولوجا الرومانتيكية - بوجه عام - قد اقترضت وجود عقل لا عقلاني أو لا واع أو لا شعوري .

Verstand

(*)

Verunft وسماه Jacobl : "Glaube" أو الإيمان .

tabula rasa أو

(***)

emphastie

(****)

les platonophiles

(*****)

وربما صح القول بأن الرومانتيكيين ليسوا أول من اشترك بالاشعور ، إلا أنهم كانوا أول من تحدثت عنه بحرية وإفانضة - واستمتعوا بالاشعور لتفسير عملية الإبداع الفني ، وأيضاً للتحدث عن « الباب الذي » لحياتة الإنسان - معنى عالم الأحلام والوحوش والأشباح والأطياف ، فهو تصور ميتافيزيقي أكثر منه تصورا علميا - وتصوروا الفنان - بوجه عام - كأنه نبات ينمو لا شعوريا ، أو كوعاء يستعين به « الأيدي » في فلة وتصيره عن نفسه - واعتقد بعضهم كما فعل الشاعر الفنتان ولين بليك في الآلية الشعاعية (٣) - وكتب عن كتابه « ميلتون » : لقد نظمت هذه القصيدة بفضل ما أمل على لسان ميلشرا ... دون تأمل مسبق - بل وربما ضد إرادتي - وبطبيعة الحال ، يسير اللاشعور عن نفسه على أفضل وجه في الأحلام ... وهنا يتكشف جليا الفارق بين الفكر الرومانتيكي وفكر عصر التنوير - فلقد حاول مفكرو « التنوير » رد الحلم إلى ظاهرة طبيعية ترتد إلى التجربة الحسية ، ويستلخ تفسيرها عن طريق القوانين الأولية - وتعد حالة اليقظة الحالة الأسى ، لأن الروح أو النفس تفقد أثناء الحلم اتصالها بالعالم الواقعي - وقلب علماء النفس الرومانكيون مثل الدكتور كلروس وفون شوبرت (مؤلف كتاب رائع عن رمزية الأحلام ١٨١٤) هذا الحكم رأسا على عقب - ففى الأحلام - يتحدث الإنسان لغة أسس تمكنه من التنقل بنظره من الرواء إلى الأمام بغير التقيد بالحدود بالزمان ، ومن لم تنس له القدرة على التنبؤ في الأحلام ، وعندما تتفكح الروح عن عالم الانطباعات الحسية ، تتصل بالواقع الروحي ، وبذلك تساعد على انطلاق الشاعر المختبىء داخل الإنسان - وتوضح المبررات الاستهلاكية من قصة هينريش فون أوفترديجن لنوفاليس (١٧٩٩) النظرة الرومانتيكية الجديدة - ففيها يتحدث هينريش وأبوه عن الأحلام - ويقول الأب الشاب : « الأحلام يابئى كلام فارغ - ولقد ولت الأيام التي كانت الرؤى تصادف فيها في الأحلام » - ومترس هينريش : « لعل الأحلام لم ترسل إلينا من السلة مباشرة ، ولكن ألا يتعين علينا أن نتصورها رغم ذلك كنعم من السلة تزيح الحجب التي تخفي طبائنا الداخلية عن الأخصار . وتطلق عان المخيلة المقيدة بالأصفاة وترشدنا في سبيلنا إلى القبر المقدس » .

وكما بينا آنفا فإن اللاشعور أشبه بشفرة طرق - فبمقدوره حملتنا إلى عالم أسس ، ولكن بمقدوره أيضا إطلاق سراح القوى الفسطنائية الكامنة بداخلنا - وكان الرومانكيون على بينة بما تنصف به الطبيعة البهيمية من تشبعت وانطراب . وبالقوى الكامنة بالإنسان التي قد تفصل

بيده وبين عالمه . والتي فون شوبرت بنفسه مظاهرات عن الجانب الليلي في العلم ، ومحفذا من المظاهر الشريرة للاشعور ، ومن مظاهر الخير أيضا . وحشد هينريش فون كلايست ، متأثرا بتطبيقات فون شوبرت ، دراماته في نفس الحقبة (١٨٠٦ - ١٨٠٨) بشخصيات مثل كنتش فون هايلبرون التي صور فيها الحب قوة بدائية لا شعورية . وعلى الرغم من أن كولريج قد أثنى على عقل الانسان وخياله الالهي ، إلا أنه في أعظم أشعاره دمج بطله لاقرار جريمة لا عقلانية أساسا (لاشعورية) وهي قتل « القطرس » الطائر البحري ، مما سيؤدي إلى وجوب معاناته حتى يصبح على وعي بما اقترف ...

أما أرتور شوبنهاور فهو فيلسوف هذا الجانب الليلي من الانثروبولوجيا الرومانتيكية ، واكتشف شلنج أيضا نوازع قاتنة - لاشعورية إلى حد كبير - في النفس ، ولكنه ألهم جانب التفاؤل فيما يخص حرية الانسان ، وقدمته على التغلب عليها وتغيير طابعها . بيد أن شوبنهاور لم يؤمن بالحرية ، أو لعله آمن بها بقدر محدود . ففي كتاب « العالم ارادة وتخلل » (١٨١٨) عرف الشيء في ذاته (يعني الحقيقة) بأنها ارادة الميتى أو الحياة . وهذه الارادة عبياء ، لا مضطط لها . وبلا أساس ، وتتمثل سيطرة القطيع على الاسنان ، وتورطه - تبعا لذلك - فيما لا نهاية له من الصراعات والمخانات والتصدعات : « يتميز الكشف عن الطبيعة الباطنية للارادة بالصرورة الأبدية والغير بلا حدود » . وليس باستطاعة الانسان تحقيق أي نوع من السلام الا اذا أوقف رغباته تماما ، أو عكف على التأمل الاستاطيقي . وذكرنا ارادة شوبنهاور « بالهو » عند فرويد . فضلا عن ذلك ، فقد استمر فرويد يردد القول « بأن البشر ليسوا في حقيقتهم كما يتظاهرون » . اتهم مجرد أئمة : « اخلع القبا » . وانظر داخل الاشعور (وان كان شوبنهاور لم يستخدم هذه الكلمة بالفعل) فما الذي ستره ؟ انك ستري أمانية وعلا وحقا بلا حدود ، مصدر شقاء النفس والنفوس الأخرى، من تأثير سيطرة ارادة الحياة ، وكتب شوبنهاور في مقال متأخر عن الطبيعة البشرية :

« من الحق إذن القول بوجود وحش قابح في قلب كل انسان يتحين الفرصة للانفداع كالعاصفة ، والغضب ، كما يبين من اشتهاه الحاق الألم بالآخرين . لما اذا اعترض أحد سبيله فإنه يقتله ... وعندما يحاول العقل ترويضه وتلجيمه إلى حد ما ، فإن حارس هذا الوحش يعاني الأمرين . ولربما نزع الناس إلى تمثيل ذلك بالشر المتطرف الكامن في الطبيعة الشريرة .. الا انني أنسب ذلك إلى ارادة الحياة ، التي تزدد شعورا بالتفويض والكد من أثر المعاناة المستمرة للوجود ، ومن ثم فإنها تسعى لتخفيف عذابها بتخريب الآخرين » .

وليس بالتدور فهم المستندات الرومانتكية عن التنظيم الاجتماعى والسياسى الا على ضوء هذه الانثروبولوجيا . وبالإضافة الى التاريخ العام للعصر ، فقد انهمت الرومانتكية بجميع الخطايا السياسية تقريبا فى الكتاب ، يضى بالثورة ، وأيضا بالرجعية ، ويتبنى النزعات الفاشية ، بل وحتى بالافتقار الى الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية (*) . ويصح القول بمرور الرومانتكية خلال عدة أجيال بجميع ألوان العقائد السياسية المعاصرة على وجه التقريب بدءا من الاتجاه المحافظ ، الى الليبرالية والاشتراكية ، بل والقوضوية ، ومع هذا ، وكما يفهم ضمنا من هذا الرأى ، فإن الرومانتيكيين قد اسجلوا الى مختلف المعسكرات فى الصراعات السياسية للعصر . ولا يجوز القول بأنهم كانوا ينفرون من السياسة ، أو يرفضون التفكير فيها ، وإن كان قلائل من الرومانتيكيين قد شغلوا وظائف عملة بالفعل . وما من شك أن العالم الرومانتيكى قد أخرج عددا من الأفكار الأخاذة الجديدة والبيئة الأثر عن تنظيم المجتمعات .

ومن بين هذه الأفكار تبرز واحدة منها فوق باقى الأفكار . انها فكرة الكيان العضوى الاجتماعى ، ولم تكن هذه الفكرة - بطبيعة الحال - شيئا مستحدثا . وبالرغم من ذلك ، فإنها أصبحت تعنى الآن شيئا جديدا ، أو حرفت تعريفا جديدا . وليس من العسير فهم سر استهواها للعصر لنا ، فهى تعكس الخوف من الغوصى والعار فى عصر الثورة ، والضيق الذى تقصر به الكثرة ، وليس مجرد الاستقراط ، بعد انهيار المؤسسات وتفكك الروابط القديمة ، غير أنها حدثت قبل اوانها ، وبشرت بالثورة الفرنسية ، التى نستطيع اكتشاف اوجاسات فكرية مهدت لها عند روسو وبرك (ولا تعارضى بين الاثنين كما حاول برك الإيهاء) وعند هررد أيضا . وهكذا مثلت فكرة الكيان الاجتماعى العضوى نفورا لا من التناحيزات التى حدثت فى باريس أثناء الثورة فقط ، ولكنها مثلت أيضا نفورا من أسلوب السوير بأسره فى التفكير فى المشكلات الاجتماعية .

وضرب كولريديج على الوتر الحساس فى إحدى « عطباته » السياسية (**) ١٨١٦ ، واثنى لخص فيها الى جانب أنشاء أخرى ، نظراته الى أسباب الثورة ، وما أعقب ذلك من اقتصاصى . ونسب التمجر الى حد كبر الى الأفكار الزائفة التى لم يكن أقلها خطورة .

« التصور القائم على الانخضاع العام بإمكان تشييد الدول والحكومات على النحو المتبع فى صنع الآلات ، وأنه من الواجب مراعاة ذلك » وأيضا

تصور لكان التكهن بأية حركة واحتسابها مسبقا . ان الثمن الذي دفع في مقابل ذلك على حساب ما لحق بالحقوق الوطنية للبشر ، وربما بأرواحهم هو ما ترتب على ذلك من ظهور عدد كبير من المخططات والانسائير والمخططات ومشروع الانساب ، والنظرية الفظة التي أبدى كل داعية أو مبشر باقتراح جديد استعملته للتصوير عنه . . . »

ووضع كولريديج في مقابل هذه « الآلة » المخطوعة في نفسها ما اعتبره الفكرة الصائبة عن الدولة التي ترعا أخلاقية . أو دكل عضوي ، ولقد اعتقد كولريديج أن الدولة - أو المجتمع - أقرب إلى الكائن العضوي أكثر من قرابتها للآلة ، فمثلا لم يصنع الدستور الاسجيزي على غرار الآلة . لقد « بنا » كاي كائن حي عضوي في حقبة من الزمان . وتساؤل الدولة - بعد ذلك - هي والكائن الحي في كونها تتألف لا من ذرات مفردة تسمى كل منها لصلها الأتاني ، وأما من أجزاء عضوية ، يسي من أعضاء لها تاريخ كالملك والكيسة والملكيات . ويساهم كل طرف من هذه الأطراف بطريقه الخاصة لصالح الكل .

ولم تنصف النظرية العضوية التي جاء بها كولريديج بالأصالة . كما أنها لم تكن فاصلة على انجلترا ، والحق أنها مثلت نظرة اشتراك فيها رومانتيكيو جميع البلدان ، وتساؤل أكثرهم مع كولريديج ، أي ابدعوا متحمسين للثورة ، ثم اصبوا بالاحباط بعد ذلك . ولقد ورت كولريديج دانه المعركة عن انموذ بيرك ، الذي سبق له زجر الثوريين - قبل ذلك بسنوات - لأنهم نظروا إلى السياسة كأنها سرين عيسى . فلم يرحموا إلى الطبيعة البشرية أو التاريخ . وتفضل تأثير بيرك في ألمانيا ، مثلما فعل في انجلترا ، وإن كان الألمان لم يحتاجوا لبيرك لتعريضهم أن الزمان يدعو إلى الشدائد على دور المشاعر العامة (*) . فلقد هاجم الرومانسكون الألمان علم السياسة الذي يسهل إلى نموذج عيسى مجرد ، واستعاضوا عنه بشئ أشبه بالبيولوجيا السياسية التي أكلت دور التنو « الطبيعي » . باعتباره موارسا للخطيط الواعي ، وأكملوا أيضا دور المشاعر الجماعية بوصفها مقاومة للحقوق الفردية فحسب ، ويمبو شلايرماخر ، وكأنه اقتررب من بيرك عندما بدأ في بحث قلى على الأكاديمية الملكية للمعلوم في برلين ١٨١٤ المهتمسين المعاصرين للسياسة ، لأنهم عاملوا العول دائما كأنها أشياء ، « يستطيع الإنسان اختبار براعته فيها ، ولم يعاملوها إطلاقا كشكليات تاريخية للطبيعة . ولم يسهوا إلى عدم ظهور أية دولة عن طريق الصناعة ، حتى ما لا يتستع منها بالكمال » .

ورثى معظم الرومانتيكيين ، خصوصاً بعد الثورة الفرنسية ، الدولة .
 أو ، الدولة = الأمة « أسس صورة للكائن المصنوع الاجتماعي ، وهكذا
 لا يعد تصور ، الدولة = الأمة « بالضرورة تصوراً رجعياً ، وضح القول
 بأن الرومانتيكية سلّمت بدور أكبر من دور البعديين أو نابوليون في
 بروز الحركة القومية التي ما لبثت أن أصبحت واحدة من أكبر الأساطير
 الحديثة . ولابد أن ندرك عدم وجود تمارض بين هذه القومية الرومانتيكية
 والسرعة القردية الرومانتيكية . فالواقع أن أحداث الثورة ، والحركة
 الامبريالية الفرنسية التي جاءت في أعقابها قد ولدت شعوراً أقوى بالهوية
 بين « الفرد » و « الدولة » ، وعلى الأخص في ألمانيا ، ولكن ورغم ذلك ،
 فلقد حرص الرومانتيكيون ، حتى في ذروة حرب التحرير الجرمانية على
 الحفاظ على كرامة الفرد . وعلى الأخص من يتمتع منهم بالمعقودية . وتمثلت
 الفكرة الجديدة في أن الفرد سيسكن من الهوى يقدراته في ظل المجتمع
 لتتحد على نحو أفضل وبمعاونة الدولة التي أصبح ينظر إليها الآن على
 أنها تقوم بدور ريادي في خلق الحضارة . غير أن أهم نقطة هي اتجاه
 الفكر الرومانتيكي إلى تصوير الأمة في شكل فرد كبير ، يتمتع بشخصية
 مختلفة عن شخصية الأمم الأخرى ، وإن كان لا يلزم أن يكون مهادياً لها .
 يعني لقد عبرت الفردية الرومانتيكية عن نفسها سياسياً أساساً في فكرة
 الأمة . وتمثل هذه الفكرة مثلاً آخر للتمرد الرومانتيكي ضد الاتجاهات
 التعميمية والبالغة إلى « الكلية » في فكر القرن الثامن عشر . ويتحدث
 الفيلسوف الألماني فيشته في رسائل إلى الأمة الألمانية (١٨٠٨) عن
 الشخصية الفردية للأمة ، وكان فيشته قد عمل عن نظريته العقلانية المبكرة
 واتبع نظرة رومانتكية إلى المجتمع .

ولقد قام هررد بأداء هذه الفكرة قبل ذلك بسنوات ، عندما
 اشترك في شبابه في رحلة بحرية من ريجيا إلى فرنسا . ولمح أثناء هذه
 الرحلة الخصائص المميزة لكل بلد ، واختتمت في ذهنه فكرة الجماعة
 أو روح الجماعة (٣) .

غير أن فكرة القومية تعرضت لتغير ملحوظ عند المفكرين الرومانتيكيين
 المتأخرين . فبعد أن كانت في البداية فكرة حضارية إلى حد كبير ، انحلت
 طابعاً أكثر تأثراً بالسياسة . وبخاصة في ألمانيا من تأثير الامبريالية
 الفرنسية ، وبذلك بالاستطاعة وصف النزعة القومية عند هررد - مثلاً -
 بأنها حضارية إنسانية بحتة ، بينما اتسمت قومية فيشته التي ظهرت
 في ظل اذلال فرنسا لبروسيا ، بأنها سياسية وحضارية معا ، وكان

لهم إسهام قاعه حردد لفكرة القومية هو تصور « الفولك » ، الذي كان ميسا بدوره على فكرة الطبيعة . وكما يتعين أن نتذكر ، لم يكن ما نأثر به حردد في الطبيعة هو انتظامها الآلى ، ولكنه تنوعها وثرزها . وكتب يقول : « لقد وزعت الطبيعة خيراتها على لوجه شتى ، مرتبطة بالجو والثقافة » . وعلينا أن نفهم بالرغبا لأن الرمان ينبوع جميع الأشياء قد غاض الآن ببعض حياته ، تم غاض بعبث أخرى من مكوناته البشرية - على مهل - بكل مقوماتها وخصائصها الضبوية « . ويسمى هذا النوع فى اعتقاده - إلى تاريخ الشعوب - فى مجرى التاريخ ، اكتسبت كل « جماعة » طابعا فريدا أو روحا فريدة (*) ، تمثلت بصفة أساسية فى دينها ولغتها وأدبها . ولم تتألف الجماعة بناء على تماقد ، أو تبعا لمشيئة انسان أو إرادته . لقد نمت كما ينمو الكائن العضوى ، وكما يتحول فى نهاية المطاف إلى كيان حى مكتمل اعظم من الأعضاء التى تتألف منها . وعلى الرغم من تأييد حردد لجدا منح الحقوق الثقافية لجميع الشعوب - بما فى ذلك اليهود والسلاف - إلا أنه وجه رسالته أساسا للجerman ، فذكرهم بترانهم الأدبى العظيم ، وضرب مثلا بذلك بما جمعه من أغنيات شعبية (**) . وحث على التحرر من محاكاة النماذج الكلاسيكية والفرنسية ، وأكد فتوة الحضارة الجرمانية . وما ينتظرها من مستقبل باهر ، وباختصار لقد دعا الألمان لكي يموا أنفسهم ويدركوا أنهم شعب فريد خلقي ، له دور مهم يشارك به فى صنع الحضارة .

تزدونا هذه الأفكار الاجتماعية والسياسية بعبارة طبيعية إلى التصور الرومانتيكى للتاريخ . ولم نيزع التاريخانية إلى الوجود متانة مع الحركة الرومانتيكية ، وإن كانت هذه الحركة قد هيلت المناخ الصالح الذى تحتاجه لكي تنمو وتنتشر . ويصح القول بأن التاريخانية مظهر آخر للتعدد الرومانتيكى ضد النزعات التعميمية للتوير .

وترجع كلمة تاريخانية (معهم إلى أواخر القرن التاسع عشر . فهم ليست كلمة رومانتيكية ، ولكنها من قطانها ، وصمد ظهورها ، اكتسبت المديد من مختلف المانى ، بل للتناقضة . يده أننا إذا أحسنا استعمالها ، سنرى أنها تمنى التفاضل للمعاطف الحق فى الماضى إلى جانب الفكرتين التومين : التعدد فى الزمن والنمو . وفى أواخر القرن التاسع عشر ومشارف القرن التاسع عشر ، بلغت هذه المانى حديثة بالمقارنة بتصور والتوير للتاريخ .

Gesetz

Vollkammer

historicism وكلام إلى الإنجليزية historicism

(*)

(**)

(***)

ولا يخفى أن فكرة التغلغل الوجداني الرومانتيكي في التاريخ متضمنة في تصور المجمع ككائن عضوي ، ولقد ذهب هذا التغلغل إلى ما هو أعمق من مجرد الاهتمام بالتاريخ ، أو حتى بالاختناق بوجود شيء ما في التاريخ يمكن أن يعلم . فلهذا تساوى هذا التغلغل حقا هو ومسمى الورع والتقوى ، فلهذا أدرك الرومانتيكيون ، الذين كانوا يعيشون في زمان سريع التغير ، حساسة الانقطاع كلياً عن الماضي ، والوثوق في الطفل المجرد أكثر من الاعتماد على التاريخ ، وتعلموا كيف يعظمون أسلافهم بدلاً من الأسف لهم ، ورأوا في الأمة التاريخية مجتمعاً باستطاعتهم تصوره كممثل لهويتهم ، حتى وهو مستمر في نموه ، ويعرف عن أدمونه بترك هذا النوع عن الورع . فلهذا انحاز لجانب « التواصل » و « إظهار المصور القابرة » و « التقاليد المريقة » . وجميع هذه المصطلحات من الكلمات المحببة له . ولا وجود لامتداح للتاريخ يتمثل وهذه الجبل المقتبسة من كتابه عن الثورة الفرنسية (٥) (١٧٩٠) :

« لعلنا نعرف نحن معشر الانجليز المحدثين أننا لم نكتشف شيئاً ، وأنه من المستحيل اكتشاف شيء ما في الأخلاقيات ، أو اكتشاف الكثير في المبادئ الكبرى لدى الحكم . أو تصور الحرية . فقد أدركت هذه المعاني قبل مولدنا بأمد طويل . . . قبلنا من أن نلفظ المعاني المريقة المسنودة علينا ، فإن من واجبنا أن نطلق بها . »

وطرح هررد تصوراً لهذه التاريخية الجديدة في مقالين خطيباً بأكبر قدر من الرواج . وفي المقال الأول الذي كتب ١٧٧٤ ، قارن التاريخ بشجرة تتفرع منها جملة حضون ، دائمة التجديد لنفسها . وكان هررد مصباً حينذاك بالتركيز على المواضيع التي يزهو بها عصر التنوير ، والتي تزين منجزاته ، وأصدر أحكاماً بالأمراء أو اللوم على العصور السابقة ، واستند في دفعه نقده على كاتب مومسرى حضور (٢٥) ألف قبل ذلك معشر سنوات كتاب « تاريخ البشرية » . ومجد فيه تقم الإنسان من الهسجة إلى حضارة عصر السوير ، وأعلن هررد « السمية التاريخية » كعقوبة للنظرة المؤسمة بالتعصم . واختلف عن الانجاسات التيسمية للفلاسفة ، فاعتقد في سير الحضارات والأفراد بالطابع الفردي . وقال : لكل أمة ، وأيضاً لكل عصر ، مركز لسعداته مثلما يوجد مركز جاذبية لكل حرم سماوي . وبما على هذه الحقيقة ، لا يصح القول بوجود معايير كلية للحكم . فإذا أدركت حقا فهم أي بلد آخر ، أو قرن آخر ، عليك أن تغلغل في أعماقه وأن تشعر به في داخلك . وهكذا رد هررد الاعتراض

Reflections on the Revolution in France Edmund Burke. (٢٠)

Leak Leak, (٢٠٢)

التي ارتلها القويون والأتاولوجيا كسون والمترجمة وآخرون ، والتي
 نشطت وبثت روحا جديدة في حضارة اعتراها الوجود . ولم يأت هررد
 بجديد عندها وصف المصور الوسطى في ألمانيا ، بالصبر المتفرد ، ذاته
 فقد تميز نوافليس بروح مثالية أعظم عندها تصور القرون الوسطى كمثل
 أعلى لجميع المصور باعتبلاهما العصر الأعظم للإيمان ، ولا تمتعت به من
 وجهة ، وما اكتنفها من أسرار ، وإحساس بالقدمية ، وتبحرت كل هذه
 الميزات في عصر التنوير الذي خلفها . وغالبا ما صورت المصور الوسطى
 كصبر ذهبي للفروسية - الصبر الذي أصبح مهددا بالفزو الصناعي -
 وأيضا كصبر الحرقية والنوق السليم .

ودكرت بقدر أكبر المقالة الثانية لهررد ، وهي الأطول ، ولم يمتها :
 تأملات في فلسفة التاريخ (١٧٨٤ - ١٧٩١) ، وانخفضت الكلام عن معنى
 التقدم مثلما ذكر المقال الأول على الاتجاه الجديد للروح نحو الروح
 الفردية (الفضائل التي تتميز بها كل أمة ويتميز بها كل قرن)
 والسببية ، وتحدث هررد في هذا المقال « عن تربية البشر » ، وتطلمح
 نحو الروح الإنسانية (٢) - ويصعد هررد بهذا المصطلح « الماهية الجوهرية
 للإنسان » وتكوينه السلمي ، الذي يضم القتل والحرية والأحاسيس
 والبوازع الرقيقة المقام ، بما في ذلك تطلمحه على الآخرين ، الذي وصفه
 هررد « بأنه ليس شيئا جاهزا في النفس ، ولكنه قابل للتطبيق
 (بالقوة) » . وأخيرا استبعد هررد من مفهيه روسو ، واتجه بدلا من
 ذلك الى مقارنة التاريخ بسلسلة مؤلفه من حلقات مترابطة بالضرورة
 « بسلسلة لفة عبر العصور وجميع القارات والأجيال » . ولا يصح وصف
 هذا التصور بنسب في التقدم ، بالمعنى الذي فهمه عصر التنوير على
 أقل تقدير . واستمر بقده أثر من روسو لكي يلمحه للتشكك في إمكان
 التقدم نحو دولة ما في المستقبل تنسم بالكمال ، « فالزعة الإنسانية »
 بمثابة قيمة أو مبادئ حادية ، تقترب منها كل حضارة بالتقدم الذي
 يأسسها ، ولعل هذا لئلا لا يقبل التحقق بصورة كاملة عند أية حضارة
 على الأرض ، وفوق كل هذا يزداد هررد في هذه الحقبة اتجاهها نحو تصور
 وجود هدف ما ، وطريقة التقدم نحو هذا الهدف ، بعد أن أدرك بطريقة
 أكثر اكتمالا الجانب السلمي (التطوري) في التاريخ ، وكيف يبذل التاريخ
 من مظهره كأنه « برونيوس الأبدى » ، وكيف يحمل كل شعب في جعبته
 ما حدث من قبل ، وإن كان يحاول التفوق على ما يتعرض له من أحداث ،
 حتى يزداد اقترابا من غاية « الروح الإنسانية » ، بما يتناسب معه .
 وكان هررد قد ذكر بالفعل في المقال الأول ، وهو يشير بالدهشة :

« إن ما يحدث عند لقاء صهيبي وتطورا متواصلا ... ويصح أن يوصفه بالصيرورة في أوسع نطاق لها - وأثرت التاريخانية عند من جاءوا بعده من المفكرين ، وبصورة واضحة عند هيجل . فبرغم اختلافاته الحقيقية والمهمة عن هرزدا إلا أنه استطاع اصطحاب نظريته ، وتقدمها في صورة منسجبة . ففي فصل بعنوان « مبدأ التطور » في كتابه محاضرات في فلسفة التاريخ ، عقد هيجل مقارنة بين التاريخ والطبيعة . فلبس في وسع الطبيعة الإكثار لنفسها . بلا نهاية . (ولا يخفى أن هيجل لم يجمع أية نظرة رومانتيكية إلى الطبيعة) ، ومن جهة ثانية انتقد هيجل أن التاريخ لا يتصف بالسكون المطلق ، فبحكم تميزه بالتغير ، وتجدده العائم ، وتطوره نحو تحقيق الكمال . فإن طبيعته ما زالت . لم تتعبد . وعند هيجل ، تجسم الروح نفسها تاريخيا في العيزي ، يعني في روح الجماعة (٥) .

اعتادت التاريخانية الرومانتيكية تفسير التاريخ بلوجاهة إلى القاعلة « الروحانية » المقابلة للقوى المادية . فقال كارلايل - مسيرا اعتقاده بأن الروح تعمل من خلال الأبطال ، وبذلك تشكل مسار التاريخ . « إن الروحاني هو الذي يحدد المدي دائما . وما تاريخ العالم إلا سيرة عظماء البشرية » ، الذين استمر كارلايل يصفهم في محاضراته عن « الأبطال وعبادة البطولة » (٦) « بأنهم مبعوثون إلى العالم » . ومع هذا فلم يتماثل البطل عند كارلايل مع صورة الهمية عند هيجل . أي لم يتخذ معنى « الفرد التاريخي العالي » الذي يطور حوله دائما موضوع التاريخ أكثر من كونه الذات الفاعلة فيه . ويسخره (مكر القدر) لتنفيذ ما يريه وفقا لمشيئته . « فالبطل عند كارلايل يبرز كفرد خلاق ملهم من عمل . ولكنه ليس خاضعا لحنية ما . لأن أفكاره وأفعاله تصنع التاريخ أو توقفه . وكان رد فعل كارلايل أشبه قوة ضد الحتمية المفروضة من الجوانب المتدنية . إذ أصر على القول : « بأن الإنسان سليل قوة عليا . وليس عبدا للظروف والضرورة » . ولكنه القاهر الطافر بحكم انتماؤه للسماء » . وليس لدى الرومانتيكيين أي أثر من آثار البرعة البيئية التي روجها عصر التنوير ، والتي جنحت إلى تشويه سمعة الأبطال ، ووصفتهم بأنهم « صنائع الظروف » أو المؤثرات الاجتماعية .

وعندما ننأمل ما جاء في أعقاب الرومانتيكية ، فإننا نرى أنها حققت دورا ربما فاق الأهمية التي تزعم عنها . وعلى الرغم من موج بعض معتقاتها ، إلا أنها وضعت خاتنها العائم على العالم الحديث . وترجع

عصيرتها الى انها فوق كل شيء قد كانت على دراية بالصيرورة . اذ كان الرومانتيكيون يسون بقدر أبعد مما شعر به « فلاسفة التنوير » انهم يحزنون في عالم لا يكف عن التغير . ولقد قال كارلايل مستشهدا بشيللر : « ليست الحقيقة كينونة ثابتة » انها فعل مستمر « (٥) » غير أنه بالنسبة لكارلايل ومعظم الرومانتيكيين لم يكن هذا التصور غالبا نذيرا مفزعا بفقد كونه نديرا محفرا ، ويستطرد كارلايل ويقول : « لا شيء في التغير مصدر ازعاج » فالأمر على عكس ذلك تماما ، لأن التغير يكمن في جوهر نصيبنا في الحياة على هذا الكوكب « . فلم يكن التغير قد بدأ يتخذ مظهرا مفزعا ، لأنه كان بالإمكان ربط الصيرورة بالكينونة ، وإن لم يلزم أن يكون ذلك باتباع السبل التقليدية . أو لعل الأدق هو القول بأن ما حدث في العصر الرومانتيكي كان من بضائر الهوية بين الكينونة والصيرورة ، بمعنى عدم إمكان اكتشاف الحقيقة الا في عالم دائم التغير .

المراجع

- M. H. Abrams. *The Mirror and the Lamp - Romantic Theory and the Critical Tradition* (1958).
- M. H. Abrams. *Natural Supernaturalism : Tradition and Revolution in Romantic Literature* (1971) .
- J . S. Allen, *Popular French Romanticism : Authors, Readers and Books in the Nineteenth Century* (1981).
- I. Berlin, *Vico and Herder - Two Studies in the History of Ideas* (1976).
- K. Clark. *The Romantic Rebellion 1863*.
- J. Engell. *The Creative Imagination - Enlightenment to Romanticism* 1961
- H. C. Hatfield. *Aesthetic Paganism in German Literature from Winckelmann to the Death of Goethe* 1964.
- G. G. Iggers *The German Conception of History - The National Tradition of Historical Thought From Herder to the Present Day* (1968).
- H. M. Jones, *Revolution and Romanticism* (1974).
- J. J. McGrand, *The Romantic Ideology : A Critical Investigation* 1981
- H. Peyre. *What is Romanticism ?* (1986).
- P. Santon. *Pagan*. 1971.
- J. E. Toews. *Hegelianism : The Path toward Dialectical Materialism 1805-1841*. (1980).
- W. Vaughan, *German Romantic Painting* (1982).
- A. Wahlckl *Philosophy and Romantic Nationalism : The case of Poland* (1982).
- C. Welch. *Protestant Thought in the Nineteenth Century* (1972-1985).
- R. Welhk. *Concepts of Criticism* (1963).

المرأة ، عملها وأسرتها في أوروبا القرن التاسع عشر

جوان • و • سكوت - لويز • تيلي

يجب أن يفهمنا تجربة المرأة في القوة العاملة في القرن التاسع عشر قدر كبير من الاضطراب • وكثيرا ما يزعم أن النساء القابعات في دورهن كن تشغلن بأعمال غير منتجة ، وأن تحول المرأة من البيت إلى نوع ما من أماكن العمل الرسمية قد أدت إلى حدوث تغير اجتماعي حاد نسبيا ، والواقع ، أن التلامع البارزة للتجربة الاقتصادية والاجتماعية للنساء اللاتي اجتهدن أساسا للخدمة المنزلية وصناعة الملابس والنسوجات قد كشفت في نقلهن مظاهر من التقاليد الريفية من قيم وممارسات وتراكيب اجتماعية إلى الأوضاع الحضرية والصناعية الجديدة •

وكانت التصديقات الأسرة هي أهم مجال مارست فيه المرأة نشاطها قبل نزوحها إلى المدينة ، وما تلا ذلك • إذ كانت النسوة يعارضن في المناطق الريفية عددا كبيرا من المهام الاقتصادية داخل دورهن • ولربما عمن في مرحلة صباهن وبلوغهن إلى كسب العيش لكسب أجر يضاف إلى إيرادات الوالدين • وقد يدخرن أيضا جانبا من أجزهن للاستعانة به في دوطة الزواج • وبمجرد زواجهن • كن غالبا تواصلن العمل في دورهن وفي أعمال الحياكة والغزل ، إلى جانب رعاية أطفالهن • وكثيرا ما انضمت المرأة بمسؤولية إدارة المسائل المالية المنزلية •

وتولت النساء بعض هذه المهام إلى المدينة • إذ كانت أغلبية النسوة من المشتغلات بملحمة المنزلية وحياكة الثياب وصناعة النسوجات صغيرات في السن • ووحيدات • فقد كن من بنات أسر ريفية ، ومن ثم كن من السهل إغفالهن من أعمال الملاحه ، وانتقلن عن طريق الأنواع الثلاثة للعمالة إلى حياة تسودها الأوضاع السائدة في « البيوت » • وكانت الفتيات

(*) نقل عن (Comparative Studies in Society and History (Vol. 17)
من ص ٢٨ - ٤١ - ومن ص ٤٢ - ٦٤ تأليف Joan W. Scott, Louise A. Tilly

اللاتي يكنفن بأعمال من هذا القبيل يحولن جانباً من اجرهن الى البيت لكي يضاف الى دخل الأسرة . وربما اذخرن بعض المال ، استعداداً لمواجهة مطالب الزواج في نهاية المطاف . اما نوع العمل الذي ينجز في الخدمة المنزلية او في حياكة الثياب او في النسيج فكان من نوعية الأعمال التي جرت العادة على نهوض المرأة الريفية به . وعندما تتزوج الفتاة النازحة من الريف الى المدينة للعمل بها ، فانها تتخطى عادة عن العمالة . ولكنها لا تتوقف عن العمل توفيقاً تاماً . فائتد رعايتها لأطفالها ، فلا يأس من ان تشارك بالعمل نصف الوقت ، كلن تشتغل في معكم الأحيان بالحياكة ، مما يساعدها على الاسهام في الاقتصاديات الأسرة دون انقطاع عن اداء واجباتها المنزلية .

وعلى نهاية القرن ، تأثرت التجربة الاقتصادية وعمل النساء بالكثير من القيم الفردية للقرن ، ولكن التجربة البدنية للنسوة اللاتي اشتركن في ميدان العمالة عكست قوما ملحوظا من استمرارية القيم والممارسات التي انتقلت من الحياة الريفية الى حياة المدن .

كانت النساء اللواتي اشتركن بالعمل في أعداد كبيرة في القرن التاسع عشر يتبعن بأعداد كبيرة الى الطبقات العاملة والرفية . وشغلت معظمهن وظائف في الخدمة العامة وحياكة الملابس ، أو صناعة المنسوجات . وفي إنجلترا ١٨٤١ وحتى ١٩١١ . عكفت معظم النسوة العاملات على أداء الأعمال المنزلية ، أو على خدمة أشخاص آخرين . وفي ١٩١١ ، بلغت نسبة المشتغلات في الخدمة المنزلية (بما في ذلك الفساتين) ٢٥٪ وفي صناعة النسيج ١٩٪ وفي تجارة الملابس ١٥٪ - وفي ميلانو طبقا لما جاء بأحصائيات ترجع الى السنوات ١٨٨١ و ١٩٠١ و ١٩١١ ، تركز عمل النساء بالمثل على الاشتغال بالمنازل . وجمعت أعمال حياكة الملابس في المرتبة الثانية ، وتركز العمل في النسيج بدرجة أقل مما حدث في إنجلترا ، وبالمثل في فرنسا . مع استبعاد الاشتغال بالزراعة ، كانت الميادين الرئيسية لاشتغال المرأة هي العمل في النسيج وحياكة الملابس والخدمة بالمنازل . وفي فرنسا ، شغلت ٦٩٪ من النساء العاملات - خارج الزراعة - هذه الميادين الثلاثة ١٨٩٦ فكانت نسبة المشتغلات خادمت بالمنازل ٢٨٪ ونسبة المشتغلات بالحياكة وصناعة الملابس ٢١٪ والمشتغلات بالنسيج ٢٠٪ . وحدث تحول في النسب آفة الذكر ١٨٩٦ . ولكن كان المجموع الكلي ٥٩ / موزعا كالآتي : المشتغلات بالمنازل ١٩٪ والحياكة ٢٦٪ والنسيج ١٤٪ .

وعلى الرغم من الاختلاف الكبير في معدلات التصنيع بين إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، الا أن الدلائل تشير الى أن النساء في الحالات الثلاث

لم نشترك في أعمال المصانع (باستثناء مصانع النسيج) - بأعداد كبيرة -
والأرجح هو أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبها التطور الذي
جاء من إزدياد المدن وانتشار الصناعة قد خلقت فرص عمل في الغلب من
القطاعات التقليدية ، التي شغلت فيها النساء أعمالا شبيهة بأعمالهن في
المزول . وضمت التغيرات الاقتصادية التي أدت إلى ارتفاع نسبة العمالة
بين النساء ، ما حدث من تصنيع للمنسوجات ، والتطور الذي أدى إلى
الآثار من اتساع المدن ، وما يصحبها من أوضاع جعلتها تصل في أعمال
الانتاج وتسويق السلع الاستهلاكية ، وكما وقع لتشغيل الحاديات بالمازل .
وتضمن التوسع في انتاج السلع الاستهلاكية تزايد الصناعات الكبيرة
للبلبس بالقطعة ، وانتقل الانتاج من ورش الحرفيين إلى بيوت المشغليين
بجباة الملابس « المفصلة » - وخلق هذا التغير في عملية الانتاج فرص
عمالة لأعداد كبيرة من النساء - وأدى ما أعقب ذلك من تحول لهذه الطريقة
في انتاج السلع الجاهزة ، وإحلال منتجات المصانع محلها ، بالإضافة إلى
تطور صناعة المنسوجات وتقدم الصناعات الثقيلة ، أدى إلى حدوث هبوط
في إشراك المرأة في القوة العاملة في البلدان الثلاثة التي أشرنا إليها .

ولم تكن الوظائف الميسورة للنساء محدودة في عددها ونوعها فحسب
ولكنها كانت أيضا موزعة ، بمعنى أنها كانت تقتصر في شغلها على النساء
على وجه التقريب . وكانت النساء شاغلات هذه الوظائف عادة من صغيرات
السن ، ومن غير المتزوجات ، ففي هيلانو ، كان ٧٥٪ تقريبا من النساء
بين سن الخامسة عشرة والعشرين يسكن ١٨٨١ و ١٩٠١ . وانخفض عدد
الاناث اللواتي يتجاوزن سن العشرين المشغلات في صناعة النسيج ،
والبلبس الجاهزة ، ويفترض أن هذا يرجع إلى زواجهن عند بلوغ هذه
السن ، وترفعهن عن العمل . وكانت المهنة الأنثوية الوحيدة التي بلغت
نسبة لا يأس بها (٥٠٪ وأكثر) للمعاملات الثلاثي يتجاوزن الثلاثين هي
الحفمة بالمازل . وكانت مطهون من المعزبات - وفي بريطانيا العظمى ،
يلاحظ وجود أنماط نسبية مماثلة في البيئات الميسورة المتفرقة ، إذ كانت
من الغلب النساء العاملات في منازل القطن بلاكشير ١٨٣٣ (ما بين
١٦ و ٢١) . ولم يتجاوز عدد المتزوجات بينهن ٢٥٪ في مقاطعات
لاكشير ١٨٤١ ، ورغم حدوث زيادة في النسبة لما بين المتزوجات
أو الأرملة بين العاملات في منازل القطن ارتفعت أحيانا في تسعينات القرن
التاسع عشر ، ثم انخفضت بعد ذلك . أما العاملات الأقل تخصصا في
ننن في ثمانينات القرن التاسع عشر ، فقد بلغت سنهن أساما بين ١٥ .
و ٢٥ سنة .

وعندما اشتملت أعداد الإحصاءات في آخر الأمر على بيانات عن
الحالة الاجتماعية (الزواج) لوحظ بعض اختلافات كبيرة بين مختلف

البلدان . ففي ١٩١١ ، بينما بلغت نسبة العاملات بين النساء العازبات في بريطانيا ٦٩٪ ، لم يزد عدد العاملات من المتزوجات عن ٩٦٪ . أما في فرنسا ١٨٩٦ ، فكان بها ٥٢٪ من النساء العازبات يعملن ، و ٢٨٪ من المتزوجات . وعلى الرغم من اتساع الأدلة للتوافر لنا بأنها انطباعات متناقضة ، إلا أنه يبدو أن قلائل من النساء قد ظلن يعملن بعد انتشار التصنيع وتقدمه (على الأقل في الفترة السابقة لسنة ١٩١٤) . وهكذا كان في بريطانيا البلد الأكثر تقدما في الصناعة ١٩١١ أدنى نسبة من النساء المتزوجات العاملات . أما فرنسا ، وفيها كانت الزراعة والصناعة خاضعة للتنظيم على نطاق أضيق من الحال في بريطانيا ، فكان فيها عدد أكبر من النساء العاملات في سوق العمالة .

لماذا كانت النساء يعملن في القرن التاسع عشر ؟ ، ولماذا كانت الغلبة للصعيرات في السن والعازبات في العمالة الأنثوية ؟ للإجابة عن هذين السؤالين لابد أولا أن نفحص العلاقة بين هؤلاء النسوة وعائلاتهن الأصلية (العائلات التي كن تنسب إليها لدى مولدن) ، وليس عائلتهن بحكم الزواج ، أو العائلات التي تكونت بعد انجابهن . علينا أن نتساءل (ليس فقط عن طبيعة طرفة الأزواج إلى اشتغال زوجاتهم) وإنما أيضا عما دفع الأمر إلى الزج بفتياتهن إلى سوق العمالة كعاملات في حياكة الملابس أو خدمات المنازل .

لقد كان آباء وأمهات أمثال هؤلاء الفتيات أثناء فترة التصنيع غالبا من القرويين والقرويات ، وفي حالات أقل من العمال بالمق . وعندما نفحص الأصول الجغرافية والاجتماعية لخمس المنازل اللاتي تمثلن أكبر نسبة في مجموع النساء العاملات ، سيبيح الأصل القروي واضحا . إذ كان ثلثا جميع خدمات المنازل في إنجلترا ١٨٥١ ، من بنات عمال يعملون في الريف . وليس لدينا أدقلم عن مجموع التسفلات في فرنسا ، وإن كانت الدراسات المحلية توحى بمشاكل الأنماط . فمثلا لقد اهتمتى شاتلين^(٣) في دراسة لميلون إلى أنه ما بين ٥٤٪ من خدمات المنازل (١٨٧٢) كن إما نازحات من مناطق قروية أو أجنبيات . وقدوت إحدى الباحثات في بحث آخرته عن لرمساي في الحقبة الواقعة بين ١٨٢٥ و ١٨٥٢ ، عدد النساء الخادمت من بنات الفلاحين بـ ٥٧٪ . وفي بورديو ، يثبت دراسة مماثلة أن مجودعين ٥٢٪ . وفي ميلانو في نهاية القرن ، كان الأبعد احتمالا هو أن تكون الخادمت منحدرات من أبوين ترجع أصولهم إلى المدينة . ولنحاول الآن تمثل التجربة التاريخية للنساء العاملات إبان المراحل المبكرة للتصنيع . فلما كانت الأكثرية من الفتيات أصلا إلى الريف ، فإننا منبها

يفحص التصاريح القرية أو التصاريح الأسرة التي دفعها قيمها واحتياجاتها الاقتصادية إلى الزج بيناتها إلى سوق العالة .

ولقد عرض المقبول على أحوال العديد من مختلف المناطق في أوروبا لوصفا مماثلة للتنظيم الاجتماعي للقرى . والظاهر أن هناك اتفاقا بين علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين الاجتماعيين على الاعتقاد بأنه بغض النظر من ناحية المستوى من الريف ، فإن الفلاحين يمثلون وحدة اجتماعية مبنية الصناعة ، وقلت إلى المجتمع للعصر خصائص توجب إلى توكيد ثقافية واجتماعية واقتصادية أقدم وأبعد اختلافاً . وبعد أصل التنظيم هو الأسرة ، التي ساعدت خصائصها على التزويد بالاطار الأساسي للتعاون المتبادل والتوجيه وإعطاء الصبغة الاجتماعية . - وجرى عمل الأسرة عادة في المنزل الذي تملكه الأسرة ، ويعتقد أنه يغني جماعة من الأشخاص أكثر من اشغاله لشخصي بفرده . - فهناك وحدة خفية تجمع بين الفرد والأسرة والمثل والملكية الفلاحية هي بحكم الواقع ملكية لاسرية ، يقوم فيها رأس الأسرة بدور المدير أكثر من تشيئة دور مالك لقرى الأسرة .

وتنحصر تصانيف ترديدا لأوصاف فلاحية أوروبا الشرقية عنه ميشيل أندرسون عندما قارن الحياة الفردية بالانكسار بالحياة الفردية في إيرلستان في بواكير القرن التاسع عشر ، وأشار إلى أنه في كلا الحالتين كان أساس التصامن الأسري الطوعي هو تبادل الاعتماد المطلق بين أعضاء الأسرة ، بحيث لا يتصور الآباء أو الأبناء وجود بدائل للأسرة كمصدر للتزويد بعدد مهم من الاحتياجات الضرورية . وتزيد الأدلة المستقاة من إيطاليا هذا النمط . وعلى الرغم من أن لومبارديا في أواخر القرن التاسع عشر كانت تشمل نموا من الأخوة (٢) (يعني الحالة التي يشترك فيها الأخوة داخل الأسرة في العيش والعمل في الأرض سويا) التي كانت بمثابة بديل شائع لأصغر صورة من صورة الأسرة ، إلا أن الأسرة المألوفة كانت هي الوحدة الأساسية للإنتاج . ويساهم كل عضو من أعضاء الأسرة بما في مقدوره الإسهام به من عمل في المنزل . وفي حالة النساء والنشء ، بالعمل في مناطق مدينة قريبة أو في مصانع النسيج بالريف . وتحول أجورهم وأجورهم إلى رأس البيت أو الأسرة . وفي حالة الأخوة الذين يعيشون في بيت واحد ، يبعد للاكبر منا بنور الرأس المدبرة ، والناية بالمسائل المالية وعلاقات التماثل ، لصالح الكل . ووصف جويس (٣) في دراسة حديثة للأوضاع في نورماندا في القرن الثامن عشر التطور التدريجي للأسباب التي كانت تساق عند طلب الزواج ، عندما كانوا يلجأون إلى اتمام إجراءاتهم في الكنيسة . ففي نهاية

هذا القرن ، اتخذ شيوع عيالات مثل « سميا وراء السماعة » أو الرغبة في العيش حياة هنيئة . ويرى جويس ان اختلاف الكلمات المستعملة ربما كان مسألة سطحية . لما ما عنته جميع هذه الأقوال - رغم أن قائل قد يتنوا ذلك صراحة - فهو أن الشخص يتزوج لكي يعيش . فالزوجان يمثلان جماعة عمل ، أي أصغر وحدات العمل . وفي بريطانيا في القرن التاسع عشر « كان جميع العاملين في الحقل يؤثفون جماعة عمل ، يرتبط كل منهم بالآخر برابط أنشبه بالرباط الذي يجمع طاقم السفينة » .

وعلى الرغم من اختلاف أنظمة لليرات واختلاف مساحات الأرض الميسورة ، فإن نظرية الاقتصاد الفردي التي وضعها شاياتوف لروسيا في القرن التاسع عشر مازالت صالحة للتطبيق في حالات أخرى . وأساس هذا النظام هو الأسرة الروسية ، أو إذا توخينا الدقة قلنا أنه بيت الأسرة في روسيا ويعنى (جميع من يأكلون في طبق واحد) . ولهذا الست الأسرى دور مزدوج بوصفه وحدة إنتاج واستهلاك . إذ تتركز دوافع أعضائه - بمكس الأهلان الرأسمالية - « على توفير احتياجات الأسرة أكثر من تركها على تحقيق الربح » . وتعود المشكلة الأساسية للأسرة حول تنظيم عمل أبنائها لمدير ميزانيتها السنوية وحول رغبة واحدة لادخار رأس المال، أو استغلاله ، إذا سمحت الظروف الاقتصادية بذلك .

ولبناء الأسرة ، أو بيت الأسرة واجبات محدودة واضحة تستند أولا - على أعمار أبناء الأسرة وبناتها وموضعهم وموضعهم في الأسرة . ثانيا - على ذكورتهم أو أنوثتهم . إذ لا يقتصر الأمر على تخصيص مهام مختلفة لهم وليس . فهناك اختلاف في مكان العمل الذي يخص كل جنس ، ففي أغلب الأحيان - وإن كان هذا ليس دوما على الإطلاق - يعمل الرجال في الحقول ، بينما تدير النساء البيت وتولي تربية الأبناء ورعايتهم ، وتشرفن على الحديقة ، وتتولين تسويق الفائض من الناتج اليومي والدواجن والحصريات . ولديهن عمل موسمي أيضا في مواسم الزراعة والحصاد . وعبر أحد عمال البناء في إحدى قرى فرنسا عن الشروط التي يرغب توافرها في روجه في الممارات الآتية :

« نحن نعرف أن هناك بلدانا تزوج فيها المرأة ، ونأمل أن ينحصر عملها على العمل بالبيت ، غير أن فرنسا لا تعرف أي شيء من هذا القبيل ، والأمر على عكس ذلك ، فزوجتي تتماثل هي وباقي الزوجات في الريف ، لأنها تشتت على العمل في الحقل من الصباح الباكر حتى المساء . ولم نتناقص مقطوعة عملها بعد زواجنا .. » .

وليس من شك أن زوجات البنائين من أمثال زوجة صاحبنا البناء الذي تحدثنا عنه ، كان لهن وضع خاص . فبعد أن وحل أزواجهن لفترات زمنية

طويلة لبناء المنازل في ليون وبوريس . فلقد اضطرون لاداء جميع المهام الزراعية اليومية ، لأن نظام تقسيم العمل في قريتين كان يخضع بنهوض النساء بأغلب الواجبات الزراعية ، واشتغال الرجال بدور الحرفيين في المدن . وكان عمل النساء في الحقول بالغ الأهمية مما دفع أسرة أحد سكان القرية في مناسبة ما الى محاولة تزويجه بفتاة كانت لها أرملة ، واعتقدت الأسرة أن تحقيق هذه الفكرة سيكسب حقها جهد عرق اثنين بدلا من واحدة .

على أنه رغم تفرد مثل النسئ ذكرناه . إلا أن القاعدة السائدة في الاقتصاديات القروية كانت تنص على اصطلاح النساء بالعمل في الحقل . ويبين من تقرير أعمال الفلاحة في النرويج(*) في منتصف القرن التاسع عشر عن الحاجة لجهود النساء كمعاملات تتمعن بحجرة فائقة ، وغالبا ما كان الشباب يختار نساء يكبرونهم منا كزوجات . وكتب زونت : « يعتمد التقم المادي للأسرة على الروحة بقدر اعتمادها على الزوج » . وعلمنا وصف مردريك لي بلای (**) عادات الزواج عند القرويين السلافيين لاحظ . « أن الفلاح يراعى عند اختيار الزوجة صلاحيتها لزيادة عدد الأيدي العاملة في الأسرة » .

ولم يقتصر عمل المرأة على الحقل ، بل كن تقسن بمختلف الأعمال التي تعتمد على ما باستطاعتهن تأديته . وامد نشاطهن في أغلب الأحيان فشميل مهمة توفير الغذاء أو القوت للبيت وتربية للثنية وصناعة الملابس . وبالإستطاعة المتور على إسانيد مؤيدة لذلك في جميع العواصم المعتمدة على المشاهدات الخاصة ، والتي تحدثت عما يجري داخل الأسرة مثل كتاب لي بلای ، الذي روى حكاية زوجة عامل في مزرعة للكروم « تركزت مهمتها الأصلية على رعاية البقرة التي تملكها الأسرة . فكانت تحجب الدريس ورمعها ، ونحمل لبها الى المدينة لبيمه . وهناك زوجة أخرى ، كانت تعمل مع زوجها أثناء مواسم الحصاد ، وتفصل الملابس ، وتشارك في أعمال أخرى للفلاحي وملك الأراضي في المزارع المجاورة » . وكانت تنسج الكتان أيضا لأسرتها ، وتبيع في السوق . وانجعت نساء أخريات الى حياكة القفازات أو الملابس ، وكرت بعضهن على أعمال الترميض . وفي المناطق المحيطة بمدينة ليون الشهيرة بصناعة المسوحات الحرفية ، تولت المرأة عملية تربية دودة القز ، وشاركت في غزل الحرير . وفي لومبارديا بإيطاليا شغلت المرأة بالمثل في عملية تغذية دودة القز في موسمها ، في نفس الوقت الذي كانت تؤدي فيه واجبا في البيت الأسري . وتمت الأعمال من هذا القبيل من الظواهر التقليدية لتعزيز دخل الأسرة .

Kilert Småt

(*) نرويج

(**) (٦ أجزاء) Les ouvriers européens - Le Play .

ويصر لى بلاكى على إدراج جميع أنشطة أبناء الأسرة في بحوثه الخاصة بمواردها المالية ، استنادا « إلى اسهام جميع الأنشطة الصغيرة التي تنهض بها الأسرة في استكمال دخل عائلتها الأساسية » . وكثيرا ما يلاحظ اصطلاح النسوة « بهلم أشق من للهم التي نعهد للرجال ، وحرصهن على تحقيق الرفاهية للأسرة » وغالبا ما يثبت وجود المرأة الفارق بين الاقتراب من الجوع في حالة عدم وجودها ، وتوفير الحياة الكريمة نتيجة لمشاركتها . وقدم بنشباك(*) تقريرا أعدته إحدى الإبرشيات عن المرأة القروية. وعن كيف كانت تعجز عن العثور على عمل أثناء الأزمات « مما أصابها بحالة من اليأس والشعور بالعجز لعدم قدرتها على الاسهام بمجهود يساعد على تعزيز دخل الأسرة ، والاحساس بالمرارة ، لأنها لم تقدم لزوجها أية خدمات خلاف وعائتها لأسرته فحسب » .

والظاهر أن حرقنا مماثلا قد ساد بين الأسرة غير المشتغلة بالزراعة ، وبعض الأسر للقيسة في المدن . والواقع أن ما ذكره شايانوف عن الاقتصاد الريفي يبدو مناسباً للتعريف بالخصائص المميزة لتنظيمات الطبقة الاجتماعية في البيئات السابقة للصناعة . وتحدث بيتر لاسلت(**) عن بيت الأسرة كمركز للإنتاج ، عندما لم يكن يعمل العمل منفصلا عن البيت . وكان البيت هو المقر الدائم لجميع أفراد الأسرة . فمثلا في بيت أحد النساجين ، كان الأطفال يحولون عمليات التشغيل والتجديد ، بينما تقوم الفتيات الأكبر سنا والزوجات بعمليات الغزل ، ويحولى الأب عمليات السجج . وفي بيوت العمال العاملين بالمدينة كثيرا ما يحدث تقسيم عمل مماثل . فمثلا عند عمال الخفاسل في ياروس ، يتولى قيام جميع أفراد الأسرة بالعمل ، وإن كانت النسوة تنفردن بمسئولية « تحضير الصابون » والكي . والواقع أن هذا الجوع من للهم ، كان يؤدي على حير وحس سواء تولاه الرجال أو النساء . وكثيرا ما كان الوالدان يوصيان في وصيتهما بأن تؤزل مشاكلهم وزيائنهم لمناتهم ، مثلما يوصون بتوريثها لأبنائهم . وتساعد زوجات الحرفيين لزواجهن أحيانا في عمليات الحياكة وصنع الأحذية والخنازة ، وأحيانا كن يبدن المحلات ويتولين بيع السلع وإجراء الحسابات . وعملت زوجات العاملين المهرة في أدوات القطع كوسيطات بين أزواجهن وأرباب عملهم . فلم يقتصر دورهن على التقاط الأدوات لأزواجهن عند عملهم بالبيت ، وتلقهن للمنتجات بعد انتهاء العمل فيها إلى صاحب العمل ، بل كن يتولين عمليات مثل التفاوض في أمور كشحن البضائع والأجور .

Fitchback.

The world we have lost.

في كتاب

Peter Laslett

(*)

(**)

وعندما يكلف الزوج بعمل خارج منزله ، كانت النساء تفضلن بأعمال خاصة بهن . وتماثلت زوجات المال في المدينة من ونطراذين في الريف ، لكن يساهمن في اقتصاديات الأسرة ، كالعملية بزروع الخضروات وتربية المواشي - غالبا بعض الخنازير والدواجن - وتسويق الفائض . واطلعت بعض النسوة مشاركن في دوومن ، كما اطلعت أخريات لبيع الأغذية والمشروبات من إعدادهن خارج البيت . واتجهت زوجة أحد صانعي السكاكين في مدينة شيفيلد إلى تحضير شراب صغير ، يباع بوب ، كانت تصبته في زجاجات وتبيعه خلال شهور الصيف لسكان المدينة . • هذه أمثلة من بواكير القرن التاسع عشر ، ولكن ليس كلارك اختارت إلى وجود عمليات اشتغال بالبستنة وتجارة الثياب في إنجلترا في القرن السابع عشر . وذكرت مثلا مناسبا آخر لامرأة فقيرة • كانت تبيع المواد الغذائية المعرضة للتلف أثناء انتقالها من بيت لآخر ، • واستمرت هذه الممارسات في القرن التاسع عشر . وذكر لي بلاك تفاصيل عن امرأة ألمانية متزوجة من أحد عمال المناجم ، كانت تحمل المواد الغذائية على ظهرها وتزور المدينة مرتين أسبوعيا ، حيث تشتري المتيق والبطاطس • الخ • ، ثم تحمل هذه الأصناف على ظهرها وتطوف بها في أنحاء كثيرة (١٠ كيلومترات) ، وتخصص جانبها من هذه الأغذية لبيتها وتوزع جانبها آخر على أرباب المدينة ، ثم تبيع ما تبقى في السوق مقابل ربح بسيط . وأبان القرن الثامن عشر في باريس وبوردو وبين الطبقات الشعبية ، • كان الدور المهم للنساء في الاقتصاد المنزلي مقبولا ومعترفا به • ولتهنت نساء كثيرات بعضهن لبعض والمرف لكسب دخل إضافي • وكن يصان كخدمات ونحسات وحائكات ، ويدرن العائلات ، ولا يأس من العمل أحيانا كمحلات تحلل أحبالا ثقيلة جملة مرات في اليوم الواحد • ولم يكن لديهن أي مانع أيضا يحول دون اشتغالهن بالنسول والتهرّب إذا دعت الحاجة لذلك • • وكان دور الأم في اقتصاديات الأسرة بالغ الأهمية • • فربما أدت وفاتها أو إصابتها بالمجز إلى اضطراب الأسرة إلى اجتياز الحاجز المضيق - وإن كان عظيم الأهمية - بين الفقر والاملاق • • وكانت الأعراف الشعبية التي تقدر قيمة عمل المرأة عظيمة الأثر خلال معظم القرن التاسع عشر •

وثبت دور المرأة وعدم إمكان الاستغناء عنه من قدرة الأراذل في عدة مجتمعات على الإشراف وحفظ على الحياة أية مزرعة (مع الاستعانة بأفراد قلائل لقاء أجر) ، في الوقت الذي شعر فيه الرجال الأراذل بأن هذه المهمة تكاد تكون مستحيلة ! • وقد ثبت ذلك على نحو أوضح أيضا في فترات الشدة المالية • وتصر هانتون (*) على القول بأن النساء كن أول من يشعر

جالاتر المادية للحرمان ، ويرجع ذلك أولا الى كونهن محرومن أنفسهن من الغذاء في سبيل اطعام باقي أفراد الأسرة - وتحدث آخرون عن مواقف صائفة - ويمثل التقرير الذي كتبه أندرسون عن لاكتشير ما حدث أيضا في إيطاليا وانجلترا وفرنسا : « فمن المشاهدات التي رواها الأطباء حالة تعرض الأيرلندي للتدهور الصحي بصفة عامة أكثر من أطفالهما - وكانت الأمهات - بوجه خاص - يصبين شعوب اللون وفقدان الكثير من أوراثن نتيجة للجوع » .

ومساعد الدور الذي نهضت به النسبة عادة في اقتصاديات الأسرة على مبعهن قدرا أكبر من القوة داخل الأسرة - وتكفل المصادر التاريخية المتأخرة أبحاث علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين - ويبيح من جميع هذه المصادر أنه بينما اتخذ الرجال الصداقة في الإشغال العلمية ، كانت الغلبة للنساء في المجالات المنزلية العائلية ، بل وتشير هانتون الى تمتعهن بالسيادة الاجتماعية داخل الأسرة - وتعد اشاورتها صدى لمشاهدات لي بلاي الرائفة - هي دراسته المستفيضة للأسرة الريفية والحضرية للطبقات العاملة (ما بين أربعينيات القرن التاسع عشر وسبعيناته) شعر بالانهاور لعور المرأة : « النساء ياملن بكل تبجيل واحترام - وكثيرا ما يتمتعن بمهوذ كبير في المسائل الأسرية » (*) ولاحظ هفي جديتهن واجتهادهن في العمل دون انقطاع أكثر من إرواجهن - ويستخلص من ذلك « مدى تأثير عملهن وجهودهن وذكاتهن في التماهيل لتحمل أعباء الأسرة » .

ويرجع سر نفوذ المرأة ، بعد قصرها بطبيعة الحال على ميدان الأسرة ، الى ادارتها لبيت الأسرة - وفي بعض المناطق ، كانت زوجات الحرفيين يسكنن دقاتر للحسابات ، مثلما تفعل زوجات أو يبات المزارعين . واكتسب البنايه بأمة الأرقام من الماهن بصلية امساك حسابات بيت الأسرة ، وباعتبار المرأة كانت مسئولة عادة عن عمليات البيع الخاصة بالبيت في السوق ، فانها كانت تتولى عمليات التجارة أيضا - وعلى الرغم من انصاف عمليات الحساب « السوية » بيدائتها ، إلا أنها كانت مسئلة للتعامل مع العالم الخارجي - وكثيرا أيضا ما كانت الزوجات العاملات تسيطرن على محافظ الأزواج ، وتصدون القرارات المالية ، بل وتقررن المقدار الذي يسمح به « كمصروف » للزوج للصرف منه على التبذ والطباق . ولا يعد وصف لي بلاي لما كانت تفعله زوجة إحدى البحارين البارسيين خالصا بفرنسا وحدها :

« كانت تقبض مرتبة القهري بمجرد استلامه له » وتقول كل صباح
 اعطاء زوجها ما يلزم من مال لشراء ما سيتناول من وجبات خارج المنزل .
 وتترك لها وحدها عمليات اداة البيت وطريقة التصرف في موارد الأسرة
 طبقا للعادة السائدة بين العمال الفرنسيين » .

والحق ، لقد كانت هذه الممارسة وثيقة الصلة بعمور الزوجة .
 ويشهد بذلك أنه بعد حلول المحسح محل البيت كموطن لعمل الحرفيين
 داب بعض أصحاب المصانع - أحيانا - على دفع أجور الأزواج « لروحانهم » .
 « والظاهر أن الزوجات سواء كن في اللورين أو برياني أو لانكشاير ، أو بين
 عمال المناجم في شمال إنجلترا أو الفلاحين أو عمال لندن كن يسيطرن على
 الموارد المالية للأسرة » (٢) . ويتحكمن في بعض جوانب من القرارات الأسرية .
 فالرجل يرحو ويتختر ويتراسى المواعيد ويصدر الأوامر ، أما القرارات المهمة
 كشراء مزرعة أو بيع بقرة أو دفع دعوى على الجار واحتياز زوج الابنة ،
 فمن الأمور التي يجب أن تتم عن طريق (البارونة) ! . أو كما لاحظ
 أحد المزارعين المتقاعد في قرية فرنسية لأحد علماء الأنثروبولوجيا الزائرين
 « الحصبة دائما في يد الرجل . ليس من شك أن هذا هو ما يقوله
 القانون . أما ما يجري في الواقع فمسألة أخرى . ولكنك لن تجد لهذه
 المسألة أي ذكر في القانون المدني » (٣) .

ومن المهم أن يؤكد هنا أننا نتحدث عن النسوة المتزوجات . فكل
 ما تمتص به هؤلاء النسوة كان من نتائج اشتراكهن بحكم كونهن زوجات
 في الجهد للتبادل والدور المميز الذي اضطلعن به اعتمادا على جسيمن .
 ولقد اصغر تأثيرهن على الحال المنزلي ، وإن كان هذا الحال قد اتسع
 إلى حد كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للأسرة . وفي هذا الوقت ،
 يصح القول بأن النساء قد اشتركن بعمور فعال يصلهن في مؤسسة
 الأسرة .

ولقد شاركت الفتيات في الحياة الاجتماعية منذ وقت مبكر في أسر
 الطبقات الدنيا ، للدهوى بمسئوليات الأسرة والعمل . « فالفئات سدان
 المشاركة بمساعدة أمهاتهن في كل أعمالهن بمجرد صباح قوتهن المدينية
 بذلك » . وكثيرا ما كن يخرجن من بيوتهن للخدمة في أعمال الفلاحة أو
 للخدمة بالبيوت . وهناك أخريات تتلفن على بعض النساء وتعلمن منهن
 العمل والحياكة . وفي المناطق الريفية بسويسرا ، حيث كانت تمارس
 هناك أيضا صناعات الاكواخ ، كانت الفتيات تنهضن بعمور مساعد مرغوب

الى حد كبير . فكان بالقصور استناد عمليات النزول والنسيج اليهن انشاء
 اشتغال الأم بأعمال البيت - وكن يعملن مستحقاتهن - كمسألة مفروغ
 منها - للوحدة الاقتصادية للأسرة - اذ كان الحفاظ على ملكية الأسرة
 له الصدارة على السعادة الفردية - وتطم القناعة منذ نعومة أظفارها
 شعاعا يرفها - أن عمل المرأة لا يمكن أن ينتهي أبدا - مهما كان العمل
 الذي مستوى أدنى - ومن ثم كانت تبدل استعدادا للعمل بجد ونشاط
 طيلة حياتها قريبا - ولابد أن تكون تصانح الأيوين قد رددت هذه الكلمات
 الموجهة الى فتاة صغيرة وكتبت ١٧٤٢ : « عليك أن لا تنقصي الزواج اذا
 كنت في حالة لا تجددين فيها أنت ورجلك فرصة للعمل - فلاحق وحده
 هو الذي يرضى عن اتخاذ زوجة تعيش عائلة عليه ، ولا تساعد بعملها في
 سبيل الأسرة - ومن هذا يبين أن ما كان يتوقع هو اشتراك النساء
 بالعمل ، وتمثل الأسرة وحدة قائمة على العلاقة الاجتماعية والاقتصادية
 معا - هذه اذن هي قيم الحضارة التي اعتنتها المائلات التي كانت تزج
 بناتها للعمل في بواكير مراحل التصنيع :

ان عمل المرأة يضر اقتصاديات الأسرة - ويلتقون تعديل أدوارهن
 - مثلما يحدث في حالة الأزواج والأخوات والآله - وضبطه لمواجهة الظروف
 المعيشية وتبديل الأحوال - وهنا يوسمنا أن نستفيد مما ذكره شايانوف
 عن الأسباب التي تؤدي الى دفع المرأة للعمل :

« عندما لا يكون فلاحا في حالة تصاعده على تغيير نموده بنفسه ،
 ولا يكون قادرا على تول عملية بيع جهده نظير مقابل على باحتياجاته ،
 والمصروف على ما يعتقد أنه لائق ما يستحق ، فانه يتخلى مؤقتا عن عمله
 الخاص ، ويتحول بمساعدة الى أجبر يعمل تحت إمرة آخرين ، وبذلك يتفادى
 التعرض للبطالة » .

ان هذا يعني ان المائلات التقليدية كانت تستعين بشتى أنواع
 الاستراتيجيات للنهوض بصالح الوحدة الأسرية - فاحيانا كانت الأسرة عن
 بكرة أيها تعمل كالجيرة للعمل في مزارع الغير - وفي أحيان أخرى ، كان
 الرجال يضطرون وحدهم بهذه المهمة - وفي حالات ثالثة ، كان يهبط بذلك
 الى حصى أو أكثر من صبيان الأسرة - وغالبا ما تكلف الأمهات في أوقات
 الشدة أو الأزمات الاقتصادية بأعمال اضافية في الصناعات المنزلية - وهذا
 يضر لما كانت كانت مثل هذه الأعمال في الأغلب موسمية ، لو بصفة فردية .
 اما عادة ارسال الاولاد ذكورا وإناثا للخدمة في حقول أخرى ، أو للعمل
 في مدن قريبة ، فانها وسيلة أخرى ظهرت فيها بعد ، أي وسيلة لك نشاط
 الأسرة - بصفة مؤقتة - الى ما هو أبعد من مواردها المحدودة لزيادة دخلها ،
 وبذلك تحقق التأمين الاقتصادي الذي يساعدها على البقاء .

وتأثرت ببلدان أوروبا (في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا وبعد ذلك في فرنسا وإيطاليا) بما حدث من تغير كبير في البنيان الاجتماعي ، مما أدى إلى اتباع هذه الاستراتيجيات ، وإلى ابتكار ميل أخرى (لمواجهة الضغوط والفرص الجديدة) لتحقيق الأهداف التقليدية للاقتصاد الأسرى . ففي غرب أوروبا في القرن التاسع عشر ، أدى ازدياد عدد السكان إلى حدوث انكماش في مساحة الأرض في بعض المناطق - فضلا عن ذلك ، فقد ترتب على الزراعة على نطاق واسع ، وترشيدها ، تعريض المناطق المنتجة انتاجا متوائما لشدة للضغوط التنافسية - وأدت الأشكال والطرائق الجديدة للإنتاج الصناعي أيضا إلى إحداث تحول في موضع وطبيعة عمل الحر في في الريف والمدينة - وفي هذا الوقت ، تزايدت حاجة أبناء العائلات - وصفت خاصة الصغار - إلى العمل خارج البيت - ولدى تزايد الانشغال للمرية المرتبطة بصناعة السيج الحثية بالريف ، وازدياد عدد سكان المدن (وما صاحب ذلك من ازدياد في الحاجة إلى سلع استهلاكية وخدمات داخلية) إلى خلق فرص عمل جديدة .

ففي لومبارديا على سبيل المثال ، وهي مقاطعة في شمال إيطاليا عاصمتها ميلانو ، مارس الفلاحون منذ عهد السالة الزراعية المكثفة على أراض مستأجرة ، وإبان القرن التاسع عشر ، مزايه عدد الفلاحين غير القادرين ، على إعالة أسرهم المسلمة على هذه الأرض المستأجرة ، فنجأوا إلى خيارات مماثلة للوسائل التي اعتادوا اتباعها - فتوجهت النسوة والفتيات اللواتي كن أقل انتاجية من الرجال للعمل بصناعة الحرير القريبة من الريف، وقصصن أخريات ميلانو للعمل كخادمت بالمتنزل ، أو بصناعات الملابس الجاهزة ، فيما كان بالضرورة أعمالا انتاجية حتمية قليلة الأجر ، واستغلالية - إذ كان الهدف هو الحصول على أي قدر من المال لارساله للبيت .

وظهر نوع آخر من الاستراتيجيات في زيورخ بسويسرا - تحدث عنه رودولف براون - ففي الأصل كان المتبع عند الفلاحين القسيسين بالأرض هو اشتراك جميع أبناء الأسرة في العمل لتحقيق هدف واحد يلتقي عنده المسيح، أي كخلم أو جنود أو لبناء خدم في بيوت أقاربهم الذين ورثوا الأرض ، ويضاف الكسب من حصة العمل إلى دخل العائلة - والحفاظ على الملكية له الصدارة فوق تحقيق سعادة الأفراد - فلم تعد مسألة من يتزوج من ، وفي أي سن ، مسألة تخضع لقرار الفرد ، بقدر كونها من المسائل التي يجرى الاتفاق بشأنها داخل الأسرة - وتسيبت الضغوط الديموقراطية والاقتصادية في تجريد بعض العائلات مما تملك من أرض ، واضطر آخرون إلى الاشتغال بأعمال إضافية إلى جانب الاشتغال بالزراعة - كالعمل مثلا في الصناعات الريفية ، وبخاصة صناعات النسيج - وفي هذه المناطق ظهر

ما يدعى نظام «الرأس» (٣) ، وبنى هذا المصطلح ، دفع الأولاد قدرا من المال لأدويمهم نظير السكن والإقامة . وفي الحالات التي لا يعملون فيها في الميوت ، ولكنهم يشتغلون بأعمال الغزل في أحد البيوت الأخرى ، كان الأولاد يدفعون «الرأس» لربة البيت . ولقد نظر إلى هذا المبلغ ، وإلى هذا الاجراء كمسألة مسلم بها . واستقر هذا النظام ، واتخذ صيغة ثابتة ، وتغير حجم الاسهام المحدد بتغير علاقات العمل بين أبناء الأسرة ، ويخبرنا يراون بحوث تصدع في التعاون الأسرى نتيجة لما حدث من تحولات من هذا الصل . وليس من شك في انه أصاب الرأي . ولكن النقطة المهمة في المثل الذي ضربته زيورخ ، وما أودت أتياته ، هي ما يجري عند حدوث تحولات في القيم والممارسات القديمة من مؤثرات تستوجب أحداث تكييفات استراتيجية تتواءم والأوضاع الجديدة .

ويقدورنا الاتيان بأشلة مماثلة عن حالات الأسر غير المشتغلة بالزراعة أيضا . فبعد أدت الثورة الصناعية الأولى في إنجلترا إلى أحداث تصدع في الوحدة المحلية للبيت ومعار العمل ، بعد نقل عمليات الغزل ، ثم السبيج بعد ذلك ، إلى المصانع . غير أن دراسة سلسل (٣٣) للتغير الاجتماعي في الثورة الصناعية قد بينت أنه في حالة المصانع الأولى للمنسوجات ، انتقلت الأسرة بكاملها كوحدة عمل إلى المصانع . وصح الرؤساء للمساكين العاملين باستئجار معاونيهم . واختار النساخون زوجاتهم ولولادهم وأقرب المقربين وأقارب صاحب العمل . واتضم العديد من الأولاد - وبخاصة الأصغر سنا - إلى المصنع بعد الحاج من آبائهم . وبطبيعة الحال ، لم يستمر اتباع اقتصاديات البيت في المصانع في بواكير التصنيع ، بعد عشرينات القرن التاسع عشر ، بالنظر إلى ما طرأ على العمل من زيادة التخصص والتنوع . غير أن عملية التوافق للبدني والتكوين الاقتصادي المتغير ، قد أدت إلى اتباع القيم القديمة بعد تكييفها لكي تتواءم هي والأوضاع الجديدة .

ومما يجت ذلك على أفضل وجه في حالة النساء العاملات ، العازبات اللاتي مثلن السواد الأعظم من قوة العاملة والنساء المتزوجات المديونات أيضا . فقبل القرن التاسع عشر بأمد طويل ، كانت الأسر الدنيا ترسل بناتها للعمل . واستمرت هذه الممارسة والقيم والأعراس التي يرتكز عليها ، كما بين من وجود أعداد كبيرة من النساء العازبات العاملات ، وأيضا من متوسط أعمار القوة العاملة من الانثى ، ومن أنواع العمل التي كانت تعتمد لهؤلاء النسوة ومن سلوكهن الفردي .

ويستدل من تكون القوة العاملة للآلات في أوروبا بصفة أساسية من صفار النساء العازبات - أو الفتيات بلفة معاصريهم - على استمرار بقائه التيم الأسرية - فكانت الآلات تنكهن طقات طائلة للاعانة في بسوب الريف والمدن . ولعل هذه المبالح كانت تفوق ما يفيق على الأمهات - وكن تعتمد على عمل الأسرة وإخواتهن - وعندما انتقل العمل إلى خارج المنزل، ولم يعد استمراره مؤكدا . اقتضى صالح الأسرة تشغيل بناتها خارج البيت - وظهر إلى الخدمة بالبيوت - أي الملاذ الرئيسي لمعظم القرويات كميدان تقليدي لممارستهن للنسل - وكثيرا ما بدت هذه الوسيلة آمنة طريقة للهجرة ، لأن الفتاة تشمر بالأطمئنان إلى وجود مكان يأويها ، يتوافر فيه الغذاء والحر الأسرى - غير أن هذا السبيل لم يحل من بعض المخاطر - إذ كانت طالة الخدم واستغلالهم من الحقائق المعترف بها - ومع هذا - ففي خلال القرن التاسع عشر - وعلى الرغم من أن العديد من الفتيات اللاتي كن يتزايدن عددا ، سعيوا وراء الخدمة في المنازل - ويرغس على الإقتصاد عن بيوتهم على نحو فاق ما كان يجري تقليديا ، إلا أن هذا التحرك نفسه لم يبد أمرا مستغربا ، لأن الخدمة بالمنازل كانت عملا مقبولا لما لها من مزايا كتفسير الاحتياج بالحقوق العائلية - والامتلاء لبيت من البيوت -

ولا يصح هذا الحكم عن الخدمة بالمنازل فحسب . وإسا أيضا عن صدور أخرى من الأعمال الأتوية - فلقد حاول أصحاب مصانع السيج في إيطاليا وفرسا تهيئة جو عائلي للفتيات العاملات عندهم - وكانت هناك قواعد للسلوك تحدد أنشطتهن ، وعهد للراحيات بالإشراف على المنشآت التي تقمن فيها . فكان بمثابة أولياء أمورهن . بل وأحيانا اتجه بعض أصحاب المصانع إلى ترتيب زيجات مناسبة للامات العاملات عندهم - وحقق هذه الممارسات في المصانع النفع لصاحب العمل أيضا ، لأنها ساعدته على رقابة ما عنده من عمالة . وحلت من عمليات ترك العمل وتبديله - كما خدمت صالحي عائلات الفتيات أكثر من عائلات العازبات ، لأن أسور الفتيات كانت تحول بطريقة مباشرة إلى أولياء أمورهن - ولا نود التفرغ هنا لما كانت تبثه المصانع عندما كانت تحول عنابر نومها إلى مؤسسات خيرية - غير أن علينا أن لا ننسى أهمية اقتنائها بالأسرة في علاقات العمل والملاقات الاجتماعية ، وما خلفه هذا الإجراء من أثر لصالح الأسر لبعدها -

واتبعت ممارسات مماثلة في مصانع «الابره» - التي ازدهرت في مراكز النسيج - فلقد ترتب على ارتقاء صناعة الملابس الجاهزة - حدوث تحول مزدوج في صناعة الملابس - فأولا - جعل العمل بالقطعة في البيت محل العمل بالوروش - ولم يتحقق إلا في وقت متأخر في إنجلترا (١٨٥٠) وفي فرنسا في سبعينات القرن التاسع عشر. اعتمد على المدينة في

الصناعة (وتأخر حدوث ذلك في إيطاليا بعض الوقت) بعد أن ساعد التقدم في صناعة الآلات الحديثة على إعادة تنظيم صناعة اللباس في المصانع . وفي الفترة التي اتسع فيها نطاق العمل بالقطعة ، لعبت النساء إلى حد كبير للسل . وكانت النساء اللاتي يشتغلن في المدن فعلا ، يصجن عملهن معهن إلى البيت بحكم العادة . لما التازحات الواقعة فقد احتجن إلى بيوت ، ومن هنا نشأت فكرة تحويل بيوت بعض النساء صاحبات الذكاء الوفاد ، وبالاقتصاد على رأس مال بسيط ، إلى دور لإيواء العاملات بالقطعة ممن يعملن معهن . وعلى الرغم مما أحاط هذا العمل في كثير من الأحيان من استغلال وأحوال معيشية يائسة ، إلا أنهم استطعن خلق جو « بيتي » للفتيات يعني بيتا تستطيعن العمل فيه على نحو مماثل لما كن يعملن أو تفعله أمهاتهن في البيت .

وتعد الخدمة بالمنازل ، وصناعة اللباس ، والعمل بمصانع المنسوجات ، المجالات الثلاثة التي تركز عليها عمل النساء غالبا . وهذه المجالات جميعا من القطاعات التقليدية لعمل النساء . وبعبارة أخرى ، فإن نوع العمل الذي كان الأيواء يرسلان بانهما فيه للعمل لم يكن يستلزم ابتعادا جديا عن الماضي ، فكثيرا ما كنا نصادف زوجة أمضت « سنواتها » في بيت أحد الأشخاص الآخرين . وكانت الأعمال بالقطعة وعملات الغزل والنسيج شائعة في البيوت التقليدية . وعندما حدث تغير في « موقع » العمل ، لدى هذا التغير في نهاية الأمر إلى حدوث سلسلة كاملة من الاختلافات الأخرى . ولكن مبعثنا القول بأنه لابد أن تكون الأسرة قد شعرت بشئ من الارتياح عندما أرسلت ابنتها إلى مدينة قصية ، وإطمانت إلى أنها قد أرسلتها للعمل في مجال من المألوف اشتغال المرأة به .

وكما أرسل الآباء والأمهات بناتهم وهم مطمئنون إلى مصيرهن ، وال ما يتطرعن من توقعات تقليدية . كذلك حاولت الفتيات إثبات صحة هذه التوقعات . وبالإستطاعة الاعتناء إلى دلائل تثبت استمرار بقاء القيم الأسرية ، كما يبين من مواظبة الفتيات العاملات على إرسال بعض المال إلى عائلاتهن . وببعض اتجاهات المصانع في بعض حالات إلى إرسال أجور الفتيات . إلى آبائهن ، رأينا حالات أخرى حرصت فيها الفتيات على إرسال معظم ما توافرن لهن من نقود إلى البيت . وفي إنجلترا ، لم يحدث قبل تسعينات القرن التاسع عشر اتجاه الفتيات المازبات للقيام بمنزلهن إلى الاحتفاظ ببعض المال لأنفسهن . وعند وقت أبكر في أوروبا ، كانت نظراؤهن يحولن أجورهن بأكملها عادة إلى دخل الأسرة . ولما بنت أحد صانعي الأقفال في بلجيكا بطفلة أسرته في البداية بالاشتغال بأعمال الحياكة ، واحتضنت تسليم أسرته كل ما تكسبه ، « مما أدى إلى عدم توافر

أية مخبرات لديها عند زواجها » • وكانت النزاعات الإيرلانديات يرسلن نفودهن حتى عندما تصلن في أماكن بعيدة مثل لندن في إنجلترا أو برستون في أمريكا • وحتى في الحالات التي كانت الخدمات الفرنسية والإيطالية لا يتوقن فيها الرجوع إلى ديابهن للزواج • والعيش في موطنهن • فأننا رأينهن تخرسن على مواصلة إرسال المال إلى بيوتهن • وكانت الفتيات الخدمات اللاتي تصلن عند إحدى الأسر المرموقة (*) في ريف فرنسا في الحقبة ما بين ١٨١١ و ١٨٧٧ • ترسلن نفودهن إلى الوالدين • وجررت بعض ترتيبات تنظيمية • فكان للسيد فلامو يرسل أطعمة بدلاً من المال • أو يدفع لاجار المستحق نيابة عن والده الفاتين الخدمات اللتين تصلن عنده • أو يرسل إليه بعض الملابس والفحم • وفي بعض الأحيان • كان الأخوة الذكور والإناث من صغار السن أو المتطلين عن العمل • يناقون هذه المطايا التي كانت تحسم من استحقاقات الخدم • ويذكر لنا هوبشر (**) أن بعض المزارعين المستأجرين لأرضهم • كانت مساهمات بناتهم لا غنى عنها فسرهما كانت ستمتدو فلاحه الحقول المؤجرة لهم • • ويردف قائلا « بأن المسونة القسمة من الفتيات لأولياء أمورهن بدت طبيعية تماما للطرفين » • فقد مثلت « تضامنا عائليا قويا كان يتطلب وجود ابن ناضج ومستقل اقتصاديا لكي يشارك في تقديم المسونة لأقربائه » • وكانت الفتيات العاملات في مصانع لومبارديا تسهمن بإرسال مال لعائلتهن • وفي حالة إقامتهن على مقربة • كانت العائلات ترسل اليهن سلالا من المأكولات بصفة منتظمة • وطبقا لتقرير وود في إحدى السير الذاتية • فإن صاحب العمل كان يحرص على إيفاد رجل وعربة للمروو على قرى الفتيات العاملات - أسبوعيا - لجمع سلال المأكولات القسمة من العائلات •

وفي لانكشاير في إنجلترا • كان هناك حرص على « الحفاظ على الاتصال » بين النزحات وعائلتهن • فكانت النقود ترسل للأهل • وكانت بنات الأسرة تستمعن إلى المدينة للعيش وسط أبناء من عائلتين من صافروا • وحدثت في أحيان أخرى عمليات « تزوج عكسي » • فمثلا أرسل أبناء البنات للتزوجات اللاتي تصلن في مدن الترويج كخدمات إلى بيوتهن لكي يتولى صفوفهم كفالتهم • وفي هذه الحالات • يواصل الزوج الشاب وزوجته العمل منفصلين كخادم وخادمة للدخول تمهيدا لانفساء بيت الروحة • وحتى في الحالات التي تزجت فيها عائلات بأكملها إلى الولايات المتحدة • فأما وأظيت على اتباع هذه الممارسات • ولا حظت ويلاكاثر (***)

(*) أسرة Fiebert

(**) (p. 24)

Hobcher

Willie Osher في كتاب My Ancestors (***)

قيام الفتيات النازحات من سبق لهن الاشتغال خادعات أو في أعمال معاونة للمزارعين ، بالمشاوكة في فك وعن المزارع الخصيبة التي أنشأها أبائهن في نبراسكا .

وكشفت القيم الحضارية التي دفعت سفار الفتيات للعمل في سبيل أسرهن عن أنواع مختلفة من السلوك الشخصي . فليس من الغريب إدراك ما لاحظته المؤرخون وعلماء السكان من تزايد في عدد مبعولات المواليد غير الشرعيين في العديد من المدن الأوروبية في النصف الواقعة بين ١٧٥٠ ، و ١٨٥٠ . ومن المفارقات أن يحدث ذلك في جانب استمرار بقاء التقاليد المرفقة في أطر جديد . فربما كان دافع الفتيات لمخادوة بيوتهن والإقامة في المدينة هو إقامة صلاتات مع الشباب . معينا وراء احتمال الزواج من أحدهم ، وأمثلا في تحقيق ارتباط أسرى . وليس من شك أن ما حدث من اختلاف في القيم ، إما يرجع إلى احتمال أن لا تكون العادات الاجتماعية التي تفرض في البيت ، مناسبة للمدينة .

فصلما تبتعد الفتاة عن بيتها ، فإن تقدر أسرته على فرض رأيها الا قليلا على من ستزوج ومتى ؟ . ولم يكن باستطاعة الضغوط التي حافظت على استمرار الابنة السويسرية في ممارسة الغزل في بيتها حتى بلوغها الأربعين من عمرها أن تؤثر على الابنة بعد نزوحها إلى المدينة . والواقع أن الزوج نفسه دخل على أنها لم تعد ترغب استمرار الوضع الذي كان سائدا في بيتها . ولا يخفى أن الصور بالوحدة والانزغال في المدينة كان من بين عوامل الضغط التي حثت على الزواج . والأمر بالمثل فيما يتعلق برغبة أية فتاة في الهروب من النخعة المنزلية ، حتى تصبح سيئة نفسها والمنحكة في بيتها أسوة بأمها . وساعدت أيضا تقاليد الخدمة بالبيوت ، التي كانت تطالب عادة الخدم بعدم الزواج على حدوث علاقات غير مشروعة ، ودفعت الكثيرات من الخادعات إلى التخلي عن أطفالهن . وهذه حقيقة معروفة منذ عهد بعيد . وما حدث بعد ذلك من اختلاف في القرن التاسع عشر في أوروبا هو ارتفاع نسبة المشتغلات بالخدمة المنزلية على نسبة للمشتغلات بالمصانع . وهذا يعني حدوث تزايد نسبي لم يسبق له مثيل في عدد المشتغلات في هذا الحقل . وهذا عامل مساعد مهم لانجاب أطفال غير شرعيين .

غير أن هناك دائما آخر للزواج هو المافع الاقتصادي . فلقد قيل أن الفتيات العاملات في المصانع كن يتقاضين أجورا مجزية . ولكن ليست جميع الفتيات من العاملات بالمصانع . ولا ننسى أنه قلما حصلت النساء العاملات بصناعة الإبر وغيرها من الصناعات الصغيرة على ما يكفي لكي يقيم أودهن مع ملاحظة ، حدوث تقلبات مستمرة في تجارة هذه المنتجات.

وما حدث من انخفاض في انتاجها وطلبها في إنجلترا وفرنسا ، وجرت المادة علي دفع أجور للنساء للتشتلات في هذه الحرف تساوى صفد الأجور التي يحصل عليها الرجال مقابل أعمال مماثلة ، تشبها مع الافتراض الغالب باعتبار أجور النساء جزءا من أجر الأسرة ، (وإن كان هذا الافتراض لم تؤيده الحقائق دوما) ففي البيت الريفي كانت مقررات الحياة تتطلب عدة اسهامات ، وكان الاتجاه المنطقي لأي فتاة وحيدة ودفعتها الظروف الي الإبتعاد عن أمرتها وتنقاض أجرا لا يكفي لاعالتها ، أو يمكنها من إرسال بعض النقود للبيت هو المشروع في البحث عن زوج باعتبار هذا الحل ممكنهما سويا من مواجهة مطالب الحياة .

وقد تشاء الظروف الحسنة أن تخطب « الفتاة الصغيرة » ، ثم يجيء في أعقاب ذلك ما كان سائدا من ممارسات شبت عليها معظم الفتيات في المناطق الريفية ، فكان يضاهن من يهين الاقتران بهن من رجال - وعنهما يحدث الحمل ، لما يفتني الرجال ، أو يواصلن العيش معهم ، وإن كانوا لا يعتقدون القربان - وأحيانا يتم الزواج بعد انجاب الطفل الأول ، أو ربما أكثر من طفل . وفي بعض الأحيان ، كان القيد الذي فرضته الضرورة التقليدية بتقديم دويلة عند عقد الزواج ، كان يضي أن تسجل المرأة أثناء معاشرتها لنفسها . وإن طرح الشوارب بابا - وحال الافتقار الي السند الأخلاقي للأسرة والمجتمع المحلي والكنيسة دون تحقيق ما هو عامل من الزواج . ولعل الافتقار الي المال والاضغوط الاقتصادية القاسية ، بالإضافة الي اختلاف التوجهات والتوقعات - في أغلب الظن - من قبل الرجال ، قد حال دون وفائهم بوعودهم . وبين ما شهت به النساء المهجورات لهرى مايو(*) أنه كثيرا ما حدث الآتي : أ - لم يتوافر مال لعقد زواج صحيح . ب - كانت أعمال الرجل تستوجب كثرة التنقل . ج - خلق الفقر حالة من احتمال الضمور بالتوتر . د - التقاليد المحيطة بالطرقين ، والتي كانت تدعوها الي التحقق من حسن سير وسلوك الطرف الآخر ، والذي ربما لا يكون متوافرا . ويتهى الأمر بطردة صفار الفتيات للذئب الذين نالوا مأربهم ، ومن ثم سلخوا نوحهن مسلحا تقليديا ، ثم تتغير الظروف وتظهر نتائج غير متوقعة غالبا مالا تكون سارة .

وحتى بين المؤسسات ، وكثرت منهن كن من المصنعات أو الخادمت العاطلات عن العمل أو العاملات بالقطعة . ويلاحظ في حالتين خلط محسب من التوجهات القديمة والحديثة . ففي المجتمع السابق للصناعة ، كانت نساء الطبقة الدنيا ، تمنكرن ما لا نهاية له من مصادر الاقتات ، وتوفر الماكل للأسرة . وكان التسول مسألة مألوفة ، واعترف بالخازلة ومعاذرة

جنات الهوى كوسائل للحصول على الخبز والدقيق في لوقات الشدة .
وفي القرن التاسع عشر ، في لندن ، ذكرت للموسسات عند لقائهن بما يبدو
أن شعورهن بالخزي كان مجرد وسيلة للحصول على ما يسد رمق أمرهن .
وأوضحت امرأة انحبست طفلا غير شرعي راجها فقالت ان الحفاظ على بقائها
وحياة طفلها من الجوع « قد أرغما على الابتغاء للتومس » ووصفت
آخرى العشاء الفاسد الذي تناولته مقابل تبنيها .

على أن جميع المعاملات لا يتعرضن للهجر بعد انجلب أطفال غير
شرعيين . كما أن معظمهن لم يجهن إلى « التومس » ، رغم ما يتصوره
أبناء الطبقة المتوسطة من تخيلات تدفعهم إلى الازعاج . فكتيرات منهن
انتهى أمرهن بالزواج ، وابتعت أغلبن عن القوة العاملة بعد الزواج .
ويمكن عدم وجود ساء متزوجات أكثر فقرا في الس الامرار على اتباع
التقاليد الأسرية . وعنفما تتزوج الفتيات ، فلا أحد كان يتوقع استقرارهن في
الاسهام بأجورهن في تمويل بيت ذويهم . إذ يضى الزواج عملية انتقال من
أسرة لأخرى ، والاضطلاع بتشيل دود جديد . على أن بعض الفتيات
الوحيديات ظللن يتمكنن بقيم أمهاتهن ومبارساتهن بعد الزواج . فلقد
كان الدور التقليدي للمرأة المتزوجة ، ودورها الاقتصادي الحيوي في
اقتصاديات الأسرة وراء اشتغالها ، عندما كان إيراد عملها مطلوباً لتزويج
ميراثية البيت . وعندما أصبح دخل زوجها وإبائهما كافياً لسد حاجات
الأسرة ، بادرت بترك القوة العاملة . وأحياناً لا تقدم أمهات الأبناء الصغار
على ترك القوة العاملة إلا بعد تعطل الابن الأكبر عن العمل . ويحقق هذا
السط ما هو منشود منه داخل نطاق ما يجري في العائلة من تطورات ،
ولكن في حالات الحاجات الوقتية كالمرض أو موت رب الأسرة وعائلها ،
فلم يكن من المستبعد رجوع المرأة للعمل . وحتى عندما لا تكون مصفراً
للتحويل ، فإن اسهامها في اقتصاديات الأسرة يعد أمراً جوهرياً . وفي
تسميات القرن التاسع عشر في لندن ، كانت زوجات الطبقة الدنيا
« تتحملن مسئوليات جسيمة » سواء كن تنقاضين راتباً أم لا ، لأنهن كن
المصرفات في إيراد الأسرة ، ولم يكن مسئولات عن شراء المأكولات بحسب ،
وأنما كن يتولين دفع الإيجار وشراء الملابس ودفع أقساط التأمين ، والإشراف
على مصاريف مفرص أبنائهن » .

وعلى الرغم من أن نقل العمل إلى المصانع ولماكن خارج البيت قد
يسر للمرأة الوحيدة الاضطلاع بهذه المهام تيسيراً متزايداً ، إلا أن بعض
المتزوجات واصلن البحث عن عمل . وساعد التصنيع على تحقيق التحول
في فهم شغل العمل تدريجياً . إذ استمرت الأعمال القديمة باقية إلى
جانبا الأعمال المستحدثة . واحتفظت النساء عن تزويج عمال صناعيين

يمشون في المدن بأساليبهم السلوكية التقليدية ، وقمن بتكييفها حتى
توائم والظروف المستجدة . وكانت أغلب الأعمال التي يهدها بها المتزوجات
وقتية . ويصف أندرسون أنواعا شتى من وظائف المهنات في بريستون
١٨٥١ ، ويقول : « إن كثيرات كن تعملن على معاونه أزواجهن . وهناك
أخريات لجان للفتح محلات (برفيهات) صغيرة للمأكولات والمشروبات » .
ويردف قائلا : « إن أكثر من ثلث المهنات كن تشتغلن في أعمال بسيطة عن
المجال الصناعي ، وعملت كثيرات أخريات على نحو غير منتظم ، أو نصف
الوقت » . وغالبا ما كن لا يجي ذكر أسماهن في السجلات الرسمية
باعتبارهن لا يشغلن أعمالا محددة . وحتى أن الصيغة التي وضعها
أندرسون لتمثيل ما كن يجرى في لاكتشاف وتعبيره عنها بالقول بأنه
بالمقدور « وصف نمط تكوين الأسرة في المدن بأنه كان متأثرا بالأنماط
الريفية التي سبقتة » . إن هذا القول الذي جاء على لسان أندرسون ينطبق
على حالات كثيرة جاءت بعد ذلك . فحين نلاحظ في مدن وعواصم أوروبا
وأمریکا وجود تشابه بين أنماط عمل المتزوجات والأنماط الأقدم في
الممارسات السابقة للصناعة . فعلى سبيل المثال - كانت النسوة النازحات
إلى مصانع النسيج في نيو إنجلند من الجماعة الكبيرة الوحيدة من النساء
العاملات المتزوجات اللواتي كن تعملن بانتظام باستثناء الزنجيات . ويشرح
سمطس ما يسيه فيقول إن ما كان يجتديهن ليس السبل المألوف للفرد
والنسيج ، لأن الأهم من ذلك هو إتاحة الفرصة لهن للاشتراك مع أولادهن
في العمل . « فالأم التي يصل ابنها بالمصنع أقدر على مراقبتهم إذا كانت
تعمل قريبة منهم في نفس المكان » . وكيفت النساء النازحات ما لديهن من
مهاره مع الأوضاع الأمريكية ، اعتادا على خبرتهن بطبيعة الحال . وهكذا
اشتركت الأمهات الإطاليات هن وأبائهن في قطع الثمار والخضروات في
مزارع قرية من بافالو ونيويورك . ولعل هذه الأعمال ذكرتهن بما كن
يعملن عندما كن في جنوب إيطاليا . أما الإطاليات المقيمت في الطرف
الشرقي من نيويورك فقد شغلن بحياسة السراويل أو صناعة الزهور من
الورق بالاشتراك مع بناتهن في البيت . وعندما كانت هؤلاء النسوة يتابعن
عملهن بالمصانع ومحلات الحلوى ، كان الرجال يتكفون أسانا على إدارة
شئون المنزل ورعاية الأطفال . وتحولت النساء الإيرلنديات المتزوجات ممن
لا يملكن ما هو أكثر من الحبرة بالزراعة ، إلى خادمت بالنازل . ولكن
كثيرات منهن شغلن بتنظيف الابنية في نيويورك ليلا حتى يتفرغن لرعاية
شئون أسرهن بالنها .

وسواء عملت المتزوجات خارج بيوتهن أم لم تعملن فقد حرصن دوما
على المراجعة بين عملهن واقتصاديات الأسرة . والواقع أن اشتغال النساء
للمتزوجات خارج بيوتهن يكاد يبدو أشبه برافد داخلي من قيم ما قبل

الصناعة في نطاق أسرة الطبقة العاملة . فبعد أن بدأ الأزواج وأولادهم يأخذ طويلاً اتباع بعض القيم النازعة نحو الفردية التي صاحبت التصنيع ، وأصبحت هؤلاء النمو التحلي بقيم التضحية بالذات ، واستنفاد كل طاقتهن في سبيل أسرهن . هذه القيم التي خلقت لب « لي بلاي » ، والتي تميز بها الاقتصاد الفلاحي واقتصاديات البيت . وليس من شك أن هذا هو ما عتته شهادة امرأة نيويورك التي استشهد بها بيتر ستيرن : « لو اقتضى الأمر شراء شيء ما مثل زوج من الإحذية لأحد الأطفال ، فليس هناك ما يحول دون حرمان عيسى وحرمان أولادى من بعض الآكولات . والاكتفاء بكوب من الشاي وكسرة من الخبز ، وتوفير الغذاء لزوجى أثناء قيامه بصله ولا أروح له بذلك قط » . فما فعلت المرأة قد كرست دورها - اقتصادياً - لخدمة أسرته . فأنها تعتقد أنها أدت رسالتها على الوجه الصحيح الموائم للقيم الأسرية . وظل دور المرأة الاقتصادي في عائلات الطبقة العاملة يجمع بين وظيفة ربة البيت والمديرة المالية والحائكة ، التي قد تدفعها الظروف للعمل خارج البيت والكسب من حين لآخر .

وهناك مثل آخر عظيم الدلالة يمثل التضامن الجماعى اعظم تمثيل . فقد ولدت فرنسيسكا - ف حوالى ١٨١٧ في منطقة ريفية من أعمال مورافيا ، وظلت مقيمة في موطنها الى أن بلغت الحادية عشرة من عمرها وعاشت الطفولة الملهودة لأية طفلة من طبقتها ، وتعلمت من أمها تدبير البيت ، والمناورة في الفلاحة ، وتعلمت في المدرسة القراءة والكتابة والحساب ، وأهم من ذلك الحياكة . واشتغلت في عدة بيوت مختلفة على التصاقب لزيادة دخلها ، وكانت تغير من طبيعة عملها سعيها وراء هذه الفاية . واكتسبت من أحد البيوت خبرة في الحياكة ، ساعدتها على ادجار بعض المال ، الذي كانت تقتطع منه جزءاً يرسله الى موطنها الذي دأبت على زيارته من حين لآخر ، مرة كل سنة على الأقل لرؤية أهلها . ويحدد جواز سفرها .

ولم تختص تجربة فرنسيسكا على تجارب صفار الفتيات من الأجيال التي سبقتها ، الى أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها - بيد أنها عندما حسنت على التوجه لقبنا لتجربة حظها بدأت مرحلة جديدة من حياتها . وبعد أن تلقت أجمل التهنيتات من والديها ، دقعت مصاريف السفر بالمعربة من مصراتها - وبعد ثلاثة أيام من وصولها اعتنقت الى العمل كخادمة . وعاشت عند أسرة بورجوازية . وعملت بمسما زهاء ستة شهور ، ثم تركت العمل عندما عثرت على عمل أفضل . استمرت تشغله الى أن مات رب البيت (بعد ستة شهور من إقامتها) فتركت العمل وشملت وظيفة خادمة في دار أخرى استمرت تعمل بها ستة كالمئة .

وعندما بلغت العشرين من عمرها ، وبعد أن استهوتها الفرس المسورة للصالة في بلد كبير ، وبعد أن شعرت بأجهد العمل بالمنازل ، قررت العمل صبية لأحد نساجي الصوف ، الذي ألفس بعد سنة أخرى ، وحالفها التوفيق فمشرت على عمل جديد ، وتخلت عنه عندما اكتشفت عدم استقراره ، فاضطرت إلى الاشتغال بحياكة التفازات لأحد المصانع الصغيرة . وكانت صناعة التفازات - بالقطعة - صناعة رابحة - وكان على فرثيسكا أن تعمل « بالمرل » الذي كان أشبه بمنبر للنوم ، فكانت تشاركها الفرائش عملة أخرى من « المشبوعات » . وبعد أن شعرت فرثيسكا باستهجان لهذا الوضع ، حالفها التوفيق فالتقت بنجلو شاب من أصل ريخي ، فوافقت على مشاركته العيش . ولم تكن ممارسة المرأة للنوم مع حبيبها من العادات غير المروفة في البيئة القروية لورافيا طبقا لما ذكره لي بلای . وسرعان ما أنجبت فرثيسكا طفلا كانت ترمعه أثناء حياتها للتفازات ، وادخرت في هذه الأثناء مالا يساعدها على الزواج . (اد كانت السلطات الفيلاوية حذرا تطالب الصال باتباع قدرتهم على إعالة الأسرة قبل السماح لهم بالزواج - وكانت مهمة الإخبار تقع على كامل عروس المستقبل !)

وبعد ثلاث سنوات لالتقاها بالنجلو تزوجا ، ودفعت فرثيسكا جميع تكاليف الزواج ، ووردت البيت « بالجهار » المطلوب - من أعطية وأثاث منزل - وبوصفها ابنة لأحد المزارعين الرضين ، فانها أصبحت الآن ربة بيت عامل من عمال المدينة . وعلى الرغم من استفاد معظم وقتها في رعاية أطفالها وادارة شؤون البيت ، فقد استطاعت الحصول على عمل يدري عليها دحلا طيبا (١٨٥٣) . فقد تماقت على عمل يستمر ١٢٥ يوما كاملا في صناعة التفازات . وقد دلي بلای مدة التعاقد بمائة وخمسة وعشرين يوما ، إلا أن فرثيسكا كانت تشتغل في حياكة التفازات بعض أجزاء من اليوم طوال معظم أيام السنة .

وساعد الإيراد المكتسب عن طريق العمل بالقطعة على تمرير أحر روحها مال أصافي . ولكن بعد إنشاء المصانع ، وتناقص الاهتمام بالانتاج بالقطعة الذي يجري بالمنازل ، تعاقت الصعوبات التي واجهت أم الأطفال الخمسة الصغار ، فاضطرت إلى التخلي عن الواجبات المنزلية لكسب عيشها من عمال الخارجي . وساعدت الأحوال الاقتصادية في قيسا في خمسينات القرن التاسع عشر على تيسير نهوض فرثيسكا بالموار المتوقع من امرأة تنتمي إلى الطبقة الضعيفة .

ولم تصمد القيم التقليدية بلا قيد أو شرط في وجه التطورات الحديثة ، أو النزعة إلى التحديث . فتمتصا القنعت الأم على تكليف

منطلقاتها للتعامل والواقف الجديدة مرت بتجارب مختلفة غيرت العلاقات داخل الأسرة ، وغيرت من تصورهما لها . وكما استطاعت عملية التغير استيعاب القيم والممارسات القديمة ، فانها استطاعت أيضا تغييرها .

واشتملت التحولات الأساسية على اتجاه لاحتلال القيم الفردية المنزج محل القيم الأسرية . وغرست هذه التحولات الاعتقاد بأن الفرد مالك لنفسه أو لنفسها أكثر من كونه أو كونها مجرد جزء من كل اجتماعي أو معنوي . فلقد أثبتت هذه التحولات تكيف أبناء الأسرة مع احتياجات أسرهم ، تبعاً لهذا الفأية تبرز الوسيلة (٣) ، بحيث تحقق اسهاماتهم عائداً في المدى القصير جداً . ونمت هذه الاتجاهات في أشكال مختلفة تبعاً لما واجهتها من ظروف . وبالرغم من كل هذا فقد بينت الدلائل وجود تماثل كامن فيما جرى وفي النتيجة النهائية . فلقد سمح بولاً للبنين ثم للبنات فيما بعد بالاحتفاظ ببعض ما يحصلون عليه من مال - ومنع الإخوان هذا الحق في بعض حالات - وفي حالات أخرى ، حددت الأسرة نصيباً خاصاً لها . وفي حالات ثالثة ، كانت الابنة هي التي تقرر الحصة التي يتوجب عليها دفعها من أرباحها لنديها (وبمرور الزمان تناقصت هذه الحصة ، وتزايدت عزم انتظام مقاديرها ومواعيد إرسالها) . وأشار أندرسون إلى ما حدث من اسكاس للأوصاف من تأثير ما يتقاضاه الأبناء من أجور عالية . وأدى التوتر الناتج من الاختلاف على من له الأولوية : الإخوان أم الأبناء ، إلى حدوث مشاحنات . وغالباً ما كانت تنتهي هذه المواقف إلى مبالغة الأبناء لبيوبهم باختيارهم ، وهم يشعرون بالاحتياط لما حصلوا عليه من حرية ، وبالقدرة على تقرير مصيرهم بلا كايح أو جامع .

وانتهى الأمر بأن أدى الابتعاد عن موطن الأسرة والهجرة إلى إضعاف الروابط الأسرية ، كما أدت ضغوط الأجور المنخفضة والعيش المستمر في الحضر ، وإرغام أعداد كبيرة من صغار الفتيات على الاستقلال في العيش ، إلى شيوع الاتجاه نحو الحرس في الانعلاق ، وتدعيم النزعات الأمانية ، فانجذبت الفتيات إلى إظهار إشغال معينة باعتبارها وسيلة تسمح لهن بالانطلاق الاجتماعي والمهني . أكثر من كونها وسيلة مؤقتة لكسب بعض المال للأسرة . واستمرت الخدمة بالبيوت هي وسيلة العمل الأساسية للمرأة حتى في أغلب أنحاء أوروبا إلى أن بدأ القرن العشرون . (والواقع أن عدد النساء المشتغلات بالأعمال المنزلية في منتصف القرن التاسع عشر قد زاد زيادة هائلة) . ومع هذا ولما كان الاشتغال بالمنزل قد مثل العمل الأنثوي التقليدي ، لذا ساعدت وظيفة الخدمة على إتاحة الفرصة للعاملات بها على الانطلاق الجغرافي والتنقل من عمل لآخر . فبمجرد قدوم الفتاة

الصغيرة للمدينة ، واجتيازها فترة التكيف مع حياة الحضر ، في كنف إحدى العائلات ، كان يوسمها البحث عن عمل أفضل وأكثر اثابة . وانتمشت أيضا دوتماثها بإمكان الزواج من شخص من المدينة يثقاني أجرا أفضل .

ولا يخفى أن هذه التجارب الجديدة ، وما تعرضت له هؤلاء الفتيات من صمودات واحباط قد خلق عند صفاهن نزوعا أكثر انخفاها نحو الروح الفردية ، ومحاولة التكيف تبعا لهذا الغاية تبرر الوسيلة ، وتزايد عيشهن وعملهن بصحبة زوجها واتجهن لادخار بعض المال ، لانفاقه على شراء الملابس والمرفهات ، وتعلمن كيف يحشن عن غصن ، وتقدير قيمة كل بنس تحصلن عليه واتخذت رغباتهن ومصلحتهن الصلابة فوق رغبات الأسرة ، ومصلحتها .

وايضا تعدلت مخططات العمل الأسرى من تأثير تناقص وفيات الأطفال ، وتزايد فرص التعليم . وبدلا من قيام الوالدين ، بأوسال جميع اولادهم للعمل لصالح الأسرة . اتجهوا الى الاستثمار في سبيل تحقيق مستقبل أفضل لاولادهم ، وعدم إلحاقهم بالقوة العاملة ، وإرسالهم الى المدرسة . (ومن الواضح أن هذا المخطط قد اتبع في حالة البنين في وقت أبكر من انبعاث في حالة البنات ، وستنحصر عن التاريخ الدقيق متى بدأت هذه العملية فيما بعد) . وجمعت الأسرة في أخلاقياتها بين الراد صيدا انطلاق الأجيال ، والاتجاه للمستحدث الفردي المنزع .

وهكذا شاركت عدة مؤثرات فيما اعترى التصاديات الأسرة من تدهور . فكان بين هذه العوامل : ١ - موضع فرص العمل ٢٠ - ارتفاع مستويات الحياة والأجور المالية ٣٠ - مدى القرب من مراكز التغير الاقتصادي ٤٠ - زيادة التعرض للقيم البورجوازية ، والتمسك بها باعتبارها تنبع فرص الانطلاق نحو الروح البورجوازية المتزايدة . ٥ - التسوع العرقي والمصري في أنماط العمل والأنظمة الأسرية . ٦ - اختلاف معدلات التنمية في مختلف البقاع والبلدان . وساهمت جميع هذه العوامل في تدهور الأسرة كوحدة منتجة ، ولدت الى حدوث تبدل في القيم المصاحبة لها . وبلقدور تحديد تاريخ حدوث ذلك على أنماط شتى في مختلف المواقع والطبقات والفئات المصرية . فهي لم تظهر عند الفلاح الأوربي والعامل الصناعي الأوربي الا في القرن التاسع عشر . ولم تصل الى بعض بطاع مثل جنوب إيطاليا وريف إيرلاندة وريف فرنسا الا في القرن العشرين . غير أن لناحية اتخاذ نموذج الأسرة كوحدة لتحليل العلاقات الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية لم تختف .

تطلب إعادة تخطيط العلاقات الأسرية والتغيرات التي طرأت على تعريف عمل المرأة ، وما حدث من تبدل في مكانها ، قلدا كبيرا من الجهد . فلا يخفى حدوث جولة تغيرات . فلقد أدى ارتفاع مستوى المعيشة وازدياد أجور الرجال ، - مما يسر لهم إعالة أسرهم - إلى انقاص ضرورة اشتغال المرأة المنزوجة بالعمل خارج البيت . (ولا ننسى أنه في بداية عهد التصنيع ، كان النقص الذي دفع مقابل ذلك باعظا ، تمثل في ازدياد نسبة الوفيات بين الأطفال والرضع) وحتى في حالة المسودة العازبات ، فقد قللت التغيرات الاقتصادية من فرص العمل التقليدية ، بينما فتحت أبوابا جديدة للعمل للنساء الأكثر تعلما . فبعد الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال ، قلت أهمية الخدمة بالمنزل كبدل عمل لصغار النساء ، وحل عدد أصغر من الخادئات المسدييات اللواتي حوّلن هذا العمل إلى مهنة محترمة بدلا من السبل المذمومة المتبع من صفار الفتيات اللاتي كن تملأن العائلات في خدمة المنازل . ورتب على ازدياد إنتاج الملابس في المصانع الحظ من فرص العمل للمسودة للنساء في ميلاو وغيرها من البلدان . ومن جهة أخرى ، روت الريادة التي طرأت على الرطائف الجديدة في الخدمات الحكومية ، بعد اتساع نطاقها ، والخدمات المعاونة للشروعات العامة ، والتجارة والخدمات الصحية والتعليم فرص عمل للنساء العازبات ، وبخاصة من حصلن على قدر ما من التعليم الأساسي .

وهناك شواهد توضح ما حدث بسور الزمان من تبدل لدور النساء في بيوتهن . يرى دورهن كزوجات أو بنات . ففي بريطانيا ، بدأت نساء عائلات الطبقة العاملة تعقن السيطرة على التواشي المالية منذ وقت مبكر من القرن العشرين . غير أن هذه العملية لم تكتمل حتى نشبت الحرب العالمية الثانية . فلم تحصل الفتيات العاملات على إيرادات مستعظمين الاتفاق مع على شؤونهن الخاصة إلا في نهاية القرن التاسع عشر . وبعد حوالي ١٩١٤ نزايد عدد الفتيات العازبات اللاتي كن تحتجن مبالغ متزايدة من أجورهن ، وخصص الأزواج جانباً من إيرادهن لمصروف خاص للزوجات . أما ما تبقى من إيرادات الزوج فكان ينفقه وفقا لمشيئته . وتوصى الجادلات التي داوت في تنظيمات الطبقة العاملة أيضا بما حدث من تغير في تصور دور الأسرة . فلقد طالبت اتحادات العمال بأجور أكبر للرجال . حتى يتسنى لهم إعالة أسرهم وإبقاء زوجاتهم بالمنزل . ووصفت بعض الصحف الاشتراكية المجتمع المثالي بأنه المجتمع الذي يسمح « ببقاء الزوجات الاشتراكيات الصالحات » بالمنزل لرعاية صحة « الأطفال الاشتراكيين الصالحين » وتعليمهم .

وقد التغيرات التي آتت في عمل المرأة ، ومكانتها في الأسرة ، في وقت متأخر من القرن التاسع عشر والقرن العشرين من الموضوعات التي

لم يكشف المؤرخون النقلب عنها بالفعل ، ومن غير المقدور فهم هذه التغيرات
بمعزل عن السياق التاريخي الذي عرشناه . فلقد كانت أسر الفلاحين
الأوروبيين والطبقة العاملة الأوروبية أول من تعرض للتغيرات البيئية في القرن
التاسع عشر . وكانت هذه التجارب يصيدة عن الاتصال بالاطراد . فلقد
احتمت سما للموقع الجغرافي والمؤثرات العرقية والرماني ، واشتملت على
أنماط معقدة من الديناميات ومظاهر مختلفة لكيفية اتخاذ القرار عند
الأسرة . على أن أول احتكاكات بالتغيرات البيئية في جميع الحالات قد
اشتملت على عمليات تكيف ومواجهة مع معطيات تقليدية . وكانت تخصص
لقيم تمتد جذورها في اقتصاديات الأسرة . ولن يتمنى لنا فهم عمل
السواد الأعظم من النساء في القرن التاسع عشر ، إلا إذا أدركنا هذه
الشروط . فعلينا أن نخصص تجربتهن على ضوء قيدهن الأسرية ، وليس
على ضوء قيمنا الفردية . فليس بالاستطاعة الربط بين قيمهن سطحية
وتاريخيا بالحقوق السياسية التي محتتهن حق التصويت . ولن يتحقق
البدء في فهم الاضطراب الذي صاحب عمل المرأة ، ومكانتها إلا إذا فحصت
الافتراضات على ضوء المطبات التاريخية . فلا بد من استبعاد تفسير
المذهب التطوري الذي يرغم وجود تجربة وحيدة ومتماثلة تشارك فيها
جميع النساء ، أي تجربة تسير فيها العوامل السياسية موازية للعوامل
الاقتصادية ، على ضوء الدليل التاريخي .

. المراجع

- M. Anderson**, *Family Structure in Nineteenth Century Lancashire* (1971).
- J. A. Banks**, *Victorian Values : Secularism and the Size of Families* (1981).
- M. Hewitt** *Wives and Mothers in Victorian Industry* (1958).
- J. B. Lehning**, *The Peasants of Marbles : Economic Development and Family Organization in Nineteenth-Century France* (1980).
- A. McLaren**, *Sexuality and Social Order : The Debate over the Fertility of Women and Workers in France 1770-1790* (1983).
- J. Murray**, *Strong Minded Women and Other Lost Voices from Nineteenth-Century England* (1982).
- I. Muchkev**, *Women Workers and the Industrial Revolution 1750-1850*, (1959).
- F. K. Prochaska**, *Women and Philanthropy in Nineteenth-Century England*, (1980).
- P. Robertson**, *An Experience of Women : Patterns and Change in Nineteenth-Century Europe* 1982.
- N. Smelser**, *Social Change in the Industrial Revolution : An application of Theory to the British Cotton Industry* (1959).
- B. G. Smith**, *Ladies of the Leisure Class : The Bourgeois of Northern France in the Nineteenth Century*, 1981.
- G. D. Surman**, *Selling Mothers' Milk : The Wetnursing Business in France 1715-1914*, (1982).
- M. Vickers**(ed) *Suffer and Be Still : Women in the Victorian Age*, (1972).
- M. Vickers** (ed) *A Widening Sphere : Changing Roles of Victorian Women*, (1980).
- S. R. Walkowitz**, *Prostitution and the Victorian Society. Women, Class, and the State* (1980).

الحمى ! الحمى !

أنطون • س • وول

ربما لا يوجد عامل من العوامل المؤثرة في الحياة اليومية في الماضي بقدر اختلاف اختلافنا بيننا مع ما يجري في عصرنا الحاضر ، يتماثل هو وعامل تفتي الأمراض المدمية الفتاك التي لا يعرف سببها • وخلال القرن التاسع عشر ، انتشرت هذه الأمراض على الكوليرا (وكانت مرعسا مستحدثا تملأ على تديوب الأوربيين) وعلى التيفوس والتيفود والإنفلونزا والديفتيريا • وانحصرت الطبقات الفقيرة التي تحمل مدنا مكتظة بالسكان من تأثير هذه الأمراض إلى دفع ضريبة الملح من الضريبة التي دفعتها الطبقة المتوسطة والطبقة الأرستقراطية ، وإن كانت هاتان الطبقتان لم نلنا الإصابات بهذه الأمراض ، وأبلغ شاهد على ذلك هو وفاة الأمير ألبرت زوج الملكة فيكتوريا متأثرا بإصابته بالتيفود •

وولمت عدة تقارير في النظره العامة إلى هذه الأمراض المدمية خلال القرن • فلقد أحدثت تجربة الإصابة بالكوليرا إبان ثلاثينات القرن ، التي قتلت أناسا من مختلف الطبقات الاجتماعية ، أثر إصابتهم بمرض لم يسبق معرفته بلوربا ، وإن كان معروفًا تملأ في آسيا ، أحدثت صدمة للحكومة الإنجليزية دفعتها إلى اتخاذ إجراءات لمواجهة هذا الخطر ، وتركزت معظم إجراءات الحكومة على تحسين وسائل الصرف الصحي وتنقية مصادر المياه وترتب على ذلك حدوث تزايد مطرد وإن كان حذوا - في مستويات الحكومات المحلية والركزية في بريطانيا عن شؤون الصحة العامة • ولم يكن مستطاعا أن تحقق هذه الجهود ما هو أكثر من التقدم البطود بالنظر إلى قصور المعرفة الطبية آنذا ، ولم تعرف على نحو مرض الصفة الجرثومية للمرض ، إلا في الثالث الأخير من القرن ، وإن استمر تردد السلطات والمسؤولين في الأوساط الطبية لسنوات عن الاعتراف بها ، والحكم عليها

Enlarged Lives • Public Health in Victorian Britain (1987) Anthony S. Wohl. (★) خلاصة عن

بالتقاربة بالنظريات المتنافسة لها . وحتى بعد أن عرفت وسائل منع هذه الأمراض مثل التحصين ضد مرض الجدري ، فقد ظلت معارضة الأخلاقية وسياسية محلية تعترض على تفويض الحكومة لاتباع هذا السبيل من سبل العلاج . ومع هذا فقد نجحت السيطرة على معظم هذه الأمراض بقدر « معقول » في مشايرف القرن العشرين ، برغم ما شطب هذه الناحية من بلبلة ومناقشات سياسية . ولقد شجعتنا على كلمة « معقول » ، ودعانا كان من الواجب ملاحظة ذلك ، لأنه في العقد الثامن من القرن العشرين ، اجتاحت موجة من الانفولنزا الوبائية أوروبا وأمريكا ، أصابت أو فتكت بملايين ممن تعرضوا لهذا المرض .

السرطان والتبولات القلبية وحالات المرور . جميع هذه الأحداث من مقومات مجتمعنا الحديث . وليس هناك ما يدعو إلى شعورنا بالقلق من حدوثها مادامت لم تصبنا بأي أذى . فالخوف والتهديد بالموت القاجي . يمكن في كواهن وعينا . وكان القرن التاسع عشر يشاغلنا في تخصيصه الجاسب الأكبر من وقته وفكره للأحداث المباشرة الخاصة بالاستمتاع بالحياة ، أو الكفاح من أجلها أكثر من الجانب الذي يخصه للتفكير في احتمال الموت المبكر . إذ كان الساس على عهد الملكة فيكتوريا (ملكة بريطانيا) يحيطون الموت بمظاهر التقديس ، حتى ينجفوا عن أنفسهم وطائفة صفعاته ، وحول الأثرياء الجنائزات إلى احتفالات مهيبية تتطلب نوعا خاصا من المراسم والاتيكيك ، بل والفنون الزخرفية . وحولها الفقره إلى مناسبات تخضع لفسس البواعث السيكلوجية ، أي لكي يلتقوا بالأصدقاء والميران ، والاستماع بنفس التقليد كلسم يخفف من لوعتهم ، ويتيح الفرصة للشرب والغذاء والترثرة وأداء الشعائر ، ومشاطرة الأحزان والعطف على المحزونين . وتساعده عملية التفكير على تيسير فرس المشروع والاحترام للموتى ، وللتخفيف من مشاعر لوعة فراق واحد من الأعزاء ، التي يضر بها من استمروا باقن على قيد الحياة . وكان احتمال التعرض لموت مفاجي . غالبا ما يكون موجعا . من جره الإصابة بمرض أو آخر من الأمراض الوبائية الحديثة حينذاك . من الحقائق التي لا غمض من وقوعها في حياة أبناء القرن التاسع عشر .

وعندما نقول ذلك ، فإنا لا نقصه الايصاء بهول صلعة الموت على الأحياء . فنعلمنا كانت تحدث إصابة « بالحمى » ، كانت تترك آثارها على حي نأكمله . وكانت مشاهدة الوالدين وأهل البيت أو صغار الأولاد وهم يتداعون على مهل أو يموتون فجأة من المشاهد التي يتعذر تصادى الباقين على قيد الحياة الأملاات من دأثيرها . ولم يكن بالمقدور مواساة أهل القعيد الا بشعر محدود ، كقفايهم بحتبة وفوق هذا الحدث عندما تتقدم السن .

ويبرز المؤرخون الاجتماعيون والطبيون إلى التركيز على الأرقام الصماء لنسبة الوفيات . بيد أن مثل هذه الإحصائيات لا تكشف لنا إلا القليل عما اعتري من بقوا على قيد الحياة من هزال ، أو عن الشقاء المادي أو السيكولوجي الذي ترتب على المرض أو الموت . وفيما يتعلق بتأثير المرض على الفقراء ، يمكن القول بأنه قد سنى الانحدار إلى درجة الكفاف واللاحاق بمعسكر من يستحقون الموت . وقد يعنى المرض بالنسبة للمجتمع في شموله تطل الحياة العادية والإحساس بالتوتر والقلق التي نذكرنا بحالة مجتمع فرض عليه الحصار .

وبان القرن الثامن عشر ، ظهرت طائفة من مستوطنات الأغذية وتوافرت محصولاتها ، مما أدى إلى حدوث تحسن في توريد الغذاء ، تبخض عنه انخفاض في نسبة الوفيات وازدياد مدعم في عدد السكان . غير أن ما حدث من نزوح سريع إلى الحضر في بداية مراحل الثورة الصناعية لم يترتب عليه أى تبدل في سطح التقدم العام . وتغير هذا الحال بأكمله تضاراً حاداً قبل ارتقاء فيكتوريا لعرش انجلترا . فلقد دأبت اعتبار العودة المزججة لسهل الأريئة ، وجررت إحصاءات بشأنها امتدت إلى أرقام منتزعة من بيانات الإحصاءات السنوية ، التي نشرها مكتب القبرودات العامة الحديث الانتشاء والأبحاث التي أجرتها الجمعية الإحصائية بلندن . وساهم ما نجم عن ذلك من ازدياد العناية بارتفاع نسبة الوفيات بقدر كبير في النهوض بالمدن في عهد الملك جورج الخامس فيما بعد ، وصحب ذلك ارتفاع نسبى في كثافة السكان المقيمين وسط المدينة الذين شعروا على حين غرة بانتشار الأوبئة ، مما شجع الطبقات الأثرى على ترك وسط المدينة والإقامة في الضواحي . وساعدت عودة انتشار الأمراض المعدية والوبائية بمعدل عالٍ - وبخاصة الكوليرا ، وهي مرض جديد على الحياة الإنجليزية ، ولعلها أول وباء ينتشر في البلاد منذ انتشار الطاعون في القرن السابع عشر - على تدكير الانجليز في عهد فيكتوريا بأنهم رغم ما أحرزوا من تقدم ، إلا أنهم ليسوا محصنين ضد اقتضاضات الماضي .

إن هذه الأمراض الوبائية الرئيسية ، رغم انتقالها على أنحاء مختلفة (أي عن طريق المياه الملوثة والأطعمة والملابس وأدوات الطهو وفسل الملابس والذباب أو رذاذ الفم) واحتياجها إلى سبل مختلفة للعلاج ووسائل الوقاية ، فتأثر جميعا بالنظام الغذائي والنظافة الشخصية والعزل الصحي ، وتربيات أسلوب العيش بالمنزل . وتتطلب هذه الأمراض شيئاً أكثر من الفن العلاجي للطبيب ، والأبحاث التي يجريها المصلون . إنها تتطلب من الدولة التفهيم والتحكم في المخالطة في الكثافة السكانية العشوائية وأعمال الریف . قصارى القول ، لقد دفعت هذه الأمراض الفولة للتصديق لمسائل الصحة العامة والاضطلاع بدور جلوس البيئة .

ومن بين الأمراض القاتلة في العصر . انخرت الكوليرا بتسببها المالية
كما أثبتت البيانات الإحصائية . فلقد اثبتت الكوليرا في تسببها خطأ صارما
هذا من آسيا عبر أوروبا . وغزا اتيجلترا لأول مرة (١٨٣١ - ١٨٣٢) ،
ثم عودت الكرة (١٨٤٨ - ١٨٤٩) ثم خفت حلتها (١٨٥٣ - ١٨٥٤)
و (١٨٦٦ - ١٨٦٧) وتنصاري في الأهمية مع عدد الوفيات النسبة
المالية للمضحايا من مخالطي المرض (من ٤٠٪ إلى ٦٠٪) ، وسرعتها في
إصابة الأفراد . ومن غير المستبعد أن يموت الضحية بعد ساعات قليلة من
ظهور أول أعراض المرض . ولكن الأهم من ذلك هو موته بعد عدة أيام من
معاناة أوجاع المعدة والقيء والإسهال وغثول الجسم . وتنخفض درجة
حرارة الجسم خلال هذه الأيام . وجيبت النبض هبوطا شديدا ، ويتيسس
الجلد . وخلال المراحل الأخيرة . قد يعتقد أن المصاب غارق الحياء .
ودويتم حكايات بشعة عن عمليات دفن متسعة قبل الأوان ، وعن محاولة
الضحية (التلقين) الإفلات من المصير الزاقت . وتزيق الكفن ! وازدادت
المخوف بعد أن حدثت حالات وفاة فجائية لأشخاص أصبحوا ظاهريا .
وكتبت إحدى المجلات (*) ١٨٣٢ مقالا عبر عما لوحظ من انزعاج :

« عندما نرى نفرا من أقراننا من المخلوقات ينعمون بصحة جيدة .
ويستمتعون بكامل العافية وهم في مقتبل العمر ، نتباهم بفتة أعراض
تقلصات شديدة ، ثم يلقى بهم في القبر بعد ساعات قليلة . ألا تؤدي مثل
هذه الحالات إلى إثارة أشد الأعصاب صلابة ، وإلى إثارة هلع أقوى
القلوب ؟ »

وهكذا اكتسبت الكوليرا اسم « مرض الصلصة » .

وراد من حلة الإزعاج العام التفارير الواردة من أوروبا عن تعرض
المستوطنين أو الأطباء للمرض والمبالغة في ذكر الأخبار ، كما فعلت جريدة
« لانسيت » عندما قالت « لم يتمكن أي شخص منها علا مقامه من الإفلات
من أوسايها . فقد أبيضت عائلات كاملة ، وتحولت الأمم المتحضرة إلى
قطعان من الهج ، وتلاشت كل درجات التنظيم الاجتماعي وروابطه » .
وليس من شك أن جريدة التايمز اللندنية كانت تبألج ١٨٣٦ عندما احتارت
مبارزات مثل « الذعر الأكبر » . ولكن في السنة التالية ، وقعت ثلاثون
حادثة من حوادث التشعب وافقت ظهور الكوليرا في لندن ولينبرول
وماثمستر واكستر وادنبرة وبرمنجهام وبريستول وشيفيلد وجلاسجو
وجريتش وبارلي . وعلى عكس ذلك لم يحل تفشي الكوليرا في مدينة
حل وسلي وليفس في ربيع ١٨٣٢ دون حضور أهل البلاد القرية
من يورك مواكب القضاة الذي يلقم في ذكرى وثيقة الإصلاح ١٨٣٢ ، كما

لم تساعد الكوليرا على تخفيف زخم التضام على مشاهدة السباق الأسبوعي للخيال - وقد أثارت معظم أحداث الشغب المخوف التي شاعت عن انتهاز طبقة الطب والأطباء فرصة تقش الكوليرا للحصول على جثث الصحايا والاستماعة بها في دورس التشريح - وانشج انهم يقتلون ضحايا الكوليرا - وحدثت حالة من الخوف المرضى من الكوليرا (*)، امتدت بضعة أميال من مركز انتشار الوباء - فمتما ظهرت الكوليرا لأول مرة في سونغولاند في الشمال، ثار الذعر على الفور في مدينة كيرغوفون وجلوستر ونورويش وبلسموث - وصحبت هذه الحالات دوما مخاوف الانتشال السريع (**) للمشتبه في موتهم والدفن المتعجل للضحية قبل التأكد من الوفاة ، أو الدفن في أراض مدسة - ولا شك أن حالة الصحوه تتطلب الانتظار مدة مقولة بين الوفاة والدفن - وحاء اصرار الجهات المسئولة على سرعة دفن ضحايا الكوليرا متعارضا هو وعادة تكريم الموتى - فلقد حالت الأعداد الكبيرة للموتى دون احاطه عمليات الدفن ببرامس التكريم التي تتطلبها الأعراف - فكان رجال الدين يتلون شعائهم في عجلة مع الاعتماد بالقدر الكافي الذي يوفر الأمان ، خارج حوش الدفن ، ولم تمر الجسارات أى اهتمام - وكما عقلت شارلوت يونج على ذلك بقولها : « الأحياء أولى بالرعاية من الموتى » - وشعر الإيرلانديون بوجه خاص بالغضب من سرعة اجراءات الدفن ، وانجازها على وجه لا ياسب المقام - وفي بعض الأحيان ، حاولوا التصدي للسلطات عندما كانت تحصر لدفن الجثة ، ورفضت الشرطة المسئولة عن دساكر لندن الشهيرة الاقتراب من جثة أحد ضحايا الكوليرا ، وكان أقارب الضحية يحاولون حمايتها من الدفن المتعجل - وطلبت السلطات المحلية من بعض « الكونسبلات » الحاصين اقتحام للكنائز واخراج الجثة ، ولكن قواص الكنيسة أبلفهم بعدم سماح الأبرشية دخول أى كوستايل مهما كانت الأسباب ، ولئن تلقم لهم أية مساعدة من الدار - وانتهى الأمر بتطوع بعض السقاين بحمل الجثة نظير خمسة بنسات لكل منهم - وهذا أجر سخى (لأنه يتساوى مع ما يتقاضونه لدى لشتغالهم يومين أو ثلاثة أيام) ويستل ما سيوه ، يدل الهلع « (***)

ودلت جميع الشواهد كحالة الخيل التي اجتاحت الحي باكمله والرائحة النفاذة للغار المحترق وما يتصاعد منه من دخان كثيف ، ودمعة بحسب اقارب الضحية عند خروج النمش مدي اثر الكوليرا - ودلت بعض المدن بعد هروب عدة آلاف من سكانها بمجرد لحهم أول بوادر للكوليرا

Choleraepidie

(*)

Burking

(**)

Wages of Fear.

(***)

أشبه بمدينة أشباح : ولاحظ الدكتور اليزون « أنه قلما وفي أحد يسير في الطريق ، ولم يسمع أي صوت خلاف صوت العربة التي يركبها الأطباء ، والفنز الدائر على الأسن » . وفي مدينة بلستون قرب ولفر هاتون كتب أحد الشماسين بالكنيسة : « لقد توقفت تماما جميع أنشطة السكان ، ولم يعد هناك أي أحد يتمتع بالسلطة غير المؤز والمرضى والموت والعقر الشائع في كل مكان » . أما في ولفر هاتون نفسها ، فقد جله وصف الطبيب المحلي لها على الوجه الآتي :

« في جميع الأركان ، لا يوجد غير أحد المرضى وأحد المحضرين وأحد المؤز . . . وساد الصمت المدينة ، الذي لا تقطعه غير أصوات دق جرس التخابز . ياله من صمت وهيب . وكانت الشوارع مهجورة ، لا يلمح فيها سوى خطوات الأطباء ، ومعاونيهم وهم يسرعون المحلى ، أو بعض من يهرون بحثا عن يقسم لهم المؤز . ولا يسمع أي صوت غير أصواتهم وصوت أجش لحسان عربة الطبيب الأوحده وهو يهرع لآله واجبه . ولعل هذه العربة كانت العربة الوحيدة التي تشاهد في الطرقات بعد أن كانت تسج عادة من شدة الرحام » .

ومما يثير الدهشة ، أن لا يوجد سوى قدر قليل من الدعر . وعليها أن لا سي أن أول وباتين للكلولرا قد حدثا في فترة من فترات القلق السياسي والاجتماعي . وكثما عن مقدار ما كان يسم به الجنسج الانجليري من استقرا .

ويزداد وضوح هذه الحقيقة على ضوء العجز الكامل عن السيطرة على هذا الوباء الوبيل ، بلهيك بالقوة على منعه أو علاجه . إذ يستعمل شر مرض الكوليرا من جراء ابتلاع بعض المياه ، أو تناول طعام ملوث من تأثير نوع البكتريا المسببة لها ، وربما استطاع القيبيرو (*) الاستمرار في البقاء خمسة أيام في اللحم واللبن أو الجبن ، وبدرجة أقل في الخضروات ، وحتى ستة عشر يوما في التفاح . وبمقدوره الميش في الماء زهاء خمسة عشر يوما . وينتشر بطوعة شدة في المياه الملوثة بأفرازات ضحايا الكوليرا ، أو عن طريق الذباب الذي يقف أو يخفي ببراز المريض .

واقسم رأى الأطباء مما دفع إلى اليأس من إمكان تحليل أسباب الكوليرا . وبين ما نشر في أكثر من صحيفة بحث في الحقيقة الواقعة بين ١٨٤٥ و ١٨٦٠ عن الكوليرا في لندن أن هذا المرض لم يكن « مرض الصدمة » فحسب ، ولكن أسبابه ومنه كانا من الموضوعات التي تحتمل

تفسيرات شتى • ولما كانت النظرية التي تعتقد أن الكوليرا من الأمراض المعدية الكثير من المعارضة • أولا - لأنها ستجر في ذيلها انشاء مناطق للحرل الصحي (كرايتينة) • ويؤدي هذا الاجراء الى تطيل التجارة ، وقيل ان أقصى ما يمكن أن يتحقق من وراء الحجر الصحي هو زيادة الفقر والبطالة لجباير الشعب ، وبذلك ترداد خطورة انتشار الكوليرا • وعلى أية حال ، لم يكن من اليسود انشاء جهاز اخرى يحظى بالقبول لهذا الحجر الصحي داخل البلاد • وأثارت الاستعانة بالجيش شبح الاجراءات القمعية والأحكام العرفية • كما أن لجهة الأمن التابعة لوزارة الداخلية لم تكن جاهزة للمهوض بشل هذه المهام • وعندما قررت السلطة في ستراتفورد على مهر الآفون فرض حصار حول المدينة ، كان عليها الاعتماد على زمرة طائفة في السن ، وعلى الحالة • ورئي أن هذا الاجراء لا يليق ببدءة خالدة اجبت أحد مفاتيح انجلترا : شكسبير • أما الأهم فهو إصابة الكوليرا لعض افراد من العائلة وعدم إصابتها لبعض آخر ، ومن ثم انهارت طريقة القائلين بانتقالها عن طريق الموى • ورات النظرية البديلة لرجاع انتشار الكوليرا الى « مازعات » أو مختلفات المعن في البراز ، كما اعتقد شادوك • وبدا هذا الرأي وكأنه قد وضع أصبه على السبب الحقيقي ، لأنه وحده الانشاء الى خطورة القاذوريات ومختلفات الفاظ المترية - يوحه خاص - عن عدم كفاية الصرف الصحي وتراكم القمامة •

على أن إزالة الافرازات لزاحة كاملة كانت من المقترحات التي يحتاج تنفيذها الى وقت طويل • بينما يتطلب القضاء على الوباء عملا فوريا • وذكرت عدة وسائل للعلاج . أوصت معظمها باتسراب الفيكتوريين في تصورهم لمحاربة الأمراض الوبائية من القرون الوسطى ، أكثر من قوبهم من عصرنا • وذكرت مجلة لانست في مقال مقسم يروح النفاؤل (١٨٢٦) خبرا عن نجاح بعض يهود شرق أوروبا في الهجاة من الكوليرا بفضل دهن أجسامهم بحلول مؤلف من النبيذ والنخل ومسحوق الكافور والمسطرة والخل والثوم ومسحوق آخر للأجسام المحففة للخصافس التي تعرف هناك باسم الذبابة الاسمانية ! • ومردو الأدوية المرخصة بأيام محسسة • إذ كان بين الوصفات أشياء عجيبة (٢) - - - - - وفضل كثيرون الدواء الأكثر اغراء وتوافرا في الأسواق ، وكان عبارة عن عشرين نقطة من البودنس (صيغة الاقيون) في زجاجة من البراندى !

(*) ذكرت قائمة كبيرة لعلها معروفة للشعبيين بالسيولة أو للمطارة وعلى رأسها
أكبر Monon Effervescent Manganum, Daffey وخلاطة من الخضروات المسحة
الحلأ •

أما العلاج الأبلغ أثرا ، رغم صعوبة الاعتراف بذلك ، وإن كان له أثر صتري في طيابة النفوس ، فهو إقامة الصلوات وصيام بعض أيام . وذكر هذا الاقتراح بعض أصحاب المناصب الدينية الوقورة . وأعلن في صوت هادر من فوق آلاف من المنابر أن الكوليرا علقب أزل له الله بالناس لاسحلالهم الخلق والروحاني ، ولا قراطهم في الشراب ، وعدم احترامهم لقسمية أيام السبت ، بالإضافة إلى عدة ذنوب أخرى من ضمنها إعطائه حق الانتخاب لليهود ، والزواج من شقيقات المصابت بالوباء . واتجه الإمبركانيون بوجه خاص إلى مطالبة الفقراء بالوقوف بالصلوات ، كما قمت طائفة دينية أخرى كانت تطالب بالاستقلال الذاتي للكنايس علجا أخلاقيا للوقاية من الكوليرا ويتلخص في التفتت والنظافة والاجتهاد والجلد وتلاوة الكتاب المقدس . أما طائفة الوحدويين فصبحت إلى نزعة أكثر عقلانية ووجهت « الخطيئة إلى الحالة العامة للطبقة الدنيا » ، التي تشجع على انتشار المرض . « وربما ساعدت الصلوات على شفاء الروح الجريحة » ، ولكنها لن تداوي الحسد الممزق . وإذا أقلمت في تنقية القلوب ، فانها لن تظهر الحو . » .

واتبع نفس الاتجاه إلى حد كبير اللورد بلمرستون . فصلما طلبت منه بعض الطوائف الكنسية أثناء زيارته ١٨٥٣ إعلان يوم وطني للصوم أحاط وزير الداخلية : « إن خالق الكون قد وضع قوانين معينة لطبيعة الأرض التي نجا فوقها . ويقتض ما يصيب البشر من كرب أو فلاح على مراعاة هذه القوانين أو تجاهلها » . وأشار بلمرستون إلى أن الأحدي هو « الشروع في تطهير أحياء الطبقة العاملة في جميع المدن » ، والنهوض بها « حتى يتسنى الخلاص من : »

« مصادر العدوى التي إذا سمح لها بالبقاء ستولد الوباء بلا مره » رغم كل شعائر الصلاة والصيام التي تقوم بها الأمة المتحدة . وإن كانت خاملة الهمة . وإذا بذل الجميع قصارى جهدهم لتحقيق سلامتهم ، سيكون من المناسب حينئذ التضرع لله لكي يوفق جهدهم » .

وعندما رجع سيرجون سايمون يذاكرته إلى استعراض الأحداث في نهاية تلويحه الطويل ، انضم إلى رأي بلمرستون ورآه يرمز إلى « مميزات عصر جديد » . إن هذا العصر ، وما يتميز به من تصميم الحكومة المركزية على إرشاد الجماعات والطوائف المحلية ، وتوجيهها ، قد بدأ عندما انتشر وباء الكوليرا ١٨٣٢ ، وما تمخض عن ذلك من مطالبة الحكومة للحرك . وبينما لم تقبل الحكومة شيئا ما لمواجهة « الحيات » التي كانت مترتبة في جسد المدن الكبرى ، والتي كانت على الكفى البعيد مسئولة عن بعض الإصابات التي أدت إلى الوفاة . وفاق عددا ضحيا الكوليرا ، إلا أنها قد غدت الآن مرضية على اتخاذ إجراء ما . وتم الإسراع في تشكيل مكتب

مؤقت للصحة بعد تبادل الرأي بين المجلس الخاص (٩) وكلية الأطباء الملكية ٠٠ وكان هذا المكتب يتألف من رئيس ولجنة أعضاء من كلية الطب والمشرع العام على الحجر الصحي والمدير العام للمطعمات الطبية في القوات المسلحة والمستشار الطبي لإدارة التنفيذ واثنين من العاملين خارج النوازل الطبية ٠

وأصدر هذا المكتب المؤقت للصحة سنة ١٨٣١ و ١٨٣٢ مجموعة من التوصيات في شكل تعليمات صحية ، وطالبت هذه التوصيات الحكومات والإدارات المحلية بإقامة مكاتب للصحة ٠ واقترح أن تضم واحدا أو أكثر من المبعين المسئولين وأحد رجال الدين وعددا من أصحاب الدور الخاصة (وهي توصية تميزت بها هذه المكاتب على الهيئات المحلية السابعة) وواحدا أو أكثر من المشتغلين بالطب ٠ وتضمنت التوصيات قيام المكاتب المحلية بتعيين مفتشين للأقاليم والأحياء ، وللمرة الأولى التي تقترح فيها الحكومة المركزية إنشاء شيء ما في جميع أنحاء إنجلترا ، وللإشراف على حالة غذاء الفقراء وملابسهم وفراشهم ، والتهوية في دور اقلتهم ، وحالة المكان ووسائل التنظيف وعاداتهم ٠ ومدى اتصافهم بالاعتدال والتعفف ، وإشجيع المي وحب طلاء المساكن وسد الفجوات الفرائس ، وإقامة مستشفيات للكوليرا ، وإنشاء مصبكات للحجر الصحي - وإن كان هذا المطلب الأخير لم يتصف بغير كاف من الجدية - بالإضافة إلى توزيع الغذاء والكساء على الفقراء ، وتوحي هذه التوصيات بإدراك الحكومة ضرورة توافر النظافة في أماكن الإقامة ، وكفاية الملابس والغذاء الوافي لزيادة مقاومة المرض ، بعد أن تعرضت لضغوط شديدة من تأثير أزمة الكوليرا ٠ على أنه في العقدين التاليين ، انتقل التركيز بفضل جهود المصلح البريطاني مير ادوين تشفويك (١٨٠٠ - ١٨٩٠) إلى اصلاح المرافق الأكثر عمومية كمصادر المياه وأجهزة الصرف الصحي ٠

وتميزت أغلب توصيات المكتب بمقوليتها ، ولكن الجهات المسئولة ظلت حائرة في تفسير أسباب تفشي الكوليرا ، ومن ثم عسفت إلى إضافة نصيحة بالشروط الواجب مراعاتها عند اختيار وجبات الغذاء ، إلى جانب نصيحتها متابع الطائفة الشخصية ونظافة المأوى :

« عليك أن تتناول في وجبة الغذاء مقدارا معقولا من شواء اللحم البقري بدلا من اللحم المسلوق ٠ مع كسرة من الخبز الناشف والبطاطس وزجاجتين من البيرة المعتزج بالماء أو مقدارا مكافئا من المشروبات الروحية الممتزجة بالماء ، أو البيرة السوداء ٠ عليك التزام الحوص على ساول الفاكهة والخضروات الطازجة ، وتجنب اللحوم السميكة والمأكولات المقرطة

الحلاوة ، وبإختصار ، ونخبة التعرض للأصابة بالكوليرا ، تناول
الوجبات الغذائية الجافة ، وأحرص على أن تكون وجبتك كاملة القبة
الغذائية أكثر من كونها متمدة الأصناف ، والتم الحذر عند تناول وجبة
المشمل ، لأن الكوليرا غالبا ما تصيب طبعاياها عند الترتاب منتصف
الليل ، وفي وقت مبكر قبل الشروق » .

واعترف المشهور نفسه بإخلاق « بسم العنور حتى الآن على دواء
للقاية من الكوليرا ، وحذرت توصياته من رؤى البجالي وما يقال عن
جدوى عملية الامتنزاف بواسطة دودة الملق ، وللمهمات العائمة المتبوعة
بالتدليك قطعة من القابلا ، أو تناول مريخ من زيت الحوت واللون ،
والصنادات المنقوعة في مريخ من زيت الحردل والعنار وزيت التريبتين
الساخ » . ومن الطريف أن مجلة لانسيت لم ترقى هذه الوصفات
ما يستحق النقد ، واكتفت بالتعليق عليها بالقول بأن المكتب لم يوضح
توضيحا كافيا دور الأطباء .

لما داخل البلاد ، فقد شعرت للجائس المحلية بقدر من الانزعاج
من فكرة انشائه مكاتب وقتية للصحة وشن حرب عشوائية نوعا على
القاذورات طبقا للأسس التي وضعها المكتب العام ، وأخفت مبالغ من المال
لم يسبق لها مثل على الطافة ، فأعلنت ادبيرة مثلا مبلغ ١٩٠٠٠ جنيه
لمحاربة الوباء (١٨٣٢) . غير أن هذه المكاتب كانت مؤقتة ، وتماثلت
في أثرها المهلك في الكوليرا ، لأنها بمجرد انتهاء الوباء سينسى أمرها ،
وترتجل الإصلاحات على عجل ، ولم ينظر إليها على أنها وسائل لمواجهة
التحدي ، وأنها أساس للنظرة الشاملة إلى مشكلات الصحة العامة ، وإذا
نظرنا فيما وقع في هذه السنة ، سنرى أن السجل السنوي (١٨٣٢)
قد ذكر انتشار المخاوف على نطق وفسح : ففي كل مكان داهمه الكوليرا
لم تكن بالقطاعة ولم يترتب عليها ضحايا بالقدر الذي تغلته النصوص
المسببة ، وكان المرح أشد بدرجة كبيرة من الخطر . وعندما اختفى المرض
شيئا فشيئا ٠٠٠ شعر الجميع بالفحشة لما أصاب الناس من شدة
الهلع ، وعندما عاودت الكوليرا الظهور بعد عقد ونصف من الزمان ،
تبين ببشاعة مدى ضلالة ما أحزته السلطات المحلية ، فحتى ١٨٤٨ .
فشل الوباء في الحد على انشاء مكاتب محلية للصحة في شتى أنحاء
البلاد ، واستمرت مراكز عديدة لتجمعات الأحوال تعاني من الملثة ومن
جهل الشرطة ، وعمال الصرف الصحي والإضاءة ووصف الطرق ، الذين
كانوا جميعا يزدحون تحت وطأة تغلهم وانتشارهم للكفالة إلى درجة محطلة
للأمال .

وفي ١٨٨٥ ، عندما اشرف الدكتور بالارد على عملية مسح للكوليرا بتكليف من مكتب الحكومة المحلية ، انتهى إلى القول : « بأن بضمورا الآن أن نواجه بشعور أخص من الفزع مما تشعر به أية دولة أوروبية ظهور وباء الكوليرا ، وليس من شك . . أنه على الرغم من ظهور الكوليرا في ٦٤ مجتمعا (١٨٩٣) ، إلا أنها اقتصر على أحداث إصابة واحدة في كل ٤٢ حالة . وهذا بالتأكيد مقياس تقريبي لما حدث من ارتفاع في مستوى الخدمات الصحية العامة ، وكما كتب المسئول الطبي عن الصحة (*) في مكتب الحكومة المحلية بعد شعور بالارتياح والتهلل : « لقد جاءت هذه النتيجة ، والتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الكوليرا - في اعتقادي - بفضل تحسن الأحوال الصحية في إنجلترا ، وفي ١٨٩١ ، تسمى للحكومة « استبعاد الكوليرا كأحد الأمراض المستوردة من الخارج » . وبعد أن كان متوسط الوفيات سنويا قد بلغ معدل ٢٣٦ في المدن من الأحياء ، في الخطة الواقعة بين ١٨٤٨ و ١٨٧٢ ، ضبط هذا المعدل إلى مقدار ثافته ٠.٦ (١٩٠١ - ١٩١٠) » .

وهي الفترة التي تفصل انتشار الوباء الأول للكوليرا ، وانتشارها في الوباء الثاني ، قلت الملاحظة نوعا يرد الكوليرا إلى انتقال المرض عن طريق العدوى ، أو أرجاعها إلى عقوبة موقفة من الله . أما النظرية « المياعية » فاستمرت مهيمنة على الرأي الطبي العام ، حتى بعد ظهور نتائج التجارب التي أجراها الدكتور وليام بلاد والدكتور جون سمو (**) ١٨٤٩ . فقد استخلص الدكتور بلاد الذي أجرى أبحاثا عديدة للتعرف على أسباب التيفوس والتيفود (١٨٤٩) الاعتقاد بأن « الكوليرا كائن حي من نوع متمايز ، يدخل الجسم أثناء عملية البلع ، ويسبب في الأمعاء بتأثير التكاثر الفاني » ، وأذاع سنو هذه النظرية على نطاق واسع (***). وأصبحت لسنو ١٨٥٤ الفرصة لإثبات صحة نظرياته ، عندما تنبع حالات الكوليرا على نحو درامي وقاطع الدلالة في بيوت مزودة بمياة ملوثة مستمدة من شركات للمياه في ساوثورك وفوكسهول ، وعندما حاول اقتناع الساطات المحلية بأنقاص ضخ المياه في شارع برود بسوهو (وهو من الأحياء المكتظة التي بلغت فيها نسبة وفيات الإصابة بالكوليرا خمسين شخصا يوميا) ، وتوقفت حالات الموت الفاني . وعلى الرغم من عدم املاح أحد في التعرف على فيروس الكوليرا قبل نطاح العالم الألماني كوخ في هذا الشأن ١٨٨٢ ، إلا أن ما أتمهز سنو بعد انتصاره لعلم الأوبئة .

Moh.

John Snow, William Budd

*** كتاب (On the Mode of Communication of Cholera. ١٨٤٩) .

(*)

(**)

وعلى الرغم من أن الكوليرا كان لها وقع درامى فقدت به بين جميع الأمراض ، إلا أن الحمى خلال القرن التاسع عشر هي التي استعنت السلطة المركزية والسلطات المحلية على بذل أعظم الجهود لمكافحتها . فالكوليرا تروح وتجيء ، كما لاحظ المجلس الخاص ، ١٨٦٤ . أما حمى التيفوس ، فالظاهر أنها لا ترغب في مفارقتنا قط . وكانت مختلف أمراض الحمى تتصف دوماً بتوطئها وغلبة ارتفاع معدل الإصابة بها عن المعدلات المعروفة عن الأوبئة ، ومن ثم فإنها كانت تترسّس وتهدد صحة البلاد . ولتنت الحمى الأنظار إلى توصاب القاذورات والفقر ، وبذلك أرغمت السلطات على الالتفات إلى مسائل الصحة العامة ، معنى الظروف الاجتماعية والبيئية ، بمدى التعرف على أثر مستوى المعيشة وعواقبه .

ويسمى التيفوس أيضاً باسم «الحمى الأيرلاندية» وحمى «السجون» و«حمى السفن» و«حمى المغنونة» و«حمى المعسكرات» والتيفوس مرض ماطر خداع ، ينتشر بصفة أساسية عن طريق براز المصابين . وكانت نسبة وفياته عالية ، وإن كان حتى فواخر عهده لا يستهى بالوقلة إلا في حالة ثلث الحالات المبلغ عنها . وانخفضت نسبة الإصابة بالتيفوس في سبعينيات القرن التاسع عشر في سائر أنحاء إنجلترا . وفي سنة ١٨٦٩ ، عندما أمكن التفرقة بين التيفود والتيفوس لأول مرة ، كانت هناك حالات وفيات من أثر الإصابة بالتيفوس مقدراها (٤٢٨١) حالة في إنجلترا وويلز . واقترب عدد الموتى من التيفوس في سبعينيات القرن التاسع عشر من ١٤٠٠ سنوياً ، وخلال العقد التالي ، انخفض المتوسط إلى ما هو أكثر ، فوصل إلى أقل من ربعائة ، وانخفض عدد الوفيات في التيفوس والتيفود معاً إلى ما يقرب الربع بين احصاء (١٨٥٦ - ١٨٦٠) واحصاء (١٨٩١ - ١٩٠٠) وفي ليفربول ، وهي مدينة فقيرة يقيم فيها نازحون من الفقراء والعمال العرضيين ، وعرفت بشدة اكتظاظها بالسكان ، وقد اثبتت هذه المدينة أثر القاذورات في انتشار المرض . ولما عولج هذا السبب انخفض المتوسط السنوي للوفيات من جراء الإصابة بالتيفوس من ٧٤٨ (١٨٠٦ - ١٨٦٠) ومن ٦٠٢ (١٨٦٦ - ١٨٧٥) إلى ٢٢٨ (١٨٧٦ - ١٨٨٥) . وتضائل العدد إلى ١٥ شخصاً فقط (١٨٩٦ - ١٩٠٥) ، وتناقص العدد إلى ما هو أكثر من ذلك بين ١٩٠٦ ، و١٩١٣ ، إلى عدد تناه ، معنى أقل من ستة أشخاص سنوياً . وصار يشير الانتباه أنه بالرغم من استمرار التيفوس في البقاء إلا أنه قد ازداد التحكم فيه بدرجة ملحوظة ، ولم يعد وجوده في محافل ليفربول يحمل أي تهديد باحتمال تحويله إلى وباء فاعم يصعب السيطرة عليه .

كيف تفسر هذا الانخفاض الملحوظ ؟ لقد شاع القول حديثا باحتمال
 رد الانخفاض الدرلي في التيفوس في سبعينات القرن التاسع عشر ، الى
 حد كبير الى التلويح الطبيعي للمرض ذاته أكثر من رده الى ما حدث من
 تبدل في البيئة الفريائية نتيجة لمخطط واع . وتستند هذه الحجة - من
 ناحية - على الترتيب الزمني للانخفاض . فقد زعم أنه كان أسبق في
 الحفوت من ظهور آثار النهوض بإسراف الصرف الصحي وموارد المياه ،
 وما عاد من ذلك من آثار حبيفة على السواد الأعظم من الأثمين . ويشار
 دعما لهذه الحجة الى أن المناطق التي عانت أكثر من غيرها من وباء التيفوس
 كثيرا ما كانت آخر المناطق التي جرت فيها اصلاحات لموارد المياه . فلم
 يتم انشاء مرافق المياه الجارية في أحياء الطبقة العاملة في لندن - حيث
 كان التيفوس متوطنا - الا في سبعينيات القرن التاسع عشر . ولا يستبعد
 تفسير آخر ركز على حفوت ، تغير خارجي في خطورة تأثير الكائن النحيق
 الناقل للمدوى ، وابتمد عن تأكيد دور برنامج اصلاح المدن فيما لمخطط
 واع ، وهنا لا يمتنع ، انه امتنع هذا العامل الأخير امتنعاما كاملا ، ولكنه
 سمي فقط لاعادة ترتيب أولويات العوامل المعنية .

وهناك بالتأكيد الكثير مما يقدم منه النظرة التي صححت المعتقدات
 السائدة ، وبخاصة لأن انخفاض عدد الوفيات بالتيفوس بالرغم من عدم
 اتصافه بالانفراد على الإطلاق قد انتشر ابتداء من سنة ١٨٧٠ ، وبعد ذلك ،
 بينما لم يحدث تحسن مماثل في الرعاية الصحية في مستشفيات وسبعينيات
 القرن التاسع عشر ، اذ قلت خطورة الإصابة بالتيفوس واحتمال تسميه
 في موت ضحاياه في المقام التي لم تصل اليها اصلاحات المرافق
 الصحية . ومع هذا فلعلنا نتساءل هل كان التيفوس سيتضائل بنفس
 هذا القدر للمهني في الواضع المزدهرة كمحارات المدن الكبرى وسجونها
 ومحاكمها ، لو أنهم اهتموا بإضمار الكائن النحيق ، ولم يسلموا الى ازالة
 القمامة ونزع نفاية الصرف الصحي ، ففقد تضائلت الإصابة بالتيفوس ،
 وتباطأت سرعة انتشاره في مدن مثل بلانست ودبلن وموندلاند
 ولينبول ، أي في المدن التي تقاعست عن تنفيذ عمليات اصلاح المرافق
 الصحية وموارد المياه ، حيث تجع الفقر المنتشر في التمايش مع القاذورات ،
 وعندما تكون الكائنات الدقيقة في حالة نزوح الى الضمف فانها لن تحتاج
 الى ما هو أكثر من أوهي المؤثرات الاضافية (كرفع المستوى الفلاني مثلا)
 كي تزداد ضمفا . وبينما يصح القول بأن التيفوس قد حُف من قبضته
 المريضة قبل تعمم نظام الصرف الصحي ومشروعات المياه في شتى أنحاء
 إنجلترا ، فلا يمكن أن ننكر أن أبسط التحسينات التي تمت في مستشفيات
 القرن التاسع عشر كالتخلص من القمامة الملوثة واستعمال الأواني والأسطال
 الجافة التي تتوافر فيها الشروط الصحية والاكتار من الاستمالة بالنظريات

« الأسهل في غسلها من اللباس الصوفية » في صنع اللباس الداخلية وأغطية الفراش ، قد عبطت ماضعها أثر التيفوس . وإذا صلنا بالقول بأن الطبيعة ذاتها كان لها دور أساسي في التخفيف من أثر التيفوس ، كمرض قاتل ، فلا بد أن نصحح هذا الرأي ونقول إن الطبيعة كانت تعتمد على جهود المجالس البلدية وتشجيعها .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان من الصعب التفرقة بين التيفوس والتيفود ، وكان هناك خلط بينهما ، وبينما يصيب التيفوس المريض بالوهن والخور وينتشر عن طريق قملة الجسم ، فإن التيفود من الأمراض البكتيرية ويتشابه هو والكوليرا في انتقاله بواسطة الطعام والشراب الملووث . ويحتمل أن يكون حامله ، أي من ينقل المرض من شخص لأخر محصا من الإصابة به . وتضصف هذه الظاهرة الى غموض التيفود ، ويعرض مريض التيفود جميع أعراض الحمى وآثارها كالأصابة بالفتور والخمول وفقدان الشهية والحرارة المرتفعة المتواصلة ، التي ربما صاحبته حالة اسهال شديد (ولا تصحب هذه الأعراض التيفوس على الإطلاق) . وربما كانت جرثومته عاتقة بالاء ، ويختلف ما يحدث في التيفوس ، فإن الإصابة به قد استمرت طيلة القرن التاسع عشر ، وتعرضت لها أيضا جميع الطبقات . فقد مات بسببه الأمير البرت ، وأصيب به اصابة خطيرة إدوارد أمير ويلز . أثناء اقلته في القصر الريفي للكونتيسة لونسبيرى (*) . ومات بنفس هذا المرض سايس الأمير والإيرل شستر فيلد ، الذي كان قريبا بالقصر أيضا . وساعدت نجاة الوريث الشرعي للعرش البريطاني ، بعد أن كان مهددا بالموت على تعذيب الآخرين من أبناء الطبقة الأرستقراطية بضرورة العناية بوسائل الصرف الصحي في دورهم . وبعد ذلك سامي ، تفشى التيفود فاصاب إحدى كليات جامعة كيمبردج ، ولفت الانتباه الى بلادة وسائل الصرف الصحي بالكليات التي يخرج منها رعاء بريطانيا . وعلى الرغم من احتمال انتقال العدوى بالتيفود عن طريق سبل متعددة ، إلا أنه من الواجب تشخيصه كباقي الأمراض الانهالية كمرض من أمراض القاذورات . ومن غير المستبعد أن تكون الماة الملوثة بمرار آدمي وراء معظم الوفيات التي نجمت عن الإصابة بالتيفود في القرن التاسع عشر . فمثلا في مدينة ستوكبورت ، بلغت الإصابة بالدور التي لا يريد أن يجلوها الشهري عن أربعة جبهات أربعة أمثال الإصابة في الدور المجهزة بعورات للماء ، وثمانية أمثال الدور التي يتراوح أيجلوها الشهري بين خمسة جبهات وثمانية . وعندما أوفد المجلس الخاص (١٨٧٠) الدكتور بوشانان (**) لثحري عما اعتقد أنه

حصابة بالتيفوس (وفيه كانت الحقيقة قد بينت أن الإصابة كانت بالتيفود)
 رأى وجود مؤثرات ، تحتم الإصابة بالأمراض الإسهالية ، طرا لسوء حالة
 وسائل التخلص من البراز وتلوث مياه الشرب ، مما جعل الأديين مرغبين
 على شرب برازهم * .

ولربما ساعد تصيم وسائل الصرف الصحي التي ساعدت بلا ريب على
 الإقلال من عدد المتوفين من جراء الإصابة بالتيفوس ، على زيادة عدد
 وفيات الإصابة بالتيفود * وهذه نكسة تثير الدهشة ، ويرجع السبب
 إلى أن عمال الصرف الصحي كثيرا ما يلقون بالبراز الملوث في الأنهار
 التي تعد مصدرا رئيسيا لمياه الشرب * * * وبغض النظر عن السبب
 الحقيقي ، فإن التيفود قد استمر متوطنا حتى نهاية القرن ، وحات في
 العره السلطات المحلية والحكومة المحلية ، وبمجرد التفاتهم إلى أحد المصادر
 التي يحتمل نقلها للمعدى ، ظهر مصدر آخر أثار اشتباههم كمصادر المياه
 واللبن والمواد الغذائية مثل الكارميون اللاني (حب الرشاد) وبغض
 الأسماك * واعتبرت جميع هذه الأشياء من حين لآخر مسئولة عن انتشار
 التيفود * وكافحت مقاطعات نورثمبرلاند ودورهام ويوركشاير لنفاذي
 تكرار الإصابة بوباء التيفود * واستمرت مدن أخرى (*) تعرض لوباء
 التيفود حتى نهاية هذا القرن - إذ كانت جميع هذه المدن تستقي مياهها
 من نهر التيمز ، وفيه تلقى عشرون قرية مخلقات صرفها ، دون تنقيتها ،
 وبوجه عام ، بلغ عدد وفيات التيفود ضغفي باقي الوفيات في المدن والريف
 على السواء * .

وهكذا واصل « التيفود » دوره كقياس لعدم كفاية مصادر المياه
 ووسائل الصرف الصحي حتى نهاية القرن * وعندما نقى التيفود في
 بعض المواقع ، كيمستون مثلا ، انتهزت المكاتب المحلية وانتهاز المستوطنون
 من النشوة الصحية الفرصة فقاموا المختصين بالمياه محلنا للمحاكمة *
 وحتى عندما حدث اشتباه في أوجاع التلوث إلى مصادر أخرى (كاللبن
 أو الروث الذي يستخدم لتسيخ البركة) كثر ما استغل التيفود كوسيلة
 للضغط على شركات المياه المحلية للمباية مرافقها * .

وعلى الرغم من غموض أسباب الإصابة بالتيفود وأسباب تفشيه ،
 وعدم الدراية بها ، فقد نجحت وسائل تحسين الامتداد بالمياه والعناية
 بمرافق الصرف في تخفيف آثاره الضارة ، إذ بلغ عدد الوفيات من التيفود
 في الحقبة الواقعة بين ١٨٩١ و ١٩٠٠ نصف عدد الوفيات من ١٨٧١ -

١٨٨٠ على وجه الخصوص . وما أن جاءت ١٩٠٤ حتى انخفض معدل الوفيات الى ما هو أقل من ثلث المعدل الذي ساد طوال سبعينيات القرن التاسع عشر .

نظرنا حتى الآن في الأمراض الوراثية التي تصيب الأمهات ، وإن كانت الأمراض الرئيسية للقرن التاسع عشر قد اشتملت على العديد من الأمراض التي تصيب الجهاز التنفسي والرتين ، وعلى سبيل المثال ، كانت الانفلونزا من الأمراض المتوطنة طوال القرن التاسع عشر ، وانتشرت بعض الأمراض الوبائية في فترات مختلفة بين (١٨٣٠ و ١٨٣٦ و بين ١٨٣٦ - ١٨٣٧ وفي سنة ١٨٤٣ ومن ١٨٤٧ - ١٨٤٨ وأيضاً من ١٨٨٩ الى ١٨٩٢) ، وعندما انتشرت الانفلونزا في ١٨٤٧ و ١٨٤٨ بلغ عدد ضحاياها خمسين ألف شخص في لندن وحدها . ويساد هذا المعد حوالي خمسة أضعاف عدد وفيات الكوليرا (١٨٤٩) . وساعد على انتشار الانفلونزا نوع المأكولات التي يتغذى بها الفقراء ، والتي تضمنت مقاومة الجسم . وأيضاً أسوأها الاجتماعية العامة والارتفاع لمن الفقراء واستصلبت جميع الأطراف للانفلونزا معظم سنوات القرن ، ولم تبدأ تتغير أصنام أجهزة الصحة العامة إلا في القرن الحالي .

وتحولت أمراض عديدة أخرى الى أمراض وبائية من تأثير انخفاض مستوى التغذية ، وما تبع ذلك من ضعف في المقاومة . ولكن جميع هذه الأمراض لم تتماثل مع الحالة التي وصلت اليها الحصى القرمزية . ولقد خشي الجميع هذا المرض ، لانخفاض نسبة نجاة الأطفال الذين كانوا يصابون بها . (إذ كان ٩٥٪ من المصابين في جميع الحالات من الأطفال الأقل من عشر سنوات) . وفي وقت متأخر كثمانينات القرن التاسع عشر كان هناك في ادنبرة طفل يموت من بين كل ١٤ يصابون بالمرض ، بينما اختلقت هذه الحصى ابلان الرولة الكبير في ثمانينات القرن التاسع عشر واحداً تقريباً من بين كل خمسة أطفال من المصابين بها . وعلى الرغم من الاشتباه في تلوث اللبن كمصدر للمرض ، إلا أن سببه الحقيقي لم يعرف ، واستمر من الأسباب الرئيسية للأمراض طيلة القرن . وفي ١٨٦٣ ، مات من حرانها ٢٤٠٠٠ وفي ١٨٧٤ ما يتوف عن ٣٦٠٠٠ . وفي لندن وحدها ، كانت سبباً لموت ألف أو يزيد في وقت متأخر (١٨٩١) . وطالب سير جون سمون (١٨٩١) بعد أن أصابه الإحباط لاختراق الإجراءات الصحية لمنع انتشارها ، بإنشاء نظام للحجر الصحي يتماثل في الصرامة هو والنظام لقروض على الحيوانات المصابة ، وطالب أيضاً بإنشاء مستشفيات للحجر الصحي . وبطبيعة الحال ، تصد إنشاء نظام للحجر الصحي في المساكن المكتظة للفقراء . وعلى الرغم من النجاح هذه

الضرورة ، إلا أن السلطات المحلية تنقضت في الاستجابة لمطلب إشلاء
عنابر للعزل في مستشفيات الأطفال والمستشفيات ، ويرجع ذلك إلى
الجهل بطريقة انتقال المرض ، وإلى التقير ، وبعد ثلاثين سنة من تقسم
جون سيمون لأول مرة بمطلبه ، استمرت السلطات المحلية عاجزة من
الاستجابة لرغبات المسئولين المحليين عن الصحة ، وهكذا كان الأطفال
يتنقلون أحراراً من دورهم التي تعرضت للإصابة إلى المدارس ، ويصودون
مها تافلين المرض إلى دورهم في أحياء أخرى ، (وكانت الحصبة بالمثل
من الأمراض المعدية التي لاقت نفس المصير) ، وفي الحالات التي اتبعت
فيها إجراءات العزل المبررة بالتبليغ المباشر عن الحالة ، وبالرقابة المحكمة
على توريد الألبان ، كانت النتائج مفعلة في أغلب الظن ، وبوجه عام ،
يمكن القول بأنه بين ١٨٦١ و ١٨٦١ ، هبط عدد وفيات الحمى القرمزية
بمقدار ٨١٪ ، ويرجع ذلك جزئياً إلى ضعف قوة الميكروب السببي الذي
يسبب الحمى القرمزية ، أو مناعة أهل الحضر ، وقد اشتركت عوامل
مختلفة في تحقيق انخفاض الإصابة بالحمى القرمزية ، مما جعلها لا تزيد
عن نسبة ١٩٪ من معدل الوفيات العامة في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر .

ومن الأمراض المسنة الأخرى التي كان يخفى أساسها : البكتيريا (٢) .
وبعد أن يبدأ هذا المرض بتفوح في الحلق يحول بسرعة إلى تسهم الدم
وهبوط في القلب أو إلى التهاب في النشاء المخلف لتسبب الأنف ، يتطلب
شق القصبة الهوائية ، وغالباً ما كانت تجري هذه العملية عندما تسوء
الحالة ، كحلولة أخيرة لاتخاذ المريض ، وتستعمل في جراحاتها آلات بدائية
أو ربما بعض الأدوات المستخدمة في المطابخ ! وكان المسئولون عن السجل
العلم يمدجون البكتيريا ضمن مرض الحمى القرمزية حتى ١٨٦٠ ، ولم
تعال معامل علمية جادة إلا في النصف الثاني من القرن ، وفي ١٨٨٣ ،
نصح إدوين كريبس في التعرف على حرثومتها . وفي ١٨٩٤ ، شاع
استعمال مضادات السميات ، وكما حدث في حالة الحمى القرمزية ،
كانت نسبة وفيات المصابين بالبكتيريا عالية (حوالي ٣٠ - ٢٥٪) وتماثلت
أيضاً والحمى القرمزية في عدم معرفة سببها وطريقة انتقالها ، مما دفع
المسئولين الرسميين عن الصحة إلى اعتبارها لغزاً ، وإلى الجحوش إلى القاء
تبعة الإصابة بها على الوسائل غير الصحية المتبعة في توريد الألبان .
وكان لهذا الاتهام ما يبرره - وشعرت الجهات المسئولة عن الصحة العامة

(٢) حمى أيضا Group وتسمى التهاب الحلق والتفوح والعلق في الحلق
أو التفوح الفيروث بالحلق أو حمى الحلق ، وتكون هذه الاسماء من غموضها بسمي
الجهل بطبيعة المرض .

بعد تزايد عدد وفيات الأطفال الأقل من ١٥ سنة من المفترضا في السنوات العشرين الأخيرة من القرن بالإحباط . واحتلم الحلاف حول تأثير اللانحة التعليمية المصادرة في ١٨٨٠ على زيادة نسبة الوفيات من المفترضا والصحة والحى القرمزية . ورودت لانحة ١٨٨٠ اللانحة التعليمية انتهى سبق إصدارها ١٨٧٠ ، بأنياب حادة أرغمت السلطات المحلية على تشديد مواظبة التلاميذ على الانتظام في الدواصة . وقيل ان لزيادة الاحتكاك بين الأطفال من بين الاسباب الدامنه وراء ارتفاع معدلات الوفيات .

ولعل « السل » كان أشنع الأمراض القاتلة التى تصيب الجهاز التنفسى أو الأسماء ، وربما لمكن القول بأن ثلثى من ماتوا من المرض في عهد فيكتوريا كانوا من ضحاياه . وهكذا صفحت تسمية الأديب الانجليزى جون بينان في القرن السابع عشر له « بالطاعون الأبيض » « ورعيم وسل الموت » . وعلى الرغم من الربط بينه عهدا طويلة وبين العنابين والشعراء ، وعلى الرغم من إصابته لجميع الطبقات ، إلا أنه كان وثيق الصلة بمستويات البغدى ، وكانت أفدح وألحى إصاباته تعزل في أحياء الطبقة العاملة بالمدينة ، ممن يقيمون في ظروف نهوية سيئة وفي دور مكتظة . وكان المرض يمتد بسرعة ، وترداد تطوره القاتلة ، عندما تتكرر إصابته لشخص يقيم في أماكن سيئة التهوية ، واسترعى انتباه أحد الأطباء انتشار المرض بين التورية ، عند مشايف هذا القرن . كما اجتنب انتباه المجلس الخاص ، شيوخه بين غيرهم من العاملين في أماكن مزدحمة كالخرايف وعمال المناجم ويائسى للملابس المنخلية . ومن المتعدد تحديد المسار الببائى لسير مرض السل على نحو موثوق منه ، لاحتلاطه في الأغلب بأمراض أخرى ، بما في ذلك السرطان . ولم يكن هذا المرض من الأمراض التى تركز عليها الأسماء حتى ١٩١٢ . ومع هذا فالظاهر أنه في الحقيقة الواقعة بين ١٨٥٩ و ١٨٦٠ ، وبين ١٩٠١ و ١٩١٠ ، انخفض عدد الوفيات إلى قرابة النصف ، وعلى الرغم من الآمال المبشرة ، التى حملها هذا الانخفاض ، إلا أن السل قد ازدادت أهميته نسبيا حتى أصبح على نهاية القرن المرمى التالى للسرطان من بين الأسباب الرئيسية المؤدية للموت . ورغم ١٨٩٤ أنه في كل سنة ، يموت ثلاثة أشخاص لاصابهم بالسل مقابل مئة واحدة كانت تحتل أثناء العمليات الحربية أو من جراء المرض أثناء حرب القرم . ومع هذا فقد حدث انخفاض له أهميته . إذ ينسب نصف ما حدث من انخفاض في المجموع الكلى للملح للوفيات في النصف الثانى من القرن إلى ما حدث من انخفاض في نسبة الموتى بمرض السل .

ويزودنا مرض السل « بدليل حساس ربما يفوق باقى الأمراض التى ذكرناها آنفا عن الحالة المعيشية في أى مجتمع » . ويحتاج التناب.

عليه الى اجراء تحسينات جسيمة التي في احوال الإقامة ومعايير التمديد وبنوعية الألبان . ولقد حدثت تحسينات في هاتين الناحيتين الأخريتين ، ولكن ما باليد حيلة إذ ظل الاكتظاظ بالسكان مشكلة عارمة ، وطلب الأكوام والمساكن (*) التي ترتفع فيها نسبة الإصابة بالنسل الى قرابة ٥٠٪ زيادة عن نسبة الوفيات في النوع الآخر من محلات الإدماء في المنطقة ، والتي اختلفت احوال معيشة الطبقة العاملة فيها عن ظروف الاعاشة ، بعد منتصف القرن .

ولا يستبعد أن تكون محاولات الجمعيات الخيرية واجهزة الاشراف على الشؤون الصحية قد ساعدت على تناقص الإصابة بالنسل . فقلقه حولت السلطات المحلية في نهاية القرن التاسع عشر السيطرة على المنشآت المشوشة التي تنقل النسل ، وأصدرت السلطات في أولها تعليمات بحذر فيها المواطنين من ارتخاخ نسبة المعوى من النسل ، واحتمال انتشاره بمجرد يصبى الشخص المصاب بالمرض . وحظرت التعليمات المواطنين من البصق في الخرب العامة وعربات السكك الحديدية ، وغيرها من الأماكن العامة ، وتضمنت باحراق الناديل والحرق التي يستعملها المسلولون فور انتهائهم من استعمالها ، واحظرت الكافة باستمدادها لتظهر البيوت التي يشغلها المصابون بالنسل ، وبالمثل ، أصدرت السلطات المسئولة عن الشؤون الصحية في برايتون « تعليمات للوقاية للمصابين بالنسل » ، حثت فيها المواطنين على عدم البصق الا في « نوعية يمكن تفريق محتوياتها قبل أن يصب » . ورواد الجهات المسئولة الأصل بأن تقتدى اجئترا بالمثل الذي ضربته الولايات المتحدة ، وتحظر البصق في الأماكن العامة . وذكرت بعض جوانب من الوسائل الوقائية التي يصعب حصرها . . . وليس من شك أن التمسك باستعمال الناديل وعدم البصق لم يسهم بحد كبير في الإقلال من احتمال نقل المعوى عن طريق الجو الحامل للجراثيم . ولعل السلطات الصحية قد تقاعست عن فرض القوانين التي تمنع البصق ، والتي تشدد على فرض رقابة صارمة على الألبان ، لأنها لم تتبن النظرية الجرثومية للأمراض الا بعد لاي ، مما حدا برئيس القسم الطبى في الجمعية الطبية الانجليزية الى المباحرة بعد قرابة ١٧ عاما من اكتشاف ميكروب النسل بما يأتى :

« أقول ان بلفورنا محاربة الدرن على الطريقة التقليدية ، يرفع مستوى الوراثة عندما يتيسر ذلك ، وبارتقاء مستوى البيت وأحوال المعيشة والعمل ، فجميع هذه السبل ممكنة على الدول ، وتحتاج لتدخل المسئولين .

أما هذه المخلوطة المخبولة لجرتومة السيل ، وكأنه بالاستطاعة تفريقها في مهبشة منها بنسان ونصف ينس ، ثم الخلاص منها ، فلمرى أنها أحرق حرب صليبية شنت على أساس بعيد عن المنطق .

ولما كان قد أصاب في نظره للأسباب التي أصحفت مقاومة السيل ، فإنه قد كشف عن احتجابه على الموافقة على الاعتراف بالسبب الأصلي للبرص ، وفي ذات الوقت ، فقد استمر الهلع من السيل ، ولجأ الأفراد للوصفات الشعبية مثل أكل القواقع الحلزونية الحية ويضى الذهب ، أو استنشاق الهواء المتصاعد من أخماس الخنازير والبق والخيول ، أو استمانوا بمقايير الجبالين . وما من شك أن اتباع هذه الوسائل قد بدأ لرحم في نظرهم من انتظار الارتقاء بمستوى المعيشة الذي يستغرق وقتا طويلا .

ومن بين جميع الأمراض الوبائية في القرن التاسع عشر ، انخرط الجعدي بإمكان التفتيش عليه ، ووجه ، اعتمادا على أحد الاكتشافات الطبية ، وقدرة الانخفاض في نسبة الوفيات من المرض في عهد الملكة فيكتوريا بخمسة في المائة من معدل الوفيات من الأمراض . وتطرق ذلك بفصل التعليم الإحصائي الذي أقدم الدولة في المسائل الصحية العامة على نحو مباشر ، وبطريقة بعت ديكتاتورية في نظر بعض النقاد المعاصرين . ولقد شاع التحصين على نطاق واسع طبعا للصيلة التي ابتكرها (١٧٩٨) العالم الفرنسي البريطاني إدوارد جينر (١٧٤٩ - ١٨٢٣) عندما اعتلت فيكتوريا عرش إنجلترا ، وصدر قرار من البرلمان ١٨٠٨ يبين مدى ما سيمود على رعاية جلالة الملك بالخبر والفائدة من جراء إنشاء معهد مركزي لتصنيع الحصل . وفي ١٨٢٢ ، أنتجت منشأة الأوصال الوطنية (وكانت وقتئذ تحت إشراف كلية الطب الملكية ثم انتقل الإشراف عليها إلى المجلس الخاص ١٨٦٠) ما ينوف عن مائة ألف عبوة من « اللص » ، كما أنتجت بين ١٨٢٧ و ١٨٢٩ ثمانمائة ألف عبوة أخرى .

ومن المحتمل نسبة الفضل للتطعيم بالجعدي في تعريف المواطنين على عهد الملكة فيكتوريا مبدأ التدخل الحكومي في مسائل الصحة . وكتبت مجلة الجرافيك (١٨٧١) : « إن منظر أبناء الشعب ، وهم يهرون أذرعهم اليسرى انتظارا لنقشها ، لن المناظر المثيرة للسخرية ، ويجرد أقبال الناس على ذلك خير الضحك » . وعلى الرغم من أن مجلة الجرافيك قد اكتشفت ما يبرر السخرية من حالة الإطمئنان والرضا التي برزت على أوجه القبلين على التطعيم ، فإن منظر « الاستسلام الرعيب » عند من يتهيلون لنقش أذرعهم ، والارتجاف من الرعب عند من لس الشرط أذرعهم - وهما بدأ في هذا المنظر من مظهر آدمي هنلي - إلا أنه كشف عن جوانب بعيدة الأهمية ، فلقد مثلت هذه الحالة وكشفت عن استبداد الرأي العام

لثبوت ثقة كافية في علم الطب . مما دفعها الى تقبل الحقن بجراثيم من المرض اللعين . والواقع ان العملية برمتها قد برحت على الابتعاد الملاحظ عن مبدأ اطلاق الحرية دون قيد او شرط (٢) ، والتحرر من تمسك الحكومة . ولم يكن مستغربا ان تهب حركة قوية مناهضة للتنظيم باسم الحفاظ على قسمية الجسم الانسي وسلامة كيان الدولة ومستندة على أسس دينية وسياسية تهدف الى وجوب الدفاع عن حقوق الفرد ضد هذا التهديد الجديد للدولة المتطبعة . وقيل على نحو شبيه بما يحدث الآن من معارضة للأرغام على ارتداء راكبي الدراجات البخارية للقفازات بانه من الواجب ان يسمح للفرد بتجربة حظه مع الموت ، بدلا من تعرضه للتهديد والخضوع لدولة يوليمنية فضولية ترثارة . وأوضحت بعض النساء من أمثال آن سابل التي استدعتها المسئولون خبسا وعشرين مرة لاستجوابها لرفضها « أن تكون طرفا في عملية مسيم طفلها الرضيع » ، على حد قولها ، والتي واجهت الحكم بالحبس ، وفضلت ذلك على الخضوع لعملية التنظيم . وبذلك أصبحت هي وأمثالها شهيدات وشهداء لهذه القضية .

ولم تفرض الحكومة على عهد فيكتوريا التنظيم الاجباري على الشعب ، قبل اجتياز مرحلة تجريبه التنظيم الطوعي ، ومثل وباء الجدري (١٨٣٧ - ١٨٤٠) ، والذي مات فيه ٤٢٠٠٠ شخص ترحيا كان من الضروري مواجهته . وكان الرد على ذلك هو صدور قرار بالاذن بالتنظيم (١٨٤٠) يبيح لكل شخص التنظيم على ثقة الدولة ، ولوكل عبه الاشراف على عملية التنظيم على المسئولين عن تنفيذ قانون الفقراء ، الذي كان متقلا بالفعل بالأعباء . ولم يقرر التنظيم الاجباري الا سنة ١٨٥٢ . بعد أن أجريت دراسة من قبل جمعية علوم الأوبئة في لندن . ونص هذا القرار على الزام الآباء بأرسال أطفالهم للتنظيم بعد ثلاثة شهور من مولدهم . وعلى الرغم من أن التقرير اعتبر التنظيم مسألة عامة في شتى أنحاء إنجلترا ، الا أن تنفيذ القرار تم على نحو عشوائي ، ونقش الجدري بين ١٨٧٠ و ١٨٧٣ (ومات في هذه الفترة حوالي ٤٤٠٠٠ . ربعهم تقريبا من لندن وحدها) وتوافق ظهور هذا الوباء هو تعيين مجلس صحي لشتون الجديري انتهى الى اصدار قرار جديد لمكافحة هذا المرض ، واحكام تنفيذ الطابع الاجباري للتنظيم ، والنص على الرام للمكاتب المحلية بتعيين مسئولين عن التنظيم ، وفرض غرامة تصل الى ٢٥ بنسا على من يرفضون تنظيم أطفالهم ، وبالمسجن من يرفض دفع الغرامة .

ولربما خطر بالبال احتمال اقالة وياه (١٨٧٠ - ١٨٧٣) فدرا كاليا من القزح يدفع للوطنين لتصميم التنظيم ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، ولقد حشمت الحركة للناخضة للتنظيم صفوفها في الربع الأخير من القرن . وترتب على ذلك هبوط معدل من طموا من الأطفال من ٨٥٪ (١٨٧٣) الى ما هو أكثر قليلا من ٧٠٪ (١٨٩٧) ولقد كانت فاعلية التنظيم ضد الجدري مسألة لا يتطرق إليها الشك . ففي وياه ١٨٧١ ، لم تزد نسبة الوفيات في لندن بين من أصيبوا بالمرض ، وسبق تطعيمهم عن ١٠٪ لما نسبة الوفيات بين من لم يطموا فكانت ٤٥٪ ولا يستبعد أن ترجع أسباب التكاوت الى أسباب أخرى .

وبدأت الحركة للناخضة للتنظيم نشاطها بعد صدور القرار ١٨٧١ بتعيين مسئولين عن التنظيم في جميع أنحاء البلاد ، واستمرار الاجسراء الذي اتخذه « المجلس الخاص » بإصدار مفتشين للتفتيش على المراكز المحلية للتنظيم - واعتبر « تدخل » الحكومة المركزية الى جانب الالتزام الذي فرص على السلطات المحلية حينذاك بتعيين مسئولين عن التنظيم ، واستعبادة اختيار حل يديل لذلك ، من مبييل الوصيله التي كانت تتبعها مدينة لايسستر التي كانت تخطر للصاب لولا تم نزلها - اعتبر لطة انتهكت حريات السلطات المحلية . واعتقد كثيرون تشبها مع المحاوف الكامنة والملاحظة منذ عهد ميد في البلاد ، لي اهتمام الحكومة بالصحة العامة قد يؤدي الى إصدار قرارات ديكتاتورية ، فحتى ذلك العهد ، اقتصر دورالحكومة على عملية الاعلام والإقناع ، ولكنها ظهرت - الآن - في ألونها الحقيقي ، كوحش يشتهي الهيمنة ، وانضمت الى هذه الصجج الصيحات التي تنسج في كرامة الجسم البشري ، واعتبار التنظيم اجراء مصطنعا ، يتعارض والطبيعة (وأنشأت مجلة لانسيت على ذلك بأنه من غير الطبيعى أيضا ارتداء الملابس أو ركوب القطار .) واستندت معارضة التنظيم الاجبارى كذلك على مبادئ دينية ، معنى القول بأن حقن مهنسات في الدم رجس ، وهي حجة اعترف بها في نهاية الأمر في الفقرة التي تركت هذه المسألة لتسبر لولاء الأمر في لائحة الجدري التي صولت ١٨٩٨ ، بالرغم من الحجج المضادة « التي نفذت بما يترتب على ذلك من لقاء الأطفال لحظهم من أثر الإهمال » .

وكانت مدينة لايسستر وراء القوة المتزعمة لحركة مناهضة التنظيم ، ورغم سوء الأحوال الصحية في هذه المدينة ، فانها كانت تتمتع بسميزات كاختفاء البطالة منها وقلة الزحام وخلو مجلاتها الطبية من فداحه الاصابة بالجدري بفضل اتباع طريقة « لايسستر » التي تقضى بالمرل الاجبارى لفصاحيا الجدري ، والميجر الصحي لجميع من يطمرون الى

معالجة المصاب ، واتباع برنامج متشدد في النظافة ، وإجراء عمليات تطهير ، ولا مانع أيضا لنا نرم الأمر من إحراق فراش المريض وملابسه ، وتطهير دار الامة ، وفي ١٨٦٩ ، تأسست جماعة لايسستر المتخصصة للتطعيم ، واشتركت هي ، وجمعية لندن لانتاد التطعيم اليبابى ، في شن حملات منظمة ضد السياسات المركزية للحكومة ، وفي الحقبة الواقعة بين ١٨٦٩ و ١٨٨٤ ، حكم بالسجن في لايسستر على ٦١ شخصاً ، وتضاعفت الحركة عندما قامت مظاهرة كبيرة ١٨٨٥ انضمت حولها جميع القوى للمادية للتطعيم القادمة من أكثر من خمسين مدينة . وعلى الرغم من أن انخفاض نسبة الوفيات من الجدري ترجع الى التطعيم أكثر من نسبتها الى أى تحسين طرأ على الشؤون الصحية ، إلا أن القرار الذى صدر عن التنظيم ١٨٩٨ قد تضمن فقرة تنص على ترك مسألة التطعيم لصالح الأفراد مما يسر على الآباء والأمهات قتادى التطعيم اليبابى لأطفالهم ، وعلى نهاية ١٨٩٨ ، بلغ عدد الشهادات التى منحت للمعرضين الذين تركوا لصمايرهم تشبهاً مع ما جاء في اللائحة (٢٠٣ و ١٤٣) شخصاً ينتمى أكثر من ربعهم الى لانكشاير . وطالبت لايسستر بشهادات ل ٢٨٥٢٤ حالة ، وعلى الرغم من اشتراط اللائحة منع حصول الشخص في الأغلب على تأمين على حياته واستئجار منزل ، أو الحصول على وظيفة بشرائيات أنه أجرى التطعيم (فى حالة طلب هذه التراخيص من مجلس مقاطعة لندن ومجلس السكان بلندن) إلا أن آلاف من الأطفال في نهاية القرن ظلوا بلا تطعيم . وبعد أن انخفضت نسبة عدد غير المطعمين الى ٢/٨ فقط من الولادات المسجلة في انجلترا وويلز ١٧٨٥ والى ٧/٥ في لندن ١٨٩١ . ارتفعت نسبة الأطفال غير المطعمين بأفراد حتى بلغت ٢٢/٢ و ٢٦/٦ على التوالي (١٨٩٨) . ولا يوحى ما حدث من نقص في عدد المطعمين حدوث تناقص لضرورته . بعد انخفاض الإصابة بالمرض (وانخفاض عدد حامله) أو انتشار الجهل بالقوة الذى يساعد على الوقاية من لوصابه ، أو قوة الشعور بتعزيز الحكومة (التى تحاول فرض وصايتها عليهم) لهم مما دفعهم الى الاعتقاد بأنهم يهتمون بشمام الصحة والعافية ، فلقد أثبت الصراع حول مسألة التطعيم أن تحسين أحوال الصحة العامة قد اتسم على ما هو أكثر من التزام الحكومة القوي برعاية صحة المواطنين ، أو حتى على نظم الكشوف العلمية . فقد كانوا بحاجة أيضا الى تعاون الحكومة المحلية والمستولين عن الصحة وموازرة العاملين بمهنة الطب فى جعلتهم ، واستعداد الرأى العام لقبول أحكام السياسة الصحية للدولة .

ولا يخفى أن مختلف الأمراض تتطلب إجراءات حكومية متنوعة ، فالتيفوس والتيفود والكوليرا والأمراض الأخرى التى تنتشر عن طريق

الكائنات الدقيقة الموجودة في الماء والأليان أو الفضل والتي تصيب الأمعاء أو تنتشر عن طريق الأصابع والذباب بالقصور التحمل عليها إذا أمكن تنقية المياه . وتم إنشاء مرافق صحية أفضل حالا ، وعندما يحدث تحسن في صحة الأشخاص ، غير أن هناك أمراضا أخرى تنتشر عن طريق الفيروس ، عندما يتطاير رذاذ اللعاب في الجو . وإذا صح ما قاله أحد الثقات في الطب حديثا : « بأننا في كل شهقة نشهقها في غرفة تضم شخصا أو أكثر ، ينتقل هذا الرذاذ للتطاير من لعاب الآخرين إلى أنوفنا ، وتتسارع هذه العملية كثيرا من جراء عمليات السعال والسعال ، ومن ثم يمتنع اتخاذ إجراءات أخرى غير التدابير الصحية ، فمن المستطاع تخفيف خطورة أمراض عديدة كالسل والحصبة والجذري والحمى القرمزية إذا اتبع نظام للتبئيه والابتعاد المبكر وعزل المصابين . وتتطلب هذه الإجراءات الوقائية قدرا من التعاون الوثيق بين السلطات الصحية المركزية ، والسلطات الصحية المحلية وبين المسئولين عن الصحة والرأى العام ، بقدر لا يقل عن القدر الذى يحتاج إليه لمحاربة القاذورات .

وزاد من خطورة مشكلة الأمراض التي تنتقل عن طريق الهواء ، القصور الهائل من الاكتظاظ بالسكان ، والذي يسود معظم المراكز السكانية الكبرى ، والافتقار إلى عدد كاف من المرافق ، واعتماد التمركات السكانية في القرن التاسع عشر ، والتي زجت بموجات جديدة من صغار شيلب وفتيات الريف إلى المدن ، ممن يستنحون بصحة أوفر ، وبذلك ارتفع مستوى الصحة العامة . ولكن في مقابل ذلك ، فقد زجت حركة النزوح ذاتها بوافدين لا يستنحون بقدر كبير من المقاومة لشتى الأمراض ، التي تنتشر في المدن الصناعية للكثافة بالسكان ، ودفعتهم للعيش وسط أهل المدينة الأصلية . ولمه لم يكن في جعبة الحكومة ما تستطيع أن تفعله للحد من حركة الهجرة الداخلية (وعلى أية حال ، فإن تأخيرهم على بداية المرض هو بالتأكيد مسألة بالغة التعقيد) . لأن حل مشكلة الكثافة السكانية تحتاج إلى أنواع شتى من الحلول طويلة الأجل ، التي يهتدى إليها بعد عنه ، وبعد تكرار المحاولات والوقوع في الخطأ ، على أن الاحطار والعزل ، كانا من السبل التي يوسع الحكومة الدعوة إليها ، والارغام على اتباعها ، ولكن لسوء الحظ لم ينجح هذا الإجراء إلا بعد تردد طويل .

ومعذ عهد باكر يرجع إلى ستينات القرن التاسع عشر ، نادى «سيبوره» باتباع نظام فعال للاحتطار والعزل لمحاربة الأمراض المعدية ، ولكن نداءه ذهب أدراج الرياح ، في ١٨٧٤ ، ومن منظوره المركزى في مكتب الحكومة المحلية ، نسب استمرار الارتفاع الكبير في نسبة الوفيات

الى عاملين رئيسيين : ١ - الاغلال أو السهو « من اجراء عملية اخلاء
 المفايات والفضلات الجائعة والسائلة من أماكن الايواء » ، ٢ - الترحيص
 للمنوح لحالات الأمراض المعدية « بالانتشار الى خارج موطن الإصابة » .
 وعلى الرغم من اللاحاح المستمر لجون سيمون ، الا ان انشائه مستشفيات
 للعزل أو عتابر للعزل في المستشفيات القديمة بالفعل قد تأخر مرعا ،
 ففي ١٨٨٢ ، لم يزد عدد المدن التي ادخلت نظام الاخطار الاجبارى عن
 الأمراض المعدية عن ٣٤ مدينة (٤) ، ضم مليوني ونصف فقط ، وترك أمر
 الأخذ بنظام « الاخطار » لشبيثة المسئولين المحليين ، واضمح ان الحاجة
 كانت ماسة اليه ، ولقد اتبعت مدينة هادرسفيلد نظام الاخطار منذ وقت
 مبكر يرجع الى سنة ١٨٧٩ ، وجرى اتباع نظام الاخطار في عدة مدن
 انجليزية ابتداء من ١٨٧٩ غير أن النظام لم ينجح في جميع أنحاء إنجلترا
 الا بعد التصديق على لائحة الأمراض المعدية ١٨٨٩ ، في بعد عشرين سنة
 تقريبا من بدء المسئولين عن الصحة العامة حملتهم الدعائية ، وما يشير
 الاعتماد على ادراج السل ضمن قائمة الأمراض التي يمتنع الاخطار عنها ،
 ويرجع ذلك أولا - الى ما قد يثيره هذا القرار من مصاعب اقتصادية
 (من جراء العزل الاجبارى) للسواد الأعظم الذين سيموتون من ذلك ، ومن
 بين أسباب التمهل في اتباع نظام الاخطار الطوعي انقسام الدوائر الطبية
 في الرأي في هذه المسألة ، لأنه بينما حثت اجماع على وجوب الاخطار ،
 الا أن الرابطة المحلية للمسئولين عن الصحة العامة رأيت القاء مسئولية
 الاخطار على عاتق الممارسين العاملين ، ورأى فريق آخر ان الانصاف يقضى
 بإلقاء المسئولية على كامل اصحاب الدور التي تحدث فيها الإصابة بالمرض ،
 وفي مثل قد لروح المبادرة عند الطبقة العاملة في المسائل الصحية العامة ،
 والعمل لصالحها ، اجاز مؤتمر اتحاد العمال ١٨٨٢ قرارا بالاخطار
 الاجبارى ، متضمنا هيدا سبق عصره بالتعويض عن الخسائر التي تلحق
 بالأجور من السلطات المحلية .

ونصت لائحة الأمراض المعدية ١٨٨٩ على أن يكون اخطار الأطباء
 للسلطات المحلية اجباريا ، واتبعت على الفور ٧٥ سلطة محلية ، ويقدم
 ١٨٩١ ، اتبعت ٥٥٥ دائرة صحية بالندن و ٢٧٢ بالريف - وفي هذه
 السنة ، اعتقد مكتب الحكومة المحلية أن اللوائح قد نفذت (ولا يلزم
 بالضرورة أن تكون قد فرضت قسرا) في مناطق يقطنها قرابة
 عشرين مليونا من بين عدد السكان الذين كانوا يعيشون حينذاك في

(*) مثل
 Llandudno, Jarrow, Nottingham, Burton, Bolton
 Harrington, Edinburgh, Preston, Oldham, Leicester, Derby
 و Blackpool, Rotherham, Norwich, Blackburn.

الجلترا وويلز ، ويقدر عددهم بستة وعشرين مليوناً . ومن بين المدن المحلية (وعددها ١٤١) مدينة بالاتايم يربو سكان كل منها على ٢٥٠٠٠ نسمة) ، انبثت الثلاثة فيها جميعا ويستنته ١٢ . وفي ١٨٩٢ ، كان عدد من يستظلون بهذه الثلاثة نظريا حوالى ٢٥ مليوناً .

ويمثل هذا التبنى الشامل للمقررات التي تعفى الأشخاص من التطعيم ضد الجدري التزاما من السلطات المحلية باتباع الطب الوقائي . الذي ذهب الى ما هو أجد من اصلاح للجارى وموافق الصرف الصحي ومصادر المياه ، وعمليات الصرف - وتنتج جميع هذه الإجراءات تحت عنوان : وسائل النهوض بالمدينة وتحسينها .، ومثلت هذه السياسة الاعتراف المتزايد على المستوى المحلى بالنظرية الجرثومية للمرض ، وربما كان ما أهمها هو الدعاية بمد حضور الثلاثة التطعيمية الالزامية (*) ١٨٧٠ . بأنه ما لم يراع مبدأ : الاخطار والعزل ، ، فانه لا يستمد أن يزداد انتشار الأمراض المعدية ، التي تصيب الأطفال ، أو تنتقل اليهم بالمعدى .

ويصعد أن ازدادت أعداد الأطفال المقبولين بالمدارس بين ١٨٧٠ و ١٨٨٩ ، ارتفعت نسبة الأولاد (من سن خمس سنوات الى خمس عشرة سنة) من ٢٢٧ / الى ٢٥٥ / ، وازداد تبعا لذلك انتشار امراض مثل الحصى القرمزية والحصبة ، ولم تتوافر الحوافز الصحيحة للمدرسين للانلاغ عن حالات المعدى ، لأهم كانوا يشعرون بالرضا اذا ارتفعت نسبة المراقبة بالوصول ، لأنها كانت تساعد على حصولهم على علاوات مالية من الحكومة .

على أن تبني اللوائح التي جعلت التطعيم طوعيا شىء ، وتقديم التيسيرات للعزل الصحى شىء آخر ، لأنها كانت تكبح السلطات المحلية مصاريف اضافية ، وتجعلها عرضة لاتهام بالاسراف من قبل دافعى الضرائب الذين لا يتوانون عن ترقب ملحوظ كثيرا ما تصاعد لدرجة الهلع من مستشفيات العزل ، لأنه لم يكن من المألوف منه البتة نجاح المسئولين بالمستشفى فى وقف تسرب المرض الى الخارج الذي يفترض أنه انحصر فى حيز محدود ، وتلويته للأماكن المجاورة ، وتهديتها ، فلا عجب اذا سمعنا ما كرهه طاقم الضرائب فى إقليم محلى كالدنبرة من كلف تعرضه عمليات الصرف الصحى فى عنبر المرضى بالأمراض المعدية فى إحدى

المضحات للفيضي وغير غرافي الصوف الصحي كله ، وبذلك تنتقل المردى الى جميع أنحاء المدينة . وعندما تقدمت إحدى الادلوات على انشاء مستشفى للعزل لأول مرة ١٨٧٠ ، فمن السكان المحليون حملة مأسوفة شرسة ، أدت الى اغلاق بعضها ، وتأجيل افتتاح البعض الآخر . وفي نهاية القرن ، اضطرت مدينة ونسور الى انشاء مستشفىها المؤقت للبعدى بالصالح المخرج مطبذة لمزوعة ينتشرها مجرى للصرف الصحي ، بعيدا عن المناطق السكنية ، وصدر كتيب عن الأحوال الصحية ١٨٨٥ تضمن الحديث عن مستشفيات الأمراض المعدية ، واحثت القافة بيانا عن المداخن وأعمال الصرف الصحي ، وروايت جميع القافة .

وهكذا تباينت جهود انشاء عمار ومستشفيات العزل الخاصة . فحتى وقت متأخر (١٨٧٩) لم تتوافر لأكثر من خمس الادلوات المسئولة عن الشؤون الصحية في الأقاليم (وعددها ١٥١٠) أية وسائل لعزل الأمراض المعدية ، وحتى بعد ذلك ، الى سنة ١٨٩١ ، لم يرفع المجموع الكلي لهذه المنشآت الى ما هو أكثر من حوالي ريمائة ، وتكرر القول بأنه كما يحدث في الكثير من قطاعات الصحة الأخرى ، كانت المشكلة في المقام الأول ، مالية ، لأنه برغم استطاعة الحكومة تقديم قروض ، إلا أن السب كان يقع في نهاية المطاف على الموارد المحلية : ففي دريشاير على سبيل المثال ، كانت هناك جهتان مسئولتان عن الصحة المحلية ، وقدرت الضرائب على كل منها بمبلغ أربعة آلاف من الجنيهات . وقدرت الضرائب في أربعة أو خمسة أقاليم أخرى بمبالغ تراوحت بين أربعة آلاف وثمانية آلاف جنيه . وكتب المجلس المسئول عن الشؤون الصحية الى المجلس المحلي بدريشاير : « ليس في مقدور هذه الأقاليم انشاء مستشفيات لاقه ، أو حتى صيانتها ، والحفاظ عليها ، لو تم انشاؤها » ، وبما لذلك لم توجد جهة مسئولة واحدة في دريشاير - وهي اقليم يتسع لـ ٤٢٦,٠٠٠ نسمة - قادرة على انشاء مستشفى عزل دائمة ١٨٩٥ . ويسرت لائحة مستشفيات العزل الصادرة ١٨٩٢ للمجالس المحلية انشاء مستشفيات للعزل ، وإن كانت التكاليف المتوقعة لثل هذا المشروع قد أثقلت عريضة الموضع ، ما بعد المواقف 'يعبية' عن الطب الوقائي ، وفي ١٨٨٢ ، قدمت الحكومة للمحلية تكاليف انشاء السرير الواحد في أية مستشفى تحت الاشبه بمبلغ يتراوح بين المائتين والثلاثمائة جنيه ، وتجاوز مثل هذه المبالغ امكانيات الأقاليم الريفية الصغيرة ، والكثير من المدن أيضا . وعندما أرادت ليفربول في وقت متأخر انشاء مستشفى يضم ثلاثمائة سرير قدر لهذا المشروع اعتماد يتجاوز المائتين ألف جنيه .

وهكذا اكتشفت للجائش المحلية في تسعينات القرن التاسع عشر ،
 عدم كفاية مرافق العزل للأمراض الوبائية المعدية في أغلب أنحاء البلاد ،
 ولقد جاء إنشاء أكثرها على نحو عشوائي ، ففي بعض الأقاليم كانت
 مستشفيات العزل في الأصل دورا لايواء الكلاب الضالة ، ولم تزد
 الأسرة فيها عن خمسة فقط ، ولم توجد بها أية وسائل للتطهير ، بينما
 كانت تختم قطاعات يقترب فيها عدد السكان من الأربعين ألف نسمة ، وفي
 مدينتي أبردين (*) وشنهرنا بصناعة الخزف ، وارتفعت فيها نسبة
 الإصابة بأمراض الرئة ، لم يزد عدد الأسرة في مستشفيات العزل -
 والأصح هو وصفها بمسكنات العزل - عن ثمانية عشر سريرا ، بينما
 كان متوسط عدد السكان في المدينتين ٤٦٠٠٠ نسمة ، أما مدينة
 لانابلي (سكانها ٢٤٠٠٠) فلم يوجد بها أي مستشفى للعزل على
 الإطلاق ، بينما كانت مدينة ويجلمن أسعد حظا ، لوجود ستين سريرا بها ،
 تختم خمسين ألف نسمة ، ولم تكن المدن الأكبر حجما أفضل حالا ،
 إذ ضمت مدينة ليفز دارا واحدة للتقاعة تحتوي على ستة وأربعين
 سريرا ، ومستشفى للجذري (٣٦ سريرا) وطوى صغير للناقحين من
 الأطفال الذين شفاوا من الحصى القرمزية ، بينما كان تعداد هذه المدينة
 ٣٦٧٠٠٠ نسمة ، أما مدينة بولتون البالغ عدد سكانها مائة وخمسة عشر
 ألف نسمة فكانت أول مدينة في إنجلترا تحصل على سلطات تبيع لها
 حق إرغام المواطنين على الاضطرار عن الأمراض المعدية (١٨٧٧) ، وقد
 فرضت التزاما على كل من الأطباء وأصحاب الدور مما للإبلاغ عن الأمراض
 المعدية ، ولكن لم يتوافر لها أية عناصر للعزل إلى أن أنشئت بها مستشفى
 للحصيات ١٨٨٢ ، وفي ١٨٩٥ ضمت هذه المستشفى النيق وثلاثين سريرا
 والقليل من الأكواخ ، واعتمدت مدينة ليفربول مثل الكثير من المدن الأخرى
 على بعض الورش المحلية لايواء المرضى الذين يعانون من الأمراض المعدية ،
 وفي ١٨٨٥ زادت الجمعيات الشعبية في ليفربول من شغلها على المسئولين
 الحكوميين بعد أن أخفقوا في تزويد المدينة بمرافق للعزل ، واقترحت
 إنشاء مرفق يضم ٥٧ سريرا كانت في أمس الحاجة إليها ، وانتهى الأمر
 بإرغام المدينة على الاستجابة لهذا المطلب ، وفي ١٨٩٢ ، زودت ليفربول
 بثلاثة مستشفيات للعزل تسمح بإقامة ٢٩٨ مريضا في مدينة يفرد عدد
 سكانها بمئةسائة وثمانية عشر ألف نسمة ، ولم تخصص مائتستر أية
 اعتمادات لإنشاء مستشفى للبلدية ، ولكنها اعتمدت على التبرعات التي
 قدمت لإنشاء « مصحة ملكية » تضم ٢٧٢ سريرا في ضواير العزل ،
 وأنشأت بمرتبهم (٤٧٨٠٠٠٠ نسمة) مستشفى للعزل يضم ريسانة

(*) في حديثي Darton, Darabon على نهر التايت

سرير . أما برستون فكانت من لندن القليلة المعايه بالشئون الصحية (عند سكانها ينوف على ١٧٠٠٠ نسمة) ولم تنشئ أي مرافق للمزل على أي نحو كان .

وبعض النظر عن عدم كفاية هذه المرافق ، إلا أنها كانت أفضل حالا من الأقاليم الريفية التي لم يكن بها أي بديل لاصلاحيات الإبرشيات . وفي لندن ، كان الموقف أفضل حالا . فبفضل لائحة للتروبوليتان للمقره . زودت المدينة بشبكة من مستشفيات عزل الأمراض المعدية ، وأنشئ أول مستشفى للحميات (١٨٧٠) وخصص للمصابين بالجذري والحصي القرمزية ، ولم يعد دخول للمستشفيات مقصورا على انقره . بعد أن تسرد المستولون بكل حمزم الخلاص من وصمة التفرة بين المسوزين وميسوري الحال . وفي ١٨٩٣ ، توافر لمصحات مدينة لندن أكثر من خمسة آلاف سرير . لو يعني أصبح كان هذا العدد من الأسرة تحت الانشاء في مستشفيات الحميات . وبينما كانت جملة وفيات الحصي القرمزية في مستشفيات لندن تعادل ٢٪ من مجموع عدد وفيات هذه الحصي . ارتفع بعد ذلك هذا الرقم إلى حوال ١١٪ (١٨٨٢) ثم ازداد ارتفاعا إلى أن بلغ ٧٤٪ ، والأمر بالمثل فيما يتعلق بالدفترية . فقد ارتفعت هذه النسبة من حوال ٤٪ (١٨٨٨) إلى ٢٨٪ (١٨٩١) . ولا يدل هذا المؤشر على عدم فعالية العلاج بالمستشفيات بقدر دلالة على ازدياد عدد المصابين بأمراض معدية . وكان الكثيرون منهم لمي المراحل المتقدمة من المرض ، وسمح لهم بالعلاج في المستشفيات التي تديرها البلديات . وحت قرار بالاختلال الإجباري عن الأمراض المعدية على تسريح الخطى في تنفيذ هذا القرار ، وازداد عدد من دخلوا مستشفيات لندن ١٨٩٣ وحدها . عن عدد من دخلوا هذه المستشفيات طيلة العهد (من ١٨٨١ - ١٨٩٠) .

وصودق على قرار الاخطار الالزامي الصادر (١٨٨٩) بعد صدور قرار الحكومة المحلية (١٨٨٨) وكان من بين آثاره تخصيص مسئول صحي عن الاقليم وكان يتقدور هؤلاء المسئولون عن الاقاليم أحيانا الضغط على السلطات المحلية . ورأينا مثلا للمستول الصحي في أحد الاقاليم (*) يركز على الأمراض المعدية ويستحث السلطات المحلية على تنفيذ قرار « الاخطار الإجباري » على الفور . وعلى انشاء مرافق كافية للمزل . وبفضل استمرار قوته المانعة ، ارتفع عدد البلاغات من مسببة عشر

(*) انظر West-riding في يوركشاير .

جلافا (في نهاية ١٨٨٩) الى ٦٩ في (١٨٩١) . وارتفعت نسبة بلاغات مرض الجدري والدفتريا والحصي القرمزية والتيفود التي سيج لها بدخول المستشفى من ١٤٪ الى ٢٣٠٪ .

لم يكن الشك مستعقبات لايوه المرض الذين يعانون من لقاحات عديدة على قمة الأولويات عند السلطات المحلية - ولم يتم إنشاء مستشفيات للعزل الا بعد الحاج مكتب الحكومة المحلية ، ومصور كبريات جامعة - وليس يقودونا القول بأن السلطات المحلية استجابت بنفس الحساسية للنظرية الجرثومية للمرض ، مثلما فعلت قبل ذلك بثلاثين سنة في حالة البسجوجيني (التي تعيش في الأوساخ والأدناس) - وعلى أية حال يمكن القول بأن التخطيط الصحي قد قوبل بالترحاب في عصر الملكة فيكتوريا الذي صوف بإحساسه الحضاري ، ناهيك بقوة حاسة الشم عنده ، ينض النظر عما تطلبه من امتحانات مالية ، ومن العسر القول بأن مبدأ « الإبلاغ والعزل » قد حظي باستهوا . مماثل ، لارتباطه بالحجر الصحي ، والأسر وتقييد الحرية .

وعلى الرغم من اتصال الاستجابة للأوبئة الرئيسية في عهد الملكة فيكتوريا بأوجه نقصها وحيرتها وترددها ، الا أنها قد تركت اثرا مهما ، وباستثنائه الجدري ، فالكهس كانوا مضطرين لمعالجة هذه الأمراض دون حاجة الى الانتفاع بمزايا مضافات التوكسين أو التسم ، ومع هذا فقد نجحوا في مهمتهم - وفي عصر عرف بما جرى فيه من الساع في لندن وبسرعة ازدياد عدد السكان ، لابد أن ينظر الى هذه الحالة على أنها من دلائل انحصار الطب الوقائي ، أنها شبيهة أيضا على ما تمتع به عصر الملكة فيكتوريا من حساسة ونصب خيال وبدد نظر ، وبطيبة الحال ، لم تسجن عدوى الناس بكل خضوع للوائح الحكومة المركزية ، ولما تضمنته من تعليمات ، كما أنهم لم يبتلعوا عن طيب خاطر لقاحات التشرينات الالزامية ، ولا يمكن انكار حدوث تصدع وبرودة في كثير من الأحيان في علاقة الحكومة المركزية بالسلطات المحلية ، فلقد شب الصراع بين الطرفين باعتزازهما حقلين حديثي الإنشاء . وكان أحد الطرفين يتكلم بلغة الصحة الوطنية والمزية الوطنية والكفاية والاعظم ، بينما يستعمل الطرف الآخر مصطلحات المصالحات للتدنية وحق المحليات في اختيار قوافلها والاستقلال والحرية .

والقائمة في الجزء الثالث

المراجع

- J. Brand, *Doctors and the State : The British Medical Profession and Government Action in Public Health (1870-1921)*, 1965.
- W. Coleman *Death Is a Social Disease Public Health and Political Economy in Early Industrial France (1831-1932)* 1982.
- M. Durrey : *The Return of the Plague : British Society and the Cholera (1831 — 1832)*, 1979.
- J. Eyler, *Victorian Social Medicine : The Ideas and the Methods of William Farr (1975)*.
- S. E. Finer, *The Life and Times of Edwin Chadwick* 1932.
- T. Gelfand, *Professionalizing Modern Medicine. Paris Surgeons and Medical Science and Institutions in the Eighteenth Century (1990)*.
- R. Lambert, *Sir John Simon (1816-1904) and English Social Administration (1963)*.
- R. E. McGrew, *Russia and the Cholera 1823-1832 (1965)*.
- M. Pelling, *Cholera, Fever and English Medicine, 1825-1865. (1978)*.
- F. B. Smith, *The People's Health 1830-1910 (1979)*.
- F. B. Smith, *Florence Nightingale. Reputation and Power (1982)*.
- C.E.A. Winslow, *The Conquest of Epidemic Disease : A Chapter in the History of Ideas (1900)*.
- A. J. Youngton, *The Scientific Revolution in Victorian Medicine, (1979)*.

اقرأ في هذه السلسلة

- أحلام الاعلام وقصص أخرى
الالكترونيات والحياة الحديثة
نقطة مقابل نقطة
الجغرافيا في مائة علم
الثقافة والمجتمع
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
الارض الخامسة
الرواية الإنجليزية
المرشد إلى فن المسرح
كلية مصر
الإنسان المصري على الثقافة
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
للوهية القومية في السيلما العربية
مجموعات التقود
الموسيقى - تعبير نفسي - ومنطق
عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي
ديان توماس
الإنسان ذلك الإنسان الفرد
الرواية الحديثة
المسرح المصري المعاصر
على محمود طه
القوة النفسية للأهرام
فن الترجمة
تولستوي
مستدال
رسائل وأبحاث من القلي
الجزء والكل (مساوالت في مضمار
الغرياء الثرية)
التراث القامش ماركس والماركسيون
فن الالب الروائي عند تولستوي
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
أعلام العرب في الكيمياء
- برتراند رسل
ي . رادوتمكايا .
أليس هكسلي .
ت . و . فريمان
رايموند وليامز
و . ج . فوديس
ليمنر ديل رأى
والتر آلن
لويس فارغاس
فرانسوا توماس
د . قدرى حنى وآخرون
أولج فولكف
هاشم القناس
ديفيد وليام ماكغونالد
عزيز الشعلان
د . محسن جاسم الموسوي
أشرف س . بي كوكس
جون لويس
بول ويمنر
د . عبد المطلب شعراوي
أثور للمعداوي
بيل شول وانبييت
د . صفاء خلوصي
ولف ثي مالتو
فيكتور برومبير
فيكتور هوجو
فيرنر هيرتسبرج
سيفني هوك
ف . ج . انشكوف
مادي نعمان الهوتي
د . نعمة رحيم المزاري
د . فاضل أحمد الطائي

فكرة المرح

للمجيب

صنع القرار للمباني

القطر الحضاري للآثار

هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟

قريبة النواحي

الموتى وعالمهم في مصر القديمة

التصل والطيف

سبع معارك فاصلة في المصور الوسطى

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية لزاء

مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤

كيف تعيش ٣٦٥ يوما في لحظة

المصاحفة

الر الكوميديا الالهية لملكتي في الفن

التشكيلى

الآب الروس قبل الثورة البلشفية

وبعدها

حركة عدم الانحياز في عالم متغير

الفكر الأوروبي الحديث (١٩٠٠)

الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربي

١٨٨٥ - ١٩٨٥

التقنية الأمرية والإبقاء الصغار

تقنيات الفيلم الكبرى

مختارات من الآب القصص

الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد

حرب الفضاء

إدارة المصراعات النووية

الميكروكمبيوتر

مختارات من الآب الياباني

تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

كتابة السيناريو للمبتدئين

الزمن وقياسه

أجهزة تكيف الهواء

فرانزيس فوجون

هنري باروسى

السيد عطية

جاكوب برونووسكى

د. روجر ستروجلين

كاتي ثير

أ. سينتر

د. ناعوم بيتروفيتش

جوزيف دالموس

د. ليفور تشامبيرز وليث

د. جون شندلر

بيير اليير

المكتوب غريال وهبه

د. رحيمى موسى

د. محمد نعمان جلال

فرانكلين ل. بومر

شوكت الريمى

د. محيى الدين أحمد حسين

تأليف : ج. دافلى اندرو

جوزيف كونراد

مؤلفة من العلماء الأمريكيين

د. محمد أسعد عبد الرؤوف

د. السيد عطية

د. مصطفى عسانى

صبرى الفضل

جابريل باير

انطونى دى كرميتى

وكينيث هينوج

توليث سوين

زافيلسكى ف. من

إبراهيم القرشائى

الخدمة الاجتماعية والاضباط الاجتماعى سبعة مؤرخين فى المصور الوسطى

التجربة اليونانية

مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
العلم والطالب والمدرس

الشارع المصرى والفكر

حوار حول التنمية الاقتصادية

تبسيط الكمبيوتر

العادات والتقاليد المصرية

التنوع السينمائى

التخطيط للسياسة

البذور الكويتية

مرآة الشاشة (٢ ج)

الهرمين والايمن

صور افريقية

نجيب محفوظ على الشاشة

الكمبيوتر فى مجالات الحياة

المشروعات حقائق اجتماعية ونفسية

وظائف الأعضاء من الألف الى الياء

الهنسة الوراثية

تربية اسماك الزينة

كتب غيرت الفكر الاسلامى

الفلسفة وقضايا العصر (٢ ج)

الفكر التاريخى عند الاغريق

قضايا وملامح الفن التشكيلى

الثقافة فى البلدان النامية

بداية بلا نهاية

الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية

للكون

حوار حول النظامين الرئيسيين

الإرهاب

اختلاوتون

بيتر رداى

جوزيف داهموس

س * م بورا

د * هاشم محمد رزق

رونالد د * سمبسون

و فورمان د * لندرسون

د * اتور عبد الملك

والث رومستو

فرد * س * هيس

جون بوركهارت

الان كاسبيار

سامى عبد الحظى

فريد هويل

شاندرا ويكراما ماسينج

حميد حلمى المنعم

روى رويرتسون

دوركاس ماكلينتوك

هاشم النحاس

د * محمود سرى طه

بيتر لوى

يورى فيدوفيتش ميرجيف

ويليام بينز

ديفيد اندرتون

أحمد الشنوانى

جميعها : جون * د * بور

وميلتون جولد ينجر

ارنولد تويى

د * صالح رضا

م * ه * كنج وآخرون

جورج جاموف

د * السيد طه ابو منيرة

جاليلى جاليلى

أريك موريس * الان هو

سيريل الفريد

للقبيلة الثالثة عشرة

للتوافق النفسي

للنخل الليبولوجرافي

لقصة المصورة

للثورة الإصلاحية في اليابان

للعالم الثالث غدا

للتقاضي الكبير

لتاريخ القصور

للتحليل والتوزيع الأوركسترافي

للشاهزادة (٢ ج)

للحياة الكريمة (٢ ج)

لكتابة التاريخ في مصر ق ١٩٠

لقيام الدولة العثمانية

للعثمانيون في أوروبا

لمختارات من الآداب الآسيوية

للتحليل للسبيلما والتكليفزيون

لسقوط الممر

لصناع الخلود

لليل لتظيم الخائف

لكتب غيرت للفكر الإسلامي (٢ ج)

للمعلمة الصليبية الأولى

لرواد الفلسفة الحديثة

لجماليات فن الإخراج

للكنائس القبطية (٢ ج)

لكراتيم زواتشت

لآثر كيسيستر

لأولمبوس ١٠ مارس

لمجموعة من الباحثين

لروي أرمن

لناجاي مقشيد

لأول هاريسون

لميكائيل ألبس

لجيمس لفلوك

لفيكتور مورجان

لأعداد محمد كمال لسماعيل

لأفردوسى الطوسى

لبيرتون بورتر

لجك كرابس جونيور

لمحمد فؤاد كويرلى

لأول كونر

لأختيار وأعداد صبرى الفضل

لأولى بار

لأدين جورديس وآخرون

لموديس بيريراير

لأدامز فيليب

لأحمد الشنوانى

لأونانز ويل سميت

لريتشارد شاختر

لأيممونت هينر

لأحمد ج ٠ ج ٠ بتر

لأعداد د ٠ فيليب عطية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١-٣٥ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3603 — 4

استدراك

| ص | المسفر | الخطأ | الصواب |
|-----|--------|-------------------------------|--|
| ١٢٦ | ٢٢ | ولت المحامي | ولقت المحامي |
| ١٤٢ | ٥ | محاولة للوصول | محاولة للحصول |
| ١٧٧ | ٢٥ | القرن الثاني عشر | القرن الثامن عشر |
| ١٨٨ | ١٦ | استهلال كولمان الذي سجله | استهلال كولمان سجله |
| ٠٠٠ | ٢٣ | وقال الاكليروس | وقام الاكليروس |
| ٢٠٠ | ٦ | وشرلي لاتفجى ويورج | وشعرت لاتفج ويورج |
| ٢٠٧ | ٢ | من نهاية الصفحة القس المستورى | المستورى جمعية ابرائيلية فى القليم ليموج |

مازلنا نكتب التاريخ على النحو التقليدي، أي في صورة أحداث متعاقبة، فيما يدعى بالكرونولوجي أو الحوليات.

وقد تطورت الكتابة التاريخية منذ بداية القرن التاسع عشر وظهرت مدارس متعددة ومتنوعة ما زال أثرها واضحاً في مصر. وقد جمع المؤلفان مجموعة من المقالات التاريخية التي تمثل التاريخ من شتى جوانبه.

ومن الموضوعات التي يتناولها هذا الجزء :

إندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية

الحكم القروي للويس الحادي عشر

بمرد القوزاق وحرب القلاطين في روسيا

وسائل التسويق في السوق الدولية

المرأة عملها وأسرتها في أوروبا القرن التاسع عشر